رحلة إلى جنوب سيبيريا

المغول و ديانتهم و أساطيرهم

جيرمايا كيرتن



ترجمة وتقديم

د. عدنان خالد عبد الله





نبذة عن المؤلف:

جيرمايا كيرتن (1838 - 1906) كان عالماً لغوياً ومترجماً وكاتباً ودبلوماسياً ومغامراً وعالم فلكلور وعالماً بأجناس البشر. تعلم لغات ولهجات عديدة حتى قيل إنه أتقن أكثر من ستين لغة ولهجة، وتكلم كل لغة من لغات أوروبا بطلاقة علاوة على العديد من اللغات الآسيوية، ومن أهمها الألمانية والسويدية والإيطالية والهنغارية والروسية والعربية والسنسكريتية والأيسلندية والفنلندية واللغة الغيلية. ومن كتبه المشهورة أساطير وفلكلور إيرلندة (1890) والتطور العقلي للبشرية (1898)، ومصر والنيل (1899)، تـاريخ المغول (1908)، والمغول في روسيا (1908)، ورحلة إلى جنوب سيبيريا: المغول، ودياناتهم، وأساطيرهم(1909) الذي نضعه بين يدي القارئ العربي في أول ترجمة عربية دقيقة وكاملة ومزدانة بالصور الفوتوغرافية التي التقطها الكاتب نفسه.



رحلة إلى جنوب سيبيريا
المغول وديانتهم وأساطيرهم

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

رحلة إلى جنوب سيبيريا
جيرمايا كيرتن

الطبعة الأولى 1430 هـ 2009 م

DK755.C912 2009
Curtin, Jeremiah
[A Journey In Southern Siberia: The Mongols, Their Religion And Their Myths]

رحلة إلى جنوب سيبيريا: المغول وديانتهم وأساطيرهم/ تأليف جيرمايا كيرتن؛ ترجمة وتقديم عدنان خالد عبد الله. - ط.1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.

312ص؛ مص: 24x17 سم.

تدمك: 978-9948-01-421-1

1 - سيبيريا (روسيا) - وصف ورحلات. 2 - المغول - الفولكلور.

أ - عبد الله، عدنان خالد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Jeremiah Curtin, A Journey In Southern Siberia:
The Mongols, Their Religion And Their Myths



كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae

ص ب 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف 468 6314 2 971+ . فاكس 462 6314 2 971+



www.adach.ae

ص ب 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف 300 6215 2 971+ . فاكس 059 6336 2 971+

رحلة إلى جنوب سيبيريا

المغول وديانتهم وأساطيرهم

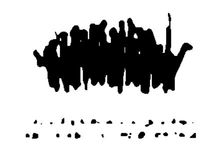
تأليف

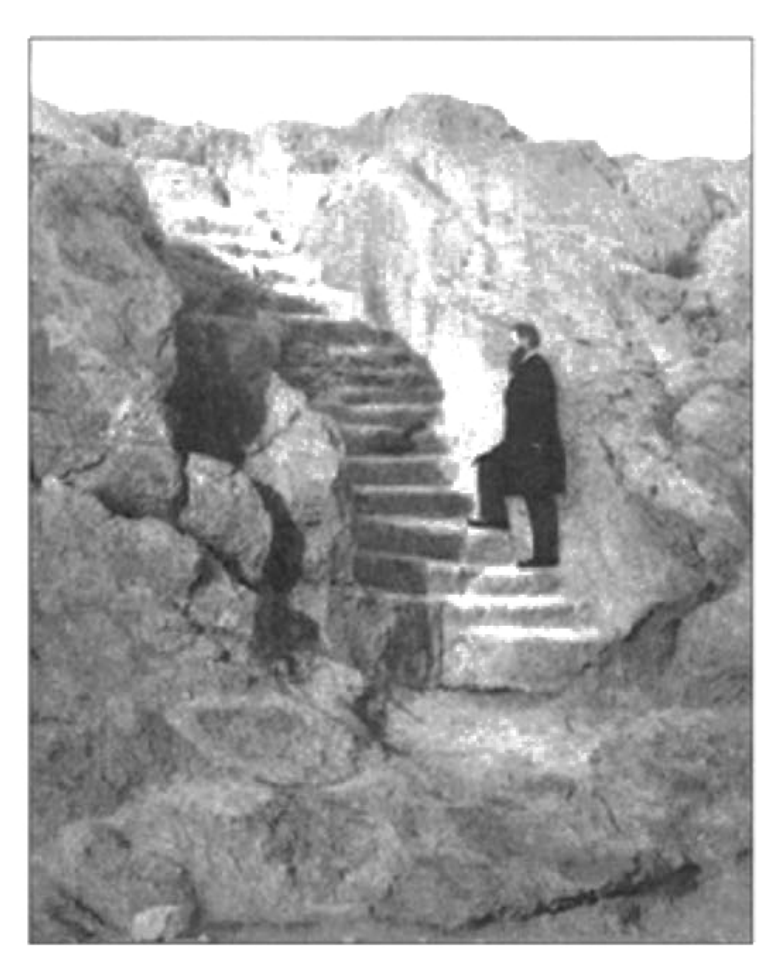
جيرمايا كيرتن

ترجمة وتقديم

د. عدنان خالد عبد الله







مؤلف الكتاب وهو يصعد درج (مارس هل) إلى الموضع
الذي خاطب فيه القديس بولص أهالي أثينا

إهداء

استناداً إلى رغبة المؤلف،

يهدي هذا الكتاب إلى

صديقه الغالي السير ويليام فإنّ هورن

المحتويات

توطئة

حصل جيرامايا كيرتن على شهادة البكالوريوس في الآداب من كلية هارفرد عام 1862. وقد كان طالباً في آخر صف قمت بتدريسه في مادة الرياضيات عندما كنت أستاذاً مساعداً. وقد وجدت الشاب كيرتن شخصاً غير عادي من حيث المظهر والقدرات العقلية ومثيراً للاهتمام. وقد كان باحثاً جيداً على العموم. ويمتلك قدرات استثنائية لتعلّم اللغات. ويذكر في سيرته الذاتية (غير المنشورة)(*) بأنه قبل دخوله كلية هارفرد بسبعة أشهر ونصف لم يكن يعرف كلمة واحدة من اللاتينية أو الإغريقية. ولكن في امتحان القبول أظهر معرفة تزيد عما هو مطلوب في كلتا اللغتين. وقبل وفاته في عام 1906، كان قد أتقن أكثر من ستين لغة ولهجة. وتكلم كل لغات أوروبا بطلاقة. علاوة على العديد من اللغات الآسيوية. وقد عمل أميناً للسر في المفوضية الأمريكية في روسيا بين الأعوام 1870 - 1874 حيث شغل منصب نائب القنصل عام سنة واحدة من عام 1865 - 1866.

وقد التحق بمكتب الأعراق البشرية في معهد سميثسونين من 1882 - 1891 ثم كلفه ذلك المكتب من حين لآخر بمهام خاصة.

وفي سيبيريا أثناء المرحلة التي يصفها في هذا الكتاب. درس لغة البورات بمساعدة شخص بوراتي يتكلم الروسية. وعلى الرغم من الصعوبة الفائقة التي تكتنف تعلم لغة غريبة دون الاستعانة بكتب. فإنه أنجز تلك المهمة في بضعة أسابيع. وعندما بلغ عامه الستين عاماً استطاع أن يتعلم لغة جديدة وبالسرعة نفسها عندما كان طالباً في هارفرد. وكان يطلّع على كثير من الدراسات الغزيرة عن الأساطير والحكايات الفلكلورية. وعندما كان كيرتن يتعلم لغة قوم ما، كان يرغب في تعلم تاريخ وإنجازات وأساطير وفلكلور هذه الأقوام ومعتقداتهم الدينية وعادات الناس الذين يتكلمون تلك اللغة. ومن هنا نتجت معرفته الكبيرة من خلال ترجمته لكتاب "إلى أين أنت ذاهب؟" من اللغة البولندية وثمانية مؤلفات أخرى لهنري ساينوكوز. وقد نشر ترجمات قيمة من الروسية والبولندية.

---

* نشرت المذكرات الجمعية التاريخية لولاية وسكنسن في عام 1940. (المترجم).

وقد قام في التاسع عشر من يوليو / تموز والخامس عشر من سبتمبر / أيلول من عام 1900 برحلة إلى جنوب سبيريا، وهي موضوع هذا الكتاب. وكان هدفه هو زيارة مسقط رأس العرق المنغولي وأن يشهد بنفسه أصول شعب مهيمن وصموده وهو الذي أخضع الصين وحكمها في زمن ما، ودمّر روسيا وغزا بورما وأراضي أخرى في الهند، واكتسح بلاد فارس واستقر في أسيا الصغرى والقسطنطينية، وغطّى هنغاريا بالدم والرماد. وهكذا احتل في فترات زمنية مختلفة معظم آسيا وجزءاً كبيراً من أوروبا.

والبورات هم بقايا المغول في أيامنا هذه، الذين يسكنون شواطئ بحيرة بايكال جزيرة "أولخون" وهي والجزيرة الوحيدة هناك. وبحيرة بايكال هي أكبر تجمّع ماء عذب في العالم القديم. وقد انحدر جنكيز خان وتيمورلنك من مناطق تقع جنوب بحيرة بايكال، وهما أعظم شخصيتين في التاريخ المغولي.

يستهل كيرتن الكتاب بوصف موجز للسمات والتضاريس الطبيعية لسيبيريا وتاريخها، وهي بلاد مغمورة وموحشة، وتغطي تسع مساحة السطح القاري للعالم تقريباً. ثم يصف المؤلف رحلته إلى جنوب سيبيريا بالتفصيل، إضافة إلى البيئة والمؤسسات والصراعات ونمط حياة البشر الذين التقاهم بأسلوب أخّاذ وإدراك فلسفي.

وقد كرس كيرتن جزءاً كبيراً من الكتاب بعادات البورات وتقاليدهم مثل الاحتفالات بولادة طفل والزواج والمرض وطقوس دفن الموتى. ثم عالج أصول الشامان أو الكهنة والأشجار والبساتين المقدسة وآلهة البورات.

وقد دوّن المؤلف الأساطير المتعلقة بالدين المغولي، كما سمعها بنفسه شفاهة من أشخاص بوراتيين أحياء. ويختتم الكتاب بمجموعة من الحكايات الفلكلورية. إن هذا الكتاب هو كتاب فريد من نوعه، لم يكن بوسع أي شخص غير عالم باللغات وباحث أن يكتبه. وقد كانت عملية جمع المعلومات من أجل تأليفه شاقة جداً. وكانت الرحلة ذاتها مضنية وصعبة. حيث إن المعرفة اللغوية والتاريخية والأنثروبولوجية المطلوبة لتأليف هذا الكتاب لم يحرزها باحث وَحْدَه من قبل قط.

وقد انتهى المؤلف من إنجاز مخطوطة كتابه قبل بضعة أشهر من وفاته، ونشر بعد وفاته دون الاستفادة من تنقيحاته وتصويباته.

تشارلز و. إليوت(**)

أكتوبر 20، 1909

** رئيس جامعة هارفرد بين الأعوام 1909-1869 . يعزى اليه الفضل في اجراء تغييرات واصلاحات مهمة على الجامعة وجعلها من أهم المؤسسات التعليمية في العالم. (المترجم).

تقديم

ينتمي هذا الكتاب إلى تلك الحقبة الزمنية التي كان فيها الكتّاب والباحثون موسوعيين ويحيطون بجملة من المعارف، علاوة على تخصصاتهم الضيّقة. فقد تخرّج المؤلف في جامعة هارفرد في عام 1863. وعيّن أمين سر البعثة الأمريكية، ثم قنصلاً في روسيا. وعلى مدى ثلاثين سنة، سافر ودرس وكتب عن بلدان وثقافات وشعوب عديدة. وبسبب عمله كموظف في مكتب الأعراق البشرية في واشنطن فقد درس لغات الهنود الحمر الأمريكيين بين الأعوام 1883 - 1891 وخصوصاً قبائل الأيروكا والمودوك واليوشي والشواني...الخ. وحيثما حلّ في أرجاء المعمورة، كان اهتمامه الأساسي لغات تلك البلاد التي يرتحل إليها وثقافاتها وحكاياتها وأساطيرها، حتى قيل إنه أتقن سبعين لغة.

وقد قادته اهتماماته اللغوية إلى دراسة الشعوب والقبائل البدائية وأساطيرها ونشر هذه الدراسات في إثني عشر جزءاً. علاوة على ذلك، قد ترجم عدداً كبيراً من الأعمال المهمة لكتّاب عظام من أمثال غوغول وزاغوسكين وليو تولستوي. من اللغات السلافية (الروسية والبولندية... الخ). وربطته صداقة وثيقة بكاتب بولندي اسمُه هنري ساينكوفر فترجم له عدداً كبيراً من الروايات والقصص والأشعار إلى اللغة الإنجليزية.

وكاتبنا جيرمايا كيرتن (1838 - 1906) الذي كان عالماً لغوياً ومترجماً وكاتباً ودبلوماسياً ومغامراً وعالم فلكلور وعالماً بأجناس البشر. أتقن لغات ولهجات عديدة، من أهمها الألمانية والسويدية والإيطالية والهنغارية والروسية والعبرية والسنسكريتية والأيسلندية والفلندية واللغة الفيلية. ومن كتبه المشهورة "أساطير إيرلنده وفلكلوره" (1890) وحكايات الجّنيات وعالم الأرواح (1895). وأساطير الخلق عند الأمريكيين البدائيين (1898). و "حكايات الأبطال في إيرلنده" (1894). و "في مناطق الهنود" (1894) و "رحلة في إيطاليا" (1894) و "بداية المغامرة في غواتيمالا" (1896) و "التطور العقلي للبشرية" (1898). و "مصر والنيل" (1899) و "تاريخ المغول" (1908) و "المغول في روسيا" (1908 و "رحلة إلى جنوب سيبيريا:

المغول، وديانتهم، وأساطيرهم" (1909) وهو الذي نضعه بين يدي القارئ العربي في أول ترجمة عربية دقيقة وكاملة ومزدانة بالصور الفوتوغرافية التي التقطها الكاتب نفسه.

والكتاب عبارة عن موسوعة كبيرة تضم جهد سنوات من البحث المضني والسفر الشاق ومتاعب التنقّل في الصحراء الجليدية. وموضوعه هو الشعب المغولي أو المنغولي، وهو شعب كان له تأثير عظيم على البشرية وعلى مسيرة الثقافة والحضارة في بلدان عديدة، ولعلنا في هذا الجزء من العالم لم ننسَ ما ارتكبه أجدادهم من جنكيز خان وتيمورلنك وهولاكو وغيرهم من قادة المغول من قتل وتدمير وهلاك، لا بل إنهم أوقفوا مسيرة حضارات بأكملها ودمروا حضارات أخرى تدميراً كاملاً. ومثال ذلك إحراقهم لهنغاريا عن بكرة أبيها وتدميرهم لبغداد عاصمة الثقافة العربية والإسلامية آنذاك، وغيرها كثير من الإمبراطوريات والدول والمدن والثقافات. وكان شغف فؤادهم بالقسوة والوحشية والتنكيل والدمار يفوق الوصف ويستعصي على الفهم. وكان التحضّر والرقيّ والثقافة عدوهم اللدود، وانطلقوا في أرض الله الواسعة فعاثوا فيها قتلا وتدميراً وفساداً. لم يرحموا بشراً أو حيواناً أو نباتاً أو كتاباً.

والفكرة الرئيسة المستقاة من هذا الكتاب هي أن هناك علاقة وثيقة بين اللغة والفلكلور وكذلك بين اللغة والحضارة. فتردّي إحداهما يؤدي إلى فساد الأخرى والعكس صحيح أيضاً. وفي نتاجه الغزير ومن خلال رحلاته المتعددة يدلي الكاتب بمساهمات فكرية تثري عقل القارئ وتفتح آفاق المعرفة لديه، فيشعر بأنه يقوم معه بتلك الرحلات. ولا أدل على ذلك من هذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القارىء الكريم، وهو آخر ما أنتجه هذا الكاتب قبل وفاته، ولم يتسن له حتى مراجعة النص بعد طباعته.

على أننا ينبغي ألاّ ننسى أن جيريميا كيرتن ينتمي إلى القرن التاسع عشر وثقافته، وهي الثقافة الأنجلوسكسونية التي ارتبطت بالاستعمار وبالإحساس بالتفوّق العقلي أو الفكري على بقية شعوب العالم. فكاتبنا في جميع رحلاته يتأفف ويشتكي ويتذمر من الناس العاديين ومن قذارتهم ومن ملابسهم ومن طعامهم، وهو عيب خطير يؤثر في موضوعيته وقدرته على نقل الوقائع بتجرد، ولكن هذا لا يقلل من قدرته على وصف الشعوب التي يدرسها أو يدرس عاداتها أو ثقافتها أو تراثها العقلي من أدب وفلسفة وفلكلور وأساطير. فشعوره بأنه ينتمي إلى ثقافة مركزية تجعله يزدري الثقافات الهامشية، وهو موقف فكري تبنّاه معظم الكتّاب الأنجلوسكسونيين في القرن التاسع عشر، إن لم يكن كلهم. وعلى الرغم من هذا كله، لا ينبغي أن نغمط بعض هؤلاء الكتّاب والمؤلفين إنجازاتهم في مجالات المعرفة المختلفة، ولعلّ الاستشراق هو أحد هذه المجالات التي لعبوا فيها دوراً كبيراً، على الرغم مما يكتنفه من إشكالات ومعضلات.

وهذا الكتاب يصف رحلته في سيبيريا، حيث تعلم لغة البورات بمساعدة شخص بوراتي يعرف اللغة الروسية، وعلى الرغم من أنه تجاوز الستين من عمره إلاّ أنه تعلم لغة البورات وأتقنها في بضعة أسابيع. ولا ريب أن ذكاءه الوقّاد وحافظته القوية مكنتاه من ذلك الإنجاز الفريد. ومما يحسب له أنه عندما يتعلم لغة قوم ما كان يتعلم تاريخ البلد وإرثه الفكري وعاداته (وهو ما فعله أيضاً عندما كتب عن مصر، حيث تعلم العربية ودرس تاريخ مصر وتراثها والدين الإسلامي، وكيفية تفاعل هذه العوامل جميعاً لتخلق الفرد المصري المعاصر).

في عام 1900، انطلق جيرمايا كيرتن إلى جنوب سيبيريا بحثاً عن بقايا قوم أخضع الصين برمتها لسطوته ودمر روسيا، وقهر بورما ومناطق عديدة شرق الهند، واكتسح بلاد المسلمين وأعمل السيف في العباد والبلاد، ودمر بلداناً عديدة في آسيا وأوروبا، واستقر في آسيا الصغرى والقسطنطينية.

والبورات أو البوراتيون هم بقايا المغول الذين يتخذون من مناطق على شواطئ جوانب بحيرة بايكال موئلاً لهم، ومن الجزء الجنوبي من هذه البحيرة برز أعظم اسمين في تاريخ المغول وتراثهم، وهما جنكيز خان وتيمورلنك.

ويستهل المؤلف الكتاب بوصف لأرض البورات ومناطق سكناهم وتاريخهم وعاداتهم ومأكلهم ومشربهم وديانتهم البدائية وكهنتهم أو عرّافيهم أو رجال دينهم الذين يطلق عليهم «الشامان»، علاوة على ذلك، يعالج المؤلف عادات الزواج ومراسيم ولادة الأطفال، وما يفعل البورات عند المرض، ويسهب في الحديث عن طقوس دفن الموتى عندهم. وأخيراً يكرّس الجزء الأكبر من الكتاب لأساطير البورات وحكاياتهم وفلكلورهم.

وهذا الكتاب هو عمل استثنائي بكل المقاييس، وخصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أن المؤلف اعتمد على الرواية الشفاهية والسفر شخصياً إلى أرض البورات مع كل ما واجهه من صعوبات وعنت ومشقة، حتى توفي وهو لم يرَ نتاج جهده مطبوعاً. على أننا ينبغي ألاّ ننسى زوجته ودورها في عمله، فهي أيضاً كانت باحثة ومغامرة وجوالة كزوجها، وكانت تعمل أكثر من خمس عشرة ساعة يومياً في تحرير وتنقيح وتصحيح أوراقه وكتاباته وجذاذاته، وخدمته بإخلاص وتفانٍ حتى بعد وفاته حيث تولت تحرير وتصويب وطباعة مجموعة من الكتب والمذكرات التي تركها زوجها ومن ضمنها هذا الكتاب الذي بين يدينا.

يمثل هذا الكتاب مساهمة علمية جادة وبعيدة المدى لشعب فقد ماضيه وخسر إمبراطورية

مترامية الأطراف كان لها تأثير مدمر على البشرية جمعاء. والآن انزوى في بقعة نائية لا يملك من دنياه غير أساطيره وحكاياته. وحسناً فعل القائمون على مشروع «كلمة» بنقل هذا الكتاب إلى العربية. ففتحوا بذلك نافذة على شعب من شعوب العالم كان له دور مهم في تاريخ البشرية ثم انتكس وتراجع حتى أصبح مجرد قبائل منعزلة لا حول لها ولا قوة.

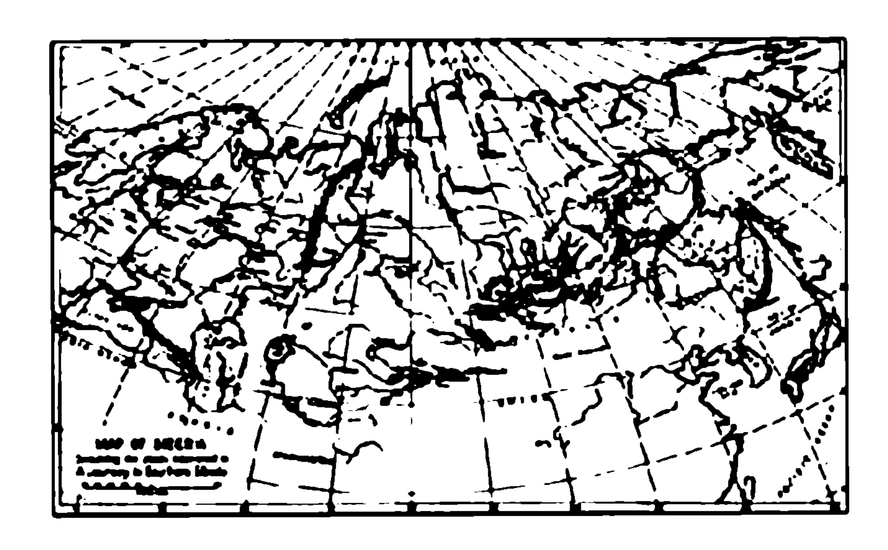
ولعلّنا نتعلم من نهوض الشعوب وأفولها شيئاً ينفع حاضرنا ومستقبلنا.

أ.د. عدنان خالد عبدالله

جامعة الشارقة

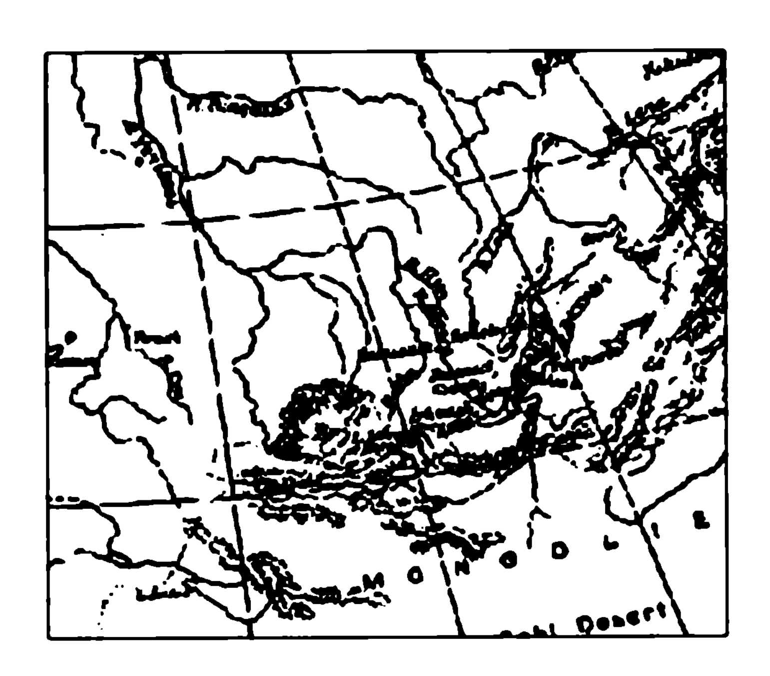
2009/8/2

قائمة بالصور التوضيحية



خارطة سيبيريا

تحتوي على الأماكن الجغرافية المذكورة في كتاب "رحلة إلى جنوب سيبيريا"



تفصيل لخارطة سيبيريا . بحيرة بيكال والمناطق المحيطة بها

الفصل الأول
منشأ النشاط المنغولي

يعالج هذا الفصل الأساطير والحكايات التي جمعتها عن البوراتيين، ومعتقداتهم، وطرق عبادتهم، وعاداتهم التي درستها من مصادرها الأصلية، ويطلق على البوراتيين بالمعنى الضيق «المغول». وهم يقيمون على ثلاثة أطراف من بحيرة بايكال، وكذلك في جزيرتها الوحيدة «أولخون». والمكان والناس جديران بالملاحظة.

تعد بحيرة بايكال أكبر مصدر للمياه العذبة في العالم القديم، حيث يبلغ طولها أكثر من أربعمائة ميل ويتراوح عرضها بين أربعة وعشرين ميلاً إلى ستة وخمسين ميلاً. وتبلغ مساحتها الاجمالية نحو ثلاثة الآف ميل مربع. والبوراتيون الذين يعيشون غرب هذه البحيرة،والذين يقطنون في جزيرة أولخون المقدسة،هم المغول الوحيدون الذين حافظوا على عرقهم ودينهم بأعرافه البدائية، واعتقاداته القديمة، وفلسفته، ولذلك فأنهم يمثلون شعباً يثير اهتمام العلماء والباحثين إلى حد كبير.

من الناحية التاريخية فإنّ منطقة بحيرة بايكال التي تحوي هذا المصدر الهائل من المياه تعد ذات أهمية عظمى، حيث انحدر من الأراضي الجبلية إلى جنوب البحيرة، تيموجين، الذي عرف لاحقاً باسم جنكيز خان، وتامرلن أو تيمور لنك (الرجل الحديدي الأعرج)، وهما أكبر شخصيتين عرفهما التاريخ المغولي.

وانحدر من سفّاحيَ البشر المذكورين المغول الذين أخضعوا الصين وروسيا تحت سيطرتهم، وكان من بين أحفاد جنكيز خان الكثيرين «قبلاي خان» الذي هيمن على الصين وبورما وأراضٍ أخرى من شرق الهند، وهولاكو الذي دمر بلاد فارس، واقتحم بغداد، وأنهى الخلافة العباسية، أما القائد الآخر فهو باتو الذي غطى روسيا بالدماء والرماد، ودمر هنغاريا وطارد ملكها حتى البحر الأدرياتيكي، وسحق القوات الألمانية وحلفاءها المتضامنين ضد المغول في لينغنتز، وعاد إلى منطقة الفولجا حيث أنشأ فيها مقره الرئيس.

وحكم أتباع جنكيز خان روسيا مدة قرنين وخمسة عقود. وسيطروا على الصين لمدة ثمانية وستين عاماً.

وبزغ مغول الهند باعتبارهم أنبغ من تيمورلنك وأعظم من جنكيز خان. وكان تاريخهم استثنائياً مع بزوغ نجمهم وأفول إمبراطوريتهم التي أسسوها.

وانحدر هذان الفاتحان من جد جنكيز خان العظيم «تمبيناي». لذلك اشترك الرجلان بالدم نفسه والأرض نفسها وهي منطقة جنوب بحيرة بايكال.

بدأت القوة المغولية مسيرتها بالقرب من بحيرة بايكال وانتشرت حتى غطت آسيا أو معظمها وجزءاً كبيراً من أوروبا وواصلت اجتياحها حتى دمرتها روسيا وإنجلترا. وكان تاريخ هذا الصراع ذا تأثير عالمي. ويستحق الدراسة المتمعنة والتي من المؤكد أن تنجز في وقت قريب.

وعندما خسر أتباع جنكيز خان الصين.بقيت لهم روسيا وهي المستعمرة الوحيدة. وبعد ما حكموها لمدة مائتين وأربعة وأربعين عاماً نزعت منهم عنوةً.

واجتمع كبار المغول. الذين كانوا يحكمون الهند وأحفاد تيمورلنك مع بريطانيا العظمى. ومن نتائج هذا الاجتماع أن جردوا من إمبراطوريتهم.

يمثل الغزو البريطاني للهند وأساليبه عهداً جديداً في التاريخ. وهو عهد الاجتياح التجاري. عهد «الطبال» في السياسة. ذلك الطبال الذي يمتلك الكفاءة السياسية. وعند الحاجة يستخدم السيف البارد وقنابل المدفعية الحارقة بالإضافة إلى السلع والبضائع التي يقدمها.

ولم يتوقع كبير المغول ومستشاروه خطراً من هذا الرجل الإنجليزي. واعتبروه في البداية بائعاً متجولاً كادحاً يتجول بين المنازل الريفية الكبيرة البعيدة عن المدن. ولكن هذا الرجل كان فاتحاً حقيقياً على الرغم من أنه يبدو ضئيل القيمة.

وبالتأكيد لم يتمكن كبير المغول «جهارغير» من رؤية القادة العسكريين الإنجليز مثل «هوكنز» و «رو» الذين سيخلفون قادة آخرين من وزن «كلايف» ووورين هيستنغز» وآخرين غيرهما الذين سيسلبون من المغول ثروتهم و كل شئ ذي قيمة كالأرض والسلطة والكنوز.

وألغى البريطانيون الحكم المغولي في الهند لأنه لم يتفق مع أساليبهم وأهدافهم. وثار الروس على الهيمنة المغولية وسَحَقُوها لأنها كانت أجنبية وجائرة ومكروهة. وببساطة حرر الروس أراضيهم من الأجانب. وكان الصراع في روسيا يسمى بالوطنية. وتحقق من خلال التضحية والكفاح بمختلف الأساليب.

وهناك تاريخ مغولي ثالث أثر بشكل كبير على القائدين التاريخين اللذين ذكرناهما. وأصل هذا التاريخ يكمن في بحيرة بايكال، مع أنه غير مباشر. فعندما طارد جنكيز خان الشاه محمد حاكم خوارزم حتى مات في جزيرة في بحر قزوين، فرت مجموعة من الأتراك أو المغوليين الغربيين قبله، ووجدوا لهم مَلْجأً في آسيا الصغرى. وأثبتوا أن الوقت في صالحهم. فقد حاربوا واستولوا على أراضٍ، وازدهروا ونموا نمواً عظيماً، كما تنمو كرة الثلج المنحدرة من سفح جبل، حتى فازوا بالامبراطورية التي أسسها قسطنطين.

وأصبحت هذه المجموعة المغولية التي تتكون من أربعمائة وأربع وأربعين أسرة تعرف باسم العثمانيين. وبعد تدمير الخلافة في بغداد أصبحوا ورثة محمد، وباتوا خطراً يهدد أوروبا.

وبمرور الوقت ضعفت قوتهم، وأصبحت بريطانيا الدافع الرئيسي والداعم الأكبر للمغوليين الغربيين. وأضحت روسيا عدوهم اللدود. وتحول أتباع تيمورلنك من اللصوص والقتلة في الهند الحلفاء الناشطين للمغول في البوسفور، والعدو اللدود لروسيا التي طردتهم من مملكتهم في شمال أوروبا.

ولو لم يقدر لجنكيز خان أن يحيا، لما تَرَكَ الأتراك، أو المغول الغربيون الذي عرفوا بالعثمانيين لاحقاً، قارة آسيا ولما حكموا البوسفور.

لعب المغول دوراً كبيراً في الماضي، وحملوا في سرائرهم اللغز العظيم للمستقبل، وهو لغز ذو أهمية عظيمة لكل البشر. ومنبت هذا اللغز هو منطقة جبلية جنوب بحيرة بايكال. وفي ضوء ذلك قمت بزيارة المنطقة الوسطى لسيبيريا حيث نشأت عائلة جنكيز خان.

وأعتقد أنه من الأفضل أن أعطي لمحة موجزة عن سيبيريا، البلد الذي يغطي مساحة أربعة عشر مليوناً ونصفَ مليون كيلومترٍ مربعٍ. ويقدر هذا بتُسع مساحة العالم الكلية، والتي عند معظم القراء هي أرض عجائب غير معروفة وغير محدودة، وقاتمة وقارسة البرودة. وسأقوم بذكر بعض الأحداث الرئيسة في تاريخ هذا البلد وصولاً إلى الزمن الذي قام فيه البوراتيون بالاعتراف بالسلطة الروسية.

وعلى الرغم من أن الاسم «سيبير» ظهر أول مرة في سجلات تاريخ روسيا في عام 1407 إلاّ أن الروس عرفوا ذلك البلد الواقع شرق جبال الأورال قبل ذلك بكثير. وزار الأمراء الروس جنوب سيبيريا في منتصف القرن الثالث عشر حيث أجبروا على مبايعة الخان الأكبر في كاراكوم، عاصمته الأولى التي لا تبعد كثيراً عن جنوب بحيرة بايكال.

عرف تجار (نوفجورد) غرب سيبيريا في أوائل القرن الحادي عشر. وكانت لديهم تعاملات تجارية مع سكان المنطقة التي أسموها بـ (يوجريا) أو (أوجري). وهؤلاء السكان كانوا يمتلكون أنواعاً مختلفة من الفراء للمقايضة. ومن بين مختلف مصادر الدخل المتوافرة في نوفجورد كانت مقايضة الفراء هي الأكبر والأسخى في تلك الأيام. والأرض الواقعة بين (نوفجورد) وجبال الأورال. ومن فولجا إلى المحيط المتجمد كانت محمية واسعة وهائلة لصيد الحيوانات من أجل فرائها.

وكان لبس الفراء في العصور الوسطى شائعاً جداً. وارتدى الفراء كل من كان يملك القدرة على شرائه. ولبس الأثرياء عباءات ومعاطف مصنوعة من أغلى أنواع الجلود. وكانت نوفجورد العظيمة تزود كل أوروبا بالفراء في ذلك الوقت لكي يرتديها كل من يود شراءها. وهذا الطلب جعل نوفجورد تهيمن أو تستعمر في بعض الأحيان أماكن تقع إلى الشمال أو الشرق من منطقتها.

وفي بادئ الأمر كانت الحيوانات ذات الفراء متوافرة بكثرة في الأراضي التابعة لنوفجورد. ومع مرور الوقت تقلصت أعدادها في المناطق الغربية. وبحث الصيادون عن الحيوانات في غابات كاما. وبيتشورا. وشمال دوينا. بالإضافة إلى الجداول التي تصب في تلك الأنهار.

وكان الحصول على الفراء يتم بطريقتين. الأولى هي الجزية. والثانية هي مقابل البضائع المقدمة للسكان الأصليين. وأرسلت حكومة نوفجورد جامعيها في فترات. وكانوا يأخذون الجزية عن طريق الدفع بالفراء عادة. أو بالأحرى دائماً. وقصد التجار القطب الشمالي من أماكن عدة قرب الفولجا. وحصلوا على زيت الحوت وزيت حصان البحر. وأنياب حصان البحر. والحيوانات البحرية والقار. والبوتاس. ولكن الفراء كان أكثر مادة ذات قيمة تجارية. كما حصل هؤلاء الناس على الفضة من (بيرم). والتي كان مصدرها من مناطق أبعد من جبال الأورال والتي سميت آنذاك بـ «الحزام الحجري».

وعلى الرغم من أن المنطقة التي تقع غرب الجبال كبيرة المساحة. إلاّ أن المنطقة التي تقع إلى شرق هذا الجبال كانت أكبر بكثير. وكانت أغنى بالفراء ذي الجودة العالية والمعادن الرئيسة بالإضافة إلى الذهب والفضة.

وعندما أصبحت المناطق غرب الجبال معروفة لجامعي الجزية والتجار. بدأ الرجال يبحثون عن الثراء في المناطق الشرقية من هذه الجبال. وامتدت شهرة هذه الأرض الشرقية حتى شملت جميع مناطق روسيا الشمالية. وفي عام 1032 أرسلت نوفجورد بعثة إلى "البوابات

الحديدية" وهي معبر في أورال يوصل إلى يوجريا. وفشلت هذه البعثة التي سحقها السكان الأصليون. وعاد القليل منهم إلى نوفجورد. ولكن معظمهم هلك هناك.

وفي عام 1096 . بعد البعثة الأولى بأربعة وستين عاماً. واستناداً إلى نصٍّ في سجل «أحداث نستور» فإنّ تاجراً من نوفجورد يعرف باسم روجوفيتش بعث رجلاً إلى بيتشورا. حيث دفع سكانها الجزية. واتجه بعدها إلى يوجريا وهي منطقة تقع في جبال شاهقة تعانق السحاب. كان سكانها منعزلين والمدخل الوحيد لها هو ممر ضيق بين هذه الجبال. وفي هذا الممر كان هناك رجال يقومون بالحراسة ويتكلمون من وقت لآخر. ولكن لا أحد يفهم ما يقولون. وإذا أظهر أي شخص سكيناً أو فأساً كانوا يرحبون بمقايضته بالفرو. وكان اليوجريون محجوزين في هذه المنطقة على يد الإسكندر المقدوني. وفي طريقه إلى بحر يسمى بـ «موضع الشمس» اكتشف الاسكندر هؤلاء الناس. ورأى قذارتهم المزرية. ولا يدفنون موتاهم. ويأكلون الأفاعي والذباب. وكل ما هو قذر. وخشي أن يزيد عددهم ويلوثوا العالم بأسره بعاداتهم القذرة. لذا قادهم إلى ركنٍ معزول وسيَّجه من الشمال الشرقي تسييجاً محكماً. وطلب من رب العالمين أن تضيق الجبال على اليوجريين. وهذا ما حصل. ومع هذا لم تعانق الجبال بعضها بَعْضاً وبقي بينها اثنتا عشرة ذراعاً. وتشكلت هناك بوابة مصنوعة من البرونز لا تحرق بالنار ولا يخترقها الحديد».

ولوحظت مدونة في سجلات تاريخية تعود لعام 1114 بأن «رجالاً كباراً في السن شاهدوا غيمة تلامس الأرض وخرجت منها حيوانات ذات فراء. وانطلقت الحيوانات إلى تلك البلاد بأعداد كبيرة. وهبطت غيمة أخرى وخرجت منها الأيائل».

وتشبه هذه الحكايات قصص الهنود على ساحل المحيط الهادئ. التي تروى حكايات عن حيوانات تنزل من السماء عند قبائل تقطن على ضفاف نهر كلامث. ولديّ شخصياً العديد من هذه الأساطير التي دونتها في كاليفورنيا. وبدون أدنى شك فإنّ هذا التقرير الموجود في سجلات نيستور التاريخية هو أسطورة سيبيرية أعطيت إلى أحد الروس ورواها وكأنما كان هو شاهد عيان. أو الذي نقلت عن لسانه.

وقرب نهاية القرن الثاني عشر. دفعت يوجريا الجزية لنوفجورد. على الرغم من مقاومتها في البداية حيث قتل مائة شخص غرب الجبال أثناء جمع الجزية. وفقدت مجموعة أخرى شرقي الأورال عدداً أكبر من الرجال في عام 1197.

وبعد عام 1264 أصبحت يوجريا ملكاً لجمهورية نوفجورد. وجمعت الجزية هناك. وفي

عام 1364 وصلت حملة شباب من نوفجورد، منهم أبناء بويرس، ومتطوعون، بقيادة ألكسندر أباوكموفيتش وسيتفان ليابي، إلى نهر أوب، وهو أحد هذه الأنهار الهائلة التي تطوق السهل الشاسع المسمى بغرب سيبيريا. وانقسموا هناك عند وصولهم إلى مجموعتين، حيث أبحرت المجموعة الأولى إلى مصب النهر، وقهرت القبائل إلى المحيط المتجمد جميعها، وأبحرت الثانية نحو منبع النهر، وأحرزت النجاح نفسه.

وبعد ثلاثة وأربعين عاماً، أو في عام 1407، قُتِل توهتامش في «سيبير»، وهو الرجل الذي كان سابقاً خاناً لعشائر المغول المسماة «بالمجموعة الذهبية» وهو الذي دمر موسكو وأحرقها، التي كانت آنذاك مدينة تقع على ضفاف ايرتز وعلى بعد فراسخ من نقطة التقائها بتيبول. واستخدم الاسم «سيبير» حينها لأول مرة، كما يعلمنا السجل التاريخي.

وفي عام 1446، شُنت حملة جديدة على سيبيريا، ولكنها فشلت، ويبدو أنها كانت آخر حملة أرسلتها نوفجورد. وبعد تسعة عشر عاماً، أمر إيفان (الرهيب) من موسكو والذي سمي فيما بعد بـ «غازي حاكم نوفجورد» القائد فاسيلي سكرابيا بإخضاع يوجريا. وتم ذلك كما بدا لفترة وجيزة، عندما جُلب أميرا يوجريا كالباك وتيكتش إلى موسكو، حيث وافق إيفان على ألقابهما، وفرض عليهما جزية ليدفعوها عن كل يوجريا. وفيما بعد اعتبر إيفان نفسه سيد البلاد، حيث إنه في عام 1488 عندما كتب إلى ملك بوهيميا أضاف لقب «يوجرسكي» [سيد يوجريا] ضمن ألقابه الأخرى.

إلاّ أن الجزء الشمالي من يوجريا لم يظهر في الواقع أي رغبة في الخضوع لموسكو. وبعد عدة سنوات قام ثلاثة قواد بقيادة خمسة آلاف رجل بغزو شمال يوجريا، وكان أحد القواد الأمير كوربسكي، واستولوا على واحدة وأربعين بلدة، وأسروا أكثر من ألف شخص وثمانية وخمسين أميراً أو زعيماً.

وبعد خمسة عشر عاماً، قام فاسيلي ابن إيفان بتقسيم شمال يوجريا، وسمى المنطقة التي تقع عند مصب نهر أوب بـ "اوبدوريا"، وسمى المنطقة الواقعة على نهر "كوندا" بـ "كونديا" وأضاف إلى ألقابه لقب أمير أوبدورسكي وكوندونكسي. وبعد فترة قصيرة أصبح الجزء الشمالي يعرف بـ "سيبير"، وهو اسم عاصمة الخانات الأصليين، ومع مرور الوقت أصبح "سيبير" اسم الدولة بأكملها.

وينص كرمزين أن إيفان الرهيب لقب نفسه بـ "قائد سيبيريا كلها" في رسالة كتبها إلى

إدوارد السادس ملك إنجلترا في عام 1554.

وفي عام 1558 منح القيصر إيفان أراضيَ خالية تقع على نهري كاما وتشسوفا لـ غريغوري ستروغانوف. ويبلغ طول هذه الأراضي مئة وأربعة وستين فرسخاً (وحدة قياس روسية تعادل 3500 قَدَم). ولم يتعين دفع ضرائب على هذه الأراضي مدة عشرين عاماً. وبعد عشر سنوات منحت الأراضي التي امتدت على طول نهر كاما من المصب إلى ياكوف وهو شقيق غريغوري. ولم يتعين دفع ضرائب عن هذه الأراضي لعشر سنوات. وفي المقابل توجب على الشقيقين بناء حواجز وإنشاء قوات عسكرية على نفقتهما الخاصة. واستغل آل ستروغانوف هذه المنح بكل نشاط وهمة.

وفي عام 1563 استولى خان كتشم، الذي كان يعيش بالقرب من بحيرة أرال والمعروف عند بعض الكتّاب بأنه نوجاي، والبعض الآخر بـ أوزبكي بسيط.. على العاصمة سيبير. وبعدما قتل حاكمها الخان أدغر وشقيقه بكبولت سمى نفسه بقيصر سيبير. ومن المحتمل أنه سمّى تلك الدولة بأجمعها «سيبير» للدّلالة على انتمائها لعاصمته. وعندما استقرت الأحوال، أخضع الكثير من القبائل الشمالية لهيمنته ورفض دفع الجزية لموسكو.

وفي عام 1569 أرسل إيفان الرهيب رسالة إلى خان كتشم ليذكره بمهامه كتابع. وفي عام 1571-1572 أرسل كتشم مبعوثين، وهما تاماس وايسى إلى روسيا ومعهما الجزية، ورسالة طلب فيها أن يكون تابعاً للقيصر، وتعهد بدفع الجزية في المستقبل.

وأقسم المبعوثان يمين الطاعة لكتشم وكبار القوم، ولكنهما لم يعرفا كيفية كتابة اليمين (العهد) ولم يملكا ختماً لتوقيعه. ولهذا السبب أرسل إيفان الرهيب تشابوكوف ابن بويار مع مبعوثين إلى سيبير، وأخذ كتشم وكبار القوم اليمين (العهد) لإيفان وختموا أوراقه.

وغضب «محمد كول» الذي ذكر كثيراً كابن أو شقيق أو ابن أخ وقريب لكتشم، لأن شعبه اضطر أن يخضع للروس. وهاجم من كان مستعداً لدفع الجزية حتى وصل موسكو وأسر زوجاتهم وأطفالهم، وانتهى المطاف بمهاجمته لتشوبوكوف عندما كانت تلك البعثة عائدة إلى موسكو. وفر هارباً عندما علم أن القوات على مشارف تشوسوفا استعدت لمهاجمته.

وفي عام 1574 منح آل ستروغانوف وغريغوري وياكوف شرف بناء مخافر على نهري توبول وتاكتشا، وسمح لهم باستخدام البنادق والمدافع، وتجنيد الرجال وإرسالهم إلى الحرب، وسمح لهم بقمع كل ثورة، وبناء مصانع الحديد وإنشاء مصائد الأسماك، وزراعة الأراضي التي تطل على نهر توبول والجداول التي تصب فيه. وأعفى مستوطنو هذه الأراضي من الضرائب

والخدمات بكل أنواعها عشرين عاماً. وكان يتوجب على آل ستروغانوف أن يقضوا على قطّاع الطرق واللصوص والمتشردين، وكان يتوجب عليهم حماية القبائل المحلية وأناس آخرين من كتشم، وأن يخضعوا كتشم وأتباعه لطاعتهم.

وكانت هناك شكوى كبيرة في موسكوفيما يتعلق بالسرقات في الفولجا، وفي عام 1577 بعث إيفان (الرهيب) قوة ضاربة من أجل القبض على يرماك، زعيم القوقاز وأربعة من زعماء القوقاز الآخرين، وإرسالهم إلى موسكو مكبلين بالحديد، ليجعل من موتهم المؤلم والمخزي عبرة لمن يعتبر.

وقبض على بعض اللصوص (الذين أطلق عليهم تسمية «القوقاز») وشنق البعض الآخر، ولكن أكثرهم تفرق وفروا بجلدهم، وكان من بينهم يرماك تيموفييف، وشركاؤه من القوقاز، وإيفان كولستو وياكوف ميخائيلوف ونكيتا بان وماتفي مستشرياك، وخمسة آلاف آخرون، أو خمسمائة كما ينص بعض المؤرخين.

وفي السنة التالية وصلوا إلى أرض آل ستروغانوف، وكان غريغوري وياكوف قد ماتا حينها، وكان ورثتهما هم: سيمون أخوهم الثالث، وماكيسم ابن ياكوف، ونكيتا ابن غريغوري.

وفي السجلات التاريخية الروسية روايتان عما حدث في هذا الوقت، تنص الأولى أن يرماك خطط لإخضاع كتشم وغزو سيبير، وحث آل ستروغانوف على مساعدته، وتنص الثانية أن آل ستروغانوف خططوا للغزو وحصلوا على عهد من يرماك لمساعدتهم، وقد تكون أي من الروايتين صحيحة، أو من الممكن أن آل ستروغانوف ويرماك سعيا للهدف نفسه واتفقا على أن يتعاونا، ولكن يرماك حصل على المجد بتسميته أول فاتح حقيقي لسيبيريا، ولهذا أصبح البطل الشعبي لسيبيريا.

وأظهر كتشم بوضوح أن لا وجود لنصر حقيقي في سيبير لآل ستروغانوف أو للآخرين حتى تسحق سلطته تماماً، وتعهد يرماك بسحقها.

وتتعارض الروايات المتعلقة بأصول يرماك أيضا، فبعض الروايات يقول إنه من بلدة فاسيلي، وإن موطنه هو الأورال، وكان يعمل على قارب يبحر في الكاما والفولجا، وإنه عمل طباخاً لرجال القارب.

وكانت "يرماك" هي علامة الشركة الصانعة للطناجر التي تستخدم في هذه القوارب.

وبدل من مناداته فاسيلي كان رجال القارب يلقبونه يرماك (الطنجرة). وكان يرماك طموحاً. ولذا أصبح مستاءً ومتمرداً. ورأى فرصة لكسب ثروة عن طريق سرقة فولغا. وفر من أرباب عمله، وشكل شركة من شباب وبحارة جريئين، ونصّب نفسه رئيساً عليها، وبدأ العمل، وفعل ما يسره، وكل ما يجلب له المال. وفي نهاية المطاف بعدما ازدادت جسارته قام هو وكولتسو مع بعض مساعديه بسرقة مبعوثي القيصر. وصدر أمر بجلبه مخفوراً إلى موسكو. وفي رواية أخرى، أن يرماك كان دوناً للقوقاز. وفي رواية ثالثة، أصبح دوناً لكوستوماريف، وعرف بأنه زعيم قوقازي في خدمة القيصر في الأورال، ولم تكن له أي صلة بزعيم القوقاز أو السرقات التي حصلت في نهر الفولجا.

وكان أول اجتماع غير ودي ليرماك مع سكان سيبير الأصليين هو مع أمير التتر ايبناشا الذي دحره سابقاً. وفي معركة ثانية بعد ذلك بفترة وجيزة قام بالاستيلاء على الحصن الرئيسي لأيبانتشا، وكان الحصن يقع حيث تقع مدينة تومن حالياً.

وقضى يرماك وقواته شتاء عام 1580 في هذا المكان. وأبحر نحو نهر تورا في بداية فصل الربيع، وكان أعداؤه من الأمراء بانتظاره عند مصب النهر. ونشبت معركة طاحنة وانتهت بعد بضعة أيام بهزيمة القوات الوطنية، واستولى يرماك على الكثير من الغنائم حتى إنه اضطر لأن يتخلى عن جزء كبير منها. ودخل بعدها نهر توبول وأبحر باتجاه نهر إيرتش مع جيشه المكوّن من عشرة آلاف وستين جندياً.

وعلى الرغم من الهجمات المستمرة من العدو، وصل الجيش الصغير إلى «اسكير» أو سيبير. عاصمة كتشم. وحصلت معركة أخرى حينها، رغم أن القليل من رجال يرماك قد قتل إلا أن عدداً كبيراً منهم قد جرح. وفي الأول من أكتوبر خاض معركة أخرى حيث صمد فيها الروس. ولكن في الثالث والعشرين من أكتوبر اشتبك الرجال في معركة طاحنة، وخسر يرماك مائة وسبعة جنود، ولكنه انتصر نصراً حاسماً. وبعد بضعة أيام هجرت قبيلتان كتشم وتخلتا عنه، عندها فرّ كتشم مع قواته إلى البراري، وأخذ معه كل ما كان يمكن حمله.

ويُعد السادس والعشرون من أكتوبر من عام 1581 تاريخاً جديراً بالذكر في تاريخ سيبيريا، لأن يرماك دخلها كحاكم للعاصمة سيبير. وبعد أربعة أيام جلب أحد زعماء الأوستياكس المؤن والجزية.

وفي بدايات عام 1582 أسر محمود كول وأخذ إلى موسكو. وأرسل يرماك إيفان كولتسو

ليضع مُلك قيصر سيبيريا تحت أقدام إيفان غروزني. وقد رافق كولتسو خمسون رجلاً من القوقاز وأخذ معه ألفين وأربعمائة جلد من الجلود القيمة، وثعلبين أسودين، وخمسين قندساً، ورسالة من يرماك إلى القيصر معلناً سيادته.

واستقبل القيصر كولتسو بإجلال، وكان امتنانه كبيراً لدرجة أنه نزع عباءته المصنوعة من الفرو من على أكتافه وبعثها ليرماك، ومعها كأس بديع، وطاقمين من الدروع، علاوة على الكثير من المال. كما أنه أرسل جولوكوف وهو واحد من أهم قادته ليساعده.

وبسط يرماك سلطته الآن في كل اتجاه. وفي سبتمبر عام 1583 قدم رسول من كاراتشا، وهو «ميرزا» أو نبيل كان سابقاً من أعوان كتشم، ملتمساً مساعدة يرماك ضد قبائل التتر في نوجاي. وبعث يرماك الذي لم تخطر بباله فكرة الخيانة كولتسو مع أربعين رجلاً من القوقاز. وقام كاراتشا بذبحهم جميعاً.

وقُدم كبار المسؤولون الحكوميين من روسيا إلى سيبيريا في نوفمبر. وهم الأمير بولييفسكي مع مرافقين وخمسمائة قناص. وفي الشتاء التالي كانت هناك مجاعة ونقص في المؤن. ومات الأمير بولييفسكي والكثير من رجاله من قلة الطعام وقساوة الحياة. وبينما كان الروس يعانون هذا الموقف الصعب، حاول كاراتشا استباق ردود فعل يرماك، لمنعه من الانتقام لمقتل كولتسو والقوقاز الذين كانوا معه، فحاصر سيبير وهي العاصمة، ولكن الروس قاموا بالهجوم وهزموه، وصدوا جنوده الذين فروا تاركين مؤونتهم وراءهم.

وخلال صيف عام 1584 قام يرماك بشن آخر حملة له. وأبحر نحو نهر إيرتش لإخضاع العديد من القبائل وإرغامها على دفع الجزية، ولمعاقبة كراتشا إذا تمكن من العثور عليه. ونجح في إخضاع القبائل، ولكن كراتشا أفلت من كل محاولة للقبض عليه.

وفي أواخر يوليو عاد يرماك إلى عاصمته، ولكنه أبحر كرَّة أخرى نحو أعالي النهر في أغسطس، لإنقاذ تجار من بخارى كما أعتقد، لتلقّيه أخباراً بأن كتشم أسرهم على نهر إيرتش. وعندما اكتشف بأن هذه الأخبار غير صحيحة عاد وأبحر باتجاه بلده.

وفي ليلة عاصفة وشديدة الظلام وقف يرماك على جزيرة بالقرب من ضفة النهر، لاعتقاده بأنها آمنة لمواصلة الرحلة. وسرعان ما غط القوقاز المرهقون في نوم عميق. وكان العدو يتبعهم بحذر ودقة شديدين، نزل على الجزيرة أثناء العاصفة والظلام وقتل أو أغرق كل رجل، ما عدا رجُلاً واحداً، هو الرجل الذي فر وحمل الأنباء إلى سيبير.

وقد لقي يرماك حتفه إما قتلاً على يد السكان الأصليين وإما غرقاً. وقد عثر على جثته صياد سمك تركي اسمه «يانش» أسفل النهر بعد سبعة أيام.

وبعد وفاة يرماك فقدت روسيا منطقة سيبيريا . ولم يعرف أحد في موسكو ماذا حصل في سيبيريا البعيدة . وبقي من الجيش كله هناك مائة وخمسون جندياً. وهم من بقايا جيش يرماك البسيط. من المقاتلين الذين قدموا مع بولييفسكي. وكانوا تحت قيادة جولوكوف الذي قرر أن يرجع إلى غرب الأورال لخوفه من البقاء في بلد معاد له مع جيش صغير كهذا. وغادر سيبير. ولكنه لم يخاطر بأن يسلك الطريق نفسه الذي دخل منه يرماك البلاد. فأبحر إلى أسفل نهر إيرتش ونهر الأوب. وعبر جبال الأورال بنجاح تجاه الشمال. حتى وصل إلى منطقة أرتش انجيل. وتوجه بعدها إلى موسكو.

ودخل ابن كتشم العاصمة سيبير مباشرة بعد مغادرة جولوكوف. ولكن سرعان ما طرده سيدياك. وهو ابن بكبولات. الذي قتله كتشم عندما استولى على المكان في بادئ الأمر.

وفي عام 1585 قام القيصر فيدور وهو ابن وخليفة إيفان جرونزي بإرسال إيفان ماتسوروف ليخلف الأمير بولييفسكي. دون أن يعلم ما حصل.

وعند وصول ماتسوروف إلى سيبير لم يجد أحداً من الروس على الإطلاق. وإذ بقي القليل منهم فقد انضموا إلى السكان الأصليين ليفروا من الهلاك. وكان الرجوع إلى موسكو مستحيلاً لحلول الفصل القارس البرودة. وأجبر ماتسوروف على البقاء في فصل الشتاء في سيبير. لذا شيّد بسرعة بالغة حظيرة وبنى منازل على الضفة اليمنى من نهر الأوب. مقابل مصب نهر الآريتش.

وشن الأستاكسيون هجوماً واحداً. ولكنهم فزعوا من صوت المدفع. فلاذوا بالفرار. وشرع ماتسوروف بالرجوع إلى دياره في فصل الربيع. وسلك الطريق نفسها التي سلكها جولوكوف عبر جبال الأورال.

وعند وصول جولوكوف إلى موسكو سرد قصته عن الهزيمة والنكبة. وأرسل القيصر فيدور ثلاثمائة جندي إلى سيبير بقيادة القائدين. فاسيلي سوكن وإيفان مياسنوي. وكان على الوزير دانيال تشولكوف أن يتبعهم. وفي يوليو عام 1586 أنشأ سوكن مدينة تومن على نهر تورا. ووسع نطاق سلطة موسكو على القبائل في المنطقة المحيطة به ولم يجازف بالتوغل نحو سيبير. وكان في مأمن لأنه لم يكن بعيداً جداً من جبال الأورال. وكان موقعه جيداً من الناحية الجغرافية.

وفي أوائل عام 1587 رافق تشولكوف خمسمائة جندي من موسكو. وجلب معه أمراً من القيصر لسوكين ومياسنوي بإنشاء مدينة على الضفة اليمنى لنهر الإيرتش بالقرب من مصب نهر توبول. وهكذا تم إنشاء توبولسك.

وكانت تومن أول مدينة روسية بنيت في سيبيريا. وتبعها بناء مدينة توبولسك على نهر توبول. ونقلت بعد فترة قصيرة إلى الضفة العليا لنهر الإريتش. وأقنع جولوكوف سيدياك وهو حاكم سيبير التي استولى عليها يرماك سابقاً بزيارته في توبولسك. وجاء أزاز ماكمن سلطان قبيلة كيساك، وكراتشا الذي قتل كولتسو والقوقاز الذين كانوا معه. وبعدها هاجم العاصمة سيبير واستولى عليها. وفرّ سكانها. ولم يقطنها أحد بعد ذلك.

وفي تقدمهم نحو الشرق. لم يواجه الروس أي مقاومة شديدة حتى قرابة نهر آمور. وعموماً خضعت القبائل المحلية للقوقاز بدون أي صراع. وبنت الحكومة الروسية تدريجياً قلاعاً أصبحت مدناً فيما بعد.

وأرسل مستعمرون إلى سيبيريا أول مرة في عام 1590. وأصبحت توبولسك المدينة الرئيسة ومركز الإدارة. وظهرت مدن جديدة، ومن ضمن هذه المدن بيليم التي أسسها الأمير بيتر جورتشاكوف. وكان هذا المكان جديراً بالذكر في سيبيريا لأنه أول مكان نفي إليه المحكومون . وأرسل القيصر فيدور إلى هناك العديد من سكان أوجلتش. وهي منطقة شمال موسكو. بسبب موت أخيه غير الشقيق الابن الأصغر لإيفان الرهيب في مدينتهم. وأغرب نفي لمدينة توبولسك كان لجرس كنيسة من أوجلتش. وقد قرع ذلك الجرس عندما قتل ابن القيصر. وعلق في توبولسك على برج الكنيسة في السوق ليدق في كل ساعة.

وفي هذا عام أسس القائد ترهانيستوف مدينة بيريوزوف. وأسس الأميران لفوف وفولكونسكي مدينة سورجوت على نهر الأوب.

وبين ا لأعوام 1593 و1598 كان هناك نشاط هائل في سيبيريا. وأسست مدينتا تارا وأبدورسك ومدن أخرى عديدة، وبدأت التجارة بالازدهار.

وفي عام 1598 انطلق الأمير ماسالسكي وإيفان فويكوف مع ألف جندي في حملة لمعاقبة كتشم لأعماله الخبيثة ولقتله كولتسو. وتمت المواجهة وسُحق كتشم ومن ثم خسر كتشم جيشه وعائلته التي تتكون من خمسة أولاد، وثماني زوجات. وأرسلت بناته الثماني إلى موسكو. ولم يستسلم ذاك الرجل العجوز (كتشم) إلى الروس على الرغم بأنه كان أعمى وأصماً. وفر إلى ترتار

النواجاي، الذي قتله فيما بعد. والآن رسّخت روسيا نفسها بشكل محكم في سيبيريا.

كان من أوائل المنفيين البارزين الذين أرسلوا إلى بيليم في عام 1599 إيفان وفاسيلي رومانوف، ونفيا من روسيا لثورتهما ضد بوريس غريندوف والذي أصبح قيصراً ونجا أخوهما فيدور من النفي لتظاهره بأنه راهب اسمه فيلاريت، ولبست زوجته الحجاب وأطلقت على نفسها اسم مارثا. ومن هذا الراهب والراهبة ولد مؤسس سلالة رومانوف وهو ميخائيل رومانوف.

أسس جارفلو بيسمسكي وفاسيلي تايرتوف مدينة تومسك في عام 1604 . وأصبحت المدينة المركز التعليمي لشمال غرب سيبيريا في عام 1900. وتقع فيها واحدة من أكبر الجامعات في البلد وثلاث وعشرون كنيسة روسية ومعبدان وكنيسة كاثوليكية ضخمة. وهي مدينة مزدهرة بالرغم من مناخها البارد الذي تصل فيه درجة الحرارة شتاءً حتى الأربعين درجة تحت الصفر لعدة أيام متواصلة. ويبقى نهر توم الذي يقع في المدينة متجمداً نصف السنة تقريباً.

وعرف العالم لأول مرة في عام 1620 بأن هناك شعباً يطلق على نفسه «ياكوتس» يعيش في أقصى الشمال على نهر لينا. وأعطى مانجاري القوقازي هذه المعلومات لمسؤولين في توبولسك. وفي عام 1631 أبحر مارينوف إلى نهر لينا بجانب فلينو واكتشف وجود «الياكوتسيين» وفرض عليهم الجزية. وكان إقليم «ياكوتس» يحتل حوض نهر لينا. وطقسه شديد البرودة بحيث تستحيل الزراعة فيه، ولكنه غني جداً بالفحم والفضة والذهب بحيث نفي الآلاف المدانين خلال القرنين الماضيين ليعملوا في المناجم، ولهذا السبب أصبحت المدينة معروفة للعالم بأسره.

وفي عام 1621 وقع حادث ذو أهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخين الروس: فقد أصبح سبريان أول رئيس للأساقفة في سيبيريا. وكان عالماً ورجلاً ذا بعد نظر وحصافة.

وكانت قدرته على معرفة الغيب ذات قيمة هائلة للروس. فقد كان على رأس قائمة أعماله العثور على من نجا من جيش يرماك وكتابة ما يعرفونه عن حملات ذلك البطل وفتوحاته شفاهة. وشكلت تلك المعلومات القاعدة الأساسية للسجلات التاريخية السيبيرية.

وفي عام 1622 تعرّف الروس أولاً على البوراتيين. وعلم ياكوف هربنوف بزيارتهم إلى نهر "كان" لجلب الجزية، وبَعَثَ القوقازي كوزلوف رسولاً ومبعوثاً ليدعوهم بأن يصبحوا رعايا الروس. ونتائج هذه المهمة غير معروفة. ولكننا نعلم بأمر إرسال حملتين في عام 1627. واحدة لاستكشاف نهر لينا تحت قيادة بوجور، والأخرى لإجبار البوراتيين على دفع الجزية تحت قيادة بيرفيلوف.

وصل بوجور إلى المياه العلوية من نهر لينا. وأخفق بيرفيلوف حيث إن البوراتيين لم يتخلوا عن استقلالهم.

وفي عام 1628 أُرسِل بيوتر بيكتوف مع مجموعة من القوقاز ضد البوراتيين على نهر انغارا. ولكنه رجع بعد وصوله لمصب نهر أوكا.

وفي عام 1632 نزل بيكتوف نحو نهر انغارا ثم نحو ليم وعبر نهر لينا وأبحر في ذلك النهر وبنى قلعة أسماها «ياكوتسك». ونقلت القلعة فيما بعد إلى مدينة ياكتوسك الحالية. وهي تبعد سبعين «فرسخاً» أعلى النهر. وأصبحت ياكوتسك المركز الإداري لشمال شرق سيبيريا في عام 1638. وأسست فيرهويانسك أقصى الشمال في عام نفسه (1638). وفي عام 1640 أكتشف نهرا انديجيركا وألازي اللذان يصبان في المحيط المتجمد.

وفي هذا الوقت تقريباً أرسل فاسيلي ستاركوف رسولاً إلى ألتين خان في بحيرة أبسى. ومن ضمن الهدايا التي أرسلها الخان إلى ميخائيل رومانوف كان أول شاي يدخل إلى روسيا. وهو عبارة عن مائتي رزمة يزن كل منها باونداً وربع الباوند. ورفض ستاركوف الشاي، مصرحاً بأنه عديم الفائدة وصعب الحمل، ولكن الخان أصر على هديته، وامتثل الرسول لأمره لتفادي غضبه. وهكذا أخذ الشاي إلى موسكو وأصبح مشروباً وطنياً في وقت قليل بين الروس ولا زال إلى يومنا هذا.

وظهر الروس تحت قيادة القوقازي كوربات إيفانوف على الساحل الغربي لبحيرة بايكال وعلى جزيرة أولخون. وفي عام 1646 حاصر البوراتيون فيرهوينسك. وهو مكان أسسه مارتين فاسيليف في عام 1641. وبدعم من بيداروف تمكن القائد المسؤول هناك وهو إيفانوف من هزيمة البوراتيين وتدمير قراهم. وبعد فترة بسيطة أرسل إيفان بوهاليوف لجمع الجزية من البوراتيين على نهر «ايركوت»، وقطع بحيرة بايكال بالقرب من الحافة الجنوبية، ووصل إلى أورجا عاصمة سيتين خان بوساطة الأمير الصغير تروكاي. وإثر هذه الزيارة أرسل سيتين خان مجموعة من الممثلين الدبلوماسيين إلى موسكوفي عام الذي يليه.

وفي عام 1648 أسست بارجوزن بالقرب من الساحل الشرقي لبحيرة بايكال لاستلام الجزية من البوراتيين. وفي عام نفسه أرسلت حملة إلى الشمال تحت قيادة ديجنيف وأنكودينوف وأليكسياف. وأبحرت سبعة قوارب يحمل كل منها عشرة جنود باتجاه شرق كوليما. وهو نهر يصب في المحيط المتجمد الشمالي. وتحطمت أربعة قوارب واختفت خلال الرحلة. ولم يعثر عليها

قط. ومع القوارب الباقية قام المستكشفون بالدوران حول نقطة شيلاغ والتي أسموها بـ «الأنف المقدس».

وتحطم قارب أنكودينوف هناك وانتقل مع جنوده إلى القوارب الأخرى. وداروا حول تشوكوتشي أو رأس تشوكتشي والذي وصفه دجنيف باعتباره أبعد نقطة في شرق آسيا بلا منازع. وفي تقريره إلى قائد ياكتسوك يصف كيف جرح اليكسييف في مواجهته لجيش الشنوتشي وكيف انطلقوا نحو البحر مباشرة.

وفرقت عاصفة هوجاء المراكب عن بعضها بعضٍ ولم تلتق بعد ذلك قط. ودفعت الرياح دجنيف إلى جنوب نهر أنادير. ولذلك كان أول شخص يثبت وجود ممر بين المحيط المتجمد الشمالي والمحيط الهادئ. وفي الواقع يعود الفضل له باكتشاف المضائق التي تسمى الآن «بيرنغ». فهو قد شاهد هذه المضائق في عام 1648 قبل أن يكتشفها «بيرنغ» بثمانين سنة. وانتهى المطاف بدجنيف ومرافقيه على الساحل القريب من مصب نهر أوليوترا وشقوا طريقهم نحو نهر أنادير وبنوا ملاذاً لفصل الشتاء، وأنقذهم التجار بعد فترة وجيزة.

وتوفي كل من أليكسييف وأنكودينوف في كمتشاتكا. على الرغم من وجود اسم ديجنف في سجلات كثيرة حتى عام 1654. فإنّ مصيره بقي مجهولاً. ومات خلال احدى البعثات دون شك.

وكثرت الخلافات والنزاعات بين الروس والبوراتيين في عام 1650. وبعد جهد كبير رسخ الروس هيمنتهم وسيادتهم. وخلال عام 1650 انطلق يروفي خاباروف مع مئة جندي من ياكوتسك لصيد حيوان السمور. وأبحر نحو منابع أنهار أوليكمنا وتونجار ووصل إلى نهر آمور عبر نهر الأور ونهر زيا. واستطلع النهر كله في عامين وكان أول رجل يطلق أسطولاً هناك. وخلال هذا عام (1650) عاد البوراتيون الموجودن إلى منبع نهر أنجارا. وأرسل المسؤول هناك وهو نيفيديف مع جنوده ليرجعهم إلى المكان الذي تخلوا عنه.

وفي عام 1652 أنشأ بوهاكوف محطة اركوتسك التجارية قرب تقاطع نهر اركوت وأنجارا. وفي عام 1661 نقلت إلى الضفة اليمنى من نهر أنجارا وهي الموقع الحالي لمدينة اركوتسك. وبعد واحد وعشرين عاماً أصبحت مركزاً ادارياً.

وأرسل إيفان روبروف من لينا للبحث عن قارة جنوبية في السنة نفسها التي أسست فيها محطة اركوتسك التجارية. ولكن هذه البعثة اختفت ولم يسمع عنها أحد. وفي عام 1653 أسست

قلعة بلازانسك في بلد البورات واستقرت فيها ستون عائلة روسية. وبعد عامين استعد البوراتيون للانسحاب شرقاً إلى بحيرة بايكال، لكنهم استمعوا إلى نصيحة حكمائهم وقرروا البقاء في موطنهم والخضوع للحكم الروسي. واستمر البوراتيون بممارضتهم. ولكنهم خضعوا كلياً في نهاية القرن السابع عشر وأصبحوا رعايا مسالمين للروس.

وبعد خمسة وسبعين عاماً من عبور يرماك جبال الأورال إلى أرض يوجرا غير المعروفة، اندفعت روسيا بقوة عبر آسيا، وبلغت حدودها المحيط المتجمد شمالاً، والصين جنوباً؛ وأضيفت كامشاتكا ضمن ممتلكاتها في عام 1697.

الفصل الثاني

رحلتي إلى أرض البورات

في صباح يوم التاسع من تموز/ يوليو عام 1900 سافرت بالقطار نفسه الذي كنت قد سافرت به من موسكو. وسرعان ما أصبحت ايركوتسك على مرأى من نظرنا. وقد سررت كثيراً لوصولنا إلى عاصمة شرق سيبيريا.

والمدينة، كما اتضح لي من القطار الذي كان يقترب منها بسرعة كبيرة، مهيبة، ليس بسبب حجمها، وعدد كنائسها الكبيرة وحسب، ولكن أيضا لأن القطار يقترب من اتجاه ايركوتسك بحيث إن واجهة المدينة وجانباً منها يظهران مرة واحدة، بالضبط كما كان الأمر مع المعابد الإغريقية، والتي كانت مقترباتها مرتبة بحيث تكون الزاوية واقعة بين واجهة البناء وجزء منه.

وأمام المدينة مباشرة نهر الأنغارا، وهو نهر صافٍ جداً وعميق وسريع، ينبع من بحيرة بايكال المعروفة بكونها أكبر وأجمل كتلة مياه عذبة في آسيا كما سبق لي ذكره. ويعتبر نهر الأنغارا المنفذ الوحيد من بحيرة بايكال التي تتدفق مياهها من خلال هذا النهر إلى اليانسيري، وتنتقل بالتالي إلى القطب الشمالي.

ومع دنو القطار من مدينة ايركوتسك تتضاءل الرؤية الجانبية، وتبدأ الطريق بالانحدار. وهكذا يتقلص المنظر وينكمش جماله في كل لحظة، وحالما نصل إلى المحطة نكون على ضفة النهر.

أما في الجهة المقابلة الضيقة لمدينة ايركوتسك، أو الواجهة، إذا جاز لي التعبير، فتتضاءَل الرؤية وتصبح أقل جمالاً مقارنة بالمنظر الذي شاهدته من القطار قبل برهة قصيرة. ولكن، على الرغم من ذلك هناك نهر الأنغارا تحت ناظرنا، ذو المياه الزرقاء الجميلة، الذي يتدفق بهدوء وروية دونما عائق يقف في طريقه.

ويقال إن نهر الأنغارا لا يتجمد أبداً إلاّ في يوم عيد الميلاد. ويتجمد حتى القاع في ليلة واحدة. ويتوقف هذا النهر الأزرق العظيم عن الجريان عشية عيد الميلاد. وصباح يوم عيد الميلاد يكون ساكناً. ويتوقف عن الجريان. ويبرد هذا التدفق من المياه الهائل حتى يصل إلى قاع النهر وتكون درجة حرارته فوق التجمُّد بقليل. وبعد ذلك يصبح قطعةً من الثلج في ليلة واحدة. كما لو كان بفعل ساحر. ويخمد هذا النهر العظيم حتى يوم انبماثه. عندما تفك الشمس وثاقه. وتنفح الحياة فيه من جديد.



ايركوتسك، سيبيريا

لا توجد مدينة على كوكب الأرض لديها نهر في مقدمتها كمدينة أيركوتسك. وهو نهر أزرق وعميق جداً. ويجري بسرعة هادرة توحي بقوته العاتية.

وتبدو مدينة ايركوتسك جديدة إلا في بعض كنائسها وبعض المباني الحكومية. فشوارعها واسعة وغير معبدة. وأكثر بيوتها مصنوع من الخشب. وعدد كبير منها غير مطلي.

وأهم نصب تذكاري في المدينة وأكثرها إثارةً هو قوس النصر الذي يحتفي بذكرى فتح الطريق إلى البحر العظيم. أي عندما فتح «مورافيف» الطريق إلى «نهر آمور» ومنح على أثره لقب «الكونت» لنجاحه في فتح الاتصال بالمحيط الهادئ. وعرف فيما بعد باسم «الكونت موارفيف امورسكي».

تنزهنا في المدينة. ثم توقفنا عند فندق ميتروبول. لم يأت أحد لأخذ امتعتنا: ولكن السائق بذل قصارى جهده لمساعدتنا في ذلك. ولم تكن هناك سوى غرفة واحدة شاغرة. وكان الأثاث رثاً ومتسخاً. والفراش قذراً. أما البطانية فمصنوعة من الصوف الخشن. وهذا الفندق يعد أفضل

فندق في منطقة ايركوتسك! وقد اكتشفت في المطعم القذر أن الأسعار هي أكثر من الثلث مقارنة بأسعار سانت بطرسبرغ، وهي مدينة معروفة بأسعارها الباهظة.

من خلال سفراتي وجولاتي في بعض البلدان وبين مختلف الشعوب فإنّ أهم شيء ينبغي أن يمتلكه المرء هو أن تكون لديه رسائل وتوصيات من سلطات عليا. وقد قدم لي وزير المالية الروسية رسالة إلى كل حاكم في سيبيريا. وعند إيصال رسالتي إلى حاكم ايركوتسك أستقبلت بحفاوة بالغة ولم تكن مجرد مجاملة، وعندما شرحت بالضبط ما أردت، وهو دراسة عادات وتقاليد ولغة المغول ودراسة الأديان في بورات ومناطق الغرب والشمال الغربي من بحيرة بايكال، أكد لي أنه سيوفر لي كل مساعدة يمكن للحكومة أن تقدمها. وكنت مزوداً برسائل وتوصيات إلى رؤساء المقاطعات، علاوة على ذلك، فقد أرسلت تعليمات إلى المسؤولين طوال طريق سفري لمساعدتي بكل طريقة ممكنة، وهو شيء لم أعرفه إلاّ لاحقاً.

واعتبرت ايركوتسك نقطة انطلاق لاستقصاء العالم المغولي، وخصوصاً فيما يتعلق منها بعالم بورات. ومن ثم قررت قضاء بضعة أيام في المدينة لدراسة وجمع ما يمكن من معلومات بشأن الأشخاص الذين كنت على وشك زيارتهم.

وحملت رسائل من الأصدقاء في سانت بطرسبرغ للمقيمين في ايركوتسك، وفي منزل أحد هؤلاء السادة، وهو السيد بروف رئيس تحرير «المجلة النقدية الشرقية» قضيت معه الكثير من الساعات الممتعة والمفيدة لأن السيد بروف كان قبل عدة سنوات منفياً إلى سيبيريا لأسباب سياسية. وعندما أطلق سراحه خُيّر بين العودة إلى روسيا أو البقاء في ايركوتسك، ففضل الحل الثاني، وزوجته امرأة لطيفة ومثقفة، وهي ابنة تاجر ثري من كاجينه، وكان السيد بروف الشخص الوحيد الذي اجتمعت معه في سيبيريا القادر على التحدث باللغة الإنجليزية، علاوة على إلمامه بالبلد، وقد قدم لي الكثير من المعلومات القيمة. وخلال إقامتي في المدينة التقيت عدداً كبيراً من الأشخاص الذين جاءوا إلى سيبيريا كمنفيين، وأكملوا عقوبتهم، والآن يتمتعون بمنزلة رفيعة في المنطقة، وفي كثير من الحالات، يعدون من أثرياء المواطنين في ايركوتسك.

وفي بيت صديق تعرفت على شخص باسم ديمتري بتروفتش بيرشن الذي كان آنذاك نائب مدير متحف ايركوتسك. وعندما أخبرته بأنني أرغب في زيارة البوراتيين والتعرف عليهم أخبرني بأنه يعرف بالضبط الشخص الذي يمكن أن يقدم لي أفضل مساعدة، والذي سيكون في المدينة بضعة أيام وأنه سوف يقوم بتقديم أحدنا للآخر. وعند زيارتي للمتحف أراني ديمتري بتروفيتش بعناية وحرص كبيرين مجموعة مواد مثيرة للاهتمام، وهي معروضات تتعلق بسيبريا

ومنغوليا السيبيرية. في وقت لاحق من الموسم الأول التقطت صورة لواحدة من أكثر القطع قيمة في المجموعة، وهي، رداء بوراتي يلبسه شامان.

وبعد يومين من زيارتي للمتحف قمت بزيارة ديمتري بتروفيتش واكتشفت أن السيد أندريه ماجلوف قد وصل من بورات. وعرفني السيد بيرشن به. وقال للرجل المسن بقدر كبير من التوكيد والاهتمام بأنني أريد التعرّف على شعبه عن كثب، وأنه لا بد من مساعدتي بكل وسيلة ممكنة.

كان السيد أندريه ميخايلوفيتش ودياً في لقائه ووعد بالتعاون. ولكن يبدو لي أنه كان حذراً. وإن بدا ودياً في الظاهر، اعتقدت أنه كان متحفظاً في سريرته، ويبدو أنه يريد إرضائي وإرضاء الحاكم، ولكن من دون إعطاء الكثير من المساعدة الحقيقية. كنت قد شرحت للسيد بيرشين مسبقاً، بأنه يهم السلطات في مدينة سانت بطرسبرغ أن أحصل على كل مساعدة ممكنة فيما يتعلق بلغة البورات، وممتقداتهم القديمة، وعاداتهم، وأن السلطات ستأخذ بالحسبان كل معونة وحسن نية يقدمها الشعب البوراتي لي.

وأبلغني ديمتري بتروفتش بعد بضعة أيام من هذه المحادثة بأن اندريه ميخايلوفيتش سيوفر لي سكناً جيداً في مقره الصيفي، وسيعرفني على أشخاص لديهم معرفة كبيرة بديانة البورات وفلكلورهم.

وقال بيرشن الذي كان متحمساً للغاية «إنها بداية رائعة». «هذا الرجل يمكن أن يطلعك على جميع عوالم البورات. وكلمته مسموعة بينهم ولا يزال متمسكاً بدين شعبه القديم، ويستطيع شخصياً أن يقول لك الكثير عن ذلك».

وفكرت في سري «بأن هذا جيد جداً. سنرى كيف يفعل ذلك. وآمل أن الأمور تجري على ما يرام، ولكن سأبقي عينيّ مفتوحتين». وقد ساعدني ديمتري بتروفيتش في العثور على عربة جيدة للايجار لاستخدامها في رحلتي التي ستستغرق بين شهرين أو أكثر. ووفّر لي أيضاً زياً تقليدياً.

واختيار عربة مناسبة هو أمر في غاية الأهمية لأي رجل يسافر في سيبيريا. ويجب أن تتمتع بأربع صفات: أن تكون مريحة، وفسيحة، ومنيعة من المطر، وقوية غير قابله للكسر. وهذه العربات السيبيرية مصنوعة على نظام الحنطور الأمريكي، ولكنّها تستخدم الأعمدة بدلاً من الألواح أو الصفائح التي تقوم مقام النابض تحت جسم العربة. وعندما تشيّد العربة بشكل صحيح تكون فسيحة، وهناك غطاء يمكن فتحه للأعلى أو للأسفل. وتركب قطع جلدية على جانبي العربة لحجب الشمس أو المطر. والنوم فيها سهل، وليست هناك وسيلة نقل أفضل منها للسفر

في وضح النهار في هذا البلد. وهي ليست كبيرة جداً، لكنها قوية، وسهلة الإصلاح. وهي مجهزة للاستخدام على الطريق على النحو التالي: أولاً يغطي أسفل العربة بسجاد خشن سيبيري الصنع: وتوضع على السجادة حَشيّة صلبة، ينبغي أن تغطي أسفل العربة تماماً. وتبسط بطانية رقيقة على الحشية لحمايتها. ويصنع المقعد من لحاء جذع ناعم يشبه الجلد، وهي خاصية تتميز بها أشجار سيبيريا. وتستكمل التجهيزات بمؤونة من الوسائد كمساند للظهر وبعض من البطانيات الثقيلة.

ومن الجدير بالذكر أن العربة تكون فارغة تماماً عند استئجارها. وجسم العربة على شكل صندوق مربع، منخفض من الجانبين أكثر من انخفاضه في وسط العربة. التي لا تحتوي على أية مقاعد، سوى مقعد السائق، الذي يكون في مقدمة العربة. وهناك موضع في الخلف لربط الصندوق، كما أن هناك حيزاً إضافياً عند السائق.

ومن بين الكتب الرسمية التي منحها لي الحاكم كتاب بخصوص خيول خاصة وخيول لنقل البريد. وكان السكان الموجودون في المناطق التي لا تتوافر فيها محطات بريدية مجبرين على تزويدي بالحيوانات بالسعر نفسه الذي تتقاضاه مكاتب البريد وهو 3 كوبيكات (أي ما يعادل سنتاً ونصف السنت) لكل ميل يقطعه الحيوان.

وفي الوقت المناسب كنت على أهبة الاستعداد لاتخاذ التدابير الاحتياطية كشراء المؤن التي تتضمن السجاد والمراتب، وكنت جاهزاً لرحلتي الصيفية لمسكن أندريه ميخايلوفيتش، والذي يبعد حوالي أربعة فيرسات [والفَرْست مقياس روسيّ للطول، ويبلغ 3500 قدماً] عن ايركوتسك وهي أقرب من أستوردي التي تبعد ستين فرسخاً.

في الساعة السابعة من صباح 23 يوليو وبعد جهد كبير كانت جميع الأشياء الضرورية في العربة، وكنا مستعدين للانتقال إلى ارض البورات، وقد تأخرتُ ما لا يقل عن نصف ساعة عن الموعد الذي كنت قد أزْمَعْتُ الانطلاق فيه، وكان سبب التأخير أن سائق العربة جاء بدون حبال للخيول التي توضع على جانب العربة التي تجرها ثلاثة خيول، واضطر إلى الرجوع لجلبها، وعلمت آنذاك أن الزلاجّات قد تكون بالحبال أو بدونها، وكان ينبغي عليَّ أن أذكر الحبال عندما طلبت الخيول.

وقد وعد رئيس المحطة في منطقة ايركوتسك أن يزودنا بثلاثة حيوانات نشيطة، وكذلك بسائق ماهر. وأوفى بوعده حقاً.

في الصباح كان الهواء منعشاً، لذيذاً، منشطاً. وخَبّت الخيول بشكل لطيف على جانب الشارع الرئيسي المسمى بـ "الشارع الكبير"، في اتجاه التلال المرتفعة التي تحيط بسيبيريا. ووراء

المدينة مباشرة بالقرب من ضفاف نهر الأنغارا مراع منخفضة على نطاق واسع حيث ترعى قطعان هائلة. وهناك مناظر مثيرة للاهتمام من الطريق المرتفع، واحدة منها على الأقل لافتة جداً. وهي أن البلدة ليست كبيرة، ولكنها جميلة.

ولقد أثنيت على السائق الذي كان اسمه نيكولاي لأنه استحق المديح فعلاً وبجدارة. ولو قيّض له العيش في زمن الرومان لاستحق أن يتنافس في سباق العربات في حلبة ماكسميس في روما. وبعد أن ابتعد بضعة أميال عن ايركوتسك توقف ليرخي الجرس المعلق على الحصان الواقع في وسط العربة. وفي تلك اللحظة قام سائق العربة التي كانت وراءنا بحث خيوله على السرعة المفاجئة في أسفل التل الطويل، ثم بدأ يقود عربته بالسرعة التي تروق له. وقد كانت هذه أبطأ من سرعتنا قليلاً، ولذا أصبحت قيادته مزعجة. ويبدو أنه كان يستمتع بتعذيبنا بهذه الطريقة.

وانتظر نيكولاي للحظات قليلة حتى اتسع الطريق بما فيه الكفاية، ثم الْتَفَتَ نحوي وقال بصوت منخفض: «أستطيع أن أتقدم على ذلك الوغد. هل أفعل ذلك؟". فسألته "أنا أعلم أنك أفضل منه، ولكن هل خيولك أفضل من خيوله؟"

فأجاب نيكولاي "أنا أدرى بخيولي". وبعد ذلك انطلق مباشرةً إلى جانب العربة التي أمامنا، وكانت رؤوس الخيول قد وصلت عجلات العربة الخلفية، وعندها ألهب العدو ظهور خيوله بالسوط فانطلقت نحو التل مسرعة. ثم صرخ نيكولاي على خيوله لحثها على المضي قدماً.

وكان هذا أول سباق لي من هذا النوع على الإطلاق، وهو سباق في أعلى التل، وكل عربة تجرها ثلاثة خيول تتسابق جنباً إلى جنب، وتقدم مثالاً رائعاً للجهد الذي تبذله هذه الخيول في انطلاقها نحو الطريق في ذلك التل المرتفع.

كانت خيول نيكولاي تتقدم بشكل تدريجي وتقلص المسافة بينها وبين العربة الأخرى، بثبات. عندما قام الرجل الآخر، للمرة الثانية بعرقلة طريق حيواناتنا عند نقطة التقاء الطريق الضيق. فغضب نيكولاي الآن، ولم يخفِ ما كان يشعر به نحو السائق العدائي، قائلاً بأن أمه تنحدر من أصول كلبية بلا ريب!

وكان لا بد له أن يستسلم في هذا الوقت، وقاد عربته وانتظر حتى وصلنا إلى رقعة واسعة في الطريق على قمة التل، ومن ثم انطلقت خيوله مسرعة إلى الأمام، وفي لحظة كانت عربتنا تتقدم على العربة الأخرى بنصف المسافة.

وصاح نيكولاي «أيها الوغد!» ثم استدار ونظر إلى الوراء وقال «سوف أريك كيف تواجه الناس المحترمين».

وحث العدو خيوله، بضربها بالسوط، ولكنه لم يستطع الفوز الآن. وبدأ نيكولاي يقلص المسافة بينهما بشكل ثابت حتى وصلنا إلى أرض مستوية، وفي هذه المرحلة تقدم علينا بمسافة خيلين. وفي هذه اللحظة بدأ الطريق ينحدر بشكل تدريجي لمسافة ميل أو أكثر، ثم ارتفع إلى تل آخر. ولا يمكن للمرء أن يعثر أو يبني مضماراً للسباق أفضل من هذا المضمار. واستدار نيكولاي للحظة لإلقاء نظرة على الرجل الآخر، ثم بدأ يطلق مجموعة من الصيحات التي ارتفعت أعلى وأعلى، مع استخدام السوط بمهارة، مما جعل تلك الخيول الثلاثة تنطلق أسفل هذا الطريق بأقصى سرعة. وكانت الطريق الآن عبارة عن أرض مستوية تماماً، وسارت العجلات بشكل انسيابي وسلس، ثم انطلقنا بسرعة بالغة.

وفي النهاية التي وصلناها بسرعة، استدرت حولي ورأيت خصمنا يقترب بنصف الطريق أسفل التل، ويتقدم في خطى ثابتة معتادة على السفر. وناديت على نيكولاي لتخفيف السرعة، وهو ما فعله، ثم توقفت. فقد اكتشفت فوراً أن أحد المسامير الرئيسة قد ارتخى بشكل كامل: ولم يتبق منه إلا بوصة واحدة معلقة في المحور الأمامي. ولو انزلق هذا المسمار ونحن في السباق أسفل التل، لسحبت الخيول العجلتين الأماميتين مع المحور الأمامي وهرعوا بها بعيداً، ويبقى ما سوف يحدث لنا مجهولاً، ولكنه لن يكون شيئاً لطيفاً أو ساراً على أي حال.

وسرعان ما وجدت حجراً كبيراً لتثبيت المسمار الرئيسي، ولكنه لم يبقَ ثابتاً في موضعه، باستخدام الحبال. وقد أوقف الرجل المهزوم خيوله أسفل التل، وبَدَا كأنَّه يصلح رسنه، ولم يدنُ منا كرة ثانية.

وعثرنا على حداد في أول محطة وصلناها، وتسمى هوموتوكا، وقد وضع قطعة من الحديد في الجزء السفلي من المسمار وتأكد أنها آمنة وثابتة: وقد تقاضى 15 كوبيكاً (أي ما يعادل سبعة سنتات ونصف السنت).

وقد تكون محطات التوقف عندما يتم المحافظة عليها مكاناً ممتعاً ومثيراً للاهتمام للمسافر، فهناك عادة عدد من الأشخاص في انتظار الخيول الذاهبة في طريق الذهاب أو الإياب، وهناك دائماً من يشرب الشاي أو يتناول طعام الغداء، والرجل المسؤول عن المحطة ملزم بتزويدنا، وبسعر ثابت، بالسماور، وهي "غَلاَّية ذاتية" على شكل وعاء يمتد من مركزها أنبوب. في أسفل هذا الأنبوب هناك حيز لفتحات الهواء، ويشعل الفحم في هذا الحيز ليغلي الماء في الجرة، ولأن الحرارة تسري في جميع أطراف الأنبوب، فإنها تسخن بسرعة كبيرة. ويضاف الفحم إلى السماور، كلما دعت الحاجة، والسماور الجيد يقدم الماء المغلي لمدة طويلة، وباعتقادي، وقد أكد

لي ذلك معظم الناس أن ميزة الشاي في روسيا تُعزى إلى حد كبير إلى السماور والمنشأ الرئيسي لصناعة السماور هي مدينة تولو، التي تشتهر بمثل هذه الصناعة في جميع أنحاء روسيا.



محطة توقف في إيلانتسين: شد الجياد إلى العربة

والتقينا في محطة التوقف الأولى بامرأة مثيرة للاهتمام، وتبين أن السائق الذي هزمناه قد جلب أمتعتها من ايركوتسك حيث مرت بها الليلة السابقة. ولم يكن عمرها قد تجاوز الثلاثين، وقد شرعت في رحلة تجعل حتى المسافر المتمرّس يتردد بالقيام بها. رافقها خمسة أطفال أكبرهم في العاشرة من عمره وأصغرهم طفل رضيع، ومربية. وقد بدأت رحلتها من مقاطعة ياكتس في أقصى الشمال، حيث يعمل زوجها موظفاً حكومياً. وستقضي أسابيع قبل أن تتمكن من الوصول إليه. وتبدأ رحلتها الطويلة بالخيول، ثم بحراً حتى تصل نهر لينا، ثم كرّة أخرى بالخيول. وبسبب إصرارها على عدم العودة تضطر لتغيير العربات في كل محطة لتفريغ جميع حقائبها ورزمها كرة أخرى، وهي ليست بالمهمة السهلة! وقد تولت هي هذه المهمة، في حين كانت المربية مشغولة بتحضير الطعام للأطفال. وعلى الرغم من ضعفها الجسدي، أظهرت شجاعة فائقة ورائعة، وكانت لديها القدرة على التغلب على جميع صعوبات هذه الرحلة بسبب حبها لزوجها وأطفالها.

وفي الوقت الذي كان يتم فيه تجهيز الخيول وربطها بالعربة، سنحت لي الفرصة للتحدث مع شخص منفي لأسباب سياسية، وقد تحول إلى متسوّل رائع، رث الهندام، يتسكّع حول المحطة. قال لي إنه في المنفى منذ سنوات عديدة وإنه ابن أحد القساوسة الروس. كان شاباً ذكياً ورائعاً، ولكن صحته متدهورة.

وقد استهواني تناول الشاي في هوموتوكا، ولكن شيئا ما، لا أعرف ما هو، حثني على التقدم، وانطلقت الخيول حالما جهزت. وكنت متلهفاً لرؤية طريقة عيش أندريه ميخايلوفيتش في المراعي الصيفية، والأهم من كل شيء، فإنني كنت تواقاً لمعرفة الكيفية التي سيرحب بي فيها.

والمدن التي مررنا بها كانت فقيرة وكئيبة. ومعظم المنازل محاط بسياج من ألواح خشبية عالية. وكرة أخرى كانت بعض جوانب البيوت ظاهرة. ويتقابل السور فيها من كلى الجانبين. أما الستائر وأطر النوافذ الخارجية فكانت مطلية باللون الأبيض. ولم يكن معظم المنازل مصبوغاً. ويبدو عمرها مائة سنة. وقد غارت في الثلج حتى أصبح أسفل النوافذ على الأرض. ويكون مدخل المنزل داخل الفناء بعد عبور بوابة ضخمة من السياج المكوّن من ألواح خشبية. وفي جميع أرجاء سيبيريا. مهما كانت المنازل صغيرة أو فقيرة. فإنّ عتبة النوافذ عادةً تكون مليئة بنبات يُسَمَّى إبرة الراعي. أما على عتبة الباب الرئيسية فهناك حدوة حديدية. لجلب الحظ.

وفي محطة جوردينسكي وجدنا السماور يغلي. فشربنا الشاي قبل تجهيز الخيول الجديدة. والسائق الثاني. الذي جاء من هوموتوكا. لم يكن مثل نيكولاي – فقد كان بطيئاً. ويحتاج إلى إلحاح مستمر. أما السائق الثالث فكان شخصاً نادراً. ذا شفة أرنبية. وعلاوة على ذلك كان أصَمّاً ولذلك كان يصعب التحدث معه. فقد كان يسمع جُزْءاً مما يقال. وكان جزء مما يقوله مفهوماً. أما الخصلة الجيدة التي تمتع بها فهي. أنه كان سائقاً صارماً. ويحث خيوله على الانطلاق بسرعة. وكنا نعبر سهولاً واسعة من الأراضي الجافة غير المشجرة. ولم تكن هناك زراعة من أي نوع. ولكن تجد بعضاً من قطعان الأبقار والخيول هنا وهناك على مبعدة منا. بين التلال المنخفضة.

وبعد مضي ساعة ونصف تقريباً. توقف السائق فجأة. وقال بأننا مررنا بطريق قد توصلنا إلى منزل أندريه ميخايلوفيتش. وكانت هناك طريق أخرى أبعد. وأدت بنا الطريق الأولى إلى مكان خلاّب يصعب الوصول إليه. ويبدو أن قلّة قليلة قد سلكت هذا الطريق. أما الطريق الثاني فكانت الطريق السهلة والمعتادة. وبالنسبة لي. توقفت على الطريق التي تقع على اليسار وتطلعت نحو الشرق في اتجاه أراضي أندريه ميخايلوفيتش. فكيف انتهى المطاف بشخص مثلي ممن جمع بين تقاليد الكثير من الشعوب. أن يتخذ الجانب الأيسر من الطريق بحثاً عن قصص بدائية بين المغول؟

التفت إلى الوراء وسلكت الطريق الواقعة إلى اليمين مسرعاً نحو المجهول. وبطبيعة الحال. فعلت ذلك لحسن حظي. كما سنكتشف لاحقاً. ومن خلال هذه الطريق وصلنا إلى الجزء الخلفي من قرية ملهوف. بدلاً من الواجهة. والتي كان من المفترض أن نصلها لو أننا سلكنا الطريق الآخر. وواجهتنا هناك إحدى حقائق الحياة المألوفة والسريعة المتكررة بين البوراتيين وهي. أن الكلاب المقيّدة التي تثير صخباً عالياً من الصعب إرضاؤها. وليس من الممكن رشوتها بقطعة من الطعام. وإذا ألقيت الطعام لهذه الكلاب المقيّدة في البيت البوراتي فسوف تأكل قطعة اللحم في ومضة ومن ثم تمزق الشخص الغريب الذي قدم لها الطعام إن استطاعت الأمساك به.

وانطلقت العربة عبر القرية بسرعة، وأخذت الكلاب تنبح بغضب شديد، من مكان إلى آخر، وكان كل كلب مقيداً إلى سياج أو بعمود مثبت بالأرض بإحكام. وليس مستغرباً تقييد وحوش كهذه في مكانها، وكلما أصبح شخص أو عربة مجهولة على مرأى منها، يندفع الكلب إلى الأمام كما لو كان حراً، ويثب بشراسة، إلى أن تصل السلسلة المكبل بها إلى نهايتها، ويُجرّ بالقوة نفسها التي كان يندفع بها. ويحفر كل كلب قرب العمود المكبل به حفرة، تحوطها الرمال، ويحصل ذلك نتيجة وثوب الكلب وجرّه بالسلسلة. ودائما ما تبقى الكلاب خارج البيت، وعندما يأتي الشتاء، يصنع لها عند موقعها مأوى، ولا يبدو هذا المأوى جيداً، لأنه لا يوفر الكثير من الحماية ضد الرياح والعواصف. وعلى العموم قد يستنتج شخص دخيل أن حياة الكلاب بين البوراتيين لا تعني عملاً بدون مقابل.

وبعد اجتياز محنة الكلاب وصلنا أمام واجهة منزل المضيف الصيفي، والتي تتألف من ستة منازل، يحيط بها جدار عال مصنوع من الخشب، أو مسيجة بالألواح خشبية. وبعد جهد يسير فتحت البوابة ودخلنا إلى فناء المنزل. لم يكن هناك أحد سوى البواب. وإلى الآن لم أرَ أحداً، ويبدو المكان مهجوراً، ومع ذلك أعلمني البواب، أن سيدة المنزل في الداخل، وأشار إلى أقرب بناء على الجهة اليمنى، فاتجهت نحوه على الفور. وقرب الباب كان هناك رجل لم ألحظه مسبقاً ممدداً على وجهه، ولم يتحرك على الإطلاق، ما عدا حركة بسيطة على جانبه تدل على التنفس، واكتشفت لاحقاً أنه مخمور. واندهشت من الصمت الذي ساد حولنا، لأن أندريه ميخايلوفيتش كان قد أبلغ الجميع بأنني سوف أصل مسكنه الصيفي في ذلك اليوم.

وانتظرت بضع دقائق في الخارج بعد أن أعلن البواب عن اسمي ومن ثم دخلت. وكان سيد المنزل يجلس على حافة مربع في الوسط تحيطه النار وهو شيء مألوف في جميع المساكن البوراتية القديمة. وعلى جميع الأطراف الأربعة في هذا الفراغ كان أشخاص يحتسون الأرجي أو التاراسان (وهو خمر مصنوع من اللبن المقطر موجود في كل منزل كبير ومعتبر في بورات). وكانوا يضعون شراب التاراسان في دلو ويمررونَها بينهم في كأس مصنوعة من الخشب أو مغرفة.

وبعض النساء هناك تعدِّين مرحلة السعادة أو الحزن. أما مضيفي، فكان في غاية الجدية، وأجلسني بجواره بكل احترام وفخر، وقدم لي التاراسان، وبعدها تساءل إذا ما تلقيت الرسالة التي أرسلت منه إلى آخر محطة توقف، فأجبته بأنني لم استلمها. وبعدها قال لي بأن ابنه الأكبر قد مات فجأة: وقد مرض قبل بضع ساعات فقط، وكان هذا يوم تشييعه. وأضاف بأن المنزل سيكون في حالة حداد لبعض الوقت، ووفقاً للعرف البوراتي، تمتنع الأسرة بشكل صارم عن الخروج من

منزلها لمدة تسعة أيام. ولا تقابل أحداً خارج العائلة الخاصة. وقد أبلغني في رسالته بهذه الكارثة المفاجئة التي حلت به. وأعلن فيها أنه سيكون من المستحيل أن يستضيفني في منزله. وبعبارة أخرى. فقد كتب لي أنه يتوجب عليّ الابتعاد عنه. ونسي. في هذا الحزن. أن يساعدني في العثور على مكان آخر للسكن.

واتضحت الآن فضيلة اختياري للطريق الأيمن. ولو سلكت الطريق الأيسر لكنت التقيت بالرسول. واضطررت للنوم في محطة التوقف القادمة. ولتدبرت نفسي بأفضل وسيلة في اليوم التالي.

وعندما شرحت لمولوف أنني سلكت الطريق الأيمن. أدرك على الفور سبب عدم حصولي على الرسالة. وقال بأن رسوله قد اتخذ الطريق الآخر المعتاد. ومن ثم لم يلتق أحدنا بالآخر. والموقف الآن هو: إنني في منزل لا يستقبل الزوّار في ذلك اليوم. لكنني كنت هناك دون قصد. بسبب سذاجتي: بل أكثر من ذلك. كان من حقي التواجد فيه. لان الدعوة وجهت إليّ.

وبعد تفكير للحظة أو لحظتين نهض مضيفي وقال. "يجب أن تأتي إلى منزلي الآخر". واتجهنا إلى البيت الواقع في الجانب الآخر من المنزل الكبير. وفي الطريق قال لي : "أولاً وقبل كل شيء. يجب أن تشرب الشاي معي. وسوف آمر بتجهيز السماور".

ودخلنا منزلاً ذا أثاث جميل ومتقن. وهو مبني ومؤثث على النمط الروسي. وجلب السماور. وسرعان ما امتلأت المائدة بمختلف الأطعمة الطيبة الصغيرة. وقال ميخايلوف الذي كان يشرب الفودكا بحرية وبدا مبتهجاً كثيراً "أتمنى أن تأكل بعضاً من لحم البقر الذي تربي في مزرعتي". وفي الوقت المناسب وضعت شرائح اللحم على المائدة. وشرب مضيفي المزيد من الفودكا. وبشراهة شرعنا نهجم على الطعام. وأتينا على شرائح اللحم كلها. وشربنا الشاي مرة ثانية: وكانت المشروبات ممتازة. وتستحق كل الثناء الذي يمكن أن يُكال لها.

وبعد الانتهاء من الغداء أصبح ميخايلوف أكثر مودة. وعانقني ورفعني عن الأرض. معرباً عن ارتياحه الكبير لصداقتنا. وقال لي بأنني أستطيع الذهاب إلى منزل ابنه في أستورديا. في المحطة القادمة. وجعلها مقري أطول فترة أريدها. وكان ابنه الثاني. فاسيلي. يمتني بذلك المكان. وبعد ذلك. وللتعبير عن أقصى درجات التقدير والاحترام. اصطحبني إلى «خيمته». وأظهر لي «الورقنس» و«البوركنس» (الآلهة المنزلية). معلقة على عارضة خشبية في زاوية مظلمة من القاعة. وقال إنه طوال عمره استضاف ثلاثة حكام روس لكنه لم يدعهم يشاهدون «ملاذه». وسمح لي بمشاهدتها الآن لأنه شعر بمودة عميقة نحوي.

وبدأ الظلام يسود المكان بسرعة، وتبقّى لدينا أكثر من ثلاثة أميال للوصول إلى أستورديا. واعتقدت أنه من الجيد مغادرة مضيفي في أقرب وقت ممكن ليتفرغ لعائلته. وجُلبت العربة ووضعت خارج البوابة التي دخلنا منها. وقد تلقى السائق الأصم ذو الشفة الأرنبية حصة جيدة من الطعام والشراب منذ مجيئه، وخصوصاً المشروبات، وبطبيعة الحال صَعّب ذلك من عملية فهم كلامه الذي كان أصلاً عصيًا على الفهم.

واتخذنا مقاعدنا في العربة استعداداً لمواصلة رحلتنا، وبدلاً من الذهاب إلى الأمام بدأت الخيول، ترتكز على أرجلها الخلفية، وانتصبت واقفة كما لو كانت بشراً، ثم هوت فجأة وانطلقت باتجاه المحطة التي أتت منها.

وأصبح السائق، الذي كان لا يزال مستثاراً وهائجاً إثر الإكثار من تناول الحليب الكحولي، غاضباً جداً عندما قيل له أن يرجع ويتابع سيره ثلاثة أميال نحو استورديا. فانصاع السائق ولكنه صب جام غضبه على الخيول التي حثها على السير بسرعة كبيرة عبر الريف الفسيح. وكانت الطريق عبارة عن آثار مسار عربات في الحقل. وانطلقت الخيول مسرعة لبعض الوقت على طراز العربات الهاربة من وجه العدالة. فصرخت في السائق الأصم، ذ ي الشفة الأرنبية بأن يقلل من سرعة الخيول، ولكن دون جدوى على الإطلاق. لم تكن هناك وسيلة لوقف الرجل إلاّ بالتشبث به وإمساكه، وكان في حالة انتشاء وبهجة، وهي ليست أمراً غريباً على البوراتيين. فعقله كان في حالة هيجان وسكر، أما جسده فبدا طبيعياً وهادئاً، وانطلقت العربة صباح ذلك اليوم نفسه بسرعة. والآن واجهنا نهراً عريضاً وضحلاً دون أي إشارة واضحة على تقليل سرعتنا، فاندفعنا نحو النهر بشراسة، ووصلت المياه إلى قوائم الجياد والمحور الأمامي للعربة. فأصبت بالذعر، لاعتقادي بأننا سنواجه صخوراً أو عقبات أخرى في الأماكن العميقة في النهر، ولكن الجياد وثبت إلى الضفة المقابلة، وهي تقطر ماءً، وأخذت صيحات السائق تتعالى مرة أخرى لحث الخيول على الانطلاق إلى الأمام عبر السهول الرمادية المعشبة والجافة، وعلى أي حال استمرت الخيول في سرعتها. ولو كنت شخصاً يؤمن بالانمساخ لاعتقدت بأن هذه الحيوانات قد مسخت رجالاً، يلاحقها شخص مجنون جالس على صندوق العربة ووراءهم السائق ذو الشفة الأرنبية الذي يهاجمهم بكل قوة ورهبة، وهم يحاولون الإفلات من الانتقام الإلهي، ولا يمكن لأحد أن يعلم إن كانت الجياد قد فرت بجلدها أو أن السائق قادها إلى أقصى درجات التحمل.

وفي نهاية المطاف رأيت أمامنا الكنيسة الروسية بجانب الطريق خارج مدينة أستورديا والمحطة التي كنا نسرع نحوها، وبعد مرورنا بالكنيسة بفترة وجيزة عبرنا جسراً خشبياً هائلاً.

وانطلقنا نحو الطريق الرئيسة والوحيدة تقريباً في القرية. وعلى بعد ميلين من الجسر بلغنا منزل ابن أندريه ميخايلوفيتش الذي كان يقيم فيه. وفاسيلي هو، الناجي الوحيد من أولاده، كان المسؤول عن رعاية المنزل والعمل على صيانته. وقد أعطاني الأب رسالة قصيرة لكي أسلمها لفاسيلي، لتأمين استقبال ملائم لي.

وكان المنزل يتكون من طابقين، وهو أفضل بناء في القرية. وهناك منزل آخر أبعد ولكنه تابع للأول يستخدم للخزن. ووراء المنزلين مدخل لباحة واسعة يخفيها سورعالٍ جداً، وبوابة مدعومة بعوارض متينة فوقها. وشرع رجل كان يقف بالقرب منا بالطرق على البوابة نيابة عنا، وتوجب علينا الانتظارعدة دقائق لتلقي الإجابة. وكان فاسيلي، أو فاسيا، كما يطلق عليه الجميع، مشغولاً في مكان آخر، ولم يعلمه أحد عن الضيوف القادمين. كان من الضروري الانتظار حتى يتم العثور على الخادم في الداخل وإعلام سيد البيت بأن حضوره مطلوب.

وبعد فترة من الوقت جاء فاسيلي وفتح البوابة على الفور. وفور سماعه بأنني أتيت حاملاً رسالة من والده وضع الجزء العلوي من المنزل تحت تصرفي، الذي يتألف من ثلاث غرف، وشرفة زجاجية مغلقة مطلة على الشارع. وكانت الشرفة تقدم منظراً رائعاً لبداية الطريق ونهايته أو الشارع الرئيسي، وأيضاً للحقول الواسعة وما وراءها من السلاسل الجبلية أمامنا.

وفي حوالي الساعة السابعة كان السماور جاهزاً، وهذا هو كل ما كنا بحاجة إليه لأنني اشتريت الكثير من الشاي من ايركوتسك، ومؤونة جيدة من السكر، أو رسكس، وهو لذيذ مع الشاي. وبعدها بعدة ساعات تناولنا العشاء، وتحادثت مع فاسيلي حتى الساعة الحادية عشرة.

وتبين بأن هذا الشاب البوراتي شخص مثير للاهتمام. وكان طالباً في ثانوية ايركوتسك في ذلك الوقت، وقد أكمل ست سنوات، ولم يتبقَ له سوى سنة واحدة لإكمال دراسته. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان قارئاً نهماً، له معرفة واسعة بالمسائل المهمة في العلم والتاريخ أيضاً. كان بوسعه التحدث عن داروين، وأصل الإنسان، ولديه خلفية لا بأس بها في الكيمياء، وقبل كل شيء، كانت لديه معرفة كبيرة بشعبه من البوراتيين، وهذه عندي كانت غاية أساسية. وهنأته بحرارة بالغة على كونه واحداً من القلائل الذين حافظوا على عادات أجداده القديمة ومعتقداتهم. وقلت له إن البوراتيين هم الوحيدون من المغول الشرقيين الذين فعلوا ذلك، وهو عمل يمكن أن يخدم العلم والإنسانية.

وبعد العشاء سألني فاسيلي عن تجربتي في ذلك اليوم، ووصفت له السباق الأول، ومن ثم

قيادة اسفوشيك صاحب الشفة الأرنبية بتلك السرعة المتهورة. التي يسميها الهنغاريون "السرعة المميتة للحصان".

وبعد رحلة مضنية تخللها سباق، وتنقل، ومفاجآت كثيرة من ظهر ذلك اليوم. كنت سعيداً للاستلقاء وأخذ قسط من الراحة. ونمت إلى ما بعد الفجر. وذهبت فوراً إلى الشرفة. كان صباحاً مبهجاً. والهواء منعشاً. وعلى بعد ميل واحد في الحقول على الطرف الآخر. كانت قطعان من الماشية والأغنام ترعى بنهم يبعث على الدهشة.

وفي وقت الضحى رأيت من الشرفة، لأول مرة، مجموعة من البوراتيين الجبليين، وهم يمتطون جيادهم بتلك الطريقة والتي يحركون أقدامهم حركات خفيفة مع تمايل الجسم إلى الأمام قليلاً. وكان عددهم خمسة وعشرين شخصاً. وكانت حركة الخيول المغولية غريبة. فخطواتهم التي تبدو قصيرة، وسريعة، تؤدي إلى سرعة أكثر بكثير مما يمكن للمرء أن يتصور.

هناك حركتان تؤديها حيوانات النقل، وتكون خادعة للعين غير المدربة. إحْدَاهُمَا هي الجري بخطوات تشبه خطوات البعير الواسعة، والأخرى هي الخبب (بين المشي السريع والعدو) للحصان المنغولي. وأتذكر مرة أنني كنت أمتطي حماراً وأنا أجتاز مقالع الحجارة في أسوان، قرب أول شلال لنهر النيل، وظهرت مجموعة من الجمال بلا مقدمات، ولاحظت أنها كانت تمشي، ولأنني كنت مشغولاً أشحت بنظري عنها، ولكن بعد هنيهة نظرت كرة أخرى وكانت هذه المرة قد ابتعدت مسافة بعيدة جداً. إذا أخذنا بعين الاعتبار الفترة التي أشحت بنظري عنها على الرغم من أنها لم تبدُ مجهدة عندما كانت تتحرك فوق حقل الرمال بتلك السرعة. وارتفعت الأرض أمام الجمال تدريجياً بحيث شكلت تلاً يغطي أفق الهضبة، وأخفت أي حيوان يمكن لشخص واقف في الموضع الذي أنا فيه أن يراه. ثم نظرت كرة أخرى إلى الجمال المتحركة، وبعد فترة وجيزة كانت الحيوانات تتحرك على قمة الهضبة المستوية، وسرعان ما بدأت سيقانها تغوص في الرمال، وهذه المرة أبعدت عينيَّ عنها عن قصد، ثم انتظرت. طال انتظاري بضع دقائق، ثم نظرت بعدها، فرأيت أن الجمال قد اختفت، ولم يكن على التل سوى حجرين أو ثلاثة تشبه الأضرحة على الرمل.

وفي ذلك الصباح كانت الخيول البوراتية تعدو بخطوات سريعة وثابتة، ولكن عندما تكون على مقربة منها، لا تبدو سرعتها بذلك الوضوح، وكلما انطلقت نحو الأفق ازداد الإحساس بسرعتها أكثر. خرجت من الشرفة، ومشيت في الغرفة عدة مرات وخرجت مرة أخرى: فلاحظت أن الخيول قد قطعت مسافة طويلة، وكانت بعيدة، وتبدو أصغر فأصغر بشكل سريع للغاية. وبقيت أراقبها تتضاءل في الحجم، وفي النهاية بدت صغيرة للغاية، اتجهت يميناً ثم اختفت وراء بناء.

وحينئذ لم أستطع إلاّ التفكير في هذه الحيوانات الرائعة من الخيول المغولية والجمل العربي، والدور الذي لعبه الاثنان في تاريخ البشرية.

ويا له من دور رائع ذلك الذي لعبه الجواد المنغولي الذي عبر المناطق بين نهر أمور ونهر بورما، والأراضي جميعاً بين البحر الأصفر وبحر الأدرياتيك. ليس هناك حيوان خدم الإنسان بهذا الجلد والتحمل، وهو حيوان يسهل إطعامه، ويمكن أن يعيش ويقتات وحده. ومن المستحيل أن تنجح حركات المغول وغزواتهم دون تلك الخيول.

ولم يأتِ من فراغ لأن الكثير من الأساطير المغولية تُعدّ الجواد أكثر حصافةً من البطل الذي يمتطيه، وفي أساطير ذلك البلد عن الجواد، بالإضافة إلى خدمته لصاحبه، غالباً ما يقدم له التوجيهات الحكيمة ويوفر له المشورة. ولولا الجمال لتعذرت الحياة في الصحراء العربية. ولما وجدت الديانة الإسلامية، وحتى لو وجدت لما توسعت إلى رقعة أكبر دون الجمل.

والتفت الآن إلى فاسيا للحصول على معلومات تخص تلك الجياد التي هي اقرب إلى البشر منها إلى الحيوان، وسألته عن سبب تجمعها بهذا العدد الكبير، والى أين هي ذاهبة؟ فأجاب إنه في ذلك اليوم كان هناك حفل زفاف، أو بعبارة أدق جزء من حفل زفاف، حيث إن الزفاف بين البوراتيين يتطلب عدة أيام لإكماله، وأحيانا توجد عدة شهور بين حفل الزفاف الأول والحفل الأخير، وسألني «هل تريد الذهاب اليوم إلى الحفل؟». فأجبته بأنه سيسعدني كثيراً أن أرى زفافاً بوراتياً أو حتى جزء منه.

وفي حوالي الساعة العاشرة، طلبت الجياد من محطة التوقف، وبعدها بحوالي نصف ساعة كنا مستعدين للرحلة، ولم يستطع فاسيا المجئ بسبب حالة الوفاة الأخيرة في العائلة، وجاء بدلاً منه شقيق زوجته، «ليزاروف» الذي عاش في شامروك، وهي القرية التي تتم فيها مراسم الجزء الأول من الزواج، في هذا اليوم المشرق من تموز/يوليو عام 1900.

وليزاروف أرمل أحول العينين: وهو رجل فطن، ويقظ، ويهتم اهتماماً كبيراً بالمسائل المادية، وقد توفيت زوجته، وهي شقيقة فاسيا، قبل بضعة أشهر فقط.

وبعد أن ربطت ثلاثة خيول بعربتي، انطلقنا بأقصى سرعة، والرحلة بهذه الطريقة تعتبر مقبولة جداً في هذا الوقت من السنة، وخصوصا في الصباح، وتمنح سرعة الخيول بهجة في الهواء المنعش، وأرجو أن يسمح لي القارئ بالقول إن الإثارة والاندفاع اللذين يشعر بهما المرء آنذاك لا وجود لهما في الولايات المتحدة الأمريكية.

وبينما كنا متجهين في الطريق إلى قرية شامورك شرح لي ليزاروف العديد من المسائل المتعلقة بالزواج والحياة بصفة عامة بين البوراتيين. أما المعلومات التي حصلت عليها من فاسيا فكانت أكثر بكثير. وسوف أشرحها لاحقاً في الكتاب. والقرية التي تبعد حوالى أربعة أميال من أستورديا. ذات مناظر خلابة. وهناك في أعلى التل أرض منبسطة. وعلى هذه الرقعة تنتصب قرية شامورك. وفي الأعلى هناك منحدر آخر يمتد إلى قمة التل. ومن تلك النقطة تجد أمامك المنظر واسعاً. فقد استطعت أن أحصي أربع عشرة قرية.

وكان الكل مبتهجاً في قرية شامورك احتفالاً بالعطلة عامة. وكان الهدف الأساسي هو الاحتفال على الأقل بجزء من حفل الزفاف. وقضاء يوم في تناول الطعام والشراب. وكانت المنازل كلها مهجورة. ما عدا منزل والد العروس. الذي احتشد فيه جمهور من الناس. وفي الطرف المقابل جلس الأشخاص الثلاثة الذين سعوا للزواج أمام الباب. وهم المرأة الطاعنة في السن. والتي بدت كما لو أنها قد عقدت صفقة جيدة. كما يقال في الشؤون عامة. ووقف رجل كبير السن في وسط الغرفة. يتحدث وعيناه تنظران إلى الأعلى. تتضرع إلى الآلهة أن تسبغ سعادتها ورخاءها على العريس والعروس. وبعد مرور بعض الوقت أراق بعضاً من شراب التاراسان في الفتحة في أعلى السقف. وخاطب الآلهة كرة أخرى. وبعد ذلك أراق بعض شراب التاراسان إلى الآلهة مرة ثانية.

وكان عدد كبير من الناس جالسين على المنحدر المعشوشب في أعلى القرية. أما الفراغ في الوسط فكان مخصصاً لربط الجياد. وقد تحول إلى بستان مؤقت. ووضعت بعض من أشجار البتولا في الساحة لإعطاء ظل مؤقت للجياد. وحضر الأشخاص الخمسة والعشرون الذين مروا إلى استورديا في الصباح. وآخرون غيرهم.

وبعد السير لفترة من الوقت هنا وهناك. ذهبنا إلى أعلى التل ووجدنا عدداً كبيراً من الناس. ليس من تلك القرية وحسب. ولكن من قرى أخرى في المنطقة. وكانوا جالسين على الأرض على شكل مجموعات منظمة. وعلى ثلاثة جوانب من شكل رباعي الأضلاع. جهتان منه تقع على جانبي التل. والجانب الثالث يوصل الجانبين في أعلى التل. والجزء السفلي من التل بقي دون أحد. وفي هذا الفضاء الرحب. كان الناس يأتون ويذهبون. وبعضهم يجلب المرطبات. التي تتألف بشكل رئيسي من التاراسان (حليب الويسكي). ولحم الضأن المسلوق. أما الآخرون فبعضهم انضم إلى المحتفلين الجالسين على الجانب الواطئ من التل. وانشغلوا بالكلام والضحك وتسلية أنفسهم.

وفي هذه الأثناء كان الرجال الذي يحملون التاراسان يوزعونه من مجموعة إلى مجموعة ويسقون كل من يرغب في المزيد. وبدا أن الأشخاص الجالسين مستمتعون بتذوق ما لذ وطاب من

الأطعمة والمشروبات. ولم يكونوا صاخبين، أو مسرفين. ولكن تبين أنهم فرحون بالحدث في هذا اليوم الجميل من ضحكاتهم وأحاديثهم التي منحتهم شيئاً جيداً كانوا يتمنون حدوثه.

ورأيت على قمة التل قطيعاً من الأغنام يتبعه رجل ذو لحية بيضاء طويلة. ذهبت لإلقاء نظرة على قطيع الأغنام. ووجدت أن الراعي كان روسياً. وكعادة معظم الروس الذين يعملون في أرض البورات، كان من المدانين السابقين. وعلى الرغم من أنه كان طاعناً في السن إلا أنه قوي البنية. وكان وحيداً في هذا العالم، يتبع هذه الأغنام طلباً للرزق، ويعيش مع الأجانب، منتظراً أن تنتهي حياته في سيبيريا.

وعندما عدت إلى الناس المحتفلين على المنحدر، أخذني مضيفي إلى منزل والد العروس. ووجدت في باحة البيت مجموعة كبيرة من الشباب يرقصون بكل ما أوتوا من قوة. يرقصون بشكل يائس، ويرقصون كما لو أن سعادة الزوجين الشابين تعتمد عليهم، وسعادة الشعب البوراتي تعتمد على طاقتهم. وكان الهواء المحيط بهم مجرد سحابة من الغبار، الذي كان يزداد كثافةً. وتراءى لي لو أن هؤلاء الشباب استمروا في رقصهم بتلك الحماسة والقوة وازدادت سرعتهم تبعاً لذلك، فمع الوقت سيختفون في سحابة الغبار الرائعة. وبعد أن راقبتهم للحظات قليلة أخذني ليزاروف إلى "خيمته" أو بيته، الذي يقع في الطرف الآخر من القرية. وكانت هذه القرية تواجه الجنوب، وبالتالي فإنّ كل باب في المنزل كان يفتح في اتجاه الجنوب.

وكل بيت بوراتي مبني على الطريقة القديمة له ثمانية جوانب، والباب في منتصف هذا الجانب يواجه الاتجاه الجنوبي مباشرة. ولهذا البيت أرضية خشبية تعلو فوق سطح الأرض بشكل بسيط. وفي الوسط مساحة مستطيلة لا أرضية فيها، وإنما يظهر تراب الأرض. وفي هذه المساحة تشعل النار، وفوقها مباشرة في السقف فتحة أو فجوة للدخان. ولا توجد حواجز في هذا المبنى، وتقدم الستائر الخصوصية الوحيدة المتوفرة. وتستخدم الصناديق كخزائن للملابس. وتعتبر النار المركزية هي نقطة التجمع في المنزل. وإن كان الكثير من البوراتيين، وخصوصاً الأغنياء منهم، يبنون بيوتهم على النمط الروسي، وخصوصاً في فصل الشتاء، بل إنهم يجدون بهجة في الأنماط القديمة من المنازل ذات الأضلاع الثمانية، التي تكون في وسطها حفرة للنار. يجلس الرجال على حافة الأرض المرتفعة رافعين أقدامهم في فراغ هذه الحفرة. ويتجمعون في المساء، أو كلما شاؤوا، ليتبادلوا الأحاديث والقيل والقال، والثرثرة والكلام عن الأعمال التجارية، أو لسماع أخبار جديدة. ومن وقت لآخر يفتح وعاء كبير، أو سطل، يتسع لجالون أو أكثر من شراب التاراسان ويمرر من شخص إلى آخر. وفي السطل مغرفة خشبية، يستخدمها كل شخص ليغرف ما يشاء من الشراب.

وكان منزل ليزاروف بوراتي الهيكل والشكل، نظيفاً ومرتباً. ورأيت عدداً كبيراً من الخيم أو المنازل بعد ذلك، ولكن لا شيء يقارن بنظافة منزل ليزاروف. وكانت امرأة روسية كبيرة السن تربي ابنه الصغير وهي مسؤولة عن نظافة البيت ورعايته. وهذا بلا ريب يفسر النظافة غير العادية للمكان. ثم قدم الشاي ذو النوعية الجيدة والكعك. وبينما كنا نحتسي الشاي دخل علينا رجل روسي منفي، رملي الشعر، أنيق، ولطيف، وقال إن منزله كان في القرم ولكن لأسباب سياسية أرسل للعيش بين البوراتيين. وفي هذا الوقت، لم يتبقَ من محكوميته سوى سنة واحدة. وتألقت عيناه سعادةً عندما تحدث عن موعد اقتراب حريته أو انتهاء فترة نفيه.

وعند اجتيازي لمنزل ليزاروف متوجهاً إلى العربة كانت هذه فرصة لإنهاء عملية المسح التي قمتُ بها عن القرية. كانت الأرض مغطاة بالغبار الذي يصل إلى الكاحلين عندما كان يسير فيه. وهذه الطبقة، التي يختلف سمكها من مكان إلى آخر غطت القرية جميعاً وصولاً إلى حوافها والأطراف الخارجية من المنازل، وما وراءها ويتضاءل سمكها في اتجاه المناطق الريفية المفتوحة، حتى يصل إلى نقطة لا يستطيع المرء أن يلاحظه. وهذا الغبار هو عبارة عن الروث المجفف للحيوانات من الأغنام والخيول والماشية ذات القرون. وفي أوقات ذوبان الجليد والأمطار فإنّ الروث يصبح طيناً ليناً، أما في وقت الجفاف، وأثناء الطقس الدافئ فإنه يتحول إلى غبار. وفي الأيام الهادئة يبقى الغبار ساكناً، ويشق الناس طريقهم من خلاله؛ وعندما تهب الرياح، يملأ أرجاء المكان كافة، ويدخل إلى أصغر الأماكن والشقوق والتصدعات والتجاويف، ويتنفسهُ الناس، ويبلعونه، ويشربونه، ويتناولونه، ويعيشون معه، ويحيون به.

ورجعنا الآن إلى أستورديا، تاركين وراءنا تلك القرية على سفح التل بكل همومها وأهوائها، وهي نفسها التي تشغل الناس في كل مكان: أي، العيش والحياة ومحاولة البقاء عندما تولد حياة جديدة، وأحياناً ندمرها دون أن ندري، في حين أن البعض الآخر يحيا لأجلها، لا بل أن البعض يكدح لها وحتى قد يموت من أجلها، فالدوافع هي نفسها في كل البلدان ولكنها تختلف في التفاصيل فقط.

الفصل الثالث

جمع الأساطير

عاد اندريه ميخايلوفيتش من منزله الصيفي في اليوم التالي من حفل الزفاف. وكان يفترض به أن يبقى في منزله تسعة أيام. ولكنه رجع. وبعد فترة دعاني لأتمشى معه في الشارع. ومشينا على امتداد القرية بأكملها. وقابل عدداً من الناس الذين أظهروا له احتراماً هائلاً. ثم قَبّلَ رجلاً واحداً. وكان هناك تصنّع وتكلّف في تلك القبلة. فهو يمثل رجلاً كبيراً من البورات. وها هو يقود زائراً أمريكياً في استعراض مهيب في البلدة!

وقفنا على الجسر الطويل في مدينة ألكودا. تحدثنا قليلاً. ونظرنا إلى النهر والبلد. ثم كنيسة البعثة الروسية.

قال ميخايلوفيتش. "لقد طلب مني الأساقفة والكهنة أن أُعَمّد ولكني لن أفعل ذلك. وسأبقى متمسكاً بالمعتقدات التي ولدت بها".

حينها ظهر رجل مسرع على ظهر جواد بأقصى سرعة. وبدا أن هناك قوة داخلية مميزة وغريبة في الرجل والجواد. واندفع الرجل باتجاه ميخايلوفيتش دون أن يخفف من سرعة الجواد. وأثناء مروره به ألقى تحية احترام وإجلال. وسرعان ما أصبح الرجل وراء كنيسة البعثة. وبعدها أصبح مجرد بقعة بعيدة في الأفق.

وقلت لمضيفي وأنا أراقب الفارس "فكر في الوقت الذي كان جنكيز خان يملك فيه مائة ألف فارس مثل هذا الفارس وأكثر من مئتي ألف حصان أسرع من ذلك الحصان «فأجاب . آه! لم يكن هناك في الأرض شي يشبه فرسان جنكيز خان. كانوا يكتسحون كل ما يلقون أمامهم! وماذا لدينا الآن؟ لا شيء. كنا عظماء سابقاً. غزونا دولاً عديدة. وحكمنا العديد من الشعوب. اجتاحتنا الصين وروسيا. ولكن سيعود زماننا مرة أخرى».

وعدنا إلى الشرفة وتحدثنا طويلاً حول مسألة العثور على أناس يروون الأساطير القديمة. ويشرحون عادات الشعب البوراتي وتقاليده. جهزنا قائمة وبدأ البحث في تلك الظهيرة. وأرسلنا مبعوثين للقرى المجاورة بحثاً عن أناس حكماء. وجلب أولئك القادرين على ذلك إلى «أستوردي» إذا كان ذلك ممكناً. وكنت أستطيع الذهاب إليهم إن كانوا كباراً في السن وعاجزين عن السفر. وكانت أول وأهم خطوة هي العثور على أشخاص يعرفون ما أريد. ومستعدين لروايتها.

عثرت على عدد قليل منهم. والبعض منهم كان في زيارة إلى أماكن بعيدة يصعب الوصول إليها. والبعض الآخر كان يعرف الكثير قبل سنوات عديدة ولكنهم نسوا كل شئ تقريباً. وفي المحاولة الأولى عثرنا على رجلين مسنين فقط. ووعدا بأن يأتيا في اليوم التالي. وحضرا في اليوم التالي وقدما بعض المعلومات. وسردا علينا قصة واحدة لا بأس بها. ولكن سرداها باختصار شديد. وكانت القصة عن اسيجي ملان. أو الأب الأصلع (الأب الأصلع هي أعلى جنة بحد ذاتها). و(إهي تزار) «الأرض الأم». وهي معروضة لاحقا في هذا الكتاب مع أساطير أخرى.

وعثرت على رجال آخرين بعد هذين الرجلين. ولم يفوا بالفرض إلى أن ظهر مانشت. وسرد لي ثلاث قصص: جسير بوغدو وأشر بوغدو والبطل الحديدي.

وعندما انتهى مانشت من سرد القصص الثلاث صرح بأن عليه الرجوع إلى بلده. وأصبت بخيبة أمل كبيرة لأني اقتنعت بأنه يعرف الكثير من الأساطير. ومع أنه وعدني صدقاً أنه سيعود ويسرد لي كل الذي يستطيع أن يتذكره. ولكني شككت بعودته لكونه رجلاً غير هادئ. وبدا كأنه يكره أي شي يتطلب تركيزاً عالياً. وكان يعشق الغليون ويدخن باستمرار. وينفث الدخان بين الجمل وحتى بين الكلمات. وبدا بأن الكلام يعيق تدخينه. وشعرت إلى حد ما بأنني لا ينبغي أن أراه مرة أخرى إلاّ عندما يحتاج إلى المزيد من المال لشراء التبغ.

وفي الصباح الباكر من الثلاثين من يوليو مرت عربات طويلة يجرها حصان واحد مزدحمة بالرجال والنساء وعبرت الشارع الرئيس لأستوردي. كان هؤلاء الرجال والنساء منفيين من روسيا. ويمشي بجانب كل عربة جندي قوي البنية ويحمل بندقية.

وجاء إيماز بالتوقف عند أول حقل بعد القرية. وتركت العربات المغبرة في الحال. وانقسم حشد المنفيين إلى مجموعات وبدأوا بإشعال النار وتجهيز الشاي. وخلال ذلك الوقت شكل الجنود دائرة حول المجموعة كلها لحراستها.

وبلغ عدد الرجال والنساء مائتين وأربعة وسبعين. وكانوا على الطريق نحو نهر لينا بعيداً

باتجاه الشمال إلى بلدة الياكوتس المتجمدة. وقد صدرت أحكامهم قبل صدور كتاب إبطال أحكام الإبعاد والنفي إلى سيبيريا. وكانوا ذا أهمية خاصة. ربما لكونهم آخر مجموعة من السجناء الذين سيرسلونها إلى هناك. الذي طالما استخدم مكاناً للنفي والعقاب. والتحق بالسجناء مجموعة صغيرة من السجناء السياسيين. ولكن سمح لهم بالتوقف في محطة البريد ليرتاحوا ويتناولوا المرطبات.

وأكل الحشد الجالس على الأرض الخبز البني وشرب الشاي بلذة كبيرة. ولم يَحظَ الجنود المسؤولون عن السجناء بطعام أحسن منهم. في الواقع لم يحظوا حتى بالطعام نفسه. فقد حصلوا على قطع كبيرة من خبز الجاودار حسب ما رأيت، ولم يقدم لهم الشاي في هذه الوقفة. وبدا لي أنه لو اتحد السجناء لتمكّنوا من التغلب على الجنود بدون أسلحة. فقد كان عددهم قليلاً. على الرغم من حذرهم ويقظتهم.

كان الانطباع الظاهر على هؤلاء الناس غريباً. كانوا جميعا أقوياء وخشنين. وبالأساس من طبقة الفلاحين. ولم يكونوا بأي شكل من الأشكال مكتئبين أو حزينين أو مضطربين. كان أربعون منهم مصفدين. وحتى هؤلاء لم يبدُ عليهم التأثر على الإطلاق. ولا يمكن للمرء أن ينظر إلى هؤلاء السجناء ويظن أنهم أناس مضطهدون ومعاقبون. كنت متلهفاً للحديث مع بعضهم. ولكن لم يسمح لي بالدخول إلى خط الجنود.

وأعطي أمر «رفع المخيم» بعد ساعة من الراحة. وبعد خمس دقائق أخمدت النيران. ورُتّبَت الغلايات. وتحركت العربات الطويلة من جديد على الطريق المغبر.

وبعد ذلك ذهبت لزيارة أندريه ميخايلوفيتش في منزله الصيفي. وعلى بعد حوالي ميل ونصف الميل من بيته التقيت به وهو في طريقه إلى استوردي راكباً عربة يجرها حصان واحد.



أمتعة المنفيين ومؤنهم



صورة توضيحية للمنفيين وهم يعبرون قرية استوردي

ومع ذلك رجع، وقاد عربته قبلي بسرعة لكي يصل إلى البيت ويستعد للترحيب بي. وتمنيت كثيراً أن التقط صورة لـ "أنجونز" أو الآلهة المفترض بها حماية منزله وممتلكاته. وشككت بحصولي على موافقته، ولكنه وافق بسرور.

وقمت أولاً بتصوير أولئك الذين يحرسون البيت والمعلقين دائماً في الزاوية اليمنى العليا من المنزل. ثم ذهبت لأصور الأنجونز التي تحمي ممتلكات المنزل. كانت في صندوق يتكون بابه من أربعة ألواح زجاجية صغيرة. كان هذا الصندوق معلقاً على أعلى عمود للسقيفة. وفكك بصعوبة كبيرة، وأحضر إلى الأسفل ووضع في مكان حيث أستطيع تصوير الآلهة التي يحتويها. ولم يستطع أندريه ميخايلوفيتش أن يحمل هذه الآلهة إلى المنزل أو يخرجها من الصندوق. لأن ذلك الفعل سيجلب مصيبة للعائلة.

واحتوى الصندوق الكبير على صندوقين صغيرين من صنع أهل البيت. واحتوى الصندوقان الصغيران على صور بسيطة للآلهة، وهم رجال ونساء صغار جداً في مخطط، وجلد سنجاب بري، وقطعة أو قطعتَيْن من الجلد المجفف لحيوانات صغيرة جداً. وعندما أخذت الصور دعاني أندريه ميخايلوفيتش لزيارته في منزله الشتوي، قائلاً بأننا سنمر على آلهة حقله في طريقنا.

وانطلقت بنا العربة في مراع مستوية نحو التل إلى الشرق وتسلقنا أعلى الهضبة ببطء إلى حد ما، وبعد ذلك عبرنا منفذاً، ونزلنا تدريجياً إلى حافة منحدر الهضبة، أو بالأحرى إلى نقطة معينة على المنحدر، وتطل هذه النقطة على منظر رائع للبلدة: عدة قرى، وممر، ونهر متعرج، وإلى اليمين قليلاً يقع المنزل الشتوي لمضيفي. وهناك خمسة وعشرون أو ثلاثون عموداً على منحدر الهضبة وعلى قمة كل عمود ثمة قطعة خشبية مثبتة بحيث تبدو كنصف سقف، وتحتها في فتحة العمود صندوق صغير مع مقبض وغلاف منزلق. وتحتوي الفتحة أيضاً على غطاء منزلق يحمي الصندوق في داخله ويثبته.

وأخرج أندريه ميخايلوفيتش الصندوق من بريده. ثم فتحه وأراني الآلهة الموجودة على قطع من الحرير أو القماش. وكانت هناك عدة صور معدنية صغيرة مربوطة بقطعة من الحرير الأزرق. وثمة صورة صغيرة مرسومة على قطعتين صغيرتين من القماش.

صورت الأعمدة. وربطت الصور حول عمود وصورتها بأفضل طريقة ممكنة. وبعد انتهائي من ذلك، أخذ اندريه ميخايلوفيتش قطع قماش من العمود وطواها بحذر. ثم أعادها إلى الصندوق. ووضع الصندوق على الأرض بالقرب من كومة عرعر مجفف جمعه سائقنا وأشعلها. وعندما اشتعل العرعر المجفف داس عليه بقدمه ثلاث مرات لينبعث منه الدخان ثم أطفأه. وبعد أن طهر اندريه ميخايلوفيتش الصندوق بالدخان وضع كيساً من التبغ فيه. كان قد أخذه سابقاً من الصندوق نفسه. ثم أغلقه وأعاده إلى العمود. وغطى الفتحة. وأنجز كل شيء بقدر هائل من العناية والتبجيل.

كان على كل شخص بوراتي أن ينصب واحداً من هذه الأعمدة أو الدعامات ويضع فيها صور آلهته عند زواجه. ويساعده في ذلك الشامان (الكاهن الساحر). وعندما يموت إنسان ما، يزال الصندوق الذي يحتوي على آلهته. ويحمل إلى الغابة ويعلق عالياً على شجرة. ويبقى هناك حتى يتفسخ. ويتوجب على الشخص الحامل للآلهة ألا ينظر للخلف، لأنه لو نظر خلفه سيجلب مصيبة لأسرة الرجل الميت.

وشيد بيت اندريه ميخايلوفيتش الشتوي على الطريقة الروسية مع مواقد مبنية من طوب كبيرة بين حواجز الغرف. وفي الفناء هناك بيتان أو ثلاثة بيوت مثمنة الزوايا لمنغوليين أظن أنهم سكنوا فيها في فصل الشتاء، إلا في حالة مجيء أحد الحكام.



صورة توضيحية لمجموعة من المنفيين يستريحون ويتناولون الغداء.

وعند حلول المساء توجهت نحو استوردي. كانت الطريق تمر عبر أرض متموجة ومتعرجة. وعبرنا حقول جاودار عديدة. باستثناء واحدٍ أو اثنين منها كانت الحبوب في حالة سيئة. وبعد عبور سلسلة من الجبال العالية نزلنا إلى فرجة أو فتحة في غابة ذات أشجار صغيرة. وفيما بعد وصلنا ثغرة أخرى أكبر وهي مكان منعزل في غسق الليل. وقابلنا روسياً هناك. كان فظاً وقوي البنية ولكنه بسيط. وكان حصانه يَعْلِفُ بالقرب من عربة صغيرة. وكان الرجل نفسه مشغولاً بالتدخين. وفي تحريك شئ يغلي في قدر على نار صغيرة. لم ينتبه إلينا ولم يرد على تحيتي.



صورة توضيحية لزواج بوراتي

النساء الثلاث في واجهة الصورة هن اللواتي سعين في الزواج

وصلنا إلى استوردي في وقت متأخر من المساء.

والآن مرت بضعة أيام لم أبذل خلالها أيّ جهد للحصول على رواة للقصص. حيث قضيت وقتي في دراسة اللغة. كان الثاني من أغسطس/آب اليوم المقرر لأداء طقوس التضحية بالحصان قرباناً. واحتجت إلى تنظيم أموري والتهيؤ لهذه المراسيم الاستثنائية.

تعد بلاد البورات واحداً من موضعين في آسيا حيث لا يزال بالإمكان مشاهدة التضحية بحصان كقربان. وقد مارس المغول هذه الطقوس منذ أزمنة موغلة في القدم. وهي دليل مثير على بقاء ديانة بدائية واستمرارها.

كان اندريه ميخايلوفيتش قد أنهى فترة الحداد [على وفاة ابنه البكر] الآن. وجاء لزيارتي ثم ليشهد الاحتفال الكبير. وعلى الرغم من أدبه الجم. انتابني شعور يقيني بأنه لم يكن متلهفاً لمشاهدة الاحتفال بتقديم الحصان قرباناً. بل على العكس من ذلك. قرَّ عزمه على ألاَّ أشاهد تلك

المراسيم قط. فقد أبلغني في المساء الذي سبق القربان. ثم كرة أخرى في الصباح اللاحق قائلاً «سأغادر في حوالي الساعة التاسعة صباحاً، وهو وقت مبكر جداً، وإذا شرعتَ برحلتك ساعةً بعد ذلك، فسيكون لديك متسع من الوقت». ولكنني في الأمسية التي سبقت زيارته، كنت قد اتخذت كل الإجراءات الكفيلة بحيث تكون جيادي جاهزة ومنتظرة في محطة التوقف القريبة، لذا ففي غضون عشر دقائق من مغادرة مضيفي ورحيله، كنت في عربتي منطلقاً عبر الحقول بأقصى سرعة.

عندما قطعنا مسافة تبلغ حوالي ميل واحد، أعلن سائق العربة عن رغبته في التوقف لشرب الحليب عند منزل يقع على جانب الطريق، وقال لي بأنه يشعر بعطش رهيب، وبذل كل جهد للتسويف والمماطلة، وأعتقد أنه أفرغ في جعبته غالوناً كاملاً من الحليب، وبعد ذلك، انطلقنا ببطء شديد، وألححت عليه واستعجلته مراراً وتكراراً، ولكنه رفض أن يحث الجياد على الإسراع.

وفيما بعد، عندما قطعنا أكثر من نصف الطريق نحو تل القرابين، كان على وشك التوقف أمام أحد المنازل، ولم أسمع له هذه المرة بالتوقف إطلاقا، وأمرته بالإسراع والانطلاق إلى الأمام. وعندما وصلنا أخيراً إلى التل، اكتشفت بأن سبعة من الجياد التسعة كانت قد قدمت كقرابين، وقد بقي فرسان أشهبان رائعان. وكدت أضيّع على نفسي مشاهدة تلك المراسيم، فقد كان الفرسان أروع ما يمكن للمرء أن يشاهد من الحيوانات جميعاً، وقد سنحت لي الفرصة لرؤية أدق تفاصيل مراسيم تقديمهما كقربانين. كان موت الحيوانين أليما جداً.

الفصل الرابع
الحصان قرباناً

تحدث طقوس التضحية بالحصان، أو ما يسمى بـ «التايلجان» على تل يسمى (أوهار)، ويبعد قرابة سبعة أميال من أوستوردي. وقد بني على هذه الهضبة خمسة عشر مذبحاً كبيراً من الحجر. وتقام التضحية على يد أفراد من الفخذ الأول والفخذ الثاني من قبيلة أشيخابات. وسكن مؤسس هذه القبيلة في باجانتينج كما ورد في الماضي الأسطوري والتي ربما تبعد نحو ميلين عن أوهار. وكان لدى ذلك الرجل أو مؤسس القبيلة سبعة أنجال. وقام هو وأنجاله بالتضحية (للبوركانز) وهم آلهة هضبة أوهار. وأولئك الآلهة على الجبل المقابل ورئيسهم مالان نويون.

ومضى خمسة من الأنجال السبعة إلى ما وراء بحيرة بايكال. ويقوم أحفادهم بالتضحية هناك إلى يومنا هذا، ولكنهم يضحّون لأجل «باجانتينج»، حيث نشأت عشيرتهم.- حيث يسكن ابن مؤسس العشيرة. وبمرور الوقت نُسي (أوهار) ونسيت قدسيته.

وتجري طقوس التايلجان، أو التضحية بالحصان، كما يأتي: قرابة الساعة السابعة من صباح مراسيم التضحية ترسل مختلف الأسر من القبيلة عدداً كافياً من الرجال إلى الأوهار مع الأواني وشراب التاراسان والحليب والشاي والأغصان والأشجار والشجيرات – في الواقع، مع كل شي ضروري للتضحية.

والمشروبان اللذان يشربان هما التاراسان والآخر يسمى بـ «الأبيض». وعادة ما يكون حليباً حلواً أو حامضاً حسب مقتضى الحال. ويقدم الشاي مع الحليب أيضاً، لأن بعض الأشخاص يفضلونه.

يقف الرجال الذين أرسلوا مقدماً مع المؤن والأواني في منتصف الطريق إلى الأوهار ويريقون الحليب والتاراسان إلى آلهة الهضبة والجبل، والى كل الآلهة الذين قد يكونون موجودين. يتضرعون إليهم أن يهبوهم أولاً تضحية جيدة وكريمة، ومن ثم النجاح والازدهار للذين قاموا بالتضحية. ويذهب جوهر الحليب والتاراسان في الحقيقة إلى الآلهة، بكميات كبيرة ونوعية

فاخرة. ولذا فإنّ قطرة واحدة قد تملأ برميلاً عندما تصل إلى وطن الآلهة. أو عندما تصل إلى الجبل والهضبة. حيث يوجد في كلٍ منهما مساكن جميلة. غير مرئية للناس.

ويجهز الرجال الذين أُرسلوا مقدماً عند وصولهم لهضبة التضحية مواضع الغلايات. ويعلقونها على حاملات ذوات ثلاث قوائم ويجهزون الحطب تحتها وتكون جاهزة للاشتعال. ويتخلصون من الأواني والأشياء الأخرى التي استخدمت في المناسبة.

ولكل عائلة سكن على الهضبة على مقربة من أحد المذابح الخمسة عشر. وتفرز أغصان شجرة البتولا في تلك الأماكن. ولاحقاً تحصل الإراقة قرب هذه الأغصان. وهي. سكب بضع قطرات من الحليب في الهواء تكريماً للآلهة. وعند تمرير شراب التاراسان يلقى القليل منه في الهواء.

وتشعل النيران عند اجتماع الحشد. ويطهُر الحصان في بادئ الأمر وذلك بقيادته عبر النيران (يجب وجود إما ثلاث أو تسع أو سبع وعشرون ناراً). ويقاد بعد ذلك إلى الأشخاص الذين يتولون المهمة والذين يرشون الحليب على وجهه. وعلى شعر رسنه. ويلقون القليل منه في الهواء للآلهة. وبعد ذلك يراق التاراسان. ومن ثم يقومون بالصلاة وطلب الرحمة والمغفرة من جميع الآلهة. ويتوجب عليَّ أن أذكر بأن الحصان يقاد إلى الجهة اليمنى لشجرة بتولا صغيرة أحضرت من غابة قريبة. ويكون الجزء الأسفل من جذع الشجرة على الأرض. ويستند الجزء العلوي من الأغصان على عارضة. وتسمى الشجرة «قدم موضع التضحية».

ويستدير الأشخاص المكلفون بالتضحية وهم يقولون مع انحناء الركبة «نحو الآلهة التسعين الغربيين أولاً. ومن ثم إلى الآلهة الأربعة التوجيت الشرقيين، وتوجيت تعني «كاملاً». هؤلاء هم الآلهة الذين نزلوا من السماء وهم في الشرق. ولكن مكانهم غير معروف تحديداً. ويستديرون بعد ذلك إلى الأوندر ساجان تانجرين (الجنة الصافية الرفيعة). ويريقون الخمر لكل الآلهة أو مجموعة من الآلهة بينما يذكرون أسماءهم. ويتوسلون بعد ذلك إلى أولجين ساجان ديدا (الأرض الموقرة الطاهرة). والتالي هو بوقا نويدن باباي (أب الثور الأمير). ومن ثم بوردنج يهي ليبي (أم الضباب المباركة) وزايا هونج يهي زاياشا (الخالق العظيم. الذي خلق الجميع). وهذا هو القنفذ في الوقت الحاضر. وهو الأكثر حكمة بين جميع الآلهة في دين البوراتيين. على الرغم من أن آلهة أخرى حلت محله. والتالي هو زايانج ساجان تنجيري (الخالق. الجنة النقية). ثم ايسيجي مالان باباي (الجد ذو الرأس الأصلع). وثم ايهي أورنج ليبي. وبعد ذلك أداها زاينج (خالق الماشية). وأوها سولدنج (الفرس الذهبي) أي بمعنى ضوء الشمس أو فجر الصباح. وفجر الصباح هو خالق الجياد. ثم هوتوج ميلجان (أحدب الظهر). وهي آلهة السماوات الليلية وخالقة البشر.

يقوم الناس بالتضرّع إلى جميع الآلهة بالاسم وبالترتيب المحددين. وتخاطب كما يُخَاطَبُ القدّيسُونَ في الصلاة عند المسيحيين. ويستغيث الذين يؤدون المهمة بالآلهة ويتبعهم الناس. إما علناً أو سراً. ويدعو كل رجل عادة ويصلي لشيء محبب لديه، أو يرغب فيه بشدة. وعند انتهاء الصلاة تربط الحبال بإحكام على خصل الشعر في مؤخرة قائمة الفرس. ويمسك كل حبل أربعة رجال. ومن ثم يسحب الرجال الثمانية في المقدمة الأرجل الأمامية إلى الأمام والى حد ما بعيداً عن بعضها البعض. بينما يسحب الثمانية الآخرون الأرجل الخلفية إلى الوراء بعيداً عن بعضها البعض. ويسقط الحصان على جانبه ثم يقلب على ظهره. ويمسك الرجال الستة عشر الحبال بقوة ويكون الحصان حينها عاجزاً كلياً عن الحركة. ويأتي رجل ومعه سكين حادة وطويلة وذراعه اليمنى عارية إلى الكتف. وبضربة واحدة يحدث جرحاً عميقاً في عظمة الصدر. ويدفع يده في الفجوة. ويضع يده على قلب الحصان. ويسحبه بقوة من صدره. ويحاول الحيوان المسكين أن يقاوم. ولكن دون جدوى، وينفق على الفور. واختلف الوضع إلى حد ما مع الحصان الآخر. وبالتأكيد لم يؤدِ الرجل عمله ببراعة. أو أن يده كانت أضعف، حيث إنه بعدما سحب يده واعتقد بأنه انتهى. استعاد الحصان وضعيته بحيث أنه تمكن من عض الأرض من كثرة معاناته وعذابه. كان المنظر محزناً وكشر الحيوان عن أسنانه بشكل مريع. وأصبحت عيناه خضراوين وزرقاوين وتشبهان إلى حد كبير لون بعض الخنافس. ولم أرَ في حياتي تعبيراً شنيعاً عن ذلك الألم المريع من قبل . وتأوه الحيوان مرة واحدة بصوت ألم لا يوصف، وأبقى فمه في الأرض لوهلة ثم سقط جثة هامدةً.

وكان الرجال يسرعون لسلخ الجياد عند نفوقها. ويقسمونها أربعة أجزاء. وينزعون اللحم من العظم. وتوضع العظام بعد ذلك على المذابح الحجرية الخمسة عشر. حيث لم تكن النيران مجرد مشتعلة بل مزمجرة. ويوضع اللحم في القدر الحديدي وفي هذا الوقت تكون النيران تحتها تلتهب بسرعة.



صورة توضيحية لتجمع الناس للتضحية بالحصان

وكان هناك الكثير من النشاط والحيوية في كل الجهات. فقد جلس الرجال في مجموعات على منحدر الهضبة بأكملها. بادئين من أعلى مذبح نزولاً إلى المذبح الخامس عشر قرب أسفل الهضبة.

وفي هذه الأثناء. جلس عدد كبير من المجموعات قرب أوعية التاراسان وشربوا منها دون قيد. وقطّع اللحم قطعاً صغيرة لذا لم يتطلب طبخه وقتاً طويلاً. وطبخ لحم الجوادين اللذين ذبحا أولاً قبل أن يوضع لحم الجوادين الآخرين اللذين ذبحا لاحقاً في الأواني.

وأُلقيت قطع صغيرة من اللحم المطبوخ في النار الملتهبة في المذابح حيث كانت العظام تحترق. وألقي الحساء أيضاً من الأوعية في أكواب صغيرة على النار في المذابح.

وعندما طبخ الطعام كله وكان لحم الجياد التسعة جاهزاً للأكل. وقف الناس جميعاً في مجموعات أمام المذابح الخمسة عشر. كانوا يتحركون أحياناً في اتجاه المذابح ويتراجعون أحياناً أخرى. ويرمون كمياتٍ صغيرةً من الحساء وقطَعاً صغيرة من اللحم في النيران وهم يترنمون بالدعاء للآلهة التي سبق ذكرها. قائلين:

"نصلي لكم لنتلقّى نِعمكم. واخترنا لكم اللحم من بين أكثر الماشية تسميناً. وصنعنا من أجلكم التاراسان القوي. نتمنى أن تجعلوا قرانا أطول بفرسخ. وأن تنجبوا الماشية في حظائرِنَا المسيّجة. وأن تنجبوا أولادنا تحت بطانياتنا. وتنزلوا علينا المطر من السماء العالية. وتنبتوا العشب. وأن تنتجوا الكثير من القمح بحيث لا يستطيع المنجل أن يجمعه. وأن تنبتوا الكثير من العشب بحيث لا يستطيع المنجل أن يقطعه. ولا تسمحوا بخروج الذئاب إلاّ الأدرد (أي بدون أسنان) منها. ولا الحجر إلاّ الحجر الخالي من الحواف الحادة. وحلقوا فوق رؤوسنا. وحلقوا خلف رؤوسنا. وارحمونا ولا تغضبوا علينا. وساعدوا أولئك الذين نسوا ما نعرفه. وأيقظوا أولئك النائمين (في الروح) منا. وكونوا رحماء علينا في السنة القاسية (السنوات العصيبة). وكونوا كرماء معنا وعلينا في السنة العسيرة (سنة العوز). وأبعدوا الروح الشريرة عنا. وأرشدوا الروح الوضاءة إلى جانبنا. وأرشدوا الروح الكئيبة بعيداً عنا. وقربوا الآلهة إلى جانبنا. وأدفعوا بالعشب الأخضر إلى أفواه الماشية. ودعوني أسِرْ على أول الثلوج المتساقطة. وإن كنت جباناً. امنحوني الشجاعة. وإن كنت خجلاً. أعطوني الوجه المليح. وكونوا غطاءً لي في الأعلى. وكونوا لي من الأسفل كالسرير اللباد".

وبدت الطقوس جليلة جداً وذات طابع ديني ورع عندما وقف الناس أمام المذابح الخمسة عشر المبنية من الحجر وناجوا آلهتهم متضرعين إليها. ويكرر الجميع المناجاة التي ذكرتها للآلهة. ويضيف كل فرد بعد ذلك ما يراه مناسباً له. وبعد انتهاء الصلاة جلس الحضور ضمن عوائلهم وأكلوا لحم الحصان. وشربوا التاراسان حتى نهاية الطقوس.

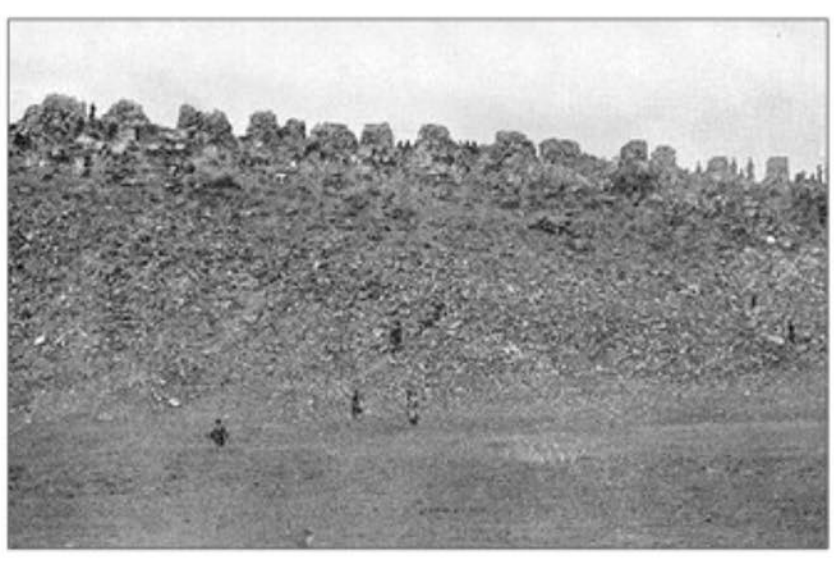
وحلقت النسور. وكان هناك العديد منها يطير فوق الهضبة. وهجمت إلى الأسفل على مقربة منا خلال رمي اللحم على المذابح. وفي إحدى المرات أخذتُ قطعة من اللحم من فاسيا ورميتها باتجاه أحد النسور فأمسك بها الطائر ببراعة فائقة وحلق بعيداً.

وألقى فاسيا قطعة أخرى إلى نسر آخر فالتقطها بالبراعة ذاتها. واندفعت النسور إلى وعاء طفل واختطفت اللحم منه. وسألت فاسيا فيما بعد إذا ما كان الناس يعدون هذه النسور مقدسة. فأجابني قائلاً ليس تماماً. ولكن قيل في بعض الروايات إن هذه النسور تندفع أمام الآلهة عند مرورها من مكان إلى آخر. ويفترض أن يدل ذلك على وجود الآلهة على الجبل المقابل. أو على الهضبة التي نقف عليها.

وعند انتهاء الناس من الأكل والشرب. انسحب الأولاد ورموا الأغصان في النار. أو تلك الأغصان التي غرزت في المكان المحدد لكل عائلة. ودل ذلك على نهاية طقوس التضحية. ويؤخذ ما تبقى من الحساء واللحم إلى المنزل. ويدفن ما تبقى باعتناء إن لم يستخدم كله. ويجب ألاّ تأكل القطط أو الكلاب أي قطعة منها لأن ذلك سيكون تدنيساً ونذير شؤم وكارثة.

إن طقوس التضحية بالحصان بالغة الأهمية. وهي طقوس بقايا دينية واجتماعية من العصور القديمة. ولا نكاد نستطيع أن نبالغ في قيمتها. واتضحت عدة أشياء بعد النظر بتمعن في طقوس التضحية. وأول هذه الأشياء بدون شك هي: يجب وجود توافق بين المجمتع والعقيدة المعلن عنها – أي وئام تام بين الدين والناس.

بينما كنت أمشي ذهاباً وإياباً بين هؤلاء البوراتيين. تحدثت مع البعض وراقبت البعض الآخر. ورأيت أنهم يستمتعون بطقوس التضحية استمتاعاً حقيقياً. وكان هناك سبب وجيه لتلك المتعة.



المذابح الحجرية
على تل القرابين

فقد كان هناك سبب للبهجة في ذلك اليوم. فقد كانوا جالسين على تل جميل تمتلكه الآلهة، الذين نزلوا من السماء وسكنوا التل وجعلوه مسكناً دائماً. في الواقع كان الناس جالسين على سطح منزل مقدس وكانوا يحتفلون ببهجة برفقة الأصدقاء والأقارب.

كانت أمامهم وعلى مقربة منهم جبال تعيش عليها آلهة أخرى. وفي الجهة المقابلة في السهول كانت الآلهة تعيش في منازل رائعة الفخامة والجمال. وكانت الآلهة سخية وودودة مع الأشخاص الذين يتذكرونهم. وكانت لديها القدرة لمنح كل شئ جيد وبوفرة.

وعلى سطح ذلك الجبل كان البوراتيون يشربون ويأكلون ويمرحون، فقد أرسلوا حصة من لحم الخيول وحسائه إلى الآلهة، الذين بدورهم استلموا ذلك اللحم والحساء وضاعفوها أضعافاً مضاعفة. فالقطرة منها تكفي مائة رجل عند وصولها لبيت الآلهة، وكل قطعة صغيرة من اللحم على نحو مماثل، وكذلك مع التاراسان الذي كانت بضع قطرات منه تجعل الآلاف ينتمشون ويبتهجون.

أكلت الآلهة وشربت من هذه القرابين والأضاحي التي تضاعفت أضعافاً. في حين توجه المؤمنون المخلصون لمناجاتهم وصلواتهم لكي تلبى، ويدعون لما يمتلج في قلوبهم. وبعد ذلك ملأ المؤمنون المحتفلون بطونهم بأنواع من الأطعمة غير المضاعفة والتي كانت موجودة بوفرة.

كان الجو مفعماً بالبهجة والتآلف والأكل والشرب مع الآلهة، التي تستطيع أن تلبي صلوات المؤمنين ومناجاتهم.

وألقى الجانب الاجتماعي الضوء على جانب من حياة الناس، واتضح ذلك جلياً عند البوراتيين في الحفاظ على دين بدائي : مثل العلاقة الحميمة بين الناس والآلهة، وبهجة الآلهة وألفتها، والأهم من ذلك كله هي تلك الفلسفة الغريبة، على الأقل غريبة عندنا، من حيث إن الآلهة تفرح بأشياء مادية صغيرة يمنحها البشر وتستفيد منها.

عندما يعيش المجتمع والدين بتناغم، فإنّ المجتمع يتعلق بالدين إلى حد كبير ويرتبط به. وإذا كان المجتمع بسيطاً ومستقراً كما هي الحال في المجتمعات الرعوية، فسيعيش المجتمع ودينه في تناغم تام لفترات طويلة إن كانت البيئة مواتية. وعندما يترسخ الدين فإنه يتعرض لتغيرات قليلة نسبياً وليست جوهرية، وتكون طقوسه ومراسيمه مقدسة، ويفسر كلامه وأساطيره حرفياً. وعندما تُعدّل أو تُغير أو تُلغى طقوس أو مراسيم أو بلاغات فإنك تدمر ذلك الدين، حيث إن روح الدين ليست في وجهة نظر الناس عامة، ولكن في أشكاله، وما يبدو من الخارج من منهجه وصلته

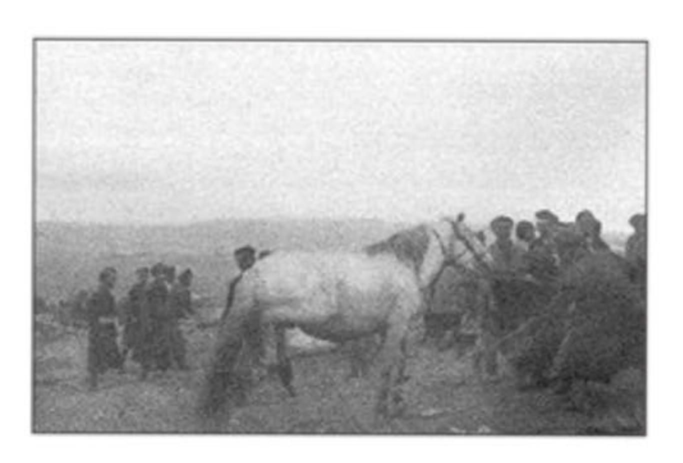
بالحياة عامة، وبعادات وتاريخ شعب يؤمن به. وتكون الحياة الرعوية في معظم الأحيان مستقرة، وخصوصاً في بلد يتوفر فيه العشب بكثرة، والزراعة فيه غير معروفة، وإن عرفت لا يعيرونها أي اهتمام. وكان البوراتيون سيعيشون قروناً عديدة دون تغيير في دينهم أو عاداتهم لولا نفوذ روسيا والصين.

بالطبع لا شيء في العالم ثابت أو قد يكون ثابتاً. ويمكن تحريك أي شيء في الوجود عن طريق دافع داخلي أو صدمة خارجية بمرور الوقت. ولا يوجد أي كوكب في الفضاء في مأمن من التصادم على الرغم من كبر حجمه ودورانه بشكل منعزل عن بقية الكواكب الأخرى. ولم تمتلك مجموعة من الناس تحت مسميات مختلفة كالقبيلة أو الأمة أو الجمهورية أو الإمبراطورية إرادتهم إلاّ لفترة قصيرة نسبياً. وفي هذا الوقت تتضح شخصية المجموعة وتبدأ بالغزو. وتكون هذه الصفة بارزة عند الجميع. وتصطدم مجموعة مع مجاميع أخرى لا محالة، وهي أيضاً خاصة. والنتيجة هي تدمير أو ذوبان بعض المجموعات، وتعديل وتوسيع مجموعات أخرى. ويمكن أن تُصور مسيرة التاريخ برمته باعتبارها تتابعاً لا نهاية له لهذه الاصطدامات.

ولنعد إلى الشعب البوراتي الغربي وطريقة حفاظه على دينه التي كانت من أولوياته بصورة خاصة، وبقيت كذلك. وقد أصبح نظراؤهم من رجال القبائل الأخرى الذين عاشوا شرق بحيرة بايكال، وتأثروا بعالم البوذية الكبير. وكان البوراتيون الغربيون معزولين إلى حد كبير. ويواجهون مشكلات مع جيرانهم. ومع هذا فانهم يفضلون دينهم البدائي . ولم يكن هناك أي اعتراض من الروس على ذلك، وكانوا يفضلون الرجوع إلى الشامانية على أن يصبحوا بوذيين. وكانوا سيبقون على وثنيتهم إن لم يكونوا راغبين بدخول المسيحية.



صورة توضيحية يقدم فيها الحصان قرباناً



صورة توضيحية لطقوس التضحية بالحصان

وفي الواقع يعد قبول دين جديد ينكر جزءاً كبيراً من حياة وعادات شعب بدائي خطوة عظيمة إلى الأمام. ويقتضي دخول المسيحية بين البوراتيين ثورة عارمة. أما عند المغول فإنّ الانتقال من الشامانية إلى البوذية كان أقل صعوبة بعد دخول البوذية هضبة التبت. وقد اقتنع البوراتيون الغربيون بالدين الشاماني. وإذا كانت هناك أي دعوات تبشرية، بوذية كانت أم مسيحية، فهي طفيفة جداً ولا تؤثر إلاّ في أفراد غريبي الأطوار.

وبعد التضحية يأتي دور المصارعة في الجنوب الشرقي أو على سفح التل. وهي تسلية شعبية جداً بين البوراتيين. وهناك دوماً مصارعة بعد التضحية بالحصان وبعد تنصيب رجال الشامان المقدسين.

ترك الناس جميعاً قمة التل. وذهب بعضهم إلى حلبة المصارعة. والبعض الآخر بقي على حافة التل التي لا تبعد كثيراً عن مكان الخيول التي قدمت كقرابين للآلهة.

وهناك مرحلتان في حلبات المصارعة: المرحلة الأولى هي المناورة للحصول على أفضلية القبضة. ويتطلب هذا وقتاً، ربما خمس عشرة أو عشرين دقيقة قبل أن يشتبك المتنافسان في الصراع. ولا تدوم مدة المصارعة في أكثر الأحيان قدر المدة التي تستغرقها المناورة.

بعد التايلجان (التضحية بالحصان) قررت أن أرحل إلى الشمال الشرقي والجزء الشمالي عبر بلاد البوراتيين. تمنيت زيارة أولخون قبل كل شيء، وهي الجزيرة المقدسة لبحيرة بايكال، والتي يعيش عليها حوالي سبعمائة شخص، وهم أكثر بدائية من باقي البوراتيين. كنت متحمساً لرؤية شعوب هذه الجزر وسماع حكاياتهم الشعبية إن أمكن.

وجهزت جميع المؤن التي استطعت العثور عليها في أستوردي أو محطة البريد التالية. واتخذت الترتيبات اللازمة لفاسيا وليزريف (أحول العينين) ليذهبا معي ويساعداني بكل وسيلة. أعطاهم أندريه ميخايلوفيتش عربة خفيفة ومريحة. وكان عليَّ تجهيزهم بالمؤن ودفع نفقات سفرهم. وكان على أحدهما القيام بالترجمة من اللغة المنغولية إلى الروسية. وكنت أفضل فاسيا دائماً لكونه أكثر ذكاءً، وأكثر اهتماماً بقيامه بالعمل لأنه كان مهتماً بأساطير شعبه أيضاً. وكان مترجماً ممتازاً أيضاً لإتقانه اللغتين الروسية والبوراتية.

لا أعتقد أبداً أنني وجدت حالة توضّح معنى التنمية أكثر من تلك التي عرضها البوراتيون الثلاثة، وهم فاسيا ووالده وليزريف. وخلال السنوات الست التي قضاها فاسيا في صالة الألعاب الرياضية في إركوتسك لم يتعلم فقط ما كان يقدم في الدورة العادية بل اكتسب حباً حقيقاً للقراءة الجيدة، واكتشف المعنى الحقيقي للعلم، ووجد متعة في التطور العقلي. وكان والد فاسيا رجلاً يؤمن بأن المعرفة قوة، ولكن ببساطة هي القوة لكسب الثروة والمال، والحصول على الأراضي والماشية والنفوذ والأهمية. كانت هذه هي القوة المهمة بالنسبة له. ولهذا السبب يمكن تسميته رجلاً عملياً.

كان ليزاريف يؤمن بأن العلم هو ما يجعل ثلاث أوراق من الحشيش تنمو مكان اثنتين سواء عن طريق السحر أو المكائد أو بسبب جهد الآخرين الذين يَفُوقُونَهُ ذكاءً أو دهاءً.

كنا نبحث عن تبادل المنفعة خلال الرحلة. وكنت آمل أن يساعدني الرجلان بطرق مختلفة. كانا يتكلمان الروسية بطلاقة، لذا استطعت أن أتكلم مع كل بوراتي. كانا معروفين في كل الأماكن. وستكون الرحلة موفقة معهما إلى حد ما. كانا مستمتعين بالذهاب معي، وعلاوة على ذلك قمت بدفع تكاليفهما. كان الطقس جيداً والبلد بمجمله مثيراً للاهتمام، لا بل إن أجزاء منه جميلة. وعلمت فيما بعد بأنهما كانا يقومان بأداء مهمات وأعمال تجارية لوالد فاسيا.



صورة توضيحية لطقوس التضحية بالحصان







صور توضيحية لطقوس التضحية بالحصان

الفصل الخامس
رحلة إلى جزيرة أولخون

بعد انتظار طويل وممل حُدّد يوم انطلاق الرحلة بيوم السادس من أغسطس. ولكننا لم نستعد للرحلة إلاّ بعد الساعة الواحدة ظهراً. وقبل الشروع بالرحلة بدقائق شهدت مراسيم مثيرة للاهتمام. فقد جلس ثمانية رجال مع فاسيا على شكل دائرة على الأرض. ثم نهض واحدٌ من هؤلاء الثمانية ورفع كأس الفودكا مناشداً الآلهة أن تمنح فاسيا رحلة مزدهرة وموفقة. ثم أراق الفودكا على الأرض. وقدت العربة من أستورديا مباشرة إلى منزل ليزاروف. الذي كان من المفترض أن يرافقنا في الرحلة. وقد اقترح الرجلان أن ينطلقا وحدهما في الساعة الثانية. ولكني فضلت أن يكونا معي. إن أمكن ذلك.

وعند وصولنا وجدت أن ليزاروف «لم يكن مستعداً» وأنه يحتاج إلى ساعة على الأقل. وانهما كانا يرغبان هو وفاسيا في التوقف لوقت قصير في إحدى القرى القريبة حيث كان هناك حفل زفاف لصديق يحتفل بجزء من زواجه. ووعدني ليزاروف وعداً صادقاً بأنه سيلحق بي في الطريق. أو في أولوز. المحطة القادمة. واستمررت في القيادة. وعلى مقربة من الطريق السريع رأيت أول قرية. ورأيت تجمعاً كبيراً من الناس. لم يكن للسكان أية أعمال في ذلك اليوم. أو التفكير في أي شيء سوى حفل الزفاف. كان الشباب يرقصون بحيوية؛ وجلس الشيوخ والنساء على شكل مجموعات. يضحكون ويتحدثون. مستمتعين بالمرطبات الصلبة والسائلة.

وبعد ظهر ذلك اليوم من النصف الأول من شهر آب/أغسطس كان الطقس مبهجاً. ومشمساً ومشرقاً. وليس حاراً جداً. وكانت الطريق ممتازة. لأنها الطريق السريعة بين إيركوتسك عاصمة شرق سيبيريا. وياكوتسك. والتي كانت لعدة سنوات مدينة المنفى. وعلى طول الطريق. على الجانب الأيسر انتصبت العديد من المنازل المخصصة لفصل الشتاء.

وقد اختيرت أماكن بناء معظم هذه الأبنية، في أغلب الأحيان بحيث تحميها تلال مرتفعة من الرياح الآتية من الشمال والشمال الغربي.

ولا شيء يظهر التأثير الروسي على البوراتيين مثل بناء المنازل الشتوية. وقبل العهد الروسي شيد البوراتيون منازلهم دوماً من هيكل خشبي ذي ثمانية جوانب، مع فتحة في وسط السقف المغطى بالتراب الأرضي لإخراج الدخان. وتضرم النار من عصي توضع في الأرض في فتحة الدخان. وبوسعنا أن نتخيل بسهولة برودة هذه المنازل في فصل الشتاء. والمنازل الشتوية الآن التي تستخدمها الطبقة المترفة مجهزة بموقد كبير مصنوع من الطوب، وغالباً ما تكون مزوّدة بنوافذ مزدوجة وخصوصاً لدى الطبقات الميسورة.

وعلى الرغم من وجود العديد من المنازل على طول الطريق، فقد سافر سكانها لأماكن أخرى في فصل الصيف. ولذلك خيّم على المكان هدوء تام، ولم أرَ أي رجل أو امرأة أو أي حصان أو ماشية ترعى في المراعي. وقبل ذلك بأربع وعشرين ساعة أمطرت السماء، وبالتالي كانت الطريق نظيفة، ولا أثر للغبار. ونادراً ما سافرت بهذه البهجة في يوم مشمس في شهر آب/ أغسطس. ولم يكن هناك سباق للخيول في هذا الوقت، وتحركت العربة بكل يسر وسهولة. ولم تصادفنا سوى عربة واحدة، وكان يبدو كما لو أن العالم كله كان نائماً في البيت.

وفي حوالي الساعة السابعة دخلنا إلى قرية أولزوني، وهي قرية جميلة المنظر تقع في وادٍ ضيق، وهناك طريق واحدة تمر في منتصف القرية، وهي أيضاً الطريق السريعة. وعلى الجهة اليسرى، عند مدخل القرية وخارج أول مبنى في القرية، تقع أوستروغ أو السجن المطوق بسياج أو حاجز، والذي يوحي مظهره بالشر، وذلك لأننا نعرف سبب وجوده هناك، ولأي غرض يستخدم. ولم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا على الإطلاق.

ينحني الوادي على نحو فجائي نحو اليمين عندما نصل إلى أقصى موضع في أولزوني، وينتهي الشارع بتل عالٍ. وعلى هذا التل تنتصب كنيسة صغيرة خشبية، لا منازل وراءها. وتقع الكنيسة على طرف الطريق، والسجن على الطرف الآخر . وإلى اليمين حقول ضيقة تقع وراء التلال المشجرة. أما الجهة اليسرى نفسها فهي ذات مروج خضراء كثيرة التلال، ويبلغ ارتفاعها عن الطريق السريع حوالي خمسين قدماً.

وفي أولزوني محطة توقف ممتازة، ثم جُلب الشاي، وبدأت الاستعدادات لتناول العشاء الذي جُهز بعد ساعتين، وفي الشارع كان هناك قدر كبير من النشاط، والتقيت بطفلين اثنين كانا يلعبان لعبة الحصان، واكتشفت أن الطفل الذي يلعب دور الحصان اسمه تاموفيا، أما السائق فاسمه

أندريه. وكان عليّ الاحتجاج على أندريه لاستخدامه السوط بدون أية قيود. وعلى الرغم من أن تاموفيا أوضح لي أنه يتعرض للجلد لأنه يمثل دور الحصان الذي لا يريد أن يعمل. وكان هناك رجل يجلس على ثور ذاهباً لجلب المياه بعربته وبرميله. وكان الثور مدرباً تدريباً جيداً ويتحرك بخفة. ويقدم هذا صورة جيدة عن الحياة المحلية في القرية.

ولكي أكوّن فكرة عن اهتمامات سكان القرية، بالإضافة إلى حاجتي إلى بعض الإمدادات، ذهبت إلى المتجر الرئيس، حيث تعرفت هناك على تاجر بولندي اسمه بان تمبوسكي، وقد روى لي الكثير من الأشياء المثيرة للاهتمام التي تخص البوراتيين. وقد قضى في المنفى سنوات طويلة لأسباب سياسية: وبعد انتهاء عقابه عاد إلى روسيا، لكنه سرعان ما عاد مسرعاً إلى سيبريا، لأن "هناك المزيد من المال والحياة في سيبيريا". وبدا لي أن أيّ ممول سيحتاج إلى كل مصادره المالية لتأمين مجرد عيشة هزيلة في أولزوني.

وفي الساعة العاشرة ظهر ليزاروف وفاسيا اللذان لم يتركا حفل الزفاف حتى الساعة السادسة من ذلك المساء، بعد أن استهلكا كمية كبيرة من الطعام والشراب، وقضيا وقتاً ممتعاً ومبهجاً. وقد أكدا لي ذلك بقولهما: "كان رائعاً". وجُهزت الخيول الجديدة، وانطلقتُ في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر. وقرية أولزوني هي مكان مثير للاهتمام، ومحطة توقف ممتعة جداً. وعند عودتي من الجزيرة بقيت أربعة أيام في القرية. وفي حوالي الساعة الثالثة فجراً وصلت المحطة المقبلة، بانذايا، ولم أر شيئاً كبيراً بل مجرد قرية فقيرة والتي أصبح منظرها لاحقاً مألوفاً جداً. لم يكن هناك تأخير من حيث تأمين الخيول، وسرعان ما كانت العربة تتجه نحو محطة هوغوستاكيا، التي وصلت إليها في الساعة الخامسة صباحاً، ونمت على سرير صلب حتى الساعة السابعة. وكانت الرحلة الليلية ممتعة جداً، لأن الطقس كان مثالياً. وجاء ليزاروف وفاسيا بعد ذلك بساعة، للنوم لفترة قصيرة.

وفي حوالي الساعة التاسعة انطلقنا لزيارة الإخوة الكسندروف الذين يعدون الأكثر ثراءً ونفوذاً في أرض البورات: وتبلغ ملكيتهم من العقار حوالي خمسة أميال من هوغوستاكيا. وكان ذلك الصباح أدفأ من اليوم السابق، بل كان حاراً في حقيقة الأمر. والمنطقة المحيطة بهوغوستاكيا كثيرة التلال وذات أرض عشبية من التراب الأسود الخصب ذي العمق الكافي. ويتوافر القش والحبوب بكثرة، بالإضافة إلى المزارع. وقد وصلنا إلى بيت الإخوة الكسندروف بين الساعة العاشرة والحادية عشرة قبل الظهر. ويعيش الأشقاء الثلاثة في حي واحد: ومنازلهم قريبة من بعضها البعض، وتشكل بلدة كاملة، إذا ما جمعت معاً.

وبما أن الإخوة كانوا أصدقاء حميمين لأندريه وميخايلوف، استقبلونا بحفاوة بالغة، وقادونا إلى غرفة جلوس مبهجة ومؤثثة على الطراز الروسي، وبينما كنا نتحدث مع أحد من الإخوان كان الأخ الآخر يشرف على الخدم في المطبخ وأماكن أخرى، وخلال نصف ساعة جهز طعام بسيط في غرفة الطعام يسمى «باللقيمات»، وهي مجموعة من الأطباق الشهية الأولية، التي تؤكل قبل كل وجبة كبيرة في جميع أنحاء روسيا، وتقدم كأطباق مشهية ومغذية، وتعرض هذه «اللقيمات» في المنازل الكبيرة بشكل فخم وشهي. وحين دعينا إلى غرفة الطعام وجدنا مائدتين: الأولى فيها زجاجات الفودكا ونوعين من النبيذ، وهما الشيري والنبيذ الأحمر، وعلى المائدة الأخرى كانت هناك أشياء تؤكل، كالبيض المسلوق، والخبز الأسمر والسمك المدخن، وسمك الرنكة المخلل والسردين والجبن، والأسماك والبيض، وغيرها من المقبلات الفنية الشهية.

وكثيراً ما تؤكل اللقيمات وقوفاً، ولزيادة الشهية يتم تناول قدح صغير من الفودكا، أو غيره من المشروبات المماثلة، ثم يبدأ تناول وجبة الطعام الرئيسة، الذي هو أقرب إلى معركة حربية منه إلى طعام يؤكل.

وبعد المقبلات، تبقى لدينا وجبة منتصف اليوم التي لم تكن جاهزة بعد، فذهبنا مرة أخرى إلى غرفة الجلوس، وتحدثنا فترة من الوقت، وتكلمنا عن هذا البلد، وأساليب البورات في إدارة الأراضي، وتربية المواشي والخيول، والانتقال من مكان إلى آخر في الصيف، والرجوع إليه في فصل الشتاء.

وبينما كان الأخوان يشرحان لي هذه العادات بعناية، أعلن الخادم أن «وجبة الضيف» جاهزة وهي في انتظارنا، وكانت هناك مائدتان، إحداهما مربعة الشكل، جلس عليها رب البيت مع زوجته، وأنا وفاسيا، أما المائدة الثانية فجلس عليها شقيقه مع ليزاروف وأفراد من الأسرة يبلغ عددهم ما لا يقل عن اثني عشر فرداً. وأحد أسباب تأخر العشاء هو أن خروفاً كان قد ذبح وطهي خصيصاً لنا، والطبق الكبير الموضوع على شرفنا وعلى مائدتنا كان رأس الضأن المسلوق بصوفه، كما كان هناك نوع من الحساء المصنوع من الدم والكلى، والتي تبدو كنوع من الحلوى المائعة المصنوعة من الدم، وهي تحتل مكانة كبيرة عند البوراتيين، وكانت هناك وفرة في الأطعمة الأخرى، لم أتمكّن إلاّ من تذوق القليل من هذه الأطعمة المغولية اللذيذة لتوفر أنواع عديدة من الأطباق المختلفة.

وكان آل اليكسندرف من أكثر البوراتيين تقليداً للروس في أسلوب معيشتهم، وآدابهم، إلا

أنهم كانوا يعيشون حياة مزدوجة إلى حد ما. فهم من الطبقة الغنية والصغيرة التي شيدت على الأقل ثلاثة منازل. والمنزل الشتوي مبني على النمط المستعمل في جميع أنحاء روسيا. ويحتوي على مواقد ومداخن مبنية من القرميد. والمنزل مبني على شكل خيمة بالأسلوب البوراتي القديم. وفي فصل الصيف تكون هذه المنازل باردة ولطيفة. ولكن في فصل الشتاء من المستحيل تدفئتها بحيث تكون مريحة في هذه البلاد الباردة. وعندما تجري التحسينات على هذه المنازل تكون مبهجة من شهر أيار/مايو إلى تشرين الأول/أكتوبر. وإذا مرت ساعة من الزمن يكون الجو فيها قارس البرودة. أو يحل مساءٌ باردٌ في بداية الموسم أو نهايته. تُضرم النار بسرعة. ويجلس الناس حولها ويتحدثون مستمتعين بدفئها. ولإثارة روح الاحتفاء يشرب الناس التاراسان. ويُجلب بإبريق يتسع لغالون واحد أو غالونين. وهذا الإبريق. الذي يحتوي دوماً على كأس أو مغرفة من الخشب. يمرر في جميع أنحاء الدائرة. وعندما يفرغ من الخمر يملأ من جديد فوراً.

ويفضل البوراتيون. دون استثناء أسلوب المنازل الذي استخدمه أجدادهم. ويتعلقون به بشكل كبير. وإذا أراد البوراتيون الوثنيون الزواج استناداً إلى طقوس شعبهم يجب عليهم الحصول على بيت من هذا النوع. لأن آخر طقس من طقوس الزواج يؤدى في مركز ذي أربع زوايا في الأرض العارية. حيث تضرم النار وحينها تجلس الزوجة الجديدة بالقرب من برميل الحليب الموجود هناك وهكذا تصبح سيدة البيت. أما عملها الخاص فهو صناعة التاراسان الذي يجري تقطيره على المدفأة دائماً. ويتمتع البيت العريق بالخصال الحميدة بسبب ارتباطه بالديانة القديمة. وبسبب حاجات الناس وعاداتهم وطقوسهم. وتميز عشاء اليكسندروف من حيث الطعام بالغرابة حيث ذبح الحمل بأسلوب مفاجئ. وكذلك بسبب الترتيبات الخاصة لوضع رأس الحمل على المائدة. والتي تؤدى إكراماً للضيف. وباستثناء ذلك كان العشاء ذا نمط روسي بحت. وقد طهي لحم الحمل المسكين بالطريقة التقليدية وهي السلق.

وعند الانتهاء من وجبة العشاء انسحب الرجال الأشداء من رفقتنا وذهبوا إلى المنزل الصيفي. وجلسوا وتحادثوا ودخنوا مدة ساعة تقريباً. وقد بني المنزل الصيفي هذا بشكل جيد. فالأرضية كانت أعلى من المألوف. أي الأرض الترابية في الوسط. وبالتالي تقدم جلوساً مريحاً للمجموعة واستخدمت الكراسي أيضاً. بحيث يمكن لأي امرئ الجلوس عليها. أما فتحة المدخنة فقد بنيت بشكل جيد. بسبب وسعها على السطح إذا ما قورنت بالمنازل الأخرى.

وأبنية ألكسندروف الصيفية والشتوية تختلف عن جميع الأبنية البوراتية بأنها مرتبطة ببعضها البعض، وهناك طريق تفصل بينها. والمنازل تنتصب تقريباً قبالة بعضهما البعض، ولا يفصل بينها أكثر من نصف ميل. ولكن الاختلاف بين المكانين استثنائي. حيث إن المنزل الصيفي مبني على أرض مائلة قليلاً، وتعصف به الرياح من اتجاهات البوصلة كافة. وهو مفتوح أمام الرياح من الشمال والجنوب والشرق والغرب، بحيث يشعر بها البشر والحيوانات جميعاً حيثما هبت الريح. أما على الجهة اليمنى من الطريق، فيقع المبنى الشتوي، وكل شيء فيه مغاير. فالأرض تنحدر بعيداً نحو الشرق والجنوب، وفي الشمال هناك غابات كبيرة وكثيفة تصد الرياح الشمالية بشكل فعّال.

وعلى مبعدة من الطريق السريع هناك مروج مروية ومراعٍ رائعة. وينتج قدر كبير من القش من هذه الأرض: فقد أحصيت أربع عشرة كومة كبيرة الحجم من القش في جزء واحد من هذه المراعي. وتأتي ثروة آل الكسندروف بشكل أساسي من تربية الأبقار والخيول، وإقراض المال والتحصيل بسعر فائدة مرتفع. وبما أننا قد خططنا لمواصلة رحلتنا في ذلك اليوم، ودعنا مضيفنا، الذي سعى لإقناعنا بالبقاء في منزله حتى الغد.

ويا لها من حياة سهلة تلك التي يعيشها هؤلاء الأشقاء الثلاثة. فكل عام يبيعون العديد من الخيول والماشية، وسواء انخفضت الأسعار أم ارتفعت فإنّ دخلهم جيد. وليست لديهم مشاكل سياسية حتى الآن، وكانت لهم طريقتهم في العيش تحت الحكم الروسي حتى هذا الوقت، إلا أنهم في الوقت الحاضر يخشون من أن مردود أراضيهم سوف يتضاءل.

وفي هوغوتسكايا هناك نزل للمسافرين أو ما يطلق عليه بـ « النارودني دوم»، وفيه غرفة وسماور، وجعلنا تلك الغرفة مقرّنا. ويقع منزل رئيس المنطقة قرب «النارودني دوم». عدنا في الساعة الرابعة، وأرسلنا بطلب الخيول، وشربنا الشاي، وكنا بعدها بوقت قصير مستعدين للانطلاق نحو الجزيرة. وفي الصباح قبل ذهابي إلى آل الكسندروف، زرت رئيس المنطقة، الذي جاء ليتمنى لي رحلة موفقة، مع عدم علمي في حينها، فقد بعث مسبقاً كلمة للمسؤولين لمساعدتي في كل شيء احتاجه. شكرته بحرارة لكل تمنياته الطيبة، ووعدته بأن أشرح له مهمتي، إذا حالفني أيّ نجاح، وأسرد له كل مغامراتي عند رجوعي من أولخون وبحيرة بايكال.

وانطلقت في الساعة الخامسة بالضبط، وبعد دقائق قليلة، انطلق كل من فاسيا وليزاروف، وكل عربة كانت تجرها ثلاثة خيول. وبما أن الطقس كان مثالياً، والطريق جافة ومعبدة نسبياً، عقدنا النية على السفر طوال الليل. كنت أعتقد أننا سنصل المحطة الثالثة عند بزوغ الفجر، أو على الأقل في وقت مبكر جداً من الصباح.

وبعد مغادرتنا هوغوتسكايا، والتي كانت آخر محطة توقف لنا على طريق الياكوتس، مررنا بأرض منبسطة لمسافة ميل، وبعدها سافرنا في أرض ترتفع رويداً حتى وصلنا إلى قاعدة سلسلة من التلال والتي كان ارتفاعها يبلغ ربما ثمانمائة قدم وأعلى بكثير في كلا الجانبين حيث تقع طريقنا. عندما وصلنا إلى أعلى نقطة من الطريق حيث سلسلة التلال التي كان الجزء الأكبر منها مشجراً. ابتعدت تلك التلال تدريجياً عن الطريق العام حتى اتجهت نحو الزاوية اليمنى، ثم تحولت تدريجيا إلى الجهة الخلفية، متخذة شكلاً بيضاوياً كبيراً. وشكلت وادياً جميل المنظر، نزلنا فيه، ثم عبرنا من خلاله وادياً مجاوراً له حتى منتصف الليل.

والمنطقة بأسرها حولنا كانت إما غابات أو مُرُوجاً، ومررنا بأشخاص يقطعون أكوام القش خلال ذلك المساء، ومثل هذه الأماكن مألوفة جداً في سيبيريا، لأنها تقي جيداً من هبات الرياح ومحاطة إلى حد كبير بغابات كثيفة، فهي محمية من البرد بشكل رائع، وتنقل الماشية إليها في فصل الشتاء.

وصلنا محطة التوقف الأولى في الساعة التاسعة: وفي منتصف الليل وصلنا إلى المحطة الثانية، بعد انتظار وجيز، حضر السماور، وتناولنا طعام الغداء الوفير الذي جلبته معي، والمحطة كانت مجهزة بالمياه الساخنة للشاي ولغلي البيض المسلوق: تناولت بعضاً من الخبز البني الحلو واللحم ذي النوعية الجيدة الجاهز والمطبوخ، وقد يكون السفر بدون وسائل الراحة ممتعاً أحياناً، ومملاً جداً في أحيانٍ أخرى، وما يجعل السفر بهيجاً وممتعاً الصحة الجيدة والطقس الجيد، والطعام الصحي، علاوة على الناس الودودين، أما الطقس السيئ، والطعام الرديء والناس غير الودودين، فيسلبان السحر من أفضل المناظر، وتوهن رؤية المسافر وعقله.

إذا كان للعمل هدف، فكل الصعوبات التي تواجه المرء تضمحل، وحتى أنها تصبح ممتعة إن كانت العزيمة راسخة في عقل العامل وذهنه. ومن أعظم مشاق السفر، وهناك الكثير منها، وأكثرها مرارة وخطورة هي تلك التي يسببها البشر، فالخداع، والعصيان وخلق الأذى المتعمّد المستمر من البشر هي المشاكل التي تجدر الإشارة إليها بينما نستمر في دراسة سطح الكرة الأرضية هذه، ساعين بجهد لاكتشاف ما عليها، وما تحتها، وما فوقها، فلو كان الناس يتمتعون بالطيبة بقدر الشر الذي يكمن في داخلهم، فسيكون السفر أكثر متعة وبهجة مما هو عليه الآن، فالشر ينبع من جهل الناس وضعفهم، كما سيكون من السهل القيام بالأعمال الطيبة التي يستطيع كل إنسان أن يقوم بها، وقد راودتني هذه الفكرة بينما كنت أتناول عشائي في محطة التوقف تلك والتي كانت سيئة وقذرة، لكن أناسها يتمتعون باللطف والكياسة.

وعند الانتهاء من العشاء ربطت ثلاثة خيول إلى عربتي. وبينما كان على ليزاروف وفاسيا الانتظار لجلب خيولهما التي كانت طليقة في المراعي. ذهب رجال للبحث عنها. وهذا ما أخّر رفاقي فترة طويلة في المحطة. وقرّ عزمي على الانطلاق على الفور. واعداً بانتظارهم في كوسايا. وانطلقت في الساعة الواحدة. وكانت ليلة غاب فيها القمر ولكن النجوم رصعت السماء. وكانت حقاً ليلة بديعة. أكثر من أيّ ليلة أخرى. وأعني بذلك أجمل ما تقع عليه عينا بشر في حياته.

في الليلة الظلماء تسطع النجوم المهيبة والرائعة فيها وتنظر إلينا الأبدية من عليائها ويؤثر وجودها على كل إنسان ذي لُبّ. ففي الأيام الخوالي لم يكن ذلك الوجود يحمل المعنى نفسه. رغم أن ملامحه لا تزال هي نفسها اليوم. فقد فسّر الناس ذلك الظهور على اختلاف أجناسهم ومشاربهم بطريقة مختلفة في كل عصر وأوان. فقد بدت السماء في كل الأزمنة الماضية قبة صلبة. وأعظم شيء يبدو للعيان أمام الجميع. وعكس البعض السماء باعتبارها آلهة. وهكذا الحال حتى يومنا هذا. وعند البعض الآخر حسبوا السماء موطناً. وسواء كانت آلهة أم موطناً فقد ارتبطت بالأرض. التي بقيت مجرد تابع لها. كنت أفكر في هذه الأشياء عندما نظرت إلى تلك الليلة الجميلة من العربة السريعة الحركة عندما خطر ببالي على حين غرة أنني إذا اعتمدت على عيني فينبغي أن أعتقد نفسي مركز الأشياء جميعاً. فالأفق كان أمامي وخلفي. وكان ذا بعد مساوٍ من الطرفين. وأعلى نقطة في السماء كانت فوقي مباشرة. إذاً أنا كنت في المركز. ظاهرياً. والنظر باعتباره أول شاهد بسيط عندما لا يُصححه العقل ولا إعمال الفكر شَكّل أساس الفكر الفلسفي والديني وأثّر على كل شيء في الوجود حتى جاء العالم الفلكي كوبرنيكوس فحطمه شر تحطيم.

ما أسعد الإنسان في الأيام الخوالي بقناعته ورضاه. في إيمانه بأن الأرض ثابتة وغير متحركة. وبأنها مركز الكون. والشمس تدور حولها. وأن الأشياء جميعاً جاءت ورحلت بسببها. وهكذا فإنّ الشمس أشرقت وغربت لا لشيء إلا لخدمة الإنسان.

لقد تلاشت هذه الاعتقادات وهذه الفلسفة. فأفكارنا وما كان يظن أنه حقيقة عظيمة ثبت بطلانها ووهمها. وما ثبت بالبرهان القاطع كان رائعاً بحيث لا يستطيع الإنسان أن يستوعبه. فمأوى الإنسان في السماء وهو بيته السماوي الذي يقع فوق هامته. قد سُلب منه. ولكن شوقه. أو على الأقل بعضاً منه. يبقى مستمراً معه. وهو يشبه الشاعر الذي لم يحصل على وطن ولكنه ينشد للوطن. ذلك الوطن العذب بطريقة لم يَشْدُ به أحدٌ قبله أو بعده. وبينما انطلقت العربة تذكرت كيف أن رجلاً في لندن تحدث معي. قبل ثلاثة أشهر بجدية بالغة على النحو التالي :

«لم تعد الأرض مركز الكون. والناس اليوم تركت الاعتقاد بأن السماء فوقهم هي مدينة سماوية، حيث يحيون بسعادة هناك إلى ما لا نهاية. والعلم، الذي يبطل المعتقدات القديمة، ويهدم النظم البالية، ويهز كل القناعات الراسخة، لم يقدم لنا حتى الآن شيئاً يطمئننا ويضمن لنا كياناً في المستقبل، بكيفية ووسيلة الوجود التي يمكن أن تتحقق». وأضاف صديقي «لقد توفي والدي مع اعتقاد راسخ بأنه سيعيش بروحه وجسده في الآخرة. أنا لا أؤمن بشيء. وسأكون سعيداً إذا آمنت، لكنني لا أستطيع. وقال لي بعض العلماء، بأنه عند الموت سيموت جسدي بكليته، وأن ضميري، والذي يتحدث في هذه اللحظة سوف يختفي إلى الأبد. ويقول البعض الآخر إن الأفراد سيكون لهم آخرة، ولا يمكن لإنسان أن يثبت ذلك. إن أغلبية الناس يأملون بحياة أخرى بعد الموت في المستقبل، ويتمنونها كما وعدتهم المعتقدات القديمة. وسيكون من الرائع الإيمان بهذا الاعتقاد، ولكن كيف لي الحصول عليه؟ من يستطيع مساعدتي؟ وعندي هذا هو السؤال الكبير».

وفي أثناء تأملي في كلمات صديقي اللندني، غفوت وربما قطعت الخيول نصف الطريق، واستيقظت بعدها بوقت قصير، إثر الاهتزاز المنيف لأننا دخلنا أماكن وعرة وقاسية. وبعدها وصلنا إلى منطقة مفتوحة، كانت السماء جلية، وسارت العربة بسلاسة. ومرة أخرى رجعت أصداء كلام صديقي: "هل يمكن للعلم أن يجد حياة أبدية عند الإنسان الواحد نفسه؟ فالعلم يجد الحياة الأبدية في كل مكان، ولكن ليس في الهيئة نفسها.

لكي يكون الجسد أبدياً ولا يموت، فينبغي إما ألاّ يتغير أو يستقبل ما يعادل ما يخرج منه بالضبط. وعلاوة على ذلك، ينبغي أن يحتفظ بكل حيوية الحياة ونشاطها، ولا ينبغي أن يخسر الجسد شيئاً في عملية التبادل تلك.

وهذا الجسد الخالد أين سيكون موطنه؟ لقد اختفت الجنة، ذلك المكان الثابت والقوي، تلك السماء التي فكر فيها الإنسان في وقت ما، ولا شيء فوق رؤوسنا غير ذلك الامتداد اللامتناهي. أين سنبحث عن وطن؟ الوجود الفردي الخالد؟ قطعاً ليس في هذه الأرض، لأن الأرض ليست مكاناً أبدياً للسعادة التي لا نهاية لها. هل هناك مكان في ذلك الفضاء اللامتناهي يكمن بعيداً عنا؟ حيث يجد ذلك الوجود الخالد موطناً ملائماً له؟ وإن كان له وجود فكيف نعثر عليه ؟ يمكننا أن نختار ثلاثة أنواع من البشر من الذين تأملوا سر الوجود لكي نوضح المعضلة التي أمامنا، وكيف ربط الإنسان بها.

«تتألف المجموعة الأولى من الأشخاص الذين يصرحون بأنه لا توجد روح ما عدا الروح التي لا تنفصل أو لا تتجزأ عن المادة، وهي التي تُكَون جوهرها، وبهذه الطريقة هناك روح في

كل شيء، مختلفة حسب الحالة: والتي تنبثق منها الذرة. والتي هي ربما الأكثر تقييداً للإنسان، والأكثر شمولية وتعقيداً على الأرض.

وعندما يصل كل مخلوق إلى نهايته أو يموت كما يحدث مع الإنسان، تختفي الروح التي تسكنه ويتحلل ذلك المخلوق أخيراً إلى عناصره الأولية أو إلى ذرات. وبالنتيجة فإنّ هناك أعداداً هائلة من ذرات الأرواح. ولكن ليست هناك روح لنأخذها بنظر الاعتبار، لأنه لا يوجد إنسان خالد في الوجود، وكذلك الأمر مع كل المخلوقات الحية والكائنات الأخرى.

"ولا خلود إلاّ للذرات في أي مكان كان، وينشأ كل شيء من الذرات. ومن ذرات الروح تبنى جميع العقول في الكون، ولأن المخلوقات الحية هي مخلوقات وقتية، فإنّ الروح وقتية أيضاً. وبالنسبة للمفكرين الذين ينتمون إلى هذه الفئة لا قيمة للسؤال المطروح.

"وتتألف المجموعة الثانية من جميع المسيحيين المؤمنين. وأيضاً أولئك الذين يؤمنون بروح أو نفس منفصلة عن الجسد عند كل فرد، على الرغم من أنهم قد لا يكونون مسيحيين. وعند هذه المجموعة فإنّ المسألة مهمة ولا توجد أرضية مشتركة للاتفاق بين المجموعة الأولى والثانية.

"أما المجموعة الثالثة فتعلق أهمية كبرى، لا بل مطلقة للذرة. ولكن فقط مع اقترانها وانتشارها في جميع المواد، والتي يطلق عليه الناس حالياً بالأثير، ولكنها في الواقع الروح".

"ما هي الذرة؟ وما هو الأثير؟ فالذرة خالدة: لا يمكن لأحد أن يمسكها، أو يحرقها، أو يؤذيها. فالذرة موجودة في حرارة الشمس الهائجة، أو في نجم سيريوس في أقصى درجات البرودة، حيث يمكن للحياة أن تتوقف فجأة. وهي موجودة في الندى المتساقط، وفي قلب العاصفة، أو في العاصفة الثلجية، أو في شلالات نياجرا. فالذرات موجودة في كل مكان لأنها منيعة، وأبدية، وموجودة بشكل متساوٍ في أعالي السماء وفي أسفل السافلين. وهي ثابتة ومرنة أبداً بشكل لا يصدق، تدخل في حيز الجمال بسهولة كما تدخل في أشنع التشوّهات. فهي موجودة في الماس وفي ركام الروث بالقدر نفسه، فهي موجودة في كل مكان، وتشكل كل الأشياء المادية. وليس هناك أي وجود ممكن بدونها.

"وماذا يمكن أن نقول عن الأثير؟ فالذرة في كل مكان. ولكن الذرة تعتمد دائماً على الأثير، وهو يثبتها. فأينما كانت الذرة والتي تشكل كل شيء موجود فإنّ الأثير أيضاً يكون موجوداً.

"ومن بين المجموعات الثلاث من المفكرين التي أشرت إليها، تقول المجموعة الأولى إن الذرة بحد ذاتها مهمة، بل إنه ليس هناك من شيء نبدأ به. والذرة التي هي أصغر من أن تراها العين

البشرية، هي أصل الوحدة الأولى، ونقطة البداية؛ وتراكم الذرات الذي لا حصر له من خلال تآلف وترابط الذرات فيما بينها، تتشكل جميع أشكال الكون بشكل تدريجي؛ وبذلك تتطور كل كيانات الجمال والذكاء؛ وكل ملايين الشموس والنجوم، وغيرها من الأجرام السماوية، وكذلك مختلف أنواع الكائنات الحية، والإنسان من بينها، وأشكال الحياة كافة على كوكبنا.

"ومن خلال هذا المفهوم، فجميع الأشياء المحسوسة والمراتب العقلية مرتبطة بذرات، والتي تزداد في بعض المجالات، وتنمو بأعداد كبيرة، ومع كل زيادة يصاحبها ارتقاء عقلي وتنوع في التنمية العمرانية.

"أما الحجة الجوهرية الصادرة عن المجموعة الثالثة فتقول: بأنه عندما يحدث تراكم للذرات يصاحبه تدفق أو ضعف للأثير في الوقت نفسه في جميع المراحل. فعلى سبيل المثال، إذا اتحدت ذرتان، فيتوجب وجود عقل لفهم هذه الحالة؛ وعند وجود الأثير، يوجد العقل فوراً وحالاً. ويزيد ترابط الذرات مائه مرة، ويزداد تعقيداً عندما يكون الارتباط بين مائه ذرة عنه عند ارتباط ذرتين. والنقطة الجوهرية الإجمالية هي إن من الممكن جداً التوصل إلى عقل كوني، أو حتى إن واحداً من هذه العقول يستوعب المجموعة الشمسية ويتوحد معها، وحتى الكون.

"ومع التغييرات التي حدثت بسبب تراكم الذرات الجديدة كانت هناك دوماً تراكمات وتدفقات للأثير وزيادة عقلية كافية للسيطرة على الوضع، وإذا لم يتحقق هذا، فإنّ هذه الترابطات الجديدة أخفقت وتحطمت إلى قطع صغيرة، وتعود إلى ذرات، وتبدأ من جديد وتستمر حتى تحقق النجاح في هذا الوقت أو في وقت آخر.

•إن قابلية الذرات للتجمع لا يمكن تحطيمها وهي دائمة النشاط. أما الأثير فهو حاضر في كل مكان، ويمر بكل مراحل التراكم، ويقوم باحتوائها واختبارها. والأثير يجد كل مفصل، أو درزة أو خط اتحاد بين الذرات، ويفرز نفسه ويفكك الاتحاد، ما لم تكن متوافقة وقوية بالقدر الكافي، وإذا كانت متوافقة، يبقى الأثير معها، ويزودها بالعقلية الجديدة اللازمة لجذب تراكيب جديدة بينما لا تزال قادرة على الاستمرار. وعندما لا تتطابق، تنسحب عقليتها وتموت، وهذا يعني أنها تتفكك وترتد إلى ذراتها. وبهذه الطريقة من بداية الدهر، ومن الوقت الذي بدأت فيه الذرات الأولى في البحث عن بعضها البعض، أي عندما انفصلت الذرات من الأثير، ومن الوقت الذي أصبحت الذرة الواحدة اثنتين وانفصَمَ الابن عن أحضان أبيه، بدأ الخلق ولا يزال مستمراً إلى اليوم، وسوف يستمر ما دام الوجود قائماً، أو ما دامت هناك قوة في الكون، أو بعبارة أخرى، طالما وجدت الذرات والأثير.

"الآن أمامنا هذه المسألة: ابتداء من الوقت الذي انحلت فيه الذرات إلى لحظة خروج الأثير وعودته، فإنّ كل عودة تحمل معها تاريخاً كاملاً لبداية أول فشل بين ذرتين راجعتين إلى فترة معينة، وتنتهي بآخر انحلال لتركيب أو هيكل ما في هذا الكون. وكل عودة من هذه العودات لها ذاكرتها الخاصة، وكل واحدة منهما خالدة. وكل تجمع للذرات هو مؤقت، وتبدأ مغامرة جديدة، في حين يعود الأثير إلى المصدر الذي بدأ منه.

«ووفقاً للفكر المتوارث لهذه المجموعة الثالثة كانت هناك فترة عندما لم يكن هناك تمييز بين الأثير والذرات، وتداخلاً في بعضهما البعض. وفي نهاية تلك الفترة (ودون الخوض في تفاصيلها بشكل مطول) وهي فترة يمكن أن نطلق عليها السرمدية التي ليست لها بداية، أصبح الواحد اثنين وانفصلت الذرات عن الأثير وأصبح كل واحد منهما غير قابل للتدمير لأسباب متضاربة. لأن الذرة وحيدة في حين أن الأثير مطواع دوماً ولا يمكن لأي قوة أن تفصله عن الذرة. كما أنه يتغلغل في الأشياء جميعاً، بغض النظر عن قوة تماسك أجزائها. ويمكن خلق جميع الأشكال من الذرات، والأثير يعرف كل شيء لأنه موجود في جميع الأماكن. ولا يمكن أن يفصل أو يقطع. والأثير العظيم يعرف كل ما تعرفه الأجزاء الصغيرة، والأجزاء الصغيرة لا تعرف الأشياء إلاّ بالملاحظة والتفكير والاستنتاج من الأثير العظيم.

«وهكذا لدينا شكلان من أشكال الخلود في الوقت الحاضر. وكلاهما موجود في كل الأماكن وهما الأثير والذرة، وتجمع الذرات يكون عرضة للدمار. والفرد المكوّن من الذرات والأثير سيكون خالداً وأميناً في مكان بعيد عن الغزو ويكون آمناً فقط إن عثر على موضع ليس فيه صدام أو انفعالات خارجية وكذلك يكون بعيداً عن التفاعلات الكيماوية التي تدمر تماسك قوة ذراته، فهل هناك موضع أمين كهذا؟ وأين يوجد هذا المكان؟

وكان منطق صديقي الذي بسطته هنا يشغل تفكيري، ولم أتمكن من التعبير عنه حينما خلدت إلى النوم متأملاً وناظراً إلى السماء في تلك الليلة الرائعة ومتسائلاً: هل هناك وجود للجنة في الأعالي بدلاً من تلك التي لا نفقه عنها شيئاً؟ امتلأ تفكيري بالواقع الفظيع أمامي: أغمضت عينيّ الآن، وكنت في حلم، ولكنني ما زلت أرى الأشياء جميعاً من حولي، وتدريجياً بدأ كل شيء أمامي يتعاظم حجماً؛ وبعد ذلك لم أرَ شيئاً، فغفوت، لا أعرف كم من الوقت، ولكني بدأت أحلم من جديد، فتحت عيني، كما كنت أعتقد، ووجدت نفسي واقفاً بالقرب من تلسكوب ذي حجم ضخم، لم أشاهد مثيلاً له من قبل على الإطلاق، وبينما كنت واقفاً مندهشاً، سألني شخص «هل تريد أن تلقي نظرة»؟ وأضاف «إذا نظرت فسترى المركز العظيم لكل الأشياء، وسترى مكاناً

للراحة وسط حركة الوجود كله. وسترى بوضوح من خلال هذا التلسكوب مركز عاصفة الكون. حيث التوازن المثالي للقوى. وفيها السلام الأبدي الذي تحافظ عليه السلطة والمعرفة العليا. ولم يكُنْ ولن يكون فيها وجود للفساد. وهي النتيجة الحتمية للعذاب والمعاناة والموت. والأسى في مكان آخر غير هذا. والكائنات الوحيدة التي يمكن أبداً أن تصله هي الكائنات الكاملة».

وسألته «ألن يضيع التوازن. ويحل الاضطراب والخراب كما يحدث في جميع الأماكن الأخرى؟». فأجابني قائلاً «طالما استمرت المادة والقوة. فإنّ هذه المنطقة التي سوف أريها لك. ستبقى هادئة وسعيدة كما هي الآن». وأخذ يتحرك أمامي. ولكن في تلك اللحظة حدث شيء: هزني ودفعني. ومن ثم سمعت صراخ السائق وهو يلهب ظهور الخيل بسوطه. فاستيقظت وسألت: «أين نحن؟ هل هناك خطب ما؟». فقال السائق «سهل كوسايا!» (المراعي المتعرجة). واندفع السائق نحو قرية المراعي المتعرجة. ثم قام بنصف دورة أمام إحدى الكنائس. ليواجه بوابة كبيرة قبل أن يتوقف. ترجل من مقعده. وقرع الجرس. ثم انتظر. فتحت البوابة بعد بضع دقائق ودخلنا إلى ساحة «بيت الشعب». ظهرت المرأة التي كانت مسؤولة عن المبنى وكل ما يتعلق به. على الشرفة. وخرج حارس البوابة لنقل بعض من أشيائي.

كان المنزل كبير الحجم. ولم يشغله أناس في الأيام الأخيرة. لم تكن النوافذ قد فتحت. وكان الهواء في الداخل فاسداً. وأول شيء فعلته هو فتح النوافذ. للحصول على بعض الهواء النقي. والتهيؤ لتناول الفطور. وجلب السماور المغلي بعد نصف ساعة. وفي روسيا يعد الشاي أفضل شراب في البلد. ومن خلال تجربتي فإنّ الشاي الروسي هو أكثر المشروبات إنعاشاً. وخصوصاً إذا تناول المرء معه بعض البسكويت. وكان ذلك فطور الصباح.

وبعد شرب الشاي نمت حتى الساعة السابعة. أي ساعة واحدة. وبعدها ذهبت إلى الفناء. وهناك في وسط فسحة واسعة رأيت عربة فيها فاسيا وليزاروف يغطان في نوم عميق. وكنت قد استأجرت جيادي حتى السابعة والنصف لكي تكون جاهزة عند الانطلاق. وقبل الساعة الثامنة بقليل. أفاق الرجلان. وجلبت الجياد. ولكن فاسيا رغب في البقاء ساعتين أو ثلاث في «المراعي المتعرجة». ولذلك غادرت إلى المحطة التالية. المنسين. ووصلتها في الساعة الثانية. وقد تأخرت قليلاً بسبب بطء السفر. ومن ثم أعلمت في المنسين أنه من المستحيل الحصول على خيل في ذلك اليوم: وفي كل الأحوال كان لا بد لي من الانتظار حتى الغد. وفي هذه المحطة. التي تبعد حوالي فرسخ واحد من المدينة. وواحدة من أفضل المحطات على الطريق. وهي مبنى كبير. ذو غرف نظيفة إلى حد ما. علاوة على مطبخ كبير. وفي الجانب الآخر من الطريق. ثمة منزل صغير وبجواره بقبة كنيسة وجرس ببرج. ويقع خلف الكنيسة جبل شاهق الارتفاع. ذكرني المكان هذا بمنطقة رغاتس في سويسرا.

ويملك رئيس المحطة الكثير من المؤن. وهو شاب متزوج. وكانت معاملته لنا جيدة. ومع حلول المساء ظهر فاسيا وبحوزته الجياد التي وعدنا بها للانطلاق في ساعة مبكرة من يوم غد. ولكن على الرغم من كل الجهد الذي بذلناه. انطلقنا في وقت الظهيرة تقريباً. وكانت الطريق وعرة ومغبرة. وعندما يقترب المرء من البحيرة يشاهد تلالاً واطئة وجرداء ذات قمم صخرية تبدو في بعض الأماكن وكأن مذابح الكنيسة قد أقيمت فيها. أو كأنها مغطاة بأطلال من قلاع قديمة. وفي غضون بضعة فراسخ من منطقة كوتول توقف فاسيا وليزاروف للذهاب إلى القرية ليسلموا رسالة بعثها اندريه ميخايلوفيتش إلى رجل يعيش هناك يطلب فيها مساعدتنا في عملنا. على حد قولهم. لم أرَ الرجل. واكتشفت في وقت لاحق أن الرسالة كانت بخصوص أعمال تجارية. وليست لها أي علاقة بعملي.

وصلنا كوتول في المساء. وهي محطة فسيحة. مُعتنى بها. وفيها غرفة واسعة يعقد فيها البوراتيون مجالسهم العامة ويناقشون القضايا التي تمس مصالح منطقتهم. أما سيدة المنزل الروسية. فلم تكن في المنزل. فقد ذهبت إلى مدينة تبعد مائة فرسخ لإرسال برقية إلى زوجها الذي كان يعمل في الجيش. وعلى الرغم من أن الرحلة من كوتول إلى أولخون قصيرة. لكنها تتطلب قدراً كبيراً من الجهد والصبر. وتشير كل الدلائل إلى أن هناك صعوبة كبيرة في الحصول على الخيول. وكان التأخير أيضاً لأسباب أخرى. وعندما كنت في حيرة من أمري وصل رئيس المقاطعة إلى المحطة. ليكون حاضراً في اجتماع البوراتيين. وكان على استعداد لتقديم المساعدة : ولولا تلك المساعدة لواجهني الكثير من المتاعب. ونصحني بتوظيف رجل إضافي. وهو رجل ذو معرفة بشعب أولخون. وأبلغني أيضاً أن الطريق إلى البحيرة وعرة جداً. ولذلك تحتم عليّ ترك مركبة النقل في كوتول. والسفر بالعربات عوضاً عن ذلك.

وسيد محطة الخيول في كوتول. شاب يافع يدعى مورافيف. وهذا الرجل. نصفه روسي. ونصفه الآخر بوراتي. ذو ولع شديد بالمال. ويعرف على نطاق واسع بتعاملاته الملتوية التواء قرون الكبش. ووالده بوراتي خالص الدم. وأعجب بهذا البوراتي الكونت مورافيف أمورسكي عندما كان حاكماً لشرق سيبيريا. وبسبب نفوذ الكونت اعتنق هذا الشاب المسيحية. وعُمِّد ثم أعطي اسم مورافيف: وبهذه الوسيلة حَسّن من وضعه المعاشي بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وبعد ذلك بفترة وجيزة اتفق أن رجلاً ما خدع فتاة روسية ثم تركها وحيدة دون رفقة أو مال وهي على وشك

الولادة. ومن ثم تزوجها مورافيف البوراتي وتبنى الطفل الذي أنجبته. في وقت لاحق أنجبت طفلاً آخر من مورافيف. وهو الشاب المراهق نصف بوراتي الذي أشرت إليه والمعروف بشغفه الشديد بالمال.



سجن المدانين في محطة التوقف

ويبدو في الصورة سور مربع داخل حاجز يبلغ ارتفاعه على الأقل اثني عشر قدماً



نساء بلباس بوراتي كامل

وهناك متجر واحد في جزيرة أولخون. وهو ملك لمورافيف. الأخ الروسي غير الشقيق للأخ الآخر نصف البوراتي؛ وكلاهما ابن السيدة مورافيف المخدوعة سابقاً. وبعد تأخيرات مزعجة حصلت على أربعة خيول وعربتين صغيرتين لمواصلة رحلتنا إلى الجزيرة. والرجل الإضافي اسمه بروتويوف. وهي التسمية الرسمية لمن يقوم بتلقيحات الجدري. ومن حوالي الساعة العاشرة من وضح النهار. استمتعنا بوقتنا أيما استمتاع. ما بين كوتول وبحيرة بايكال. هناك قريتان. كونشلغا وتاغوت؛ تحتوي الأولى على نحو خمسين منزلاً. أما الأخرى فكانت أصغر بكثير.

وتتسم المنطقة الواقعة بين كوتول والبحيرة بكونها صخرية ووعرة. ومن آخر مرتفع إلى حافة الماء وهي المسافة التي تبلغ حوالي ميلين كانت الطريق خلاّبة. وهذه الطريق ليست الطريق التي يسلكها الناس عموماً. فالطريق التي تسلكها العربات هي أطول على الأقل بثلث المسافة. ولكن في هذه الطريق المختصرة. عبرنا أرضاً مغطاة بالعشب ومنحنياتها تتجه نحو البحيرة. والانحناء ليس حاداً بحيث يُشَكّل خطورة ولكنه يسّرع من سير المجلة. وعندما بدأنا المسير انطلقنا بسرعة تُشبه سرعة الزلاّجة في كندا. وتشبه الإبحار في قارب صغير. فالأرض غير مستوية. وجوانبها تنتصب أمام العجلات وتعطي انطباعاً بحركة رجراجة ممتعة. أقرب ما تكون إلى التزحلق هبوطاً من وادٍ في تلك الأيام التي طواها الزمن وأصبحت جزءاً من الأبدية.

وقفنا عند بيت قريب من البحيرة ولكنه يبعد نحو نصف ميل من قارب جزيرة أولخون. وفي البيت، أو بالأحرى. أمامه مباشرة، وقف هناك شامان وحوله خمسة أو ستة صحون مصنوعة من لحاء الأشجار أو من الحديد. وتحتوي على حليب حامض وحليب حلو ومشروب التاراسان. وكان يؤدي بعض الشعائر والمهام. وقبل وصولنا بلحظات توقف وكان يسكب الخمر تكريماً للآلهة وذلك بإراقة شراب التاراسان والصلاة بصوت عالٍ.

وكان الشامان غريب المظهر والفعل. فبالإضافة إلى وجهه المتمرّق وعينيه المشرقتين الكبيرتين. كانت لديه كتلة لحمية ضخمة دائرية على أنفه. وتقع على مسافة قصيرة بين ملتقى حاجبيه. وبينما كان يغني، تمايل إلى الجانبين وخطا خطوات قصيرة متقطعة ومتشنجة وكأن رعشة أصابته. وسرعان ما توقف وسكب لنفسه بعضاً من الخمر. وبدأ يغني مرة أخرى. وهو يريق بعضاً من خمر التاراسان المصنوع من الحليب على شجيرات قرب منزل. وخطا خطوات متقطعة قبل أن يتوقف. وكل ما عرفته أن هذه العروض تؤدى لتبعد المرض.

وقام الشامان برش رجالي بالتاراسان. مدمدماً بالدعاء خلال ذلك. وبعدها عرض عليهم احتساء الخمر بسخاء كبير. مما تسبب في تأخيرنا. وبعد إلحاحي الشديد نجحت في الانطلاق مجدداً. ينبغي قطع الممر الموصل إلى الجزيرة. والذي يبلغ بعده أكثر من ميل. عندما يكون الطقس جيداً. حيث إن البحيرة شديدة الموج في بعض الأحيان. ويتعذر الاعتماد على القوارب. كانت فرصنا في السلامة جيدة. والسبب في ذلك يرجع إلى أن الطقس حسن عادة في شهر آب/ أغسطس. وكلُّ ما كان متوافراً هو قارِبَيْن. وهما ما تطلّبه عملنا. حيث كان لدينا أربعة خيول وعربتان. وكان أحد المراكب في البر. والآخر عائد من الجزيرة. فانتظرناه لكي ننطلق معاً. رفعت العربات إلى القوارب. وثبتت الخيول على متن القوارب برشاقة بالغة. مما يدل على اعتيادها

على هذه الطريقة من السفر. وكان كل قارب يحمل حصانين وعربة واحدة. وعلى القارب ستة مجدّفين، وبعض الرجال والنساء، والأطفال، أما على القارب الآخر فكان هناك أربعة. استغرق العبور خَمْساً وثلاثين دقيقة.

وانتابني شعور بالفضول للاقتراب من الجزيرة التي يطلق عليها البوراتيون اسم «الجزيرة المقدسة». ومن ناحية المرفأ الصغير الذي كنا مبحرين نحوه، انتصبت بواجهتنا قمة جبل شاهق. وأمام ذلك المنحدر انتصب وجهان هائلان متميزان يلاحظهما القاصي والداني، وأحدهما يواجه الجبال على الجزيرة؛ والآخر يواجه المياه أمامه. وأحدهما يبدو وكأنه يترقب من يأتي من العالم الخارجي الكبير لدراسة الجزيرة وأسرارها، والآخر وكأنه يشاهد الزوار الذين أتوا عبر العبّارة.

لفتت هذه الوجوه انتباهي، وعلمت أنها تدعى بـ «الحارسان». فهما يحدقان ليل نهار، ولا ينامان قط؛ وهما يراقبان، وينتظران، كما ينتظر أبو الهول العظيم بالقرب من أهرامات الجيزة.

ونزلنا إلى اليابسة دون أي مشاكل أو مغامرات، وصرت الآن في جزيرة بايكال المقدسة. ولم نجد منازل بالقرب من موقع نزولنا، ولكن القرية الأولى تبعد مسافة ثلاثة أميال عن البحيرة. وفي مكان يطلق عليه اسم «نور»، بدأ الشاب مورافيف يظهر بعضاً من صفاته الكوميدية العالية.

وقد افترضت عندما انطلقنا من كوتول بأنه ينبغي أن نصل إلى (سيم سوسن) أو (الصنوبرات السبع)، وهي القرية الرئيسة التي تحتوي على متجر وإمكانية وجود محطة توقف. وعندما علم مورافيف بأننا ذاهبون معه، وكنا نتوقع منه أن يأخذنا هناك، تفتق ذهنه عن خطة جهنمية خبيثة، أخفاها عنا بحرص وعناية شديدين، حتى وصلنا إلى مدينة نور. وهناك لدهشتنا طالب بتغيير الخيول، على الرغم من أننا كنا على بعد أميال قليلة من وجهتنا، أي منطقة (سيم سوسن) أو (الصنوبرات السبع). وقاد العربة داخل القرية ثم توقف أمام منزل الزعيم، وهو المسؤول عن كل ما يطالب به المسافرون من تجهيزات للخيول. وزوجة الزعيم، التي أدركت سريعاً ما هو مطلوب، أعلنت أن زوجها خرج للصيد في منطقة تبعد نحو عشرين فرسخاً وأنها لا تعرف متى سيعود. وفي تلك اللحظة خرج زوجها من منزل إضافي، وكان واضحاً أنه استيقظ من نومه على التو، وبالتالي أظهر كذب زوجته من غير قصد، لكنها لم تشعر بالحرج على الإطلاق.

وبمجرد ظهوره، طالب مورافيف بجلب خيول بديلة لإراحة الخيول الأخرى. ولم يملك الزعيم أية خيول، لأن جميع الحيوانات المدربة لجر العربات كانت بعيدة عن القرية في المراعي. وكان من واجب الزعيم العثور لنا على أربعة خيول لنا – ولكنه لم يستطع أن يوفرها، أو يخلقها

لنا. لم يتبق لنا سوى ميلين إلى ثلاثة أميال لإكمال رحلتنا. والخيول التي بحوزتنا كانت قادرة على إكمال الرحلة. ولكن مورافيف رفض قيادتها أبعد من ذلك رفضاً باتاً.

وفي النهاية، ومن خلال أصدقائه، أبلغ الزعيم بأنه سيأخذنا إلى منطقة الصنوبرات السبع مقابل عشرة روبلات. وكان الزعيم قد طالب بأقل من روبل؛ كما أن الحكومة تسمح له بالحصول على ثلاثة كوبيكات للفرسخ عن كل حصان. ومع ذلك، دفع الزعيم المال واستمر مورافيف في الرحلة. أخبرت مورافيف ما شعرت به اتجاهه، لكنه ابتسم وعلامات الرضا بادية على وجهه. فقد كانت لديه نقطة يريد إثباتها، لا يرى سبباً يخجل منه. كان النجاح عنده بأي ثمن أمراً يدعو للفخر.

ومع حلول الظلام وصلنا إلى منطقة الصنوبرات السبع. وكان المساء لطيفاً ودافئاً. وبديهياً كانت الخطوة الأولى هي إيجاد مسكن. وكان هناك صف واحد فقط من المباني في هذا الجزء من منطقة الصنوبرات السبع حيث يتوفر متجر. وأول هذه المباني هو منزل أمين المستودع، وهو منزل كبير ذو غرفة واحدة، ومتجره كان في المبنى الثاني. وهو عبارة عن بقالة معبأة بسلع جافة. وتبين أنها ليست فسيحة. ولم يكن بوسعي استخدام المبنى الثالث لأنه كان سقيفة. أما المبنى الرابع فيملكه شخص روسي لم يكن حاضراً. وذهبت إلى البيت الخامس. ولكن المرأة التي تعيش فيه قالت لي إن هناك مليارات من البراغيث في منزلها، وإنها لا تستطيع بضمير حي السماح لأي شخص أن يقضي الليلة فيه. وشعرت بأنه ينبغي عليها عدم استضافتي. وتبين أن بحثي للعثور عن مكان لقضاء الليل عقيم. فرجعت إلى أمين المستودع وسألته ما العمل. فاقترح عليّ أن أنام في الكنيسة، أو في بيت الصلاة. فوافقت على ذلك، ونقلت أشيائي إلى بيت الصلاة الصغير. ونام كل من فاسيا وليزاروف تحت السقيفة في العربة.



صورة توضيحية للمنزل الذي نزلنا فيه في جزيرة أولخون. والمبنى ذو العلامة البيضاء لمخزن روسي.



الكنيسة الوحيدة في اولخون. وقد أمضى الكاتب ثلاث ليال في هذا المبنى.

الفصل السادس

إقامتي في «الجزيرة المقدسة»

في اليوم التالي لوصولي إلى أولخون. عاد رفيقي المسؤول في كوتول والذي رافقني إلى الجزيرة. إلى البر بعد أن أرسل في طلب رجل قال بأنه يستطيع أن يحدثني بالكثير عن معتقدات هؤلاء الناس وتقاليدهم. وهكذا تركني تحت رحمة مكائد أهل الجزيرة وغيرهم.

عاد المراسل خالي الوفاض. لأن الحاكي (أو الراوية) ذهب إلى نهر الأنفارا لصيد السمك، وسيتغيب بضعة أسابيع. كنا نناقش وضعنا عندما شاهدنا رجلين يمتطيان جوادين متجهين نحونا، وصاح الكل «ها هو ذا الراوية!» ولكن عوضاً عن الراوية كان القادم هو البيك أوروباشكن وهو أحد شيوخ الفخذ الثاني لقبيلة أبزاي. وينتمي جميع أفراد قبيلة البورات في أولخون إلى هذه القبيلة التي لها فخذان.

بدأت بطلب رجال من المفترض بهم أن يعرفوا قصصاً وحكايات. ولكن عندما التقيتهم. لم يقدموا لي أي معلومات ذات قيمة. وقد قضيت ليلتين نائماً على الأرض في منزل الصلاة الصغير. وعندما عاد المالك الروسي من رحلة الصيد. حرمني على الفور من هذا الملجأ. وكان فلاحاً جاهلاً، مكتفياً ذاتياً. لم تؤثر فيه أيّ كلمات رقيقة. أو مال. أو وثائق وتعهدات حكومية بالحماية على الإطلاق. وكان غاضباً من فتح المبنى لي دون موافقته أثناء غيابه. كان ذا سلطة. وقد تم تجاهل سلطته. وكان من المستحيل إقناعه أو محاججته. وسعى جاهداً لإخفاء السبب الحقيقي لغضبه بتكرار باستمرار «قد تم تدنيس كنيسة الله باستخدامها كمسكن». فاضطررت لمغادرة المكان.

تعرفت على أناس من قرية «الصنوبرات السبع». وكان أَحدُهم شابًا بوراتيًا بنَى منزلاً

حديثاً ذا غرفة وحيدة. وقال إن بوسعي الإقامة فيه طوال إقامتي في الجزيرة. وكل ما احتوته الغرفة من أثاث. كان مجرد موقد. وبضعة كَرَاسِيّ. وطاولة مصنوعة من خشب الصنوبر وهيكل سرير. وكان هو وزوجته لطيفين للغاية. نظفت المرأة الغرفة بعناية كبيرة. وكان الرجل يأتينا عدة مرات يومياً وبشكل مستمر ليشعل السماور ويفعل ما بوسعه ليجعلنا مرتاحين. وعندما لا يقومان على خدمتنا. يكونان مشغولين بجز العشب وجمعه بالقرب منا . كان النظر إليهما ممتعاً وهما يعبران عن سعادتهما وامتنانهما عندما كأفاتهما عند مغادرتي جزاء للطفهما وعنايتهما بي.

وفي غضون ذلك استمر البحث عن المعرفة. وأخيراً جمع شيخ عشيرة أولخون حشداً كبيراً بالقرب من بيتي الصغير في أستورديا أولخون. واستجوب كل الحاضرين. ولكن لم أتمكن من الحصول على أي معلومات. ومعظم إجاباتهم كانت على النحو الآتي «يعرف والدي الكثير عن الزمن القديم.» «وكان جدي رجلاً حكيماً للغاية. وكان بوسعه أن يقص لك الكثير من القصص». «وكان عليَّ العمل منذ أن كنت طفلاً. ولم تتح لي الفرصة لتعلم المعارف التقليدية لشعبي». بعد بضعة أيام من العمل غير المرضي. قررت أنه من غير المجدي البقاء أكثر على الجزيرة. كان ليزاروف قلقاً. وحريصاً على العودة. كان له بعض الأقارب في البر. وقال لي : «إنهم يعرفون عن البوراتيين من الزمن القديم وكانوا أكثر ذكاءً من سكان الجزيرة. وسيوفرون لي الكثير من المعلومات القيمة». كنت أعلم أن ليزاروف له مصالحه الخاصة. وأنا لست من ضمنها. ولكني رضيت بزيارة أقاربه الحكماء لأنني أردت مقابلة أكبر عدد ممكن من البوراتيين. وتركنا منطقة الصنوبرات السبع في يوم الثالث عشر من أغسطس.

وعندما وصلنا إلى بايكال. أعان الرجال شابة قوية ترتدي سراولاً. وحذاءً. وقميصاً داكناً. وتنورة قصيرة جداً. وعملت على تحميل العربات على القارب. وبعد ذلك كانت واحدة من المجذفين. وقام رجلان وصبيان بإدارة قاربي. وعندما التفت إلى الوراء ونظرت إلى الوجهين الصخريين. أعتقدت أنه بدت عليهما علامات الارتياح. كما لو أن قلوبهما الصخرية كانت سعيدة لمغادرتنا جزيرتهم المقدسة.

وصلنا مساءً مرهقين إلى أول محطة توقف. وتعد مريحة ونظيفة جداً. بعد تجربتنا في أولخون. وكانت سيدة المنزل قد عادت. ووجدتها امرأة لطيفة. ذكية. في ظهيرة اليوم التالي كنا في المحطة "راغتز". حيث اضطررنا لتمضية بقية النهار والليل هناك. وفي الصباح. وبعد السفر لعدة فراسخ تعطلت العربة. وتوقفنا لإصلاحها في قرية صغيرة اسمها كنتين. كان الحداد من منطقة أوديني الإيطالية القريبة من روما. وهو رجل حسن الوجه. كبير السن. ذو شعر رمادي كث.

وعندما سمع لغته الأم، أشرقت عيناه سروراً. لم يستطع التعبير عن مدى سعادته بلقاء شخص يعرف لغته وبلاده. وبينما كان يصلح العربة، أوينا في منزل بيتروف، وهو روسي يملك متجراً لبيع الفودكا في القرية. وقام الرجل المسن بسلق البيض وتسخين السماور. وقدم لنا التاراسان بسخاء بحيث خشيت أنني سوف اضطر لترك ليزاروف في قرية كورتن. وعندما عدت إلى دكان الحداد، التقطت صورة لتجهيزاتنا ومعداتنا "على سبيل الذكرى" كما قال العجوز الإيطالي.

وقد هربنا هروباً موفقاً من كنتين، بعد أن نفذنا بجلدنا من عشرات الكلاب التي انطلقت في إثرنا ولاحقتنا كما لاحقت الذئاب مازيبا(*). وانطلقت الخيول بأقصى سرعة. لقد كانت بالفعل رائعة وعظيمة! في الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم، وصلنا إلى منطقة كوسوستيب خلال أمطار غزيرة وعاصفة.

وعلى بعد سبعة فراسخ كان يعيش أقارب ليزاروف. وحثني على مواصلة الرحلة في ذلك المساء، لكني كنت متعباً من الطرق السيئة والمطر. وكانت المحطة غير مرتبة وتعيسة. وتألف عشاؤنا من لحم الخنزير المقدد والبيض، ومن أجل النظافة طبخناه نحن بأنفسنا.

ولا يأكل ليزاروف، مثل معظم البوراتيين "لحم الخنزير". ولذلك أَبعد ذلك اللحم من قائمة الطعام. وبينما حرر التعليم فاسيا من هذا التعصّب، فقد وُلد ولديه رغبة في العيش كما يعيش الروس، فشاطرنا فطورنا بكل سرور.

وحتى الأغنياء من البوراتيين، يعيشون عيشة الهنود الحمر في أمريكا. فليست هناك ساعات منتظمة أو تخطيط مسبق لتناول الوجبات، وغذاؤهم الأساسي يتألف من خبز الجاودار ولحم الضأن. وعندما يأتي الضيوف، أو تجوع الأسرة، يذبح خروف، ويقطع، ويسلخ، ويسلق بالماء، ويؤكل اللحم القاسي بلذة كبيرة. وأحيانا تذبح بقرة أو حصان للطعام. وإذا لم يستهلك اللحم كاملاً، يجفف لاستعماله في المستقبل. أما الثلج، باعتباره أحد كماليات الحياة العصرية فهو غير معروف لديهم، إلا غطاءً للبحيرات والأنهار خلال أشهر الشتاء. وإذا زارهم شخص مسؤول أو ضيف يرغبون في أن يظهروا له احتراماً فوق العادة، فإنهم سيخرجون بعضاً من «الطعام الروسي» المخبأ ويقدم كمشهيات ومقبلات قبل تقديم الوجبة الرئيسية. ولكن هذه كانت وجبة للاستقبال، ولن تكرر بعد ذلك.

* الإشارة إلى لوحة مشهورة باسم «الذئاب تلحق بمازيبا» للفنان الرومانتيكي الفرنسي الشهير «هوراس فيرنيه» (1789-1863). المترجم.

وكنت مسروراً بالخروج من كوسوستيب في الصباح الباكر. فقد كانت الرحلة بعد هطول المطر في المساء مبهجة. وعلى جانبي الطريق بين المروج يعيش البوراتيون والروس. وكان الرجال والنساء منهمكين بجز العشب وجمعه. يتألف لباس المرأة البوراتية من سروال. وحذاءين. وجاكيت قصير فضفاض. وهو ملائم للعمل في الحقول. ولكنه ليس جميلاً. أما المرأة الروسية من الطبقة العاملة. فترتدي تنورةً قصيرة داكنة اللون وحزاماً ذا ألوان صارخة حول خصرها. وعادةً ما تربط منديلاً أحمر اللون أو أحمر وأصفر حول رأسها. أما حقول القش المنتشرة هنا وهناك بألوانها الزاهية فقد أضفت جمالاً على جمال صباح ذلك اليوم الخريفي البهيج. وخلقت صورة بديعة للحصاد.

ولو اختلف المناخ. فإنّ هذه التربة السوداء الغنية ستكون خصبة جداً. وسينمو العشب بشكل مدهش. ولكن في الوضع الراهن. لا تنمو الحنطة هناك. كما أن الشوفان قد يصل إلى مرحلة النضج إلاّ أنه ليس جيداً. والنبتة الوحيدة التي تنمو بوفرة جيدة وأكيدة هي الجاودار. وينمو العشب بشكل مدهش. وفي هذا الوقت من الموسم من كل عام يكون الرجال والنساء في عمل دائم في حقول القش. ولا وجود للفاكهة في أي جزء من الأجزاء التي زرتها في سيبيريا. والتوت الوحيد الذي يزرع هناك هو التوت الأزرق.

ويوم وصولي إلى الفوريسك. وهي قرية صغيرة جميلة تحيط بها المروج. وجدت أن مجيئي كان متوقعاً. وقد جُهِّز «الابرافا». وهو مبنى يستخدم لأغراض حكومية لاستقبالي. وكان السماور يغلي أيضاً. واستقبلني «الكاتب» أو المترجم الرسمي. واثنا عشر إلى خمسة عشر بوراتياً. والكاتب. وهو روسي منفي إلى الأبد. كان رجلاً مثقفاً ومثيراً للاهتمام. وعلى الرغم من أنه كان في الخامسة والأربعين من عمره. فقد تجعد وجهه كثيراً. وبدا عليه الإرهاق والحزن. لأنه عانى الكثير. وقد قضى خمس عشرة سنة من حياته في المنفى. وفي وقت لاحق. علمت من مسؤول إيركوتسك. أن الرجل كان في الجيش. وقد نُفي لاعتدائه بالضرب على مسؤول أعلى منه رتبة.

وبعد شرب الشاي بدأت العمل في الحصول على القصص والمعلومات. وكان جامعو القش سعيدين لترك الحقل تحت أي ذريعة. واحتشدوا في "الابرافا". وسرعان ما حل الظلام بسبب الدخان الكثيف ورائحة التبغ الشنيعة. وبدأ رجل عجوز بداية جيدة بقص حكاية. لكن شاباً قاطعه. قائلاً إن الرجل العجوز لا يسرد القصة كما سمعها هو. ومن ثم حاول الشاب الصغير أن يسردها. لكنه لم يستطع: فقد غضب العجوز وتركت القصة ناقصة.

وقد أعطاني رجل من منطقة ترانس بايكال الكثير من المعلومات المهمة. ولكن بعد حوالي

ساعة. جاء رجل بوراتي مخمور من القرية، وتدخّل، وحاولوا منعه من إعطائي أية معلومات تتعلق بالمعتقدات والبلاد على أساس أنني أجنبي. وبعد الكثير من اللغط والجلبة والضوضاء والكثير من الأسئلة والإجابات المملة حول وضعي، قام الجيران والمسؤولون بإرغام "العدو" على السكوت. وفي المساء عندما تفرق الحشد، وأخليت الغرفة، جلب لنا الرجل المسؤول عن المرطبات طبقاً من لحم البقر المقطع قطعاً صغيرة مسلوقة، ولم تكن شهية، لكننا التهمناها لشدة جوعنا. وفي اليوم التالي سار العمل بشكل مرضٍ ولكن لبضع ساعات فقط، فقد أبلغني الراوية بأن تجاراً من إيركوتسك قد أرسلوه إلى الغوفيسك لتوظيف رجال للذهاب إلى منبع نهر الأنغارا لصيد سمك، ولأنه كان ملزماً بجلب الرجال إلى النهر في غضون أسبوع واحد لذلك لا يستطيع البقاء معي لفترة أطول. ولم أتمكن من العثور على رجل آخر، يمكن أن يسرد لي شيئا ذا أهمية تذكر.

وبعد أن مَلَّ ليزاروف من أقاربه، هذا إذا كانوا فعلاً أقاربه، عاد على الفور إلى كوسوستيب. وبقيت ليلاً للنوم والمبيت في هذا المكان لأنه أفضل من محطة التوقف على الرغم من رداءته. تفرق الحشد، وبقي المنفي فقط. كان رجلاً فقيراً يعيش حياة شاقة مليئة بالأسى. وفي وقت لاحق توجهت معه إلى منزله والتقيت بزوجته الهزيلة، وهي امرأة قد أحبطها الفقر وتصاريف الدهر بشكل كبير. وقد وعدتها بتزكية زوجها بطريقة تجعل حياته أسهل قليلاً. وبعد أسابيع قليلة تمكنت من الوفاء بوعدي. كان صباح اليوم التالي بارداً بحيث اضطررنا إلى إضرام النار. وكان هناك تأخير في انطلاقتنا، ووصلنا إلى كوسوستيب قبل ظهر ذلك اليوم، حيث وجدت الخيول في انتظارنا، وانطلقنا على الفور. وفي المحطة الأولى بسيبيريا قدّم إلينا العنب البري الذي تناولناه بشراهة، على الرغم من أنه كان مرًّا وفجًّا. ومن هذه المحطة حصلنا على سائق روسي شاب وقوي. وانطلق بنا أكثر من تسعة وعشرين فرسخاً بسرعة إلى هوغوستاكا، ومن ثم إلى محطة التوقف بكل ما تستطيع الجياد أن تمضي بسرعة. وفي البلدة، في ذاك المساء وعلى الفور، دعانا برستوف رئيس البلدة إلى تناول العشاء معه. كانت هذه استراحة ممتعة لكسر رتابة رحلة العودة.

وكانت الخيول بائسة في الطريق من هولستنغا إلى باياديا؛ وخاصة تعارض الحصان من جانب واحد مع الحصان الآخر. وفي النهاية نزع السائق الطقم عن الحصان، وأعاد ربطه بين التلال، حيث أجبر على المضي قدماً. وعند وصولنا بينداي، وصل لليزاروف وفاسيا خبر عن وفاة طفل ذي صلة بهما، وعلى الرغم من أن الطفل لم يتجاوز عمره بضعة أيام، فقد جعلوا موته ذريعة من أجل الإسراع إلى أستوردي. وقد كنت سعيداً بتوديع ليزاروف قائلاً له «في رعاية الله وحفظه»، الذي لم يُسدِ لي أي عون، وسبب لي الكثير من المشاكل، وكلفني نفقات باهظة.

وبينداي مكان غريب. فهي مجموعة من القرى البوراتية ومستعمرة روسية واحدة. وجميع الرجال والنساء تقريباً في هذه المستوطنة هم إما مجرمون سابقون أو أشخاص محكوم عليهم بالنفي مدى الحياة. وكان من السهل جمع العديد من القصص هناك عن حياة المنفى ومآسيها. وهي ذات أهمية كبرى لرجل يرغب في دراسة جميع مراحل الحياة. ولكني كنت في سيبيريا للحصول عن معلومات حول المغول. ولم أحِدْ عن مهمتي وموضوعي الأساس.

والمنازل في بينداي، شأنها شأن معظم المنازل في سيبيريا، لا تصبغ، إلاّ باستثناء إطارات الأبواب والستائر التي تطلى باللون الأبيض، وسرعان ما تكتسب اللون الأسود عند قدمها. وللعديد من المباني أسقف مهشمة وتبدو غير صالحة للسكن، لكنها لا تزال مأهولة. وعلى الرغم من كبر المكان، لم يكن هناك الكثير من الطعام، فلا وجود للزبدة، والخبز الأبيض واللحم من أي نوع، ولم نتمكن من الحصول على أي منها. وكان سريري في هذه القرية، أو مجموعة من القرى الأخرى، مكوّناً من وضع بابين اثنين على صندوقين، ووضع فراش عربتي على هذين البابين. ولم يكن أمين السر الروسي موجوداً في القرية، ولكن مساعده كان لطيفاً جداً، وبذل كل جهد ممكن للعثور على "الحكماء" لي. وكان منفياً من روسيا الصغيرة، حيث شغل منصباً حكومياً وفَقَدَ ألف روبل من أموال الحكومة بطريقة ما، ونُفي إلى سيبيريا لمدة اثني عشر عاماً، تاركاً خلفه في بيته ابناً وابنة، ووظيفة كانت تقدم له أكثر من مائة روبل شهرياً.

وقد قضى في هذا المنفى حتى الآن أحد عشر عاماً، ولا يعرف ماذا سيفعل عندما تنتهي فترة نفيه، ومن الواضح أن تجربة المنفى كانت مخيفة عنده: فصحته تدهورت، ومن المشكوك فيه أن يعاني شخص مثقف ومهذب من العمل في منجم أكثر من معاناته من العمل في منطقة بينداي برتابتها وبلادة أهلها.

وبعد مجيء الراوية، دفعت له أجره، وأرسلته بعيداً، لأنه لم يكن يعلم سوى القليل عن التقاليد الشعبية: وجاء بعده راوية آخر لم يكن أفضل بكثير من الأول، وتلاه آخرون. ومكثت ثلاثة أيام في بينداي في بحث دؤوب عن التقاليد الشعبية، لكنني لم أجد شيئاً ذا قيمة تذكر.

والرجل الذي كُلف برعايتي خلال مكوثي في هذا المنطقة اسمه دانيلو من روسيا، وكان محتالاً. ففي عمر التاسعة عشرة، نقل إلى سيبيريا، للعمل في المناجم، وكبل بالسلاسل، مدة خمسة عشر عاماً، وقبل سبعة عشر عاماً، عندما أكمل اثنتي عشرة سنة من حكمه، عُفي عنه، أتى إلى بينداي، وهو متزوج ولديه تسعة أبناء. وتفسيره للجريمة التي ارتكبها هو أنه كان في مهرجان، وهو في حالة سكر بصحبة ثلاثة من شركائه، فضربوا رجلاً، كانوا يكرهونه لمدة طويلة

حتى الموت. وعلى الرغم من ذلك يبدو على هذا الرجل الهدوء والسكينة ويوحي مظهره بأنه غير مؤذ، لكنني وجدته ماكراً ولا يمكن الاعتماد عليه إطلاقاً.

هاج الناس وماجوا في بينداي: فقد كان هناك ألف وخمسمائة جندي في طريقهم إلى بلدة ياكوتس للانضمام إلى القوات في إيركوتسك، التي أمرت بالذهاب إلى الصين. وقد قيل إن هذه القوات جامحة، وتدمر الممتلكات، وتفعل ما تشاء في القرى التي تمر بها. وكان من المتوقع مجيء مائتين منهم إلى بينداي، وكان لا بد من إطعامهم، وتزويدهم بالخبز. وعلى السكان تقديم عربات مجهزة بالخيول لهم، لنقلهم إلى المحطة القادمة. وتجمع المسؤولون للحفاظ على النظام. وجُمع خمسمائة روبل ثمن الخبز، وأمرت كل سيدة منزل قادرة على إعداد عدد معين من أرغفة الخبز. وفي هذا الوقت من الاضطرابات تعرفت على أركوكوف وهو شخص بوراتي غني، دعاني لزيارته، ووعدني بإيجاد رجل له معرفة بالتقاليد الشعبية للبلاد.

وفي الثالث والعشرين من أغسطس. وفي وقت مبكر جداً من الصباح كان هناك الكثير من البلبلة والهياج. فقد وصل المائتا جندي، وكان سبب الضجة في الأساس من الشجار والنزاع بين سائقي العربات البوراتيين، الذين جلبوا الرجال، والذين سوف ينقلونهم بعيداً، والشجار والخلاف بين البوراتيين أيضاً بسبب عدم رضا الجنود عن الخبز المتعفن الذي استلموه، وسددوا ثمنه على أساس أنه خبز طازج. وعرض بعضهم هذا الخبز على الملأ وسمعت أحد الجنود يقول إنه لم يكن صالحاً لتغذية الدجاج، وقال آخر حتى الخنازير ترفض تناوله. وقد دافع الخبازون عن أنفسهم، وكانت هناك معركة كلامية صاخبة. وفي النهاية ذهب الجنود، وعندما اختفى صرير العربات المتهالكة وهي تبتعد، غرقت بينداي كرة أخرى في سباتها المألوف.

وبعد ساعات قليلة بدأت رحلتي إلى البيت الصيفي لأركوكوف، والذي يبعد خمسة عشرة فرسخاً، ولأن الطريق كانت سالكة ومستوية والجياد في حالة جيدة، وصلنا هناك في وقت قصير. كانت هناك ثلاثة منازل مبنية على الطراز البوراتي داخل سياج عملاق، وأحدها مبني على الطراز الروسي، وإلى جانبها حظائر ومخازن. وعندما فتحت البوابة المرتفعة السياج، دخلنا المنزل الروسي الذي خرجت منه امرأة مسنة وقذرة جداً، وإلى جانبها رجلان وهما من أقذر خلق الله الذين رأيتهم في حياتي، وخرج أركوكوف من أحد المنازل البوراتية، ودعانا إلى المنزل الروسي، وأمر بجلب السماور. وفي الوقت الذي كان يتم تحضير السماور، تحدث عن ثروته ومكانته، كان له عدة آلاف من الماشية، وأربعمائة من الخيول الرائعة، وخمسمائة من الأغنام والماعز، وله أيضاً مائة وثلاثون ألف روبل في بنك إيركوتسك، بالإضافة إلى العديد

من المنازل، وأراضٍ كثيرة ذات قيمة. كان رجلاً ذا نفوذ واسع، ولديه المال ليقرض الآخرين.
وعندما أُحضر السماور كان البخار المنبعث منه ذا رائحة نتنة سببت لنا حالة غثيان على الفور.
وحينما سألناه عن سبب هذه الرائحة الغريبة، قال أركوكوف إن المياه التي يستخدمها من المياه
المخزنة من الثلوج، وطلب مني أن أذهب معه لأرى كيفية حفظها.

وخلف المنزل كان هناك مبنى صغير، ذو باب مفتوح دائماً وغير مثبت بإحكام في مكانه.
وفي داخل هذا المبنى كانت هناك حفرة يبلغ عمقها خمسة وعشرين قدماً، ولا يمكن الوصول
إليها إلا عن طريق درج يصل إلى أسفل الحفرة. وهذه الحفرة أو الخزان، تملأ بالثلج المجروف
في الطقس البارد، وتداس وتُعبأ وتكدس بأكبر درجة صلابة ممكنة. وبينما يدوس الرجال الثلج
بأقدامهم في الخزان يقوم الباقون بتعبئة الخزان بالثلج. وفي هذا الوقت كان البئر معبأ بحوالي
الربع، وكان الثلج قد تحول إلى جليد ومياه على السطح. وكان لون هذه المياه بلون الشاي ومليئة
بالقذارة. وجلب لي رجل دلواً من هذه المياه لكي أتفحصها، وكانت الرائحة نتنة، تشبه رائحة
البخار المنبعث من السماور تقريباً.

وعندما نظرت إلى الخارج رأيت أن المنازل والماشية والقرية كانت مرتفعة عن الخزان،
بحيث يصبح البئر مكاناً لصرف المياه. وقررت الرحيل فوراً إن كانت هذه هي الخزان الوحيد
للمياه. ولكن عندما قلت إنني لم يسبق لي ان استخدمت مياه الثلج، واعتقدت أن تلك المياه سوف
تمرضني، أرسل أركوكوف رجالاً إلى نهر صغير، على بعد مسافة لا بأس بها، ليجلب لي مياهاً
لشرب الشاي.



صورة توضيحية لأركوكوف وزوجته وابنه، وزوجة ابنه، وفي الخلفية مسؤول بوراتي.



صورة توضيحية لليزاروف وأقاربه. ويقف ليزاروف في نهاية الصورة بلباس أبيض. ويقف فاسيا في الوسط.

والآن تعرفت على السيدة أركوكوف. وهي امرأة قصيرة، وبدينة، ذات ملامح صارمة. يبلغ عمرها خمساً وستين سنة. وترتدي معطفاً مزدوجَ الصدر مصنوعاً من حرير كانتون، وسروالاً أزرق محشوراً داخل جزمة ذات عنق طويل، وزوجاً جديداً من المطاط فوق الجزمة - وتعتقد المرأة البوراتية أن لمعان هذا المطاط يعطيها مظهراً أنيقاً وجميلاً، وترتديه فوق الجزمة في أكثر الأوقات جفافاً وحرارةً. وعلى رأسها قبعة مدورة مصنوعة من اللباد، وفوق كتفيها منديل ذو لون صارخ، ومضفور في المقدمة. ولا تستطيع التحدث سوى باللغة البوراتية، ومن خلال محادثتي معها التي كانت محدودة نوعاً ما، رأيت أنها تهيمن على الجميع، ربما باستثناء زوجها. وعلمت في وقت لاحق، في استوردي، أنه قبل سنوات قليلة، تزوج السيد أركوكوف بامرأة شابة وأخذها إلى منزله. وعلى الرغم من أنه ليس من غير المألوف بين البوراتيين أن يتزوج الرجل زوجتين في وقت واحد، كانت السيدة أركوكوف الأولى غاضبة جداً، ولم تعش السيدة أركوكوف الشابة طويلاً.

وكان حول الرجل المسن مجموعة من الناس الغريبي الأطوار. وفي البيت الذي سكنته كانت في المطبخ امرأة غريبة المظهر، وهي أرملة روسية من المنفى، وعملها الوحيد هو صنع خبز الجاودار. وقد شكت بمرارة من بخل أركوكوف، وعدم دفعه لأجرها بعدالة، وعندما تثور ثائرتها يرد عليها قائلا: "اذهبي وقاضيني: لدي المال، أما أنتِ فليس لديك شي، ولنرَ كيف سينتهي بك المطاف". فقد خدمته بكد أربعة وعشرين عاماً، مقابل ثلاثة روبلات في الشهر (نحو دولار ونصف). وبالقرب من الفرن في هذا المطبخ المرتب كان هناك حوض من طحين الجودار، وحوض من الخميرة. وعلى المقعد الذي لا يبعد كثيراً عن حوض الدقيق، ينام الحارس في النهار، وهو رجل أكمل محكوميته لارتكابه جريمة قتل. كان طويل القامة، ضعيفاً، ودائماً حافي القدمين: كان ذا وجه متسخ، ولحية وشعر أشعثين، يمثل عينة بشرية بائسة، ومختّلاً عقلياً أيضاً. عمل خادماً في أسرة أركوكوف أكثر من عشرين عاماً.

ودعيت لزيارة المنازل البوراتية الثلاثة داخل السياج. ففي المنزل الأول يقطن الرجل العجوز وزوجته، وفي المنزل الثاني يعيش ابنهما وزوجته. أما في المنزل الثالث فتعيش أرملة ابنهما الأكبر وأطفالها الأربعة، وهم صبي واحد وثلاث بنات. والملابس التي يرتدونها تتألف من السراويل الفضفاضة، والقمصان الطويلة، والأحذية ذات العنق الطويل، والقبعات التي تجعلهم يبدون كصبية. وبالقرب من منزل الأرملة عربة طويلة مسقفة وبداخلها من عشرة إلى اثني عشر برميلاً كبير الحجم، وكل منها مملوء بثلاثة أرباعه بالخثارة المتبقية من تقطير التاراسان. وتُعطى هذا الخثارة غذاءً للرعاة ومسؤولي القطعان وغيرهما من العمال. ويقول أركوكوف بأنه طعام ممتاز.

ولا تُغطّى البراميل أبداً. وعندما تجف الخثارة وتتصلب تبدأ بالتشقق. كما يحدث للطين عندما يتعرض لحرارة الشمس. ويملأ الغبار هذه التشققات ويغطيها تماماً. وتضاف الخثارة الجديدة كل مرة يحضر فيها التاراسان. وتبقى الخثارة جافة بهذه الطريقة سنوات عديدة. وعند الحاجة تقطع قطعة صغيرة من هذه المادة الكريهة البشعة وتطبخ مع دقيق الجودار. ويقطر التاراسان تقريباً يومياً. ولكن نادراً ما يتم تناول الخثار الطازج. ولأسباب اقتصادية يستخدمون الخثار المجفف. ويتطاير الغبار من الجياد والماشية وحظائر الأغنام القريبة.

ويستخدم حليب الأبقار والخيول في كل بلاد البورات تقريباً لصنع التاراسان. ويصنع آل أركوكوف كميات كبيرة من هذا المشروب. إلا أنهم يصنعون الزبد أيضاً. وسيد المنزل فخور جداً بذلك. وجلب لي عينة لأتفحصها. فلاحظت أنها كانت مغطاة ببعض البقع. وطلبت منه أن يقطع لي شريحة منها؛ ففعل ذلك. ووجدت أن الزبد كان مغطى بطبقة رقيقة من الغبار. وتكوّن طعام العشاء من طبق من الحساء وقطعة من لحم الضأن المشوية وخبز الجاودار. ولكني لم استمتع به. لأن اللحم كان قاسياً جداً. ولم أتمكّن من تناول الخبز لأنني شاهدت من يخبزها والموضع الوحيد الذي كان بوسعنا النوم فيه في منزل هذا الرجل الغني هو على أرضية الغرفة. التي أعطيت لي في المنزل الروسي. أما الأسرة فنامت على الأرائك في المنزل البوراتي. وجلب فراشي من العربة وبُسط على الأرض. ولم أستطع إقفال الباب المؤدي إلى المطبخ حيث تنام المرأة الروسية. وكان الحارس الليلي الذي سبقت إدانته. يتجول في نوبته الليلة. وبطبيعة الحال كان معي مالٌ يكفي لتغطية نفقات السفر ودفع أجرة الرجال. لكنني كنت قلقاً من إثارة المشاكل. فخلدت إلى النوم على الرغم من كل ذلك.

وفي اليوم التالي أتى الرواة وغادروا. وتجمهر عدد كبير من الرجال في الغرفة للإنصات مسببين الكثير من اللغط والإزعاج. وحصلت على رواية شعبية واحد وأرسلت في طلب رجل يبعد عشرين فرسخاً لمعرفته الجيدة بالحكايات الشعبية. رأيته. ولكنه أعلن أنه لا يعرف شيئاً عن حكايات الزمن القديم. وأصر أركوكوف بأنه يعلم. لكن لم تنفع معه المناقشة أو إغراء المال. فدفعت له المال مقابل ضياع وقته. وعاد إلى دياره. وجاء رجل آخر: ولأن الوقت كان متأخراً في المساء قال إنه سيمكث. ويبدأ العمل صباحاً. وفي الصباح. رغم أنني استيقظت مع بزوغ الفجر. كان قد اختفى. ثم ظهر رجل مسن في الظهيرة وروى حكاية واحدة. إلاّ أن ذاكرته لم تسعفه. وأتى رجل آخر وحَلّ محله. وخلال هذه الساعات من الانتظار والانزعاج كان الشاي يلعب دوراً رائعاً كمهدّئ. ومن حسن الحظ كانَ معي الكثير من الشاي الروسي وكذلك البسكويت. وكانت الوجبة الوحيدة

في البيت خلال النهار بين الساعة الرابعة بعد الظهر والتاسعة مساءً طبقاً من لحم الضأن ورغيفاً من خبز الجاودار. وتعتمد حياة الأسرة هذه بشكل أساسي على خبز الجاودار والتاراسان. ورأيت كيفية إعداد خبز الجاودار. لذا لم أستطع أن أتناوله. ولكنني استمتعت بإطعامه لكلب عجوز أعرج، ومتقرّح. كان مترجمي موظفاً روسياً يعمل لدى أركوكوف. ودفعت لأركوكوف مبلغاً عن كل يوم عمل فيه الرجل أكثر مما كان أركوكوف يدفع له مقابل عمل أسبوع كامل. ودفعت للرجل المبلغ نفسه.

وفي اليوم الثالث لم يكن حظي أفضل في العثور على رواة أفضل من اليوم الثاني. نفد مني البسكويت، وفي الساعة الرابعة أمرت بتجهيز الخيول، التي كانت بانتظاري منذ يومين، بمعية بوراتي طويل القامة. وفي غضون نصف ساعة كنا في طريقنا متوجهين إلى أولزوني. وعلى الرغم من أنني كنت مرهقاً وجائعاً ودفعت مبالغ باهظة لقاء تلك التجربة، كنت راضياً كل الرضا. لأنني أمضيت ثلاثة أيام عند أسرة مغولية تقليدية. واعترف لي أركوكوف بأنه وفيٌّ لدينه القديم، ولعله كان صادقاً. ولكن هناك حقيقة واحدة مؤكدة، وهي أنه مخلص جداً لجمع الأموال وتكديسها وشرب التاراسان. وكانت المحطة في أولزوني نظيفة وفسيحة. وكان بودي أن أقضي عدة أيام فيها إذا ما عثرت على راوٍ للحكايات الشعبية. جاءني تاجر بولندي يدعى تيمبروسكي للترحيب بي ولمساعدتي في الحصول على هذه الحكايات. وكنت قد جلبت معي أحد رجال أركوكوف لمساعدتي. وبما أنني دفعت مبلغاً من المال مقدمة لوقته توقعت أن يبقى معي. ولكن بمجرد وصولنا إلى القرية. شرع بمعاقرة الخمر، ولم أستطع الاعتماد عليه ولو لنصف ساعة.

وعلى الرغم من قلقي وانزعاجي، بقيت أربعة أيام في أولزوني. وبعد ذلك، أخذت خادمي السكّير، لخوفي من عدم الحصول على شخص أفضل منه، وانطلقت إلى أعالي كودنسك. ومررنا بريف غني التربة ولكنه غير مستغل. ولاحظت العديد من الزهور البرية في سيبيريا، وعادة ما تكون ذات لون أرجواني. فالأقحوان وورد الخزامي ينمو في كل مكان. وبيت الشعب، أعالي كودنسك عبارة عن حقل مفتوح يبعد نصف ميل عن القرية. والمنزل محاط بسياج عالٍ جداً. أما غرفة الضيوف فصغيرة، ويتألف السرير من مقعد خشبي يوضع فوقه فراش العربة. أما عتبة النافذة فهي مليئة بالنباتات الطويلة التي تحجب الضوء وتجعل هواء الغرفة عفناً. وكان المسؤول البوراتي كريماً جداً، وانطلق على الفور لجلب «الحكماء».

وفي صباح اليوم التالي كان مترجمي مخموراً إلى حد مخيف. ومن حسن الحظ أنني الآن أتكلم اللغة بشكل جيد بحيث تمكنت من الاستغناء عن خدماته. وجاء رجل له

معرفة بالحكايات الشعبية، وأعطاني الكثير من المعلومات القيّمة. وبعد العصر ظهر رجل في منتصف العمر، يلبس نظارات زرقاء وقال لي: "بأنني سأقول لك كل شيء عن الدين البوراتي". وكان بصحبته ابن أحد الشامانات، وكان شخصاً فطناً، وذكياً. واسم هذا الرجل الكهل كونفروف، وهو صهر لأركوكوف. وكان قد هجر دين أجداده، وعلى استعداد تام ليريني ويخبرني بآلهته المهجورة ويحدثني عنها. كنت سعيداً بمقابلة رجلٍ مثله. وفي ذلك المساء كان هناك عشاءٌ فاخر، وهي أول وجبة ممتعة لي منذ اكثر من شهرين: وتألف العشاء من شريحة لحم بقر وبطاطس مطبوخة، ولم أشاهد بطاطا بهذه اللذة منذ مغادرتي لندن، وقد زرعت في حديقة قريبة من المنزل، وهناك في الريف البوراتي، حيث سمعت الكثير عن استحالة نمو أية خضروات.



صورة توضيحية لكونفروف وزوجته.
الأشخاص الآخرون من المجموعة هم جيران تجمعوا حول كونفروف للاستماع إليه. وهو جالس في نهاية الصورة قرب زوجته الواقفة.



أندريه ميخايلوفيتش وميكالوف وزوجته الفتية وعلى يمين الصورة فاسيا.

وإن كان العشاء فخماً، فقد كان الفراش بائساً، وكانت تجربة رائعة مع الصراصير. عندما حل النهار اختفت، وقد جاءت من الأماكن التي اختبأت فيها، وتسابقت في كل مكان، على الجدران وأسفلها، وعلى الطاولة، والأرضية، والموقد، والفراش، وعلى السلال أيضاً. ولم أشهد هذا العدد من الصراصير في حياتي إلاّ مرة واحدة فقط من قبل. وكان هذا في غواتيمالا، حيث أكَلَتْ كل شيء في غرفة نومي، والتهمتْ حتى لوحات الصور الفوتوغرافية والأفلام التي وضعتها على الرف لتجف. وكان من المستحيل النوم بوجود هذه الصراصير البوراتية العدوانية جداً. وفي الصباح استسلمت، وارتديت ثيابي، وخرجت إلى الشرفة. وهناك وجدت خياطاً يهودياً يملك منزلاً في لودز ببولندا. وكان قد قضى إحدى عشرة سنة في المنفى، بتهمة التهريب. ولم يتبق له سوى سنة واحدة من محكوميته. كان رجلاً ذا مظهر غريب، أجعد الشعر، وأبيضه، ما عدا شعر رقبته من الخلف، والذي كان أسود فاحماً أعطاه مظهراً غريباً ولافتاً. ولم يكن له أي صداقات في أرض البورات، وعلل ذلك بشربهم المفرط للتاراسان الذي يدمرهم كشعب. وتحدث مطولاً وبحرية بصورة رئيسة عن البلاد وشعب البورات وباللغة الألمانية، غير مبالٍ أو هيّاب من أن يسمعه أحد أو يفهمه.

وفي الصباح، بمجرد تمكني من الحصول على الخيول، بدأت الانطلاق نحو كونفروف. وكانت الرحلة ممتعة ومسافتها خمسة عشر فرسخاً لولا الخيول والسائق. فالسائق الأول كان بائساً، وفي حالة يرثى لها؛ والثاني لا يملك أية إنسانية. فالطريق كانت وعرة وشاقة، والخيول هزيلة وناقصة التغذية وعجفاء. كنت خائفاً من موت الخيول، وعلى الرغم من إلحاحي وتهديدي للسائق بأن يريح هذه الخيول المتعبة، فقد ذهبت كل جهودي أدراج الرياح. وكان كونفروف مكاناً مخيباً للآمال. وكان المنزل سيئاً بحيث لم نرغب في عمل الشاي وتناول الغداء. واتى رجل من ريغا الألمانية، كما أعلن عن نفسه، وبدأ الحديث بسرعة، وطرده كونفروف شر طردة، وبرر تصرفه بأن الرجل كان مخموراً. وفي وقت لاحق ظهر مرة ثانية، وطُرد فوراً. وبدا لي أن كونفروف لم يفهم الألمانية وكان خائفاً من أن الرجل سوف يقدم شكوى. وعندما هممت بالمغادرة، تقرّب المنفي من العربة وصافحني وقال لي بالألمانية «إن الله يرى كل شيء».

وجلب كونفروف آلهته، وأخرجها من صناديقها ووضعها جانب المنزل لكي أصورها، وهي تشبه إلى حد كبير ما أراني إياه أندريه ميخايلوف. وأخبرني كونفروف عن أسمائها وصفاتها، ولم تكن الزيارة لطيفة للغاية، وعلى الرغم من حصولي على بعض الحقائق المهمة، كنت سعيداً بمغادرة هذا المكان. وخضت صراعاً مريراً آخر مع الصراصير في الليل. وبعدها انطلقت إلى

أستوردي. بصحبة المترجم زابلنسكي. الذي وعدني خيراً. وكانت الرحلة ممتعة. فدرجة الحرارة مثالية ويصحبها نسيم عليل. لقد كان يوماً جميلاً! لقد قضيت شهراً كاملاً في هذه الديار.

كنت مشتاقاً للعودة إلى إيركوتسك. لكني أصررت على الحصول على بقية الحكايات الفلكلورية عن مانشوت قبل المغادرة. وأرسلت في طلبه حالاً. وسرعان ما عاد الرسول ليخبرني بأن مانشوت مريض. لم أصدق هذا. ولذا حصلت على أمر من رئيس القرية بأن يأتي الرجل المسن إلى أبرافا. واستغرق الرجل الذي أخذ أمر المثول اليوم بأكمله. وعندما رجع أخيراً. عاد بالرسالة نفسها. وهي أن الرجل مريض. لم أعرف ما أفعل. فقد كان هناك احتفال. وكان الرجال مخمورين جميعاً. حاولت جهدي أن أبعد زابلسكي عن رفقة السوء. ولكن في أمسية اليوم الأول اختفى. وشرب أندريه ميخايلوف الخمرة بشراهة. وكان فاسيا الرجل الوحيد في أستوردي الذي لم يكن مخموراً كالبقية.

الفصل السابع

حفل عيد ميلاد في سيبيريا

كان عيد ميلادي في السادس من سبتمبر. وكنت قد استأجرت عربة الترويكا بأربعة روبلات ونصف، وشرعت بالبحث عن مانشوت ليجلب لي حياً أو ميتاً. وكان يوماً جميلاً. والهواء منعشاً، والشمس ساطعة ومشرقة، والنسيم عليلاً يضفي على الجو بهجة.

لم تتحرك عربة الترويكا بسرعة، بسبب انحناءات طفيفة في الطريق. لكن الهواء كان منعشاً في الريف والطريق بديعة، وبعدها بوقت وجيز كنا على مقربة من تل القرابين، ثم اجتزناه. وقيل إن القرية التي يعيش فيها مانشوت كانت على بعد عشرين فرسخاً من أستوردي، وكانت رحلة سريعة. وأخيراً شاهدنا عدداً من القرى، التي لا تبعد كثيراً عن بعضها البعض. وتساءلت في البداية، أين منزل رب عمل مانشوت؟ وعثرت عليه من خلال السياقة بين ما بدا لي أنه سلسلة من باحات الماشية غير المسيجة. وأمام المنزل وقفت نصف دزينة من النساء القويات والغبيات. واحداهن كانت زوجة رب العمل. ولم تعط أي معلومة سوى أن زوجها مانشوت كان بعيداً، ولم يكن يعمل في ذلك اليوم، إنما هو مع بعض الأصدقاء. وفي ذلك التقاطع رأيت أقبح رجل رأيته في حياتي، ظهر فجأة من إحدى الزوايا. وكان أحمر الوجه يتوسطه أنف كبير ذو عقدة، حمراء قاتمة اللون. كان مثيراً للاشمئزاز بشكل فظيع، وقذراً بشكل لا يوصف، وكان هذا الرجل في حالة سكر بعد تجرعه لبراميل عديدة من التاراسان.

قال لي سأدلك على بيت مانشوت. فأفسح السائق مجالاً له في العربة، وسرنا في الاتجاه الذي دلنا عليه، وقرب نهاية القرية كانت هناك عدة منازل متهالكة.

وقال لي دليلي إن مانشوت يعيش مع والدته في المنزل الثاني، ولكن وجدنا أنه يسكن في المنزل الأول، ليس مع والدته، ولكن مع مخلوقة مسنة، وغريبة، شبيهة بالساحرات، جالسة على الأرض خارج المنزل الثاني وبصحبتها ثلاث نسوة طاعنات في السن. وحين

سألت «اين مانشوت؟». لم تجب. بل نهضت وذهبت إلى بيتها وجلست بالقرب من الباب. ثم بدأت حديثاً لا طائل وراءه: وقصتها الأولى هي أن مانشوت يقوم بزيارة في حي آخر. والقصة الثانية هو أنه يجز العشب في الحقول. واعتقدت أنه قد يكون مختبئاً. لذلك أعطيتها بعضاً من المال فأدخلتني المنزل لكي أتحرى من صحة ما تدّعي. لم يكن هناك. وفي غضون ذلك. أعطيت الرجل ذا الأنف المعقوف. خمسين كوبيكاً ووعدته بالمزيد. فذهب ليجلب لي مانشوت. وبعد أن رأت المرأة المسنة الرجل يذهب ليبحث عنه بدأت تضحك. وقالت: « إن الرجل ذا الأنف الأحمر سكير عنيد: ولن تراه كرة أخرى».

قررت العودة إلى منزل رب العمل. وفي الطريق قابلت شخصاً بوراتياً روسيا وكان قد رآني بصحبة اندريه ميخايلوفيتش في مراسم التضحية بالحصان. وعلى الرغم من أنه كان مخموراً لكنه قدم لي معلومات أكثر مما كنت أتصور من شخص بحالته. وقال إن رب عمل مانشوت لديه الكثير من العشب ليجزه. ولم يسمح للرجل المسن بالذهاب إلى أستوردي. وعرض أن يصحبني إلى حقل القش. إذا رغبت في ذلك. واعترض السائق على ذلك بقوله إن المكان هو عبر النهر. ويبعد أكثر من فرسخ: والخيول متعبة للغاية لهذه الرحلة. أرسلت في طلب خيول أخرى. ومن ثم قال السائق بأنه لا يرغب أن يعبر النهر بعربته. وفي النهاية. وعلى مضض. مع زيادة في الأجرة. قرر الذهاب إلى حقل القش. واتخذ الرجل المخمور مقعده بالقرب من السائق. وانطلقنا بعدها. وبعد ذلك بنحو نصف ميل وقفنا أمام منزل صغير بني على الطراز الروسي. وتساءلت لماذا توقفنا؟ فقال «للحصول على المشروب» وأضاف «إنه يوم حار: وأنا أشعر بالجفاف».

كان البيت الصغير عبارة عن حانة. ولحسن الحظ كان مغلقاً. وعندما طرق الباب بشدة. ظهر طفلان من النافذة المكسورة. ورفضا السماح له بالدخول: فقد أمرتهما والدتهما التي تعمل في حقل يَبعد مسافة بعيدة جداً بعدم فتح الباب لأي شخص. وأصَرّ الرجل على الدخول. وعرضَ عليهما بعضاً من المال. ووبخهما أيضاً. ولكنهما لم يرضخا لمطلبه. وقلت له إنني على عجلة من أمري ولا أستطيع الانتظار: لأن الليل يكاد يجن. وفي النهاية. عندما عِيل صبري. اتخذ مقعده في العربة وانطلقنا. وفي تلك اللحظة نادانا شخص ركض قبالة الحقل. وكان صديقنا ذا الأنف المعقوق. وعندما اقترب منا صرخ "لقد وجدته!"

فعدنا على الفور. كان الرجل قد حصل على زجاجة من التاراسان من مكان ما. ثم ظهر شامان. وبدأت نوبة الشرب من جديد. وسرعان ما أفرغا الزجاجة كلها بلذة بالغة. خشيت أن يثمل السائق. ولكنه كان معتاداً على التاراسان بحيث لم تظهر أي علامات سكر واضحة عليه.


مانشوت

وانطلقنا بعد صعود كل من الشامان والرجل ذي الأنف المعقوف في العربة ووقفاً في الجزء الخلفي منها. وخارج منزل الساحرة القديم التقينا بمانشوت. وكان مغطى بالقذارة، ويربط منديلاً حول رأسه. وبدون انتظار أية كلمة، رحبت به وقلت له: "إذهب واجلس قرب السائق. سيحل الليل قريباً، ويجب أن ننطلق على الفور!" واتخذ مقعده، دون أن يتردد لحظة واحدة، وبعدها انطلقنا. وبدت استوردي بعيدةً في مساء ذلك الشهر من سبتمبر، وأيضاً لأن الخيول كانت متعبة، والجو قارس البرودة. وبلغت الساعة التاسعة عندما وصلنا إلى القرية. كان يوم عطلة، وبطبيعة الحال احتفل البوراتيون بشرب التاراسان، وكان تأثيره واضحاً في كل مكان. وبجهد كبير نجحنا في جلب السماور وبضع قطع من خبز الجاودار. كان عيد ميلاد غريباً ولكني كنت راضياً. لقد خضت معركة وفزت بها.

وسرد لي مانشوت مدة أربعة أيام حكايات شعبية، وكان عمله مرضياً جداً. ومع ذلك كانت أياماً صعبة، بسبب استنزافي للمؤن، باستثناء الشاي، وبغض النظر عن مدى كبر القرية البوراتية فليس من الممكن العثور على سوق للحم. ويتوفر أحيانا قليلة في محلات البقالة لحم الخنزير المقدد، ويخصص للزبائن الروس، إلا أنه من نوعية سيئة للغاية. وفي هذا الوقت افتقرت أستوردي حتى للحم الخنزير المقدد. وكما ذكرت سابقاً عن البيوت البوراتية، هناك وجبة واحدة كل أربع وعشرين ساعة: وتتألف من لحم الضأن القاسي، وخبز الجاودار، والتاراسان. ويتم تناول هذه الوجبة دون كياسة وتهذيب. فتوضع الصحون والسكاكين والشوكات على مائدة وعادةً ما تكون مغطاة بمشمع، ويؤتى بطبق من لحم الضأن وطبق من خبز الجاودار، ويخدم كل شخص نفسه بنفسه.


فتاة بوراتية شابة من جزيرة اولخون.

ويشرب الشاي في الصباح. أما الطبقات الفقيرة، فتشرب ما يسمى بـ "كتلة الشاي" وهو ذو رائحة نتنة. أما ميسورو الحال فيشربون الشاي الروسي العادي. وأنا متأكد من أن تدخينهم للكثير من التبغ دمر شهيتهم لتناول الغذاء، لذا يعيش الأغنياء بالسوء نفسه الذي يعيشه الفقراء.

ويدخن البوراتيون بشكل متواصل تقريباً، وذلك باستخدام أنبوب مع وعاء كبير، طويل الجذع. وقد رأيت أطفالاً يبلغون الخامسة من أعمارهم يدخنون. ويبدو أن الفتيات أكثر إدماناً على التدخين من الأولاد، إذا كان ذلك ممكناً، وهن ينغمسن في اللذة بكل طريقة. ولا يتوقع من الفتاة اتباع الأخلاق الحميدة إلا بعد الزواج، وعندئذ يجري تطبيقها بحزم وصرامة. تجهل الغالبية العظمى من البوراتيين اللغة الروسية، ومن الصعب أن تجد رجلاً قادراً على المشاركة في محادثة عادية. ولا تبذل النسوة البوراتيات أي جهد لتعلم الروسية، ولا توجد مدارس لتعليمها في أرض البورات. وكنت مبتهجاً عندما رأيت كل ما تحدث به مانشوت مدوناً على الورق، وذلك لكونه إنساناً فظاً ومثيراً للاشمئزاز. وعوضته بسخاء عن وقته وعن معلوماته عن الحكايات القديمة، وولى بعيداً وهو راض كل الرضا.

وكان زابيلنسكي سعيداً أيضاً، لأنني لم أعد الأيام التي كان فيها ثملاً عديم الفائدة. غادرنا استوردي في الثالث عشر من أيلول/سبتمبر. وكنت سعيداً بالخروج من أرض البورات، فعلى الرغم من أنني اكتسبت قدراً كبيراً من المعرفة فقد تحملت الكثير من المشاق. وعلى بعد سبعة فراسخ خارج المحطة الأولى، مررت ببلدة إيوك، ويبلغ عدد سكانها حوالي أربعة آلاف من المحكومين السابقين، ومعظمهم من الفلاحين البولنديين واليهود والروس والتتار. وهي مدينة هائلة الحجم، تحتوي على شارع طويل واحد، ومنازل غير مصبوغة وأسوار، وجميعها متهالك وعلى شفا الانهيار. ووصلنا منطقة كودا عند الغسق، فأمضينا ليلة هناك، ليس بسبب صعوبة الحصول على الخيول وحسب، ولكنني اعتقدت أنه من غير الآمن السفر في الليل، لأنه قبل سنتين أو ثلاث سنوات وقعت عدة جرائم قتل في هذه النهاية من الطريق.

وفي مسكن زمنسكي التقيت بمدير شرطة فيرنولينسك، وهو شخص جلف وغبي وكان في طريقه إلى إركوتسك. أما زوجته وعمته فقد التقتا به في منطقة كودا، وقد ملأوا غرفة الضيوف بالحقائب والصناديق التي كان من المفروض تركها خارجاً. وكان هذا أمراً مزعجاً وبغيضاً، ولكن سنحت لي فرصة لمعرفة الشخصية الحقيقية لهذا الرجل. ولو علم أنني أسافر في مهمة بحماية الدولة لكان أكثر حذراً وكياسة.

وفّرت المرأة المسؤولة عن المنزل غرفة صغيرة لي، حيث حاولت النوم على صندوق مربع

ضخم الحجم. احتل حيزاً كبيراً من الغرفة. وفي منتصف الليل وصلت مجموعة من الضباط الشباب بصحبة الحاكم العام لطلب الحصول على خيول. وعندما لم تسلم الخيول ارتفعت أصوات جدلهم ومماحكاتهم. وكانت قد صدرت لهم أوامر بالانطلاق إلى إيوك. واتخاذ الترتيبات اللازمة لإيواء فوج من الجنود هناك لفصل الشتاء. ورفضوا أن ينتظروا خيول المحطة. وعثروا على جياد من ممولين خاصين وانطلقوا في رحلتهم. مع كل رضائي وسروري.

وفي صباح اليوم التالي كنا على الطريق في ساعة مبكرة ونحن نحمل معنا بركات مسؤولة البيت. والتي قالت لنا ونحن نغادر "إن لم تسلكوا هذه الطريق ثانية. فعسى أن نلتقي في العالم الآخر".

وكان يوماً ممطراً وبارداً. وأبلغنا السائق أنه سيكون هناك "الكثير من البرد والقليل من الدفء". في ذلك المساء تناولت طعام الغداء مع حاكم إيركوتسك. وذهبت معه إلى دار الأوبرا. وهذا الانتقال المفاجئ من العيش بين البوراتيين إلى دماثة الحياة المتحضرة ومزاياها في عاصمة سيبيريا جعلني أشعر بنتائج التطور الاجتماعي الهائل عبر قرون من الزمن. وهو تطور يُمكّن من خلال تأثيره على البشر سكان المدن في لحظة واحدة ودونما مجهود عقلي من العودة من حياة البر والحرية إلى ترف الحياة المادية.

وهكذا تركت أبطال الماضي الذين قاتلوا ببسالة الكثير من المنفائيين ذوي الرؤوس المتعددة وعدت إلى الحاضر برجاله الذين لا يقلون شجاعة عنهم وهم يناضلون ضد قوى الشر واللاأبالية والذين يجلبون لسيبيريا الرخاء الذي تستحقه بكل جدارة.

الفصل الثامن

عادات البوراتيين:
صنع التاراسان

إن أخطر عمل في منزل البوراتيين وأهم عمل للمرأة البوراتية فيه هو الحفاظ على برميل مملوء بالحليب وتقطيره إلى تاراسان، وهو نوع من الخمور يبدو كالكحول أو المياه النقية. وعندما يكون الحليب قد بلغ درجة الحموضة بحيث إن الجزء المائي ينفصل من الخثرة، يصبح آنذاك جاهزاً للتقطير. ثم تؤخذ كمية من الحليب من البرميل وتُوضع في قِدر حديديَّة كبيرة ثم يغلق الإناء غلقاً محكماً بطين الأبقار وروثها. ويوضع على نارٍ هادئة تحترق في حفرة وسط البيت البوراتي.

وفي وسط القدر هناك أنبوب يصب في حوض يبعد حوالي أربعة أقدام. وفي نهاية هذا الأنبوب يسيل التاراسان على شكل قطرات.

وعند الرغبة في تحضير تاراسان قوي تجري إعادة تقطيره. وأقوى تاراسان يمكن الحصول عليه عندما يقطر ثلاث مرات.

وأستطيع أن أقرر بأن براميل الحليب في البيوت البوراتية لا تكون فارغة قط، لأنه يبدو أنها لم تغسل منذ سنوات.

وفي بعض المنازل يوجد برميلان إلى ثلاثة براميل من الحليب الحامض في الغرفة. ولكن عندما يكون هناك قطيع كبير من الأبقار، ويتوجب تزويد التاراسان للكثير من الناس، تخزن البراميل تحت سقيفة قرب المنزل. وتترك هذه البراميل مكشوفة، وبالتالي يتخمر الغبار فيها مع الحليب.
أما المادة المتبقية في الوعاء بعد عملية التقطير فتسمى بـ «أرسا»، وتخزن في البراميل. ويتم تكثيفها وخلطها بدقيق الجودار وطهيها للعمال. وتتصلب الأرسا بحيث يستخدم الفأس لاستخراجها من البرميل. وتبقى هذه البراميل مكشوفة تحت السقيفة أو في المنزل الإضافي.

ويحتفظ البوراتيون بالعديد من الأبقار، ولكن الحليب كله يستخدم تقريباً لصنع التاراسان، فلا يوجد هناك جبن، والقليل جداً من الزبدة والكمية الضئيلة من الزبدة التي تبقى لا تصلح للاستهلاك البشري.

مراسيم الزواج

عندما يعجب غلام بفتاة يبدأ والداهما إذا كانا موافقين على الزواج، بالمفاوضات من خلال «الخاطبات»، أو من الممكن أن يقول الأب للأب الآخر، «لديك ابنة ولدي إبن، لنصبح أقارب». وعندما يتم هذا الاتفاق، يبدأ عمل «الخاطبات». و« الخاطبات » عادةً، إن لم يكن دائماً، هن نساء كبيرات في السن، ويذهبن إلى والد الفتاة باقتراح من والد الصبي. ويفكر والد الفتاة بهذا الاقتراح بشكل رسمي، أو إذا كان قد غيّر رأيه، فسوف يرفض ذلك. وفي هذه الحالة سيتلقى زيارة أخرى. وفي هذه المرة يأتي خمسة إلى ستة أشخاص، ويدخلون الخيمة (اليارتا) ذا الثمانية جوانب، وتجلس « خاطباتان » أمام الباب: ومعهن رجال مهمتهم إقرار المبلغ المستحق الذي يجب أن يدفع. ويحصل الأب دائما على «كايلم»، وهو مهر الفتاة. والآن تبدأ عملية المساومة، فطرف يطلب مبلغاً كبيراً، والطرف الآخر يطلب مبلغاً أقل، وغالباً ما يكون هذا إجراءً شكلياً، لأنه في حالات عديدة تقرر هذه المسألة سلفاً. فيقوم والد الفتاة بتخفيض المبلغ إلى حد ما، ويقوم والد الصبي بزيادة المبلغ قليلاً حتى يتم في النهاية التوصل إلى اتفاق بشان المبلغ المقرر.

ودائماً ما يُدفع المهر بالخيول والأبقار والأغنام أو الحبوب، أو أي شيء ذي قيمة بين البوراتيين: ويتراوح المبلغ بين ثلاثمائة وسبعمائة روبل، ويعتمد هذا على ثروة الأسرتين، ويتم تحديد موعد الزيارة الأخرى، وينتهي بذلك عمل «الخاطبات». وفي اليوم المتفق عليه يذهب حشد كبير إلى منزل الفتاة، يجلسون على الأرض، ويتحادثون فيما بينهم بينما يشربون التاراسان، ثم يبدأ الرقص أمام المنزل، وتذبح الخراف، وإذا كان الأب غنياً فإنه يذبح حصاناً، ويطهى هذا اللحم، ويتناول الحشد هذه الوليمة. ولا يحضر هذه المراسيم سوى الأصدقاء، والأقارب والجيران، ولا تحضر الفتاة أو الفتى هذه الاحتفالات في اليوم الأول. في اليوم الثاني من مراسيم الزواج، والتي يمكن أن تكون بعد المناسبة الأولى ببضعة أسابيع، يأتي العريس في الصباح الباكر إلى والد العروس، ويجلب ما يشبه الهدية. إذا كان غنياً فإنه يذبح حصاناً ويعطي رأس الحيوان إلى حميه، وتُقدم الأضلاع لضيف الزفاف الأكثر تبجيلاً، ويتم طهي

اللحم. وتقدم أفضل القطع للحضور. ويقدم التاراسان بوفرة. وتُعقد هذه الحفلة في الهواء الطلق. ويتخللها الرقص والولائم. ولا ضرورة للكراسي والمناضد: فالكل يجلس على الأرض لتناول الطعام.

في اليوم الثالث يكون العريس في منزل أبيه. ويجهز المنزل للعروسين الشابَّيْن. وتتألف الغرفة من سرير. وعلى مقربة من السرير يحدد مكان جلوس العروس. وبينما هي في المنزل، تقترب مجموعة صغيرة من الناس على ظهور الجياد من بعيد. ويتوقفون أمام باب المنزل. ومن ثم يدخلونه. ويخطفون الفتاة بوضعها على ظهر حصان. وينطلقون بها نحو بيتها الجديد. وهناك تُحمل بعيداً عن الحصان. وتدخل البيت. وتجلس بجانب السرير. حيث يوضع منديل على وجهها. والعريس حولها في كل مكان. ولكنه لا يسلّم عليها أو يُحَيِّيها. وتوضع طاولة بالقرب من العروس وعليها الآلهة المنزلية «الوغونز». ويتوجه أربعة من أصدقاء العروس لإبلاغ العريس أن العروس موجودة. فيتقرب منها. فتنهض وتأخذ بيده. ثم يحضر ثلاثة رجال كبار في السن. لهم أهمية لدى العائلة. ويسجد كل من العروس والعريس للآلهة ومن ثم يقود الرجال الثلاثة كبار السن العروسين حول الطاولة ثلاث مرات ويتضرعون للآلهة بأن تجلب السعادة والرخاء للزوجين. وأن تكون حياتهما مزدهرة. وموسرة. وليرزقوا بالكثير من الأطفال لبدء حياة جديدة. وبعد هذا الحفل تعود العروس إلى منزل والدها.

وفي اليوم الرابع من مراسيم الزواج تذهب العروس مرة أخرى إلى منزلها الجديد أو (اليارتا). وتضع قناعاً على وجهها وتتضرع للآلهة. وتضرم النار في الأرض في وسط اليارتا. وتسجد للنار أيضاً. وترمي قطعة من الزبدة إلى النار. ثم تأخذ قطعة وزنها رطل إلى رطلين من لحم الضأن الدهني. وتقطعها قطعاً صغيرة. وتلفها إلى أن تصبح كتلة. ومن ثم تضعها في يد حميها. وبهذا تؤكد له بأنها ستكون كريمة وحنونة معه. وبهذا ينتهي الحفل وتجلس العروس بالقرب من برميل الحليب. والذي يُواجه دائماً الركن الشمالي الغربي من النار. وعندما تجلس العروس على برميل الحليب. تنتهي مراسيم الزواج. وهذا يدل على تملكها بشكل رسمي على حليب المنزل. وبهذا تعتبر سيدة الحليب. وعلى الجميع الذهاب إليها إذا ما أرادوه. فعملها هو عمل التاراسان. وهي موجودة لهذا السبب.

أما في منطقة بالفوكسك. حيث تقطن قبائل أخرى من البوراتيين هناك. فتختلف مراسيم الزواج قليلاً. ففي اليوم الذي تؤخذ فيه العروس إلى منزل العريس. يتقدم رجل على البقية وهو يحمل قوساً عظيمة ويترك العريس ليتولى أمر الضيوف. وعند وصوله إلى المنزل الجديد يغرز السهم أمام عمود المنزل. ويعلن عن وصول مجموعة العروس. وعندما يكونون على مقربة من

المنزل يقوم رجل. وهو معيّن ليقوم بهذا العمل برمي قطعة لحم تؤخذ من المفصل الثاني من حيوان. وقد يكون هذا الحيوان بقرة أو نعجة أو حصاناً. ويرمى إلى أطفال القرية الذين ينتظرون لالتقاطها. وتترك العروس منزل والدها. أما على ظهر حصان أو في عربة. ولكن عندما تقترب من منزلها الجديد تكون دائماً على ظهر جواد. وتعدو بالجواد سريعاً. ومن ثم يتم إنزالها من الجواد. ويغطى رأسها ووجهها وتجلس بجانب كرسي خصص لها بجانب السرير. وكلما أنجزت هذه العملية بشكل أسرع. أعطت العروسين الحظ الأوفر. والجواد الذي تركبه مزخرف بجرس. وينزع الجرس. ويقرع. ثم يعلق على العمود المواجه للجهة الغربية بالقرب من الباب.

في اليوم الذي يلي آخر يوم من الاحتفال تقوم نساء القرية بزيارة العروس. ويجب على العروس استقبالهن وعلى رأسها قبعة وتغطي وجهها بمنديل. ويجب أيضاً ألاّ تدعو بعض الأشخاص بأسمائهم. ولكن من خلال صلتهم بها. وعندما يصلون إلى المنزل يسعلون خارج باب المنزل. ويفعلون ذلك لمجرد التسلية وتشويش العروس. وفي اليوم الثاني من مراسيم الزواج تجلس العروس في المنزل وتبدأ بالبكاء. ويصحبها بالبكاء أيضاً بعض من صديقاتها. ومن ثم تتمدد على السرير مع أقرب صديقة حميمة لها. وتأخذ كل واحدة من الأخرى خصلة من الشعر وتضفره على كتف الأخرى. ثم تتعانقان بقوة. ويحاول الأصدقاء من الفتيات والفتيان. تفريقهما عن بعضهما. وإبعاد الواحدة عن الأخرى. ويتخلل ذلك ضحك وصراخ. ويظهر هذا الاحتفال أن العروس الشابة بعد الزواج ستكون وفيةً لأصدقاء طفولتها. وإذا كانت العروس حبلى فلا يجوز لها الخضوع للآلهة. لأن ذلك سيؤدي إلى مصيبة كبرى للمجتمع برمته.

احتفالات ما بعد ولادة الطفل

قبل ولادة الطفل يتم استدعاء "القابلة" أو المولِّدة. وبمجرد خروج الطفل إلى العالم يأخذ الأب رأس السهم ويقوم بقطع الحبل السري. وبعدها يغسل الرضيع بالماء الدافئ. ويلف بجلد الخروف. ويوضع في معطف أبيه المصنوع من الفرو. ويتجمع الأصدقاء والجيران. ويذبح حيوان ويطهى. وهذا الحيوان إما أن يكون بقرة أو نعجة. ويريق الرجال المعتادون على أداء هذه الاحتفالات التاراسان على اللحم لتكريم الآلهة. وعلى هذا النحو يتضاعف تكريم الآلهة. متوسلين في الوقت نفسه أن يُنعم على سيد المنزل بالكثير من الأطفال وزيادة في الماشية. ويحفظ الحيوان المذبوح من عظام ساقه إلى ما تحت الركبة. وهذا الجزء يتم غليه. وفي اليوم

الثاني يقطع اللحم ويفصل عن المظم. ويربط العظم خارج مهد الطفل. على الجانب الأيمن. إذا كان المولود ذكراً. فيأتي صبي ويقف بجانب المهد استعداداً للإجابة عن الأسئلة وإعطاء الطفل اسماً معيناً. وإذا كان المولود فتاة. تقف فتاة قرب المهد.

ولنفترض أن المولود ذكرٌ. تحمله القابلة بين ذراعيها أمام المهد وتسأل "هل نأرجح الطفل أو العظم؟" وتسأل السؤال ثلاث مرات. ثم يجيب الصبي "الطفل"! ثم تعاود السؤال ثلاث مرات: "هل نأرجحه إلى الأعلى أو إلى الأسفل؟" فيجيب الصبي "إلى الأعلى". يوضع الطفل في المهد ويشد فيه. ثم تسأل القابلة "ما هو اسم الطفل؟" ويكرر الصبي الاسم الذي اختاره والداه. في اليوم الثالث. يذبح حيوان آخر إذا كان الأب ميسور الحال. ويوزع على أبرز شخصيات القرية. وعلى الذين لم يحضروا احتفالات الولادة. ومراسيم تسمية الطفل. وتدفن التومي أو المشيمة في اليوم الثالث. ويزال لوحان من الخشب من أرضية الغرفة القريبة من سرير الأم. وتحفر حفرة في الأرض ويحرق العرعر المجفف بالقرب منها ثم توضع المشيمة أو التومى في حفرة. وتُغطى. ويتم استبدال الألواح. ثم تُطَهر الأم. وتحضر النسوة فقط هذا الاحتفال.

وللمشيمة أهمية مقدسة عند البوراتيين. وإذا ما سألت بوراتياً. أين ولدت؟. فسيجيبك: «مشيمتي مدفونة في ذلك البيت»، أو يقول. في هذه القرية أو تلك. حيث مشيمتي مدفونة في ذلك المنزل». أما البوراتيون الذين يعيشون وراء منطقة بايكال. فحينما يسألون عن أصولهم. يجيبون: «مشيمتنا موجودة على الجانب الغربي من بايكال». ويكرمونها بالإراقة التي يقدمونها لها. وفي هذه الحالة تكون المشيمة لأحد أسلافهم المشهورين عند البورات جميعاً. وعندما يريقون التاراسان. يقومون برشه على الآلهة ويدعونهم بأسمائهم كلها ثم يسمون أسلافهم. وأخيراً مشيمتهم.

أصول البوراتيين

(سرد لأصول احتفالات الولادة كما رواها لي اثنان من الرجال الطاعنين في السن).

عاش الخان بهان في هيوغان دالاي وهي منطقة ليست بعيدة عن البحر. وكان ثوراً في وضح النهار. ولكنه يتحول دوماً إلى رجل في الليل. وفي منطقة ليست ببعيدة جداً. على الضفة الغربية من البحر. عاش خان كونشي والذي كانت لديه ابنة جميلة. وفي ليلة من الليالي شاهد الخان بهان ابنة الخان كونشي ووقع في غرامها. وبعد فترة ولدت لهما ابناً. وعندما وضع الطفل في المهد. سرق الخان بهان الطفل المشدود إلى المهد. وحمله إلى حافة البحر. وحفر حفرة في الأرض بحوافره. ودفن الطفل والمهد هناك.

وعاش شامان اسمه أوسان وزوجته إيسان بالقرب من البحر. ورأوا الخان بهان يحفر حفرة في الأرض، وعندما غادر المكان، توجها على الفور لمعرفة ما دفن هناك. فعثرا على المهد فأخذاه إلى المنزل ولكن الخان بهان كان قد طوق المهد بإحكام بحيث يصعب فتحه. وبدأت يوسان تسأل «الشامان» كيف يمكن فتح المهد. جاءت الإجابة من الآلهة بوغا نويون باباني، وهو الإله الذي كان يكرمه بالإراقة له. فقال الإله له «اربط عظمة الساق اليمنى (تحت الركبة) لثور يبلغ من العمر سنتين على الجانب الأيمن من المهد. ومن ثم ضَعْ سكيناً حادة بجانب المهد. ثم اسأل، كيف هي، هل تريد أن أهز العظمة أو الرضيع؟ وعلى الطفل أن يجيب، «الرضيع». «هل أهزه إلى الأعلى أو إلى الأسفل؟» وتأتي الإجابة «إلى الأعلى». وعندما فعل الشامان كل الذي قاله له بوغا نويون، فكت الأسلاك المقيدة للمهد وتقطعت، وكان في المهد طفلٌ جميلٌ. وقام اوسان وزوجته بتربية الرضيع وسَمَّيَاهُ بولغات. وعندما أصبح عمر بوغات أربعاً إلى خمس سنوات أصبح مولعاً جداً باللعب بالقرب من البحر. وبعدها بفترة قصيرة بدأ يتسلل في وقت متأخر من الليل ويختفي. وتساءلت زوجة الشامان أين من الممكن أن يذهب الطفل، وتبعته في أحد الأيام، ورأت أن طفلين، صبياً وفتاة، خرجا من البحر، وكانا يلعبان معه.

وكان الشامان وزوجته فضوليين جداً لمعرفة أي نوع من الأطفال هما، وفي إحدى الليالي أعطيا بوغات بعضاً من الحليب والتاراسان وقالا له أعطها لرفقائك في اللعب. وخرج الفتى والفتاة من البحر، ولعبا حتى تعبا، ومن ثم شربا الحليب والتاراسان، وأَخْلَدَا إلى النوم. تسلل الشامان من بين القصب حيث كان يختبئ وأمسك بالصبي، ولكن الفتاة أفلتت منه، وتحولت إلى فقمة، وقفزت إلى البحر. وأسمى الشامان صبي البحر يهرات، ونشأ مع بوغات (ابن الثور)، وتربيا معاً. وكل البوراتيين من غرب بايكال ينحدرون من بوغات، وجميع فيلوكسني البوراتيين ينحدرون من يهرات.

رواية أخرى عن أصول البوراتيين من بايكال

في أحد الأيام ذهب صياد لصيد الطيور فشاهد ثلاثة من طيور البجع الجميلة تحلق باتجاه بحيرة ليست ببعيدة. تتبع البجع فرآها تحط على المياه، وتخلع ريشها، وتتحول إلى نساء، يسبحن في الشاطئ.

هذه البجعات الثلاث كن بنات ليسيج مالان. سرق الصياد ريش إحدى البجعات، وعندما خرجت من الماء لم تستطع أن تطير بصحبة شقيقاتها. فأمسك بالعذراء، وأخذها إلى بيته، وجعلها زوجته. وأنجب منها ستة أطفال. وفي أحد الأيام قطرت ابنة مالان شراب

التاراسان بشكل مركز. وبعد أن شرب زوجها الكثير منه سألته أين ريشها. فأعطاها إياه. وفي تلك اللحظة تحولت إلى بجعة وطارت من خلال فتحة الدخان. وحاولت واحدة من بناتها التي كانت تحاول تقطير التاراسان الإمساك بها ومنعها من الطيران. لكنها لم تستطع. وأمسكتها من قدمها فقط. والتي جعلت لون قائمتها سوداء بسبب قذارة يد الفتاة. ولهذا السبب يعد البجع طائراً مقدساً لدى البوراتيين. وأيضاً يفسر سبب قوائم الطائر السوداء. وأخذت الأم تطوف حول المنزل ووصلت إلى مدى تسمعها ابنتها وقالت لها "في كل وقت عندما يولد القمر ستسكبين لي حليب المهر والشاي. وتنثرين التبغ الأحمر".

ومن هذه البجعة. ابنة اسيان مالان. جاء جميع البوراتيين الذين يعيشون عبر بحيرة البايكال.

المــرض

في حال المرض يرسل في طلب الشامان على الفور. ولاكتشاف علة المرض يحرق كتف النعجة حتى تصبح بيضاء اللون. ومن التصدعات في العظم يكتشف ما فعل الشخص المريض لإغضاب هذا البوركان [من آلهة المغول] أو ذاك. وعندما يكتشف أي بوركان قد تسبب بالمرض. يحضر التضحية المناسبة لإرضائه. ومن خلال تجربته الشخصية يعلم الشامان القربان الملائم. فإذا كان المرض بسيطاً. تتم التضحية ببعض من التاراسان. ولكن في حال المرض الخطير. فعلاوة على التضيحة بالتاراسان. تتم التضحية بحيوان. والكثير من البوركان دقيقون للغاية فيما ينبغي تقديمه لهم. والبعض الآخر غير مبال. فللبعض يجب أن تكون التضحية كبشاً أسودَ. والبعض الآخر يرى أن يكون الكبش أبيض اللون: والبعض الآخر يرى أن الماعز ذا اللون الأبيض هو الشيء المناسب. بينما يرى الآخرون أن الماعز الأسود هو الأنسب. وهناك بعض من البوركان الذين لا يمكن استرضاؤهم دون التضحية بثور أو حصان.

ويقوم الشامان بقتل الحيوان عن طريق إجراء شق في الصدر وينتزع القلب من جوف البهيمة. ويقطع جسد الحيوان من الرقبة والركبتين. ويزال الجلد. باستثناء جلد القوائم والرأس. وتنقل الذبيحة لغليها. ثم يُثبت عمود في الأرض. ويُثبت جلد الحيوان إلى نهاية العمود. وعلى الرأس أن يواجه جبلاً. أو تلاً. أو المكان المفترض أن يوجد فيه البوركان أو منزله والذي تسبب بالمرض. والعمود يميل قليلاً نحو الجبل نفسه. ويُطْهَى لحم الحيوان وتقدم قطع منه إلى البوركان كقربان. أما بالقائها في الهواء أو حرقها. والباقي

تأكله العائلة وأولئك الذين قدموا يد العون في القربان. ويشرب التاراسان بحرية في هذه الأوقات. وخلال المراسيم يدمدم الشامان عبارات غامضة ويصلي بعدها. وهناك طريقة ثانية لتقديم القربان تتم بحرق الكبد، والصفراء، والأمعاء، وتُكسر عظام الحيوان إلى قطع صغيرة، وتوضع جنباً إلى جانب مع غشاء الجنب في حقيبة على العمود، وتبقى حتى يتعفن الكيس ويسقط على الأرض.



صورة توضيحية لمالك الأرض المريض؛ ضحى بكبش

إذا كان المريض يشكو ألماً في أي جزء من جسمه فإنّ الشامان يضع بعضاً من اللعاب عليه، ويصلي إلى البوركان الذي تسبب بالألم. وأحياناً يَمَسُّ لسان الرجل بمكواة حامية، أو يصب ماءاً ساخناً على جسده، ورغم أن الماء حار جداً إلاّ أنه يبدو بارداً. وإذا لم يشفَ المريض بعد القربان الأول، يتم عمل تضحية ثانية، وربما ثالثة. والشامان لا يصاب بالإحباط، ولكن يكرّس جهوده حتى يموت المريض أو يشفى. وفي الماضي كان يدفع له القليل جداً مقابل العمل الذي يقوم به، والأجرة تكون حسب ما تعتقده الأسرة مناسباً، ولكن في الوقت الحاضر فإن المكافأة أكبر بكثير.



صورة توضيحية لعظام كبش، ستبقى حتى تتعفن الصرة وتسقط

ويمكن أن يسبب المرض بوركان النور وكذلك بوركان الظلام. وعقاب بوركان النور يحدث عادة عندما يقسم شخص يميناً (وهو الحلف باسم البوركان)، أو يقتل طائراً مقدساً، والتي تعتبر خطيئة كبرى، وإذا لم يعاقب المرء على خطيئته، فسوف يعاقب عليها أولاده أو ذريته.

ومن الطيور المقدسة البيركوت وهو النسر ذو الرأس الأبيض. أما إله أولخون، الجزيرة المقدسة في بحيرة بايكال فهو إيجين، ولم يكن لديه أطفال، لذلك خلق النسر ذا الرأس الأبيض، وتبناه وأطلق عليه اسم الابن. وإيجين هو ابن السماء النارية، ويسمى يوتا ساغان نويون (الأمير السامي الأبيض). وهو يعتبر شقيق الدالاي لاما، وهو أيضاً ابن السماء النارية (جيلتا تينجيرا أكسبون). والبجعة طيرٌ مقدس. أما النسور فهي ليست مقدسة، ولكن غالباً ما يرسلها البوركان للعثور على أشخاص تود معاقبتهم. ولا يسمح لأحد بقتل النسر ذي الرأس الأبيض. وإذا حط أحد النسور على شاة أو نعجة وخدشها، فيقوم صاحب الحيوان بقتله على الفور.

ولا يضحي البوراتيون للنسر، ولكن لأجداد «النسر القدامى». ففي بعض الحالات تتمثل هذه الأجداد بأناس كما تتمثل بطيور.

طقوس حرق الموتى

عادةً ما يحرق البورات موتاهم: ولكن أحياناً، يضمون الجثة في تابوت، ويدفن التابوت في الأرض، وهذا ما يطلق عليه بـ "الدفن الروسي". ولكن عموماً إذا توفى الرجل في فصل الخريف أو الشتاء، تسجى جثته على زلاجات تجرها جياد عزيزة على المتوفى، تسحبه إلى مكان منعزل في الغابة، حيث هناك منزل مبني من الأشجار والأغصان الساقطة، وتودع الجثة داخل هذا المنزل، ويوضع جذعان إلى ثلاثة جذوع من الأشجار كحائط حول هذا المنزل حتى لا يتمكن أي حيوان كالذئب أو غيرها من الدخول داخل هذا المنزل. والجواد الذي يجر الجثة، يساق إلى مسافة قريبة ويقتل بضربة على رأسه بفأس، ومن ثم يترك لكي تلتهمه الذئاب.

إذا كان الرجل فقيراً بحيث لا يملك حصاناً، ولكنه يملك بقرة، تباع البقرة ويشتري حصان ليأخذ الجثة إلى الغابة. أما إذا كان فقيراً بحيث لا يمكن شراء حصان، فتحمل جثته على نقالة.

وإذا توفى أشخاص آخرون في فصل الشتاء، تحمل جثثهم إلى المنزل نفسه. وفي هذا المكان الموحش، والصامت في طرف الغابة يقضي الموتى خلاله بقية الأيام والليالي في راحة، حتى يُسمع أول صوت للوقواق في حوالي التاسع من مايو، حيث يتجمع الأقارب والأصدقاء، ويحرق المنزل بالكامل بدون فتحه. وعندما يتوفى أشخاص بعد ذلك، خلال أشهر الصيف تنقل جثثهم إلى الغابة، وتوضع على كومة الخشب، وتحرق على الفور، ويقتل الحصان تماماً كما في المثال الأول. وغالباً ما تُحرَق الحلي القيّمة والصغيرة، علاوة على أفضل ملابس المتوفى، أما الملابس العادية فتترك للورثة.

ولا يشترك الشامان بمراسيم الحرق هذه والتي تجرى بقدر كبير من الهدوء والاحترام.

دفن البوراتيين للموتى

بمجرد وفاة البوراتي يتم تلبيس الجثة أفضل رداء، ويغطى وجهه بقطة من القماش الأبيض. وفي ذلك اليوم لا يذهب الجار أو الصديق إلى العمل. وإذا فعل هذا فسيجلب له سوء الطالع. ويسمون هذا اليوم بـ «مودار» أي اليوم السيء.

ومن المألوف أن تبقى الجثة ثلاثة أيام. ولكن غالباً ما تدفن أو تُحرق في اليوم الثاني. ويوضع مبلغ زهيد من المال في النعش، يساهم به الأصدقاء. ويذبح خروف أو بقرة وتوضع قطع من اللحم على النعش، وزجاجة صغيرة من التاراسان. «إن روح القتيل سوف تجتمع بأرواح الأصدقاء والأقارب الذين لقوا حتفهم في وقت سابق، وسوف يرغب في إكرامهم». وتوضع كل قطعة ضرورية في التابوت، كالمعطف، والقبعة، مع وسادة وبطانية، وكذلك الغليون والتبغ، بل وحتى سوط الجواد، إذا كان قد اقتنى جواداً في حياته، وجميعها تذهب معه. وتأكل الأسرة والأصدقاء لحم الحيوان الذي ذبح بالإضافة إلى احتسائهم للتاراسان. وبينما يشربون التاراسان، يريقون القليل منه على الأرض تكريماً للمتوفى. وفي غضون ذلك يذكرون اسمه. ولمدة ثلاثة أيام وليالٍ تُقدم جميع أنواع المرطبات في المنزل- لأن روح الرجل تكون موجودة بين الأصدقاء والأقارب، وتشارك في تناول الطعام.

وللروح شكل الجسد ولكنه خفي، إلاّ للأشخاص الذين لديهم "رؤية ثانية." وغالباً ما تحزن الروح لتركها الحياة الدنيا، وتحاول أن تثبت لنفسها أنها لا تزال على قيد الحياة، أي أن تكون مرئية مرة أخرى. "وعندها تذهب إلى النار، وتمشي على الرماد، وعندما ترى أنها لا تترك آثاراً، تتحقق مخاوفها بأنها لم تعد تملك جسداً حسيًا، وتقترب من الكلب المربوط بالسلاسل لترى إذا كان سينبح، وإذا نبح الكلب فهذا دليل على أنه يرى شيئاً، وتأمل الروح بأن تكون مرئية، فعندما يتناول الأصدقاء الفطور، أو يتناولون الطعام، أو الشاي، تنتظر الروح بشغف لمعرفة ما إذا كان أحد سيقدم لها أي طعام أو شراب، وإذا شرب أربعة أو خمسة أشخاص الشاي، فإنّ الروح تتناول قدحاً وتتساءل إن كانوا سيلاحظونه، ولكن الأقداح الخمسة تكون هناك، وقد تناولت الروح، روح القدح وليس القدح نفسه، والرجل المتوفى موجود من حيث الروح بين أصدقائه، فيشتكي ويبكي، على أمل أن تسمع شكواه أو يراه أحد، ولكن لا أحد يراه، أو يتنبه لوجوده، يا للمسكين، إنه فعلاً رجل حزين! وعندما تؤخذ الجثة من المنزل للدفن تُحمل من الرأس أولاً، وإذا سقطت أية قطعة كزر أو أي شيء

آخر صغير خلال مراسيم التشيع، فذلك دلالة على حسن الطالع، ويكون الجميع متلهفاً لالتقاطها، لأن الرجل الذي سيلتقطها سيولد له طفل لأسرته، أو سيصيبه حسن طالع في المستقبل.

وأحياناً يؤخذ المتوفى من تابوته ويوضع على صهوة حصانه المفضل: ويجلس صديق من أصدقائه خلفه لكي يستطيع الإمساك به وتثبيته، ويأخذه بنفسه إلى مكان دفنه. ولكن كثيراً ما تترك الجثة في النعش وتقوم مزلجة أو عربة بسحب النعش. وتودع النساء والأطفال المتوفى عند المنزل ولا يحضر مراسيم الدفن سوى الرجال. وعندما يصلون مكان دفن الجثة يُراق التاراسان على الأرض، ومن ثم يحفر القبر. ويؤخذ سرج حصان المتوفى، ويكسر إلى قطع صغيرة، ويوضع في قاع القبر. وإذا نقلت الجثة على عربة، تفكك العربة أيضاً. وبعد إتمام ذلك، يتم وضع النعش في القبر في اتجاه جنوب شرقي البلاد. ويقاد الجواد جانباً ثم يُقتل، أما بضربة من هراوة عظيمة على جبهته أو بطعنه بسكين في نخاعه الشوكي: والأخير هو أسمى شكل من أشكال الموت. ويُسلخ الجلد من ظهر الحصان ليمثل السرج. ويوضع ما يشبه اللجام على رأس الجواد ووجهه بالطريقة نفسها. ومن ثم إما يحرق، أو يترك لكي تلتهمه الحيوانات البرية. وهكذا انتقل الحصان إلى صاحبه، وهو جاهز لخدمته. ويرجع الأصدقاء الآن إلى القبر ويهيلون التراب عليه.

وتقع على عاتق أقرب الأقارب أن يبقوا في منازلهم مدة تسعة أيام والتفكير في المتوفى فقط. وإذا كان أحد الأقارب يعيش في مكان بعيد نسبياً، ووصله خبر الموت، يأتي وبحوزته الطعام والشراب «للذكرى»، حتى إن لم تكن المدة التي سيبقى بها شهراً من الزمن. حيثما تجرى عمليات الدفن والحرق، يكون جانبها مستوطنات كبيرة ومنازل ومبانيَ من كل نوع، لكنها ليست ظاهرة للعيان، إلا للأشخاص ذوي البصر. ولا ترتدي روح الميت الملابس التي دفنت فيها أجسادهم، وإنما ترتدي الملابس القديمة، التي ارتدوها قبل سنوات عديدة قبل وفاتهم، لأنهم يرتدون «أشباح» الملابس. عندما تتخذ الروح شكل الأحياء، حيث إنها تستطيع تحقيق ذلك إذا رغبت فيه، فإنّ تأثيرها لا يختلف، فهي كما لو كانت ترتدي ملابس حقيقية. أما روح المرأة فإنها تأخذ شكل طائر في بعض الأحيان، وتطير حول بيتها القديم، ولكن هذا يعتبر فألاً سيئاً، ويطلق النار على الطير، ليس لقتله، وإنما فقط لطرده بعيداً.

ويعتقد البوراتيون أن المرء يموت أحياناً بسبب تعاسة الروح وحزنها، ولذلك تترك الجسد. وفي هذه الحالة، يتحدث الشامان والأصدقاء للروح، ويقولون لها أن تعود، وأن تأكل وتشرب بشكل

جيد. وتستمتع بوقت طيب. وهذه المحاولات لإقناع الروح بالعودة إلى الجسم تسمى «بالدعوة». ويضيف «ستنام جيداً». عدْ إلى رفاتك الطبيعية. وأشفق على أصدقائك. من الضروري أن تعيش حياة حقيقية. ولا تهمْ بين الجبال. ولا تكنْ مثل الأرواح الشريرة. ارجعْ إلى منزلك بكل طمأنينة وهدوء». (ويعتقدون بأن أرواح الموتى تتجول بين الجبال وتعود إلى منازلها من وقت لآخر.) «ارجعْ واعملْ من أجل أطفالك. كيف يمكن أن تترك هؤلاء الصغار؟» ويبدأ الشامان بتسمية الأطفال. أما إذا كانت المتوفاة امرأة. فيكون وقع هذه الكلمات كبيراً. وتقوم الروح بالعويل والتنهد. وهناك حالات عادت الروح فيها إلى الجسد.

الفصل التاسع

أصول الشامان

انحدر خمسة وخمسون تنجيرياً من باروني تابين تابونج تنجيري. وهي أول روح تظهر في الوجود السامي في الكون. وديلكوين ساجان بوركان آله العالم الأبيض ويسمى عادةً إيسيجي مالان. وفي أحد الأيام دخلت إحدى الأرواح الخمس والخمسين. ولا يعرف أحد على وجه التعيين من هي. حبة بَرَد وسقطت على الأرض وابتلعتها فتاة اسمها ميلوك شين في الثالثة عشرة من عمرها. وأصبحت ميلوك شين أما بعد ابتلاعها لحبة البَرَد. ورزقت طفلاً عاش ثلاثمائة عام – وهو كولونجوتو أوبجن. أو كما يسمى ميندو كوبون ايريل نويون تونكوي. وأسس الدين البوراتي. ومنح البوراتيين صلواتهم جميعها وعلمهم عن آلهتهم (وصرح مترجمو الدين المسيحي بأن "ميندو" يحتل عند البوراتيين منزلة المسيح ومكانته عند المسيحيين).

اختار ميندو أول مئة وستة وسبعين شاماناً. وهم تسعة وتسعون ذكراً وسبع وسبعون أنثى. ويُعَدُّ من بعض النواحي أول شامان. وأمر بالصلاة لـ ديلكوين ساجان. ولـ تابين تابونج. والى الخمسة وخمسين تانجيرياً. والأربعة وأربعين تانجيرياً – والى الأرواح السماوية فقط. ولكن لاحقاً نسي الشامانات. أو لم يتبعوا أوامره. وصلوا أحياناً لأرواح الأموات من الشامان. ذكراً وأنثى. وآلهة البومال المنزلين.

وكانت تصنع لوحة ميندو من جلد الظربان دائماً.

وهناك نوعان من الشامانات: هؤلاء الذين صنعهم البوركان (الآلهة) وأولئك الذين ورثوا حق اللقب من طرف الذكور أو الإناث من عوائلهم.

ولأي رجل كان أبوه أو أمه أو جده أو جدته شاماناً أن يرث هذا الحق: ولكن يجب أن يؤكد البوركان هذا الحق. ويفترض أن تقبل الآلهة طفلاً أو ولداً صغيراً عندما تأتي روح شامان ميت

وهو نائم من أقربائه وتأخذ روحه إلى البوركانات الأرضية أو السماوية، الذين يرشدونه عبر قصورهم، ويعرضون عليه ممتلكاتهم وقوتهم وثروتهم ويعلمونه الأشياء كلها.

وروح الشامان التي يختارها البوركان شخص قد مات في فترة بين أربع إلى خمس سنوات تأتي مساءً عندما يكون نائماً وتقود تلك الروح إلى البوركان. وفي الصباح تعود الروح إلى الجسد. وهذا الشامان الدليل قد يختار طفلين أو ثلاثة أو حتى أربعة أو صغار السن ويثقف أرواحهم بينما تكون أجسادهم نائمة.

ويحدث في بعض الأحيان بأن شخصاً يتسم بالحماقة في هذا العالم يصبح حكيماً في قصور البوركان، وقد يكتشف البوركان بأن شخصاً يتسم بالحكمة عندنا ربما يعتبر غبياً وعاجزاً عندهم.

وبعد الانتهاء من هذا التثقيف الذي يمكن أن يتطلب عدة سنوات، تضرب روح الشامان، التي تتخذ هيئة شعلة من النار، الطالب على جبهته بقوة، ويسقط على الأرض، ويساعده على النهوض أولئك الأشخاص الذين يتفق وجودهم بالقرب منه. وإذا حدث هذا بعيداً عن منزله، يؤخذ إلى المنزل وتجري إراقة التاراسان برش القليل منه على أحفاد شامان الولد الصغير وعلى الآلهة الذين منحوا حق الشامانية لأولئك الأجداد. أما إذا اختير مباشرة، فيعرضون عليه إراقة من التاراسان للإله الذي اختاره. والشخص الذي ورث الحق بأن يكون شاماناً يُثقّف تماماً مثلما يثقف الذي يختار مباشرة.

وحتى بعد الانتهاء من تثقيف الشامان الشاب فإنه يحتاج إلى الكثير من الوقت ليتمكن من تقديم التضحية: وعادة تكون هناك سنوات من الاختبار. ويمكن أن يتركه البوركان في أي وقت إن كان غير مؤهل أو غير كفء، وبعد ذلك يصبح مثل أي رجل عادي. ويقدم أولى إراقاته وعروضه لبوركانات بومال (أولئك الذين توجد ديارهم في حدائق مقدسة) والى أرواح الشامان. ويؤدي المهمة عندما يطلب الناس منه ذلك.



شاي الصين الذي يصل من كياختا إلى سكك الحديد في اركوتسك



كلب حراسة بوراتي

وتضربه روح الأجداد على الجبهة مجدداً. يسقط أرضاً ثم يساعده الناس على النهوض ويقصون له أغصاناً عرضها تقريباً بوصة من شجرة البتولا. ويأخذ هذه الأغصان ويأرجحها خلف ظهره ثم أمامه. ثم يمسكها بيدٍ واحدة ويؤرجحها. ويضرب جبهته براحة يده بخفة. ويبدأ بالكلام عن حياة أجداده وانجازاتهم. وليس الشامان الصغير هو الذي يتحدث بل الشعلة أو الروح التي ضربت جبهته. هي التي تتكلم من خلاله.

وتضربه شعلة أخرى. فيسقط على الأرض. ويرمي الأغصان بعيداً. وينهض. وتتحدث الشعلة الأخرى كما تحدثت الأولى. ويمكن أن يستمر ذلك حتى يتحدث جميع أجداده من الشامانات. ويقوم الشامان الحي بالتكلم نيابة عن الشامان المتوفى ويقترب من أحد الحاضرين ويقول له إن فلاناً أو علاّناً من البوركانات يرغب في أن تقدم له قرباناً أو إراقة. وما لم تقم بذلك ستعاني من المرض أو سوء الطالع.

وعندما يستعد الشامان الصغير لأن يصبح شاماناً كاملاً يحدد الناس يوماً معيناً لذلك. ويدعون شاماناً خبيراً ليدير المراسيم. ويقوم بالإراقة وتقديم القرابين لعدد من البوركانات. طالباً منهم المعونة.

وتقطع أربع وخمسون شجرة من أشجار البتولا من الحديقة المقدسة بعد الحصول على موافقة بوركان تلك الحديقة. وتكون ثلاث من هذه الأشجار كبيرة. والأخرى صغيرة. وتزرع الصغيرة في صف يسمى "الجاف". وتوضع شجرة كبيرة في الجهة اليمنى من الصف وتسمى سيرجيه "عمود": وبعدها توضع الشجرة الكبيرة الثانية وتسمى تورجي. وتوضع ثالث أكبر شجرة في منتصف البيت. ويخرج أعلاها من فتحة الدخان: وتربط في الأعلى خيوط من الحرير تمثل ألوان قوس قزح: وتحمل الخيوط إلى الشجرة المسماة بالعمود وتربط بأعلى غصن فيها.

ويتم اختيار تسعة رجال من قرية الشامان الصغير للمساعدة في المراسيم. وهم يمثلون تسعة مساعدين سماويين لخوخودة مرجين (أحد البوركانات). وبعدها يدخل الشامان الكبير والشامان الصغير المنزل ويقفان على الجهة اليمنى من الباب: ويمسك كل واحد منهما أغصاناً صغيرةً بيده اليمنى بعدد البوركانات الودودة. ويشعل الرجل العجوز النار في أغصانه وينادي الآلهة بالاسم الذي يمثله كل غصن: عندما ينتهي من تضرعه. يبدأ الصغير. وعندما ينتهيان من مناداة الآلهة يغادران المنزل ويتجهان نحو شجرة البتولا العظيمة "التورجا".

وجلب أهل القرية والقرى المجاورة الحليب والتاراسان والخراف والجِيَاد وكل ما يلزم من أجل تضحية قربان كبير.

ولا يمكن أن تقدم أقل من تسعة حيوانات في مثل هذه المناسبة. وإذا كان هناك أكثر من تسعة فيجب أن تكون ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أو سبعة وعشرين (ليس بالضرورة أن يكون هناك تسعة من النوع نفسه. يمكن وجود ثمانية خراف وحصان واحد. أو أي مجموعة يصل عددها إلى تسعة).

وينادى الشامانان الإثنان الآلهة مرة أخرى. وينثران الحليب والتاراسان كإراقة على كل حيوان من حيوانات التسعة. ومن ثم تقدم قرباناً. ويدعو الشامان العجوز الآلهة. ويقف ثلاثة من مساعديه بجانبه. ينثر الرجل الأول الحليب على الأرض. والثاني الشاي. والثالث التاراسان. وهذا القربان يتضاعف بشكل هائل ويذهب إلى الآلهة المفترض حضورهم. أو إن لم يكونوا موجودين فسوف يتقاسمون كل ما يقدم لهم في سكناهم.

ينزع الشامان الصغير ملابسه الخارجية خلال هذه المناسبة. ويبقي على قميصه الداخلي فقط. ويقترب من صف أشجار البتولا الصغيرة. ينزع قميصه الداخلي ويصبح عارياً كلياً عندما يصل إلى الأشجار. وعندها يجلب الشباب التسعة الذين يمثلون المساعدين السماويين للخوخودة ماعزًا بيضاء أمامه. ويطعنونها في الصدر بطريقة تجعل الدم يتدفق منها على الجسد العاري للشامان الجديد. وتسمى هذه المراسم بـ "اوجالجا". أي التطهير. وعند الانتهاء تكون الماعز لا تزال حية. فتلقى بعيداً باتجاه النسوة اللواتي ينتظرن. ويمسكن بها. ثم يقضين عليها بضربة قاضية ثم يطبخن اللحم ويأكلنه.

وقبل أن تبدأ طقوس التضحية يعرف الشامان ما إذا كانت أي الحيوانات نجسة. وتطهر باقتيادها عبر الدخان المنبعث من العرعر المحترق.

تسلق لحوم القرابين. ويقدم جزء منها للآلهة. ويؤكل الجزء المتبقي. ويعلن أن هذا الشاب

أصبح شاماناً كاملاً عندما تنتهي هذه المراسم. وإذا كان هناك عدة شامانات حاضرة يبدأون بالكلام عن عائلاتهم الشامانية، ويعقب ذلك الكثير من الكلام والجعجعة. ويستمر الاحتفال ثلاثة أيام بلياليها. يذهب بعض الشامانات إلى قمم الأشجار ويقومون بتقديم القرابين للآلهة من هناك.

وفي الزمان القديم كان هناك شامانات جبارة يستطيعون المشي على خيوط من الحرير التي تربط قمة الشجرة من فتحة الدخان في المنزل مع شجرة البتولا في الخارج. كان هذا يسمى بـ "المشي على قوس قزح".

ولدى البوراتيين عادات وقصص كثيرة فيما يتعلق بقوة الشامان. ذهب شامانان مرة إلى الجنة على قوس قزح حقيقي، وعند رجوعهما من الطريق نفسه رأتهما البوركانات السماوية وغضبت كثيراً وتساءلت "كيف تجرأ خنفسا الأرض السوداوان من الأرض أن يأتيا هنا عن طريق قوس قزح، ويفكرا بالرجوع عليه أيضاً؟ سألت الآلهة، وقطعوا قوس قزح على الفور. وأدرك الشامان الجبار والأقوى من الآخر عندما كانا يهويان إلى الأرض بأنهما سيموتان لا محالة، وتحول إلى نسر أصفر مرقط، وأمسك برفيقه بمخلبيه وأنزله على الأرض برفق وأمان.

وفي إحدى المرات جاء لاما (راهب بوذي لامي) من وراء بحيرة بايكال لزيارة عائلة في أستوردي. ولم يرغب شامان يدعى باداي في وجود الاما بين أفراد الشعب، لذا حوّل نفسه إلى ذئب رمادي وانطلق إلى ذلك البيت ليلاً. ونادى الراهب الخائف عند رؤيته الذئب "هناك ساحر على هيئة ذئب! لقد جاء ليقتلني! أضرموا ناراً بسرعة!".

لم يرَ سيد المنزل الذئب، لم يكن مرئيا لأحد باستثناء اللاما الذي كان مرتعباً جداً حتى احترقت عيناه، وكان شاحباً كرجل ميت. ووقف الوحش الليل كله أمام اللاما، على ما يبدو مستعداً للانقضاض عليه، ولم يختفِ حتى طلع النهار. وغادر اللاما مدينة استوردي في ذلك اليوم.

كانوا يحكون قصصاً عن شامانات يفتحون بطونهم، ويخرجون أكبادهم، ويشوونها ويأكلونها، ثم يسدون بطونهم وهم في أتم الصحة والعافية. وآخرون يأخذون عصا شامان حادة تسمى "هاريبو" ويغرسونها في احدى عيونهم بعمق عدة انشات، ويطلبون من أحدهم أن يسحبها، وهذا يتطلب قوة رجل كامل، ولا تترك العصاة أي جرح مرئي.

وهناك شامانات تقطع رؤوس أناس، ويسير هؤلاء الناس دون رأس، ويعيدون رأسه من جديد وهو في أتم الصحة والعافية. وكان بعض الشامانات يطعنون العمود الرئيسي للخيمة فيتدفق تيار من التاراسان منه، وللشامانات القوة على استدعاء التاراسان من بعد، ويأمرونه بالدخول في العامود.

وآخرون يستطيعون مناداة الطيور السماوية. فيأتون ويقفون على أكتافه. ثم يضع يديه على رأسه ويبسط أصابعه فتخرج منها ديدان لتأكلها الطيور.

وتقريباً يستطيع أي شامان الرقص على النار. تُضرم نار كبيرة على الأرض. ويخلع الشامان ملابسه كلها ويرقص عارياً على الفحم المشتعل حتى ينطفئ. ولا تحترق حتى أخمص قدميه. وفي أحدى المرات رأى بوراتي نصف مخمور شاماناً يرقص بهذا الطريقة. فقال "أنا أجيد الرقص على النار مثلما تجيده أنت". فخلع حذاءه ورقص على الفحم المشتعل للحظة واحدة واحترق بشدة حتى أنه لم يستطع المشي ثلاثة شهور.

وأعطى الحدادون السماويون السبعة القوة لشامان يعيش في استوردي على تحمل الحديد الملتهب. كان يقدر على تسخين قضيب حديدي حتى يحمر. ويحمله بيد واحدة. ثم يضع يده الثانية عليه ويتطاير الشرر منه. ويستطيع أن يلحسه دون أن يحترق لسانه. واذا حبس الشامان نفسه في غرفة فأنه يهمس ببعض الكلمات ويبصق. فتطير الأبواب.

وهناك شامانات يستطيعون أن يمتطوا جيادهم من خلال جدران المنزل دون ترك أي ثغرة.

ومنذ زمن بعيد في اركوتسك. لم يؤمن الروس بالشامانات. وقالوا "سوف نرى ما هي القوة التي يمتلكها هؤلاء الأشخاص".

وشيدوا ناراً عظيمة ووضعوا شاماناً فيها. حولت الآلهة النار إلى ماء. ورقص الشامان في النيران كما بدا للآخرين. ولكنه كان ماءً بالنسبة له. أطلق الروس النار على الشامانات. فأمسك الشامانات بالرصاص بأيديهم. وقالوا "هذه هي كراتكم". وفعل الروس كل ما بوسعهم ضدهم ولكن دون جدوى.

لا علاقة للشامان بالزواج وكذلك بالموت بعد أن يتم التأكد من أن الروح غادرت الجسد. ولا يمكن إقناعها بالرجوع إليه. ومجال عمله هو التنبؤ باستخدام لوح كتف غنم. والتضحية وتهيئة الآلهة المنزلية. وربط الشريط على المهد لكل رضيع عندما يبلغ بضعة أيام من العمر. ويقومون بمراسيم الاحتفال الكبير عندما يبلغ الطفل عامه الأول.

قصة شامان

رويت هذه القصة في أولزوني. حيث عاش هناك شامان عجوز يستطيع إحياء الأموات قبل ثلاثمائة سنة. وفي أحد الأيام عندما كان في الخامسة والسبعين من عمره ذهب لزيارة قرية

مجاورة. كان الناس سعيدين جداً لرؤيته بحيث ذبحوا عدداً من الخراف، وشووها، واحتفلوا ثلاثة أيام.

وفي طريق عودته إلى دياره وصل إلى بوابة كبيرة تطل على حقل كبير مفتوح، ورأى هناك ثلاثمائة رأس من الماشية ذات القرون. وحسب بأن قصاباً كان يسوقها، ولكن اكتشف بأن امرأة تمتطي ثوراً أحمر كانت تقودهم. كانت المرأة تحمل طفلاً رضيعاً في يدها. وبعد أن عبره الثور الأحمر قابل رجلاً كان رأسه بحجم كومة قش، كان ممتطياً صهوة حصان فحل رمادي هائل الحجم.

فسأله الشامان «من أين أتيت يا تاجر اللحم؟».

فأجابه الرجل «أنا لست تاجر لحم، أنا مينجا نوديت ميلا (ذو الألف عين)، وقمت تواً بتدمير الماشية جميعها في جميع أنحاء البلاد».

فأسرع الشامان إلى بيته واكتشف اختفاء ماشيته، لم يبق بقرة ولا غنم ولا حصان. فغضب كثيراً وذهب إلى إخوانه الخمسة، الذين كانوا شامانات، وقال «لنتشاور، هل نذهب لملاحقة مينجا نوديت ميلا؟».

فسألوه «وما الفائدة؟ لن يذعن لنا، لأنه لا يخضع لأحد».

وعندما تيقن بأن إخوانه غير مستعدين لمساعدته، وأنه يجب عليه أن يفعل كل شيء بسحره، ذهب الرجل العجوز إلى البيت وصنع التاراسان وشربه، ثم ذهب إلى زاوية الغرفة وأخرج فأسه ووضعه تحت مخدته، وربط حصانه بعمود في المنزل واستلقى، قائلاً لزوجته:

"لا تدعي حصاني يخرج ولا توقظيني". وسرعان ما غط هو وحصانه في نوم عميق. ولكنهما لم يكونا نائمين، كان جسداهما وحدهما هما الساكنين فقط. في الواقع كان الشامان يحث الخطا نحو نهر الأنغارا.

وينتصب جبل "توركوي تونكوي" قبل الوصول اركوتسك. ورأى الشامان من قمة هذا الجبل جسراً صنعه مينجا ميلا عبر النهر ليبدأ بنقل الماشية عليه، كان نصف الجسر من الفضة والنصف الآخر من الذهب.

حول الشامان نفسه إلى نحلة، وجعل فأسه بالحجم الصغير نفسه، وحمله معه، وطار تحت الجسر محطماً المواميد بحيث انقسم الجسر إلى شطرين.

سقطت الماشية جميعاً في النهر علاوة على المرأة على ظهر الثور الأحمر وسقط مينجا

ميلا في النهر بيد أنه أنقذ نفسه. وعلى الأقل لم يغرق. ولكنه بقي مع فرسه الرمادي في الماء.

وطوح الشامان بمحبسه الذهبي نحو السماء. واندفعت ريح هوجاء ثلاثة أيام. وجلس مينجا ميلا على الماء متأرجحاً ذات اليمين والشمال بفعل الرياح. وأعقبت الأيام العاصفة الثلاثة ثلاثة أيام من المطر المنهمر. وفي نهاية الأيام الستة هذه. سقطت حوافر جواد مينجا ميلا. وعندما انتهت العاصفة خرج مينجا ميلا من النهر يتبعه فرسه. وبدأ بتجفيف نفسيهما. وخرجت حوافر الفرس من النهر واستقرت على قوائمه.

أقسم مينجا ميلا قسماً غليظاً بأنه من الآن فصاعداً لن يذهب إلى بلاد اورزوني بعد أن أعماه الغضب العارم بسبب فقدان الماشية والمرأة على ظهر الثور الأحمر. وكذلك بسبب خوفه من العاصفة العاتية. وصرخ قائلاً "إن ذهبت هناك فلتقفز عيناي الألف من رأسي. وأن يقطع جسدي ثلاثة أقسام. لن أقتل بشراً بعد هذا. ولن أدمر الماشية". وبعد أن سمع الشامان هذا القسم العظيم سُرَّ سروراً عظيماً وشرع برحلة العودة إلى دياره. وفي طريقه إلى دياره. عرج على إخوانه الخمسة وأخبرهم بالكيفية التي عاقب بها صاحب الألف عين. قائلاً "لقد حررت نفسي وأنفسكم من هذا الوحش. نستطيع الآن أن نعيش بسلام". وعندما وصل إلى منزله. انتفض من فراشه. عندما اعتقدت زوجته بأنه نائم. وحَلَ وثاق فرسه. وساقه إلى المرعى. وكأن شيئاً لم يكن. ولكن ماشية أولزوني لم تسرق بعدها قط.

بدأ الشامان بشرب التاراسان وزيارة أصدقائه. وفي الربيع بعد عودته من النهر بسنة واحدة. كان في طريقه إلى زيارة بعض الأصدقاء في أولزونكي رود عندما شاهد ثلاثة رجال يدفنون طفلاً ميتاً. فسألهم الشامان: "ما الذي تفعلون؟".

فأجابوه "اذهب في طريقك. أيها الجد! ولا تقف هناك. فالطفل مات. لا أحد ينجو من الموت".

وأنزلوا الجثة وأهالوا التراب عليها. فأمرهم الشامان "أزيلوا ذلك التراب! أعطوني الطفل. واذبحوا شاة وادفنوها في هذا القبر!" حمل الطفل إلى ذويه. وسخن ست صخور حتى أصبحت حمراء ونزع جواربه ورقص حافي القدمين على الحجر واستمر في التضرع والابتهال والصلوات حتى الصباح وهو يخطو فوق الطفل الميت بين الحين والآخر. حتى صياح الديك. وهذا جعل الدماء تتدفق في جسد الطفل. ففتح عينيه ولكن لم يكن بوسعه الكلام. وفي الليلة التالية. قام الشامان بربط أم الطفل وأبيه بعمود في المنزل. وكرة أخرى رقص وتضرع للآلهة حتى صباح

الديك. وطوال هذا الوقت كان الطفل مسجىً دون حراك.

ومع شروق الشمس نفخ على رأس الطفل وقدميه. فانتفض الطفل قائماً وهو يسأل "ما الذي تفعله يا أبي؟".

ثم قام الشامان بفك وثاق الأم والأب وقال لهما "إن طفلكما حي يرزق. والآن سأذهب إلى بيتي".

فقال الأب "لا. ينبغي أن أكافئك. فأنا رجل موسر. وسأعطيك نصف مالي. ونصف عدد ماشيتي لما فعلته لأجلي".

فقال الشامان "لا احتاج إلى مالك أو ماشيتك". ولكن الأب كان سعيداً جداً بعودة طفله بحيث منع الشامان من الذهاب دون أن يكرمه. فقال الشامان "حسناً. إن كل ما احتاجه هو ربطة من القش وحبلاً من الجلد وتسعة كوبيكات".

أعطاه الأب المال والحبل والقش. وأعاره ثوراً ليحمل القش إلى دياره. أطعم الشامان القش لماشيته. وعلق الحبل واحتفظ بالكوبيكات التسعة كذكرى لجميل الأب.

وكان بعث الصبي للحياة آخر أعمال هذا الشامان العظيمة. حيث إنه توفي بعد ذلك بفترة قصيرة.

قصة أشباح بوراتية

كان هناك شامان اسمه «جاكوي جولديف». وفي أحد الأيام بينما كان راجعاً إلى منزله من اركوتسك. حل عليه الظلام وجن الليل في بادية كانجيرفيسك. ورأى رجالاً موتى يرقصون بعد الغسق. ولأنه كان صاحب بصيرة مزدوجة سمعهم يقولون «توخوا الحذر! إن جاكوي جولديف قادم!». وكانوا يعرفونه عندما كانوا على قيد الحياة. ويعلمون أنه يفهم لغة الأموات ويراهم.

وكان هناك ضمن الراقصين شخص راقص أفضل من الجميع. وكان أصدقاؤه يحثونه على الرقص على أحسن وجه. وكان على وشك أن يفعل ذلك عندما أطلق جاكوي عليه النار. فأصابه ووقع على الأرض جثة هامدة. وعلت جلبة وضوضاء بين الراقصين. والتفتوا إلى رجل طويل وقوي من بينهم وقالوا له «يجب أن تعاقبه على هذا!» هرع جولديف مسرعاً عندما سمع ما قالوه. وعند عودته إلى المنزل أدخل الكلب المتوحش الذي كان مربوطاً في الفناء عادةً. ولم يزعجه أحد في تلك الليلة. ولكن في بداية الليلة التالية أتى الرجل الطويل القوي الميت إلى الغرفة يتبعه حشد من الناس من جميع الأعمار.

كان هناك طعام وشراب على المائدة. بدأ الرجل القوي بالأكل. ثم أكل الحشد وشرب. وأعطوا الطعام للرجل الذي كان على قيد الحياة. وعندما انتهوا من الأكل. قال أحدهم بحذر وهو ينظر إلى جاكوي الذي كان يراقبهم «دعونا نخدعه ونعاقبه» و صرخ الآخرون «لا! إنه رجل ذو قلب طيب. أكلنا من طعامه ولن نؤذيه».

وبقوا وقتاً طويلاً. ثم اختفوا بهدوء. وعندما كان المراقب وحده في الغرفة. رأى أن الأكل والشراب الذي وضعه كله على الطاولة موجود. ولم تنقص أي لقمة من الطعام أو قطرة من الشراب بالرغم من أن الأموات جميعهم أكلوا ملء بطونهم.

الرؤية الثانية

وفي إحدى المرات مر رجل من ذوي الرؤيا المزدوجة بحقل كبير عند الغسق. ورأى عندها ثلاثة رجال. وكان يعلم بأنهم أموات قادمون نحوه. كان أحدهم يحمل صندوقاً صغيراً.

سأل الرجل الحي «ماذا تحمل؟».

أجابه الأموات. «إننا نحمل روح طفل رضيع».

وعرف الرجل بأن ابن بوراتي ثري كان مريضاً جداً. وخُيّل له بأن ذاك الطفل مات. وبأن الأموات كانوا يحملون روحه بعيداً. فقال في سره «يكون الأموات حادي الذكاء أحياناً. وأغبياء أحيانا أخرى. سأحاول أن آخذ هذه الروح منهم».

صاح أحد الموتى «أنت تمشي بشكل عجيب. إن قدميك تثيران الغبار. وتهزان الأرض حين تخطو عليها».

أجاب الرجل الحي «لقد مت منذ فترة قصيرة. ولم أتعلم بعد كيف أمشي مشية الأموات». ثم سأل بدهاء «هل أنت خائف من شيء؟».

"نحن نخاف من شجيرة شيبوفنيك (شجيرة ذات أشواك طويلة). ومما تخاف أنت؟" أجاب الرجل "أنا أخاف من اللحم السمين". ومشى مع الأموات حتى وصلوا إلى كتلة من شجيرات شيبوفنيك. ثم أمسك بالصندوق الذي كانوا يحملون بداخله روح الطفل الصغير وهرع إلى الشجيرات. لم يتجرأوا على الاقتراب منه. ولكنهم انطلقوا لإحضار اللحم السمين. ورجعوا بعد هنيهة. وبدأوا يضربونه به. فأكل اللحم وظل ممسكاً بالصندوق بقوة.

وبعد فترة رحل الأموات. وأخذ الرجل الحي الروح إلى المنزل حيث جثة الطفل الميت. ودخلت الروح إلى الجسد وعاد الطفل إلى الحياة وبدأ يعطس.

حدائق الشامان المقدسة

عندما يموت الشامان تذهب روحه على هيئة نار إلى أحد أصدقائه الشامانات عندما كان على قيد الحياة، وتضربه الروح ضربة قوية على جبهته ويقع على الأرض (تكون الشعلة أو الروح غير مرئية للمتفرجين). ويساعدونه على النهوض، وعندما يستعيد وعيه إلى حد ما يقول: "جاءت روح صديقي إلي للمساعدة، وترغب بالاستقرار في حديقة، وتخبرني بمكان الحديقة".

ولا يشكك أحد بأن هذا هو طلب روح الشامان الميت، ويذهب الأصدقاء إلى المكان المذكور، ويختارون واحدة من أكبر الأشجار وأفضلها، ويحفرون فيها فتحة على هيئة صندوق صغير، وتحرق جثة الشامان الميت، ويوضع الرماد في فتحة الشجرة التي حفروها، ويحكمون إغلاق الفتحة بشريحة، وتصبح الحديقة مقدسة بعد ذلك، وفيما بعد، إذا طلبت روح شامان من العائلة نفسها أن تضع رماد جثته في هذه الحديقة، تتم الموافقة على هذا الطلب، ولهذا السبب هناك عادة أشجار عديدة تحتوي على رماد جثث في مثل هذه الحدائق.

وهناك العديد من هذه الحدائق المقدسة في بلاد البورات. وعند عبور شخص بوراتي للحديقة حيث يوجد رماد شامان أو عدة شامانات يريق الفودكا أو التاراسان على أرواحهم. وإذا لم يكن عنده فودكا أو تاراسان، فإنه ينثر التبغ ظناً منه أنهم قد يرغبون في التدخين. ويذكر أسماء هذا الشامان أو ذاك، ويرسل لهم التبغ خصيصاً، ويفترض أن يصل التبغ للأرواح بشكل مضاعف من حيث الكمية والجودة.

لا يجوز قطع أي شجرة أو قص العشب أو قلب الطبقة العلوية من التربة في الغابة المقدسة، وسوف تلحق بالمرء مصيبة عظيمة إن آذى شجرة، أو حتى إذا كسر غصناً صغيراً، وستنزل العقوبة بأرواح الشامانات المتوفاة.

ولا يمكن لأي امرأة دخول حديقة شامان مقدسة.

الحدائق المقدسة للبوركانات أو الآلهة البوراتية

وهناك آلهة يطلق عليها بوركانات (آلهة) بومال. وسميت بهذا الاسم لأن منازلها موجودة في حدائق معينة بدلاً من أماكن مرتفعة. ولا يجوز قطع أي شجرة أو كسر غصن أو قص عشب في هذه الحدائق. ويقدم التبغ أو التاراسان عند عبور الحديقة.

وثمة حديقة لبوركان بومالي حيث قضيت أسابيع عدة ليس بعيداً عن قرية أستوردي.

وقبل بضع سنين فقد ثلاثة أو أربعة بوراتيين إيمانهم بدين أجدادهم. وقرروا قياس الأرض وقص العشب حول الحديقة. وحذرهم الشامانات بأن الأرض وعدة فدادين من حولها بالإضافة إلى الحديقة تعتبر ملكًا للآلهة. لم يعيروا أي اهتمام لتحذيراتهم وبدأوا بقص العشب.

وغضب الإله كثيراً وأنزل بالقرية وباءً ليعاقبهم على محاولتهم قص العشب ونهب ممتلكاته. وبدأ الناس بالموت سريعاً. وهجرت الأرض المحيطة بالحديقة فوراً. وقدمت التضحيات للإله الذي تم إرضاؤه بعد فترة. واختفى الوباء.

ويسمح آله أو اثنان من بوركانات البومال للنساء بعبور حديقته. ولكن الآخرين صارمون جداً بهذا الخصوص. ولا يسمحون للنساء بدخول حدائقهم. بل يعاقبونهن إذا خطون خطوة واحدة على الأرض.

وفي بعض الأحيان هناك حديقة مقدسة لبوركان بومالي على قمة جبل أو على تلٍ عالٍ بين القرى. وعلى مقربة من الطريق. ولا يسمح لأي شخص بعبور الحديقة ثلاثة أيام إذا مات رجل في إحدى القرى. ويتوجب على أول رجل يعبر الحديقة بعد انتهاء الأيام الثلاثة أن يُطَهر نفسه قبل خروجه من المنزل. وينفذ هذا بجمع نبات المرعر الجاف الذي يوضع في كومة على الأرض. ثم يُحرق. وعندما يرتفع الدخان. يمشي الشخص من خلال الدخان بشكل متكرر. وهو يستنشقه. وينبغي تطهير الفرس الذي يمتطيه الشخص أيضاً بالطريقة نفسها.

وقبل قرون عديدة حدث إن شاماناً رأى شجرة جميلة أو مجموعة من الأشجار اعتقد بأن بوركاناً أو روح شامان ميت قد مرت هناك. ومن المؤكد أنه توقف للتدخين. وهكذا أعلن أن الموضع الذي يضم الشجرة أو مجموعة الأشجار مقدسٌ. ولن تبلغ الحماقة بشخص بحيث يعبث بأشجار يعرف أنها منحت للبوركانات والأرواح.

يكره البوراتيون قطع شجرة جميلة قد نمت في مكان نظيف. ويميلون إلى الاعتقاد بأن الشجرة ملك لبوركان (الإله). وهناك حالات يمرض فيها رجل فجأةً إذا حاول قطع شجرة. واكتشف الشامانات أن المرض سببه الإله الذي يمتلك هذه الشجرة. وأحياناً لا يعرف اسم البوركان المعني. لذا حتى عندما يقدم قربان. فإنّ الرجل قد يموت.

وقد قطع أحد البوراتيين شجرة صنوبر جميلة نمت قرب استوردي. وعلى الأثر سقط الرجل مريضاً على الفور. واستدعي شامان. وعند قراءته للتصدعات الموجودة في عظم كتف محروقَة لنعجة. اكتشف أن الشجرة تعود إلى بوركان ما. وبالنتيجة فهي شجرة مقدسة. ولكنه لم يعرف أي بوركان. وهكذا رغم تقديم عدة قرابين. إلا أن الرجل مات.

الفصل العاشر

آلهة البورات

إن أعلى وأسمى وجود في الكون هو إله الأرض الأبيض. ويسمى أيضاً بـ ايسيج مالان. وبداخله ثلاثة أرواح: بارونيه تابين تابونغ تنجيري، زوم دشين ديرلون تنجيري، ساجاديه أولجولجون.

وانبثق من الروح الأولى خمسة وخمسون تنجيرياً، ومن الثانية أربعة وأربعون تنجيرياً. أما الروح الثالثة فلها سبعة أحفاد وسبع بنات. وأكبر الأبناء السبعة هو جوليو كون شارا كوبون. وأكبر البنات هي جوليو كون شارا باساجان.

تقدم التضحيات وتقام الصلوات لكل الآلهة السماوية بالإضافة إلى الوجود الأعلى. ويطلب الناس من إله العالم الأبيض الماشية والعشب والصحة. ويطلبون من الأرواح الثلاثة، وخصيصاً ساجاديه أولجولجون، الغيث والمحصول الجيد والأطفال.

وعندما يتضرعون للآلهة طلباً في النسل يقدمون لـ ساجاديه أولجولجون عشرين قدراً من التاراسان، ويصلون في اليورتا (الخيمة/المنزل)، ويربطون حبلاً من الشعر حول الأعمدة الأربعة، ويعلقون الخشاشات الخشبية عليها. ومن المفترض أن تقنع هذه الألاعيب الأطفال بالمجيء إلى هذا العالم. ويجلبون من الغابة شجرة بتولا طويلة ويضعونها في وسط اليورتا، وتظهر أعلى الشجرة من فتحة الدخان. ويضعون على جذور الشجرة ثلاث طبقات من التربة تؤخذ من المستنقع. والمفترض أن تذهب الصلوات للآلهة السماوية من أعلى شجرة البتولا هذه. ويصنعون مهداً بعد الصلوات والأضحيات، ويهيئون كل المستلزمات لقدوم الطفل الجديد.

لا تصنع صور لأعلى وجود، أو للروح الأولى أو الثانية، وتصنع الصور للروح الثالثة ساجاديه أولجولجون ولزوجته سنغالين كاتين، ولابنه الأكبر جولوي كون شارا كوبون، ولابنتهم الكبرى جولوي كون شارا باساجان.

ويجب على كل رجل يمتلك القدرة تقديم ثلاث تضحيات على الأقل في حياته للخمسة والخمسين تنجيرياً. وهذه التضحيات هي كالتالي: التضحية الأولى هي خمس وخمسون قدراً من التاراسان وخمسة حيوانات – فَرَس عذراء وثلاث نعجات عذراوات وتيس واحد. والتضحية الثانية هي خمس وخمسون قدراً من التاراسان وفرس عذراء وخمس نعجات عذراوات وتيس واحد. والثالثة هي خمس وخمسون قدراً من التاراسان وفرس عذراء وسبع نعجات عذراوات وتيس واحد.

وتقدم التضحيات بشكل متكرر لكوكوداي ميجون كوبين الأكبر من بين الخمسة والخمسين تنجيرياً. ويذكر الأربعة والخمسون الآخرون بكل بساطة معه.

لدى كوكوداي ميجون كوبين تسعة أبناء وتسع بنات. وأكبر أبنائه هو كوريندية بوكو كوبون والثاني كوجن ميرجين والثالث كورسالجيا ميرجين والرابع بورولداي بوكو. ويمتلك كل من الثمانية عشر ولداً وبنتاً جواداً رمادياً. ويتسابقون ويجرون بسرعة على هذه الجياد الرمادية على السماء. ويصدرون الرعد المخيف الذي نسمعه.

وهناك سبعة تنجيرين مهمين من بين أربعة وأربعين تنجيرياً من زوني ديشين وهي الروح الثانية للإله دلكوين ساجان الوجود الأعلى. والأكبر هو جوتار باين تنجيري. وكاب ساجان تنجيري. وتوجوتو باين تنجيري. وكاسان بورون كوي تنجيري. وجلتا أولان تنجيري. وكونج جيرما تنجيري. وكيير كور تنجيري.

يجب القيام بتضحية خروف سمين وتقديم الصلوات وإراقة التاراسان للروح الثالثة ساجاديه أولجولجون. وزوجته سنفالين كاتين. وابنهم الأكبر وابنتهم الكبرى.

يعبد البوراتيون الروح السماوية لأحد أبناء بولاجي لجين وهو من الخمسة والخمسين تنجيرياً. واسمه بوير ساجان أولجولجون. ويقدمون سبعاً وعشرين قدراً من التاراسان ونعجتين أو أحياناً ثلاث نعجات عذراوات لهذه الروح وزوجته كوير ساجان كاماجان.

ويقدم التاراسان للأربعة والأربعين تنجيرياً ثلاثين جلداً من حيوانات مختلفة – ثلاثة جلود أرانب. خمسة جلود ظربان. ثلاثة جلود قاقم. سبعة جلود سناجب. ستة جلود من جداء (جمع جدي) صغار. وستة جلود من ذكور التيس.

ولدى اريك نامون كون وهو واحد من سلالة الأربعة والأربعين تنجيرياً ثلاثة أبناء. وهم أوكور كارا بيشيشي وسلمنديه ساجا بيشيشي وشاندا بوكو بيشيشي. وجاء كل من الأبناء الثلاثة إلى الأرض. ولكل منهم منزل على جبل في بلاد البورات.

ويعبد البوراتيون قوة سماوية في فصل الربيع. وهو ابن بولاجي لجين أحد الخمسة والخمسين تنجيرياً. واسمه بوير ساجان أوجولجون وزوجته كوير ساجان هاماجان. ويقدمون التضحيات في فصل الربيع – وهي سبع وعشرون قدراً من التاراسان. ونعجتان عذراوان أو ثلاث في بعض الأحيان.

آلهة المنازل

أولاً المجلة وبداخلها صورة ترمز إلى تومور شين كولين سيجين بارا الذي كان شاماناً مقدساً في الماضي. ويسلق الناس له اللحم. وفي المناسبات المهمة يضحون له بمعزاة. ويقومون بتضحية تيس عند الزواج لهذا الإله. وبكمية صغيرة من طبق السجق بالإضافة إلى ثماني قدور من التاراسان. طالبين الصحة والسعادة والنجاح والأطفال. وتصنع العجلة من شجرة البتولا. وتعلق من أسفل الشجرة كومة من الشعر تؤخذ من تحت بطن تيس. والرسم حديدي ويرمز إلى الشامان المقدس نفسه. والثوب الذي يرتديه يكون من القماش الأحمر ويفترض أن يكون عباءة وتوضع خرزتان من المرجان محل العينين.

ثانياً. تمثل على قطعة لباد سوداء مربعة الروح الثالثة لإله العالم الأبيض ساجاديه أوجولجون. وزوجته سنغالين كاتين. وابنهم الأكبر وابنتهم الكبرى بالإضافة إلى رضيع يرمز إلى الطفل الذي يطلبه الناس في صلاتهم. ويضع اللحم كتقدمة في الجيوب تحت القطع المعدنية الصغيرة التي تصور هذه الأرواح.

ثالثاً. تحتوي قطعة لباد طويلة على ثلاث أخوات عذراوات (أشكال معدنية صغيرة على قماش أزرق). مون كوجشين باساجان ومونجودين باساجان وبوريونتين باساجان. ويقوم شامان بتقديسهم في احتفال. وتُقدم ثلاث نعاج عذراوات وثلاثون قدْراً من التاراسان وقدر كبيرة من السجق. ويطلب الناس من إله العالم الأبيض أن يمنحهم الأرض والماشية وكل هو ما ضروري للازدهار عن طريق هؤلاء الأخوات.

الآلهة التي تُعلق خارج المنزل

في الكيس الأول جلد القاقم. ويكون الجلد ناشفاً جداً ويابساً لدرجة لا يمكن تمييزه. وبالإضافة إلى شكلين معدنيين يمثلان أوجين خوبون وزوجته. وقد كانا شامانيين. ويلجأ الناس إليهما كما يلجأون للآلهة. ويتوسلون إليهما للحصول على غلال جيدة ومطر...الخ.



آلهة الحقل التابعة لأندريه ميخايلوفيتش وقد أخرجت من الصندوق وربطت حول عمود.

وفي الكيس الثاني شكلان يمثلان كوليبو وزوجته. وكان كلاهما شامانين. ويتضرع الناس إليهما بكل ما يتعلق بتربية الماشية والبيع والشراء، الخ..

وهناك سبع صور في أكبر كيس رمادي على قطعتي قماش، خمس على قطعة، واثنتان على القطعة الأخرى. وهي تمثل يون بيكي كوتا وزوجته كازاكار وابنيه الاثنين وابنته. وعلى القطعة الثانية صهره وكنّته. ويمتلك هذا الكيس خاصية الأكياس الأخرى نفسها. ويتضرع الناس إليها لأشياء مشابهة.

والجلد الطويل هو لظربان. ويمثل الإله الذي نزل على هيئة بَرَد وبعد دخوله في فتاة تبلغ الثالثة عشرة من عمرها رزقت بطفل سمي بـ منديو قوبون أريا (انظر أصول الشامان). ويتوسل إليه الناس ويتضرعون لكل شيء، وهو بالغ الكرم ويستجيب للصلوات.

والحيوانان هما قاقمان- أختان ممثلتان في شكلين حديدين صغيرين. واسم هاتين الأختين بولاي وبودراجانا. ويجب أن يقدم لهما لحم الحصان وسمكتا سلمون بالإضافة إلى تسع قدور من التاراسان. ويكون التضرع إليهما في حالة المرض، خصيصاً في حالة سل الغدد اللمفاوية.

الخلق - إيسيم مالان

كان هناك في البداية إيسيج مالان الإله الأعلى وزوجته ايهي أورينرج لبي.

وفي بادىء الأمر كانت الدنيا مظلمة وهادئة. لم يكن هناك ما يرى أو يسمع. وأخذ ايسيج كومة من التراب، وعصر الرطوبة منها، وصنع شمس الماء، وصنع القمر بالطريقة نفسها.

وبعدها خلق الخلق والنباتات جميعاً. وقسّم العالم شرقاً وغرباً وأعطاها إلى أعلى رتبة

من الآلهة. وهؤلاء الآلهة صارمون جداً. ويجب على الناس تقديم الجياد والخرفان قرابين لهم. ويُعاقبون بإنزال المرض خصيصاً على الأطفال إذا غضبوا. ويعاقب بعض الآلهة السماوية الناس بالأمراض والمصائب عندما يسيئون للآلهة المحلية. وعلى سبيل المثال إذا نودي رجل للشهادة أو أقسم بآله محلي، إما أن يعاقبه على ذلك الإله المحلي أو يصدر الحكم من أحد الآلهة الرفيعة. فالقسم بأي بوركان يعد خطيئة كبيرة سواء كان المرء صادقاً أو كاذباً.

ومن ضمن هؤلاء الآلهة الرئيسية الآلهة التي تتخذ شكل الطيور في الجنوب الغربي. ويتخذ الكثير منها هيئة البجع. وهم كرماء جداً مع الناس الطيبين. وتُقدم القرابين مَرَّتيْن كل سنة لآلهة الطيور هذه. ويقدم لها في فصل الخريف كبش مخصي، وفي فصل الربيع حليب الفرس والشاي والدخن والتبغ. وبين هذين النظامين العلويين وآلهة الأنجون هناك نظام ثانوي من الآلهة من كلا الجنسين. وانحدر بعض منهم من الآلهة الأعلى مستوى. وكان الآخرون بشراً في الزمن القديم ولكن الآلهة فضلتهم وجعلتهم شامانات.

ايسيج مالان وجسير بوغدو

(رواها أرمكلوف)

قصتنا العظيمة من السماء وهي قصة جسير بوغدو. كما تعلمون هناك أناس في السماء وكذلك هنا. ووجدوا قبلنا بوقت كثير – لا أحد يعلم كم. وقائد هؤلاء الناس وأقدمهم هو ايسيج مالان.

وكان لايسيج مالان تسعة أبناء. وقال أكبر الأبناء الأربعة: "نحن سنخلف أبانا". وقال أصغر الأبناء الأربعة: "لا، نحن سنخلفه". وكان الابن الخامس أو الأوسط، بطلاً صنديداً، وقف إلى جانب الإخوة الأربعة الصغار. كان اسمه ماهاي دانجين.

وبدأ الإخوة الأربعة الكبار والأخوة الأربعة الصغار بالنزاع، ولا أحد يعلم كم كان سيستمر النزاع لو لم يتدخل ماهاي دانجين، وأرسل الإخوة الأربعة الكبار إلى الأرض، إلى مكان ما بعد محيط القطب الشمالي المتجمد، حيث خلقوا مخلوقات شريرة، كالمنغاثيين والثعابين الخسيسة. ويستطيع البعض منها الطيران وابتلاع الناس. وخلقوا أيضاً كلاباً كبيرة ووحشية لتدمير الأشياء. وفعلوا هذا ليثيروا حنق إخوانهم الذين كانوا يحكمون السماء. ولم يسمحوا لأحد بالاقتراب منهم. وحتى يومنا هذا لم يستطع أي أحد الوصول إلى سكناهم.

ونتيجة لأفعال هؤلاء الإخوة الأربعة، أصبحت الأرض مليئة بالشرور والفوضى العظيمة. وبقيت هكذا على مَدَى آلاف السنين – ولا يعلم أي إنسان إلى متى.

وفي هذه الأثناء انتهى ايسيج مالان من الحكم، وبنى لنفسه قلعة عظيمة ورائعة حول السماء. وفي أحد الأيام وهو يتمشى وينظر إلى القلعة، وجد مكاناً محطماً. وعلى الفور عقد اجتماعاً ليكتشف من كان يحاول تدمير عمله.

وهناك تسع وتسعون محافظة تنجيرية في السماء، وعقد هذا الاجتماع بحضور تنجيري واحد من كل محافظة. وناقشوا وقتاً طويلاً، لكنهم لم يتمكنوا من معرفة من أو ماذا كسر جدار القلعة. وأخيراً طلب ايسيج مالان زاريا ازيرجيشا، "ايش" وهو رجل حكيم لكنه بلا أقدام. ورفض حضور الاجتماع لأنه خشي أن يضحك الناس عليه لأنه بلا أقدام. ثم بعث ايسيج مالان روحين من الأرواح الخفية (شالموصان) ليسمعا ما سيقول زاريا ازيرجيشا (القنفذ) لنفسه.

وجداه جالساً في المنزل يتكلم وهو يعتقد بأن أحداً لن يستطيع أن يسترق السمع.

قال "إن ايسيج مالان لا يفهم، لديه تسعة وتسعون تنجيرياً وما زال لا يستطيع السيطرة على أبنائه الأربعة، فقد نزلوا إلى الدنيا وعاثوا في الأرض فساداً وسببوا الكثير من المشاكل حتى ارتفعت دموع الناس إلى عنان السماء، وأضعفت جدران القلعة. صلى الناس وقاموا بالإراقة، ونثروا دماءهم باتجاه السماء، وعندما لم يجدِ ذلك نفعاً نثروا دموعهم. وكيف لا يعلم ايسيج مالان بهذا كله؟ لماذا يطلبني لأعطيه معلومات؟ إن مصدر جميع هذه المشاكل أبناؤه الأربعة. وهم من يلام لإراقة دموع الناس وتحطيم الجدار".

ولم ينتظر الشالموصان أكثر عند سماعهما هذا، فذهبا سريعاً إلى ايسيج مالان وأخبراه بما قاله زاريا ازيرجيشا. وأرسل ايسيج حفيده جسير بوغدو، ابن ماهاي دنجين البطل، على هيئة طائر إلى الأرض. وحلّق فوق الأرض ثلاثة أعوام ولم يستطع الهبوط بسبب الرائحة الشنيعة الصادرة من مختلف الجثث.

وأخيراً أرسل ايسيج مالان الذباب الذي خلق اليرقات، وأكلت اليرقات الجثث الميتة وطهرت الأرض، وأصبحت جميلة ونظيفة. ثم هبط الطائر على سهوب واسعة تسمى "اورونداشي"، وحول نفسه ثوراً أزرقَ، وخار بصوت عالٍ بنبرة التحدي. وسمع الإخوة الأربعة الصوت في منزلهم بعد المحيط المتجمد وقالوا: "ذلك صوت أحد أقاربنا، واحد من شعبنا!".

وحوّل أحد الإخوة الأربعة نفسه ثوراً مبرقشاً وذهب إلى السهل، وتصارع الثوران حتى أوقع

الثور المبرقش الثور الأزرق. وأمسكه من قرنيه وطوّح به بقوة حتى سقط على الجهة الثانية من جبل آلتاي. ولحق الثور المبرقش بالثور الأزرق لقتله. ولكن الثور الأزرق حوّل نفسه إلى صخرةٍ ووقف في طريقه. هرع الثور المبرقش إلى الحجرة ولكنه كسر أحد قرنيه. ثم أيقن أنه لا يستطيع أن يؤذي الثور الأزرق. فصاح:

"أنت لم تخدعني. من الآن فصاعداً سأكون عدو كل الماشية ذات القرون!" وعاد إلى إخوته مهزوماً.

وينتصب ذلك الثور على هيئة صخرة في الأرض في المكان نفسه إلى يومنا هذا. وعادت روح جسير بوغدو إلى ايسيج مالان وخلقت أبطالاً ليقاتلوا المنغاثيين والحيوانات الشريرة والثعابين الشمالية. وكان له ابن اسمه بوكو نويون. وكان لدى بوكو نويون سبعة أبناء وبنت واحدة اسمها ايرجي سوبان. وتزوجت ايرجي سوبان من شاندو بوكو بيسبيش. وهو حفيد ارليك نومون. الابن الأكبر بين الإخوة الأربعة في الشمال. وبهذا هدأت المشاكل في عائلة ايسيج مالان.

وكانت شخصية سولونج يوبون، نجمة الصباح، رائعة جداً. وهو الابن المفضل لدى ايسيج مالان. وإذا طمع البورات في ماشية كثيرة فيقومون بتضحية كبش عند الفجر ويصلون لسولونج يوبون ويرقصون ثلاثَ ليالٍ متتالية حتى بزوغ الفجر.



آلهة الحقول

ايسيج ميلان والأرض الأم

بعدما أصلح ايسيج مالان الأمور جميعاً ذهبت ايهي تازار، وهي الأرض الأم، لزيارته. وقضت عدة أيام حلوة وجميلة. وعند انتهاء زيارة ايهي تازار وكانت جاهزة للرحيل طلبت من ايسيج مالان أن يعطيها الشمس والقمر. فأعطاها إياهما بكل سرور. ولكنه أدرك بعد ذلك أنه من الصعب أن يعطيها إياهما. ونادى ألفاً من البوركان (الآلهة) وسألهم عن كيفية إنجاز هذا العمل البطولي، ولكنهم لم يستطيعوا إخباره على الرغم من أنهم درسوا الموقف وقتاً طويلاً وبجدية. ثم أرسل ايسيج مالان بطلب ايش (القنفذ) الذي صعد إلى السماء إلى منزل ايسيج مالان.

وكان لدى ايسيج مالان ثلاث بنات، عادة ما كن ينزلن إلى الأرض ويخلعن ملابسهن ويحولن أنفسهن إلى بجعات، ويلهين في البحر. وصادف وجود البنات الثلاث في المنزل عند حضور ايش.

وكان ايسيج قد أعلم بناته بأن ايش شخص غريب الأطوار، وبأنه أعرج ومكسي بالشعر، ولكنه حكيم جداً ويجب ألا يضحكن عليه. وعلى الرغم من ذلك حدقت بنات ايسيج بأيش عند دخوله وضحكن عليه، ولم يتمكن من السيطرة على أنفسهن، فشكله كان مضحكاً جداً. ورآهن ايش يضحكن وقال في نفسه: "طلبني ايسيج مالان إلى هنا من أجل أن يسخر مني ويضحك منّي بناته!". فغضب غضباً عارماً، ورجع مسرعاً بحيث أن ايسيج لم يكن لديه وقت ليتفوه بكلمة واحدة. ومع ذلك كان ايش يعلم ما يريده ايسيج، فقد أخبره الرسول. ونزل من السماء بسرعة جداً، ولكن تبعه شالموصان (الروح الخفية). وقد أرسلهما ايسيج مالان ليسمعا ما سيقوله ايش في طريق عودته. ولأن ايسيج كان يعلم أن ايش غاضب جداً ظن أنه قد يقول شيئاً بخصوص الشمس والقمر.

وأول شيء رآه ايش عند وصوله الأرض هو قطيع من البقر والثيران. فزعوا عندما رأوه، ورفعوا ذيولهم وركضوا. وغضب ايش لأنهم فزعوا منه فلعنهم قائلاً:

"فليبق شعر الحبل بمناخيركم! وليكن النير في رقابكم دوماً!" وهكذا كان.

واقترب أكثر ورأى قطيعاً من الجياد وفزعوا أيضاً، ورفعت ذيولها وهربت بعيداً. غضب زاريا بشدة ولعنهم قائلاً:

"فلتبق الشكيمة لا تغادر أفواهكم! والسرج لا يغيب عن ظهوركم!" وبالفعل حصل ذلك.

وتبعه الشالموصان دائماً، وهما يسمعان ما يقول. وبعد فترة بدأ ايش بالتكلم مع نفسه ويشتم ايسيج مالان. وسأل قائلاً "أي نوع من الحكام ايسيج مالان؟ أي سيد من سادة العالم هو؟ انه يدير الأشياء جميعاً، ويصلح كل شيء. ويعطي الشمس والقمر للآخرين. ولا يعرف كيف يستردهما! إذا كان حكيماً جداً، لمَ لا يزور الأرض الأم. وعند انتهاء الزيارة وهو جاهز للرحيل، يطلب منها هواء الصيف الحار الراقص وكذلك الصدى. هابرا يرليجين وداربون. ستعطيهما كلاهما بكل سرور، ولكن كيف ستحضرهما له؟".

ولم يلحقه الشالموصان أكثر من ذلك بعد سماعهما ما قاله. لكنهما ذهبا إلى السماء بسرعة، وأخبرا ايسيج مالان بكل ما قاله ايش.

وانتظر ايسيج مالان وقتاً طويلاً. ثم ذهب ليزور الأرض الأم. وبينما كانا يتمشيان قال: "عندما أتيتِ لزيارتي أعطيتكِ الشمس والقمر، وأنا أطلب هدية منكِ الآن. أعطني هواء الصيف الحار الراقص والصدى". وأعطته إياهما وحاولت المجيء بهما ولكنها لم تستطع.

وعندما رأت أنه من المستحيل إحضارهما، ولا أحد يستطيع إخبارها بكيفية ذلك، قال ايسيج:

"دعي الشمس والقمر يبقيان في أماكنهما. وهواء الصيف الحار الراقص والصدى يبقيان هنا!، وعلى الرغم من أن الشمس والقمر ينتميان للأرض، فانهما في السماء، وهواء الصيف الحار الراقص والصدى، مع أنهما ينتمان لأيسيج مالان، فإنهما بقيا مع الأرض الأم.

الفصل الحادي عشر
أساطير الدين المنغولي

جسير بوغدو (رواها سكريتريوف)

كانت الأرض في بداية الخلق في حالة ارتباك وفوضى عارمة. وكان هناك أيضاً مختلف المخلوقات البشعة وخاصة المانفاثيين. ثم عقد مجلس في السماء برئاسة الإله تينجيري قومس – وهو واحد من أربعة وأربعين إلهاً في المنطقة الشرقية. وقال «الابن الأوسط يمكن تهدئته ويجنبنا كل هذا الشر».

وكان لدى ايسيج مالان تسعة أبناء. ودعا ابنه الأوسط وكان لديه ولد يدعى جسير بوغدو وقال: «إذا نلت ما أريد سأذهب إلى الأرض وأقوم بتدمير المخلوقات الشريرة هناك بشرط أن تعطيني التانجيرات التسعة والتسعين وكل حيلها».

سلم التانجيريون كل أحابيلهم والبالغ عددها مئة ألف وابتلعها جسير بوغدو ثم التفت إلى ايسيج مالان وقال:

«دورك الآن. أعطني فرسك الأسود ورداء الأبطال». أعطي سيج الفرس الأسود ورداء الأبطال. ثم قال أعطني وهقك[*] ورمحك. فأعطاه ايسيج الوهق والرمح. ثم طلب جسير زوجة وحصل عليها. وقال لزوجته: «أنت تملكين ثلاث بنات وأريد أن تعطيني إياهن» في البداية رفضت المرأة (الأمور سيئة هناك في الأرض أظنهن لا يستطعن البقاء هناك ولن أعطيك إياهن).

فصرخ جسير بوغدو «إذا لم أحصل على كل ما أريد. لن أذهب إلى هناك» ثم أمر ايسيج مولان أوتقان تانجيري ليتنبأ بمعرفة ما يجب عمله في إعطاء البنات أو عدم إعطائهن فكان رد

* الوهق: حبل طرفه أنشوطة يستعمل لاقتناص الخيل والأبقار (المورد).

اوتقان ملاتي: «سيكون إعطاؤهن ذا فائدة لجسير بوغدو. ومن الضروري إعطاؤهن إياه». أعطت الأم بناتها الثلاث وابتلعهن جسير بوغدو كما سبق أن التهم كل ما أعطاه مالان. ثم ودع الجميع ونزل ولكنه لم يسقط على الأرض مباشرة. تجول في السماء مدة ثلاث سنوات. وكان دائماً ينظر إلى الأرض. وخلال تلك السنوات الثلاث رأى كل الأشقياء والأرواح الشريرة والمخلوقات البشعة في كل مكان. ثم قال: «لا أستطيع أن أنزل إلى الأرض على هذا النحو. ينبغي أن أولد هناك». ثم شاهد امرأة تبلغ الستين من العمر واسمها تومون يارغول. واسم زوجها سندلي أنغوغوان وقال «أود أن أدخل في رأس (عقل) تلك المرأة».

وفي تلك السنة كان حال سندلي انغوغوان مزدهراً فقد ازداد قطعان الماشية لديه. ونما العشب بشكل مدهش. وفي أحد الأيام قالت تومون: «أشعر بأنني سأصبح إما للعديد من الأبناء. إنني أسمع أطفالاً يتحدثون».

وسرعان ما ولد لها العديد من الأبناء كل بطريقة مختلفة. ولكنهم طاروا جميعاً إلى السماء. وفي النهاية ولد أحدهم وقال: "بما أنني ولدت فسيولد كل الناس بعد ذلك. وهكذا كان. فقد كان هذا الرضيع ضعيفاً وقبيح الشكل لكن سرعان ما كبر وأصبح رجلاً ذا هيبة. قام هذا الرجل الذي يدعى جسير بوغدو بتنظيف كل الأشياء البشعة. ودمر الأرواح الشريرة وتخلص من الأشخاص الفاسدين. وقتل لسوغو منفاثاي الذي كان آخر الأرواح الشريرة. وعندما حمله جسير بوغدو من ساقيه قام منفاثاي بنبش الأرض بأظافره فتدفقت عشرة جداول شكلت نهر آغا الذي يصب في الجانب الأيسر من الأنفارا. ثم قال جسير "الآن سوف أستلقي وأنام. لا تسمحوا لأحد أن يوقظني من النوم. سأنام حتى يكون هناك الكثير من الأمور الضارة والأرواح الشريرة والناس السيئين كرة أخرى في العالم. حينها سأستيقظ وأدمرهم".

وكان لجسير بوغدو ثلاثة أبناء وستة أحفاد قبل أن يهبط من السماء.

كانت هناك تسع حكايات عن أحفاده التسعة في الماضي. لذا يكون مجموعها إحدى وثمانين حكاية ويجب أن تروى تلك الحكايات التسع في تسع مجموعات. والراوي يجب ألا يأكل أو يشرب أو ينام عندما يروي تلك الحكايات. وعند الانتهاء من سرد المجموعة المكونة من تسع حكايات يقول شخص خفي "لقد نسيت أين وضعت بوفو العائد لك".

ولد جسير بوغوداقي قونين قوتوي. وينام عند شروق الشمس. ويضطجع تحت صخرة ضخمة ومسطحة.



صورة توضيحية للكنيسة الوحيدة في اولخون. وقد أمضى الكاتب ثلاث ليال في هذا المبنى.

وعندما كان يرغب في الاسترخاء يتقلب من جانب إلى آخر. فترتجف الأرض. والروس يسمون هذا الارتجاف "زلزالاً" لكن البوراتيين يعرفون أن جسير بوغدو يتقلب من جانب إلى آخر.

جسير بوغدو رقم 2

روایة أُخرى عن القصة السابقة

في زمن موغل في قدمه في عالم سبق عالمنا هذا عاش شعب اسمه مارات وكان هناك شعب آخر من المنغاثيين يحكمهم شالمو (الخان الخفي).

قال ديلاكوين سيغان. وهو أسمى مخلوق "لندمر شالموخان وشعبه ونخلق شعباً مسالماً أكثر منه" وأرسل حفيده جسير بوغدو إلى الأرض ليصبح خاناً.

وفي الجنوب في منطقة تدعى آلتي ديدا عاش رجل مسن وامرأة مسنة. كان يبلغ من العمر سبعين سنة وكانت هي في الستين. كان يدعى سوندلي أوغاغا وكانت المرأة تدعى سوندلي هامياغان (اوغاغا معناها رجلٍ عجوز. وهامياغان معناها امرأة عجوز). وكانا شعب المارات.

وفي أحد الأيام قالت سوندلي هامياغان "أشعر بأنني سأصبح أماً للعديد من الأطفال. وأسمعهم يتناقشون في كيفية دخول العالم". بعد ذلك بفترة وجيزة ولد العديد من الأبناء لسوندلي هامياغان. كل واحد بطريقة مختلفة عن الآخر. وعلى الفور توجه الجميع إلى السماء. وبعد عشرة أيام ولد طفل قال:

"سيولد كل الناس الطريقة نفسها التي ولدت بها فيما بعد".

كان هذا الطفل جسير بوغدو الذي لم تتمكن أي سكين من قطع حبله السري. وأخيراً قال الولد لأبيه "على الجانب الغربي من سقف منزل نبات، وهو سيد النباتات أحصل على ذلك النبات، ولوح به ثلاث مرات في الشمس فوق الحبل السري، وحينها سأكون حراً". وقد تم ذلك، فبدأ الحبل بالذبول وسقط. وعندما لف الطفل بالقماط وضعه بالقرب من والدته وقال لأبيه:

"اذهب إلى الغابة واقطع تسع أشجار بتولا وضمن قطيعك فحل خيل أسود. وعلى عتبة باب البيت حجر صوان أصفر أهداه لي أيسيج مالان. ولتلك القداحة قوة سحرية. وفي علبة على الجانب الغربي من المنزل سرج وقطعة قماش فيها قطعة قماش وجميع ملابس الأبطال". لم يكن سوندلي أوغاغا يعرف هذه الأشياء فقد جاءت مع مجيء جسير بوغدو.

وعندما جلب الرجل العجوز أشجار البتولا التسع ووضعها كما أبلغه جسير أمام مربط الحصان فأصبحت تسعة خيول زرقاء اللون. وفي تلك اللحظة قدم تسعة من الشالموصات (الأرواح غير المرئية) وهم يمتطون تسعة خيول، تشبه الخيول أمام مربط الحصان. وحينما كانوا يمتطونها، نهض الصبي وذهب نحو بوابة المنزل.

"هل لديك خيول لتخوض سباقاً ضد خيولنا؟" سأل الشالموص. فأجاب جسير بوغدو "إنني صغير في السن، ولدت للتو، ولا أعرف ركوب الخيل. اركبوا خيولي واختبروها. وعندما أكبر سأركب معكم".

قفز الشالموصات التسعة على الخيول، وهرعوا بعيداً نحو البحر الأصفر. لم يتوقفوا عند الشاطئ بل تسابقوا حتى وصلوا عرض البحر. وهناك تحولوا إلى تسع أشجار من جديد وغرقوا في الأمواج، وهكذا غرق الشالموصات التسعة.

أصبح جسير بوغدو رجلاً بالغاً عندما بلغ الثالثة من عمره. قام بتغيير فَرَس خيله الأسود وزي الأبطال لديه إلى حجر صوان ووضعه في جيبه وانطلق سيراً على الأقدام.

لا أحد يعرف كم سافر، ولكن في النهاية وصل إلى المكان حيث تلتقي ثلاث طرق. وهناك أصبح صبياً صغيراً ومشوهاً. بزغت ذراع ويد واحدة من ظهره، وانسحبت إحدى ساقيه إلى فخذه، وغرقت عيناه في رأسه. كان شخصاً قبيح المنظر.

وجاء من ناحية الجنوب الغربي تسعة وتسعون شالموصاً على تسعة وتسعين حِصَاناً أزرق.

واقتربوا من الطفل المشوه وتساءلوا ماذا يمكن أن يكون، ولكنهم لم يقولوا شيئاً بل استمروا في مسيرتهم. جلس الطفل برهة وجيزة، ثم بسحره التف حول الأرواح الخفية التسعة والتسعين ووصل قبلهم إلى البحر الأصفر. وهناك صنع من حجر الصوان لديه ومن لحاء شجرة الطمراق تسعة وتسعين قارباً صغيراً وأمرها أن تكون قوية وكبيرة، ثم صنع سقيفة قرب البحر. وحول نفسه إلى رجل عجوز وجلس هناك في ظل السقيفة. وعندما مرت الأرواح الخفية التسعة والتسعون والمتطية على تسعة وتسعين حصاناً أزرق بالرجل العجوز وشاهدوا قواربه قالوا:

«إننا ذاهبون إلى السموات الشمالية الشرقية ولا نستطيع عبور البحر على ظهور الخيل. خذ جيادَنا التسعة والتسعين وأعطنا قواربك التسعة والتسعين".

وافق الرجل العجوز. وبينما كان يحرر القوارب، قال لكل واحد منهم "عندما تصل إلى عرض البحر، تحول إلى رقاقة من لحاء شجرة الطمراق، وقم بإغراق الأرواح الخفية في لجة البحر".

وعندما ركبت الأرواح الخفية القوارب، انطلقت القوارب من ذاتها ولم يتمكنوا من وقفها أو توجيهها. وعندما وصلوا إلى عرض البحر تحولوا إلى رقاقة من لحاء شجرة الطمراق، وغرقت الأرواح الخفية التسعة والتسعون.

رجع جسير بوغدو إلى بيت الرجل العجوز. ووضع السرج على حصانه الأسود القوي، وارتدى ترس الأبطال وذهب إلى الشمال الغربي، حيث عاش ما يعادل ثلاثمائة وستين حياة مخلوق شرير. ومن أبرز هذه المخلوقات الشريرة دنجيس شارة ماغاثي وكان لديه ثلاثةٌ وسبعون رأساً.

حَوّل جسير بوغدو حصانه وترسه إلى حجر الصوان، ووضعه في جيبه، وأصبح رجلاً عجوزاً وضعيفاً وذهب إلى بيت الأرواح الشريرة.

و قال رئيس المانغاثيين "حضر عشاء رائع من تلقاء نفسه، كنت بدون عشاء والآن عندي أنت".

فأجاب العجوز: "كيف ستجعلني عشاءً لك ؟ إنني مجرد رجل عجوز. إنني أعمل بالصبغ. اليس لديك عمل لي؟ "

قال رئيس الأرواح الشريرة "قم بطلاء بيتي من الداخل" بدأ الرجل العجوز بالطلاء بينما كان يقول " ليزداد شعب المهر الأسود! واتركوا الأرواح الشريرة تموت". قالت الروح الشريرة

"ماذا تقول" فأجاب جسير بوغدو "أنا أقول للأرواح الشريرة البالغ عددها ثلاثمائة وستين بالازدياد واسمحوا لشعب المهر الأسود بالموت".

وبدلاً من طلاء البيت كان جسير بوغدو يجعل البيت حديدياً من الداخل. وعندما انتهى من الطلاء من الداخل ذهب إلى خارج المنزل وقام بطلائه إلى أن أصبح البيت من الخارج من حديد أيضاً. ثم ذهب إلى فتحة المدخنة وقال: " ليوضع ثلاثة عشر طلسماً على هذا البيت وليطوق البيت ثلاثة وعشرون طوقاً حديدياً. لتموت الأرواح الشريرة البالغ عَدَدُها ثلاثُمائةٍ وستُون وليزداد عدد شعب المهر الأسود".

فسأله سيد الأرواح الشريرة "ما الذي تدمدم به أنت هناك؟" فأجاب "كنت أقول ليستقر ثلاثة عشر طلسماً على هذا البيت. ولتطوق البيت ثلاثة وعشرون حديدياً وَلْيَمُت الأرواح البالغُ عددُها ثلاثُمائة وستون روحاً داخلها".

لم تتمكن الأرواح الشريرة من الهرب من البيت الحديدي بالرغم من أنهم كانوا يشعرون بأن وزن السحر كان يسحبهم نحو الأرض.

كان البيت بأكمله يغرق. وبعدها استوت فتحة المدخنة مع الأرض. رفع رئيس الأرواح الشريرة إحدى رؤوسه من خلال فتحة الدخان لكن جسير سحقه بضربة جبارة من مطرقته التي تزن سبعين باونداً أرسلها له جده ايسيج مالان. ثم طلب من شعب بوركان بطلاً حديدياً لحراسة البيت وسحق كل روح شريرة تحاول الهرب بمطرقته الجبارة. وهكذا دُمر المانغاثيون "الأرواح الشريرة التي عاشت في عالم سبق عالمنا هذا".

جسير بوغدو رقم 3

نشأ نزاع بين اثنين من المبارزين في السماء وهما خان تورماس تانجيري وأتاي أولان تانجيري. على سيادة منطقة سيكال سيبيدك تانجير ومن منهما سيحمكها. وهي السماء الجليدية الباردة. وفي النهاية اتفقا على أن يلتقيا ويتخذا قراراً ويحسما الخلاف بمعركة. ونظما قواتهما لتسير إلى سيبيدك تانجير والشخص الذي يصل هناك أولاً ينبغي أن ينتظر الآخر.

عندما وصل أتاي أولان مع قواته لم يكن خان تورماس في المكان المحدد. لم يكن هناك لأنه كان قد ذهب إلى جدته التي تعيش في الغرب في منطقته يولدا مولان قورمي تودي. سافر لطلب مشورتها. وبينما كان في يولدا مولان ثَمِلاً جراء شرب التاراسان. وقضى ستة أيام بصحبة جدته. ونسي المباراة تماماً.

انتظر أتاي أولان يوماً واحداً، ثم يومين وفي اليوم الثالث استولى على سيكال سيبيدك، وانطلق نحو وطنه معتقداً أن خان تورماس كان خائفاً ولم يجرؤ على القتال وبالتالي فازعليه.

بعد ذلك رأى الابن الأصغر للخان تاي راماس ويدعى جسير بوغدو وهو صبي في الرابعة من عمره حصان أبيه، فأسرجه وارتدى ملابس أبيه وأخذ أسلحته وحمل حربة طويلة في يده وانطلق ليحارب أتاي أولان. باغت أتاي في وسط مملكته، أي نصف مسافة الطريق إلى وطنه، وغرز الحربة في الجانب الأيمن من جسم أتاي وطرحه من صهوة جواده، وألقى به من السماء إلى الأرض.

عندما سقط أولان على الأرض تحول إلى روح شريرة (مانغاتاي) و(شلموص شريرة) وهي الأرواح التي كانت تزرع المنازعات والخلافات وتدمر الناس.

وشعب البوركان الذي يبلغ عدده ألف شخص يعيشون فوق سماوات كثيرة اتحد وتجمع في دولان أودين (الدب الكبير، النجوم السبعة) وتشاوروا فيما بينهم لوقف نشاط الأرواح الشريرة كلها التي تنبع من أتاي أولان، أي وقف الشر. وقرروا إرسال دشن شوهو إلى الأرض وهو النجل الأكبر للخان تيرماس وقالوا لربما يستطيع قهر المانغاثيين ولكن دشن شوهر رفض الذهاب. وقال "لن أذهب، الشخص الذي تغلب على أتاي أولان وأطاح به، ليذهب جسير بوغدو".

ثم استدعى شعب البوركان جسير بوغدو ولدى مثوله أمامهم سألَ الجميع لماذا ألقيت أتاي أولان على الأرض؟ وإن رغبت في تدميره فلِمَ لم تفعل ذلك في السماء؟ وإذا كنت ترغب في قتله، فلِمَ لم تفعل ذلك في السماء؟ اذهبْ إلى الأرض الآن ودَمر كل الأرواح الخفية والمخلوقات الشريرة التي جاءت منه".

قال جسير بوغدو إنه لا يستطيع أن يذهب إلى الأرض بالشكل الذي هو عليه، وطلب منهم إرسال أوهول خان (الموت) له، وأمرهم عندما يموت جسده يجب أن يعدّو مكاناً له ليوضع فيه، ويجب أن يكون المكان مهيئاً بحيث لا يؤدي إلى تلف الجسم في فصل الصيف أو تجمده في فصل الشتاء، ويجب أن يوضع على عرش كان في السابق منضدةً وحاملاً وفي اليد اليسرى ورقة، وعندما يعتني بالجسم على هذا النحو فإنّ روحه ستدخل امرأة في الأرض وسيولد من جديد. كان على شقيقاته الثلاث النزول معه إلى الأرض.

عندما أتى الموت وأعطيت الرعاية لجسده، تحولت روح جسير إلى غراب أسود، في حين تحولت شقيقاته إلى طيور الوقواق وهبط الأربعة جميعاً إلى الأرض. حلقوا في جميع أرجاء السفلي

وداروا حول العالم. وشاهدوا في النهاية العليا لوادٍ يسمى أورهي يولفا. (الواد الداخل) منزلاً متهالكاً. وفي هذا البيت عاش رجل يبلغ السبعين من العمر. وكان لديه زوجة تبلغ ستين عاماً. دخلت أرواح جسير وشقيقاته جسم تلك المرأة. وعندما عاشوا في جسد المرأة بعد ستة أشهر قال جسير لأمه الأرضية.

"يا أماه اخلعي قبعتك".

أصاب المرأة الهلع وخلعت قبعتها ورمتها جانباً من الخوف. فطار جسير من رأسها وارتفع إلى السماوات الألف لليوركان.

وقال لليوركان "لقد وجدت بيتاً وأباً وأماً. وعندما أولد أرجوكم أرسلوا لي ثلاثة وثلاثين بطلاً قوياً. وثلاثة آلاف محارب وماشية من جميع الأنواع. بالإضافة إلى ذلك أعطوني كل ما أطلب لأحقق ما أتمنى. ولا تتركوني على وجه الأرض دون حماية". بعد ذلك ذهب إلى الأرض مرة أخرى ودخل والدته مرة ثانية وشعرت المرأة بفزع شديد من هذه الزيارة الثانية. واستشارت زوجها الرجل العجوز. وقال لها "لا تخلعي قبعتك مرة ثانية لأي سبب من الأسباب" واعتقدوا بأن الأرواح الخفية تعبث بهما وشعروا بالهلع.

وبعد حوالي عشرة أشهر من الزيارة الأولى. عرفت المرأة بأنها على وشك أن تصبح أماً وقالت لزوجها: "ابقَ معي في البيت اليوم ولا تتركني".

وقال الرجل العجوز "لن يحدث شيء. سأذهب وأعود مرة أخرى بسرعة". فذهب لاصطياد الأرانب وبعد ذهابه بفترة وجيزة أنجبت المرأة ثلاث بنات جميلات. ولكنهن تحولن إلى غربان. وطاروا من خلال فتحة المدخنة وارتفعوا إلى عنان السماء.

بعد ذلك ولد صبي وكان بشعاً جداً. كانت قدماه ملتويتين. وذراعه خلف ظهره وملتوية. كان يشبه ضفدعاً. ولا يمت للبشر بأي شبه.

وعندما رجع الرجل المسن إلى البيت. وبُخته الأمُ قائلة: "لم تبق في البيت. لقد طارت بناتنا الجميلات بعيداً. والآن خُذ هذا المخلوق المشوه. إنه يشبه الضفدع. إفعل به ما يحلو لك".

اعتنى الرجل المسن بالطفل. وخلال ثلاثة أيام تكلم الصبي وقال "غداً قبل شروق الشمس يجب أن تضعني في المهد. سوف أبكي وأبكي طوال الوقت. ويجب عليك أن تأرجح المهد. وكلما أرجحتني أكثر سوف أبكي أكثر. وعند شروق الشمس سيأتي رجلان. وسوف يسمعان بكائي

ويسألانك: ماذا لديك في هذا المهد؟ وستقول "لا نعلم إن كان طفلاً أو مخلوقاً قبيحاً. فساقاه ملتويتان للأعلى، ويداه ملتويتان خلف ظهره. هل تستطيع أ تحرر اليدين والقدمين وتعدل الذراعين والقدمين لنا؟ عندها سيأتون إلى المهد لينظرا إليّ، وفي تلك اللحظة سأضربهم بيدي وقدمي واقتل هذين الغريبين".

قبل شروق الشمس في الصباح التالي بدأ الصبي بالبكاء بشدة. فوضعه والده في المهد. وبدأ يهزه،

وتحدث إليه، وحاول تهدئته ولكن دون جدوى، فقد علا صوت بكائه أكثر وأكثر بعد ذلك. وقبل شروق الشمس وكما قال له سابقاً، دخل شايان إلى البيت وسألا:

ماذا لديك في هذا المهد؟ ولمَ لا يبقي لسانه في فمه؟

"لا نعلم إن كان طفلاً، لا نعرف ما هو عليه أو ما سيكون. هل تعلمان كيفية علاجه، أو تعديل ذراعيه؟

فقال الرجلان: "نعم نحن نعرف" فأعطى الرجل المسن والمرأة الطفل لهما. حينها بسط الطفل ذراعيه وساقيه وضرب الرجلين بقوة شديدة بحيث قذف الرجلين الغريبين أرضاً وسحقهما وقتلهما في الحال.

ثم قال الطفل للرجل المسن وأمه "غداً سوف أبكي وستحاولان إسكاتي وهزي والتحدث معي، وسيأتي شابان وسيسألان الأسئلة نفسها التي سألها الرجلان اليوم. وسأقتلهما كما قتلت هذين الاثنين اليوم".

في اليوم التالي جاء رجلان بالطريقة نفسها، وطرحا الأسئلة نفسها، وقتلا بالطريقة نفسها أيضاً. وبعد ذلك قال لهما الطفل «غداً ستأتي ستة أرواح خفية (شالموصات). سوف أبكي وتقومان بهزي وتهدئتي والتحدث معي ولكن سأستمر في البكاء، وعندما تدخل وتسأل «ما هي المشكلة مع طفلكما البائس هذا؟» ستقولان «آه لا نعلم، هناك مشكلة ما في لسانه إنه مغطى بالبثور. هل باستطاعتكم علاجه؟ وستقول «آه نعم، فقط أعطونا الطفل وسنقوم بعلاجه، وتضمانني في أيديهما».

جاءت الأرواح الخفية (الشالموصات) في هيئة رجال شباب، وسألوا الأسئلة نفسها، وكانوا على استعداد لمعالجة الطفل الباكي وأعطت الأم الطفل إلى قائد الشالموصات. فتح الطفل فمه، وأخرج الغريب لسانه فامسك الطفل به وسحبه بقوه واقتلعه من جذوره ثم ابتلعه. لم تستطع الروح

الشريرة قول أي شيء بل كل ما فعله هو التأوه وأعطى الطفل للشاملوص الثاني وحدث الشيء نفسه مع الثاني والثالث وهلم جراً حتى للشاملوص السادس والتي فقدت ألسنتها جميعاً ولم تستطع التفوه بكلمة وغادروا جميعاً وهم بُكم ووضعت المرأة الطفل في مهده.

وفي مساء اليوم التالي قال الطفل لأمه: «املئي زجاجة الحليب الخاصة بي بالحليب وضعيها في المهد عند شروق الشمس. واحملي المهد إلى جانب الطريق واتركيني هناك حتى غروب الشمس. وإلا لن أكون ابنك» في صباح اليوم التالي وُضع الطفل كما أراد على جانب الطريق. وفي منتصف النهار جاء غرابان قويان بمخالب ومناقير من حديد. وحط كل واحد منهما على جانب من المهد. وقبل أن ينزلا قالا لبعضهما البعض «إذا تركنا هذا الصبي سوف ينمو ليصبح قوياً جداً ويدمرنا. سنقتلع عينيه الاثنتين اليوم» فكر الصبي وقال لهما وهما يتجهان نحو المهد «آه» بهذين المنقارين سوف تلتهمان كل شيء. سآخذهما منكما وسأعطيكما منقارين مصنوعين من عظام «فسحب المنقارين الحديديين وتمنى لهما منقارين من عظم بدلاً منهما». ثم قال «بهذه المخالب ستنزعان وتمزقان كل شيء. سأعطيكما مخالب عظمية بدلاً منهما» فمزق مخالبهما وأعطاهما مخالب ومناقير تشبه ما لدى الغربان في وقتنا هذا. حلق الغربان بعيداً وهما صغيران وضئيلان وضعيفان.

عند الغروب أخذ الرجل المسن والمرأة الطفل إلى البيت. وأعطاهما توجيهات لتنفذيها مرة أخرى وبالطريقة بنفسها بالضبط. وفي اليوم الثاني تركوه على جانب الطريق وعلى بعد ثلاثة وديان كانت هناك بعوضة كبيرة بحجم العجل ولديها زبانة من العظم. حادة كالحربة وعظام ساقها قاسية كقوائم الخيل. ولديها قوة هائلة في جسمها الضخم.

قالت البعوضة: «آه» إن كبر ابن هذا الرجل المسن فأنه سيدمرني اليوم سوف أمتص دمه وأقتله».

طارت البعوضة فوق الوديان الثلاثة. وقفت فوق المهد وحاولت غرز زبانتها الهائلة في الطفل. أمسك الصبي الزبانة وحطم البعوضة إلى أجزاء صغيرة كالبعوض الذي نعرفه الآن. وأعطاها زبانة ضئيلة وأقدامًا رقيقة ورشيقة. فحلقت بعيداً بصوت منخفض واهن كما هو حالها اليوم.

وفي صباح اليوم التالي قال الصبي: «هناك حفل زفاف في بيت سازكاي بين خان. سيزوج سانغا غوهون ابنته إلى ابن شوريك ناجي هوبون. سأحضر ذلك الحفل. قالت الأم والأب «كيف

تستطيع أن تذهب. إنك طفل صغير. إنك لا تستطيع المشي بعيداً. «سيدوس الناس فوقك هناك حتى تموت».

أجاب الصبي: «ستتخذني ابنة الخان عريساً لها. يجب أن أذهب».

وطلب منهما أن يطوفاه بجلد الماعز وانطلق بعيداً وهو يزحف. وعندما أصبح بعيداً عن الأنظار دعا البوركانات الألف أن يرسلوا له فرسه، مع زي الوحش والفارس. فحضر الفرس على الفور. وكان طوله تسعين قامة والأجزاء الأخرى منه بالطول نفسه وكان السرج مصنوعاً من الفضة الناعمة وقماش السرج من الحرير. أما اللجام فمن الفضة. كان سروال الفارس من جلد الظبي والقبعة من فرو السمور. والحذاء من جلد السمك. والمعطف من الحرير والحزام من الفضة.

ارتدى جسير بوغدو زيه وركب فرسه وانطلق إلى منزل سيفاي باين خان.

وفي المساء رقص في حفل الزفاف في صالة الرقص. ولم يكن هناك شخص يضاهيه في الرشاقة أو الجمال. أعجب الكل به ورقص في الليلة الأولى بصورة رائعة. وفي الليلة الثانية رقص بطريقة لم يضاهه فيها أحد. وبعد ذلك بدأ يعير اهتمامه بالعروس. وفي الليلة الثانية وقعت العروس في غرامه. وطلب منها الذهاب معه. في منتصف الليل سرق سانفا جونو ووضعها على فرسه وانطلق نحو بيته. ولدى وصوله إلى الصخرة حيث كان يخفي جلد ماعزه. ترجل عن الفرس. وأنزل سانفا غوهان عن الفرس وأشار إلى البيت الذي يقطنه والداه وقال: «ذلك بيتي. انطلقي بسرعة. وسأتبعك حالاً». فعلت كما طلب وحرر فرسه. وارتدى جلد الماعز القديم وأصبح طفلاً صغيراً متعثراً مرة أخرى. وزحف نحو البيت.

عندما وصلت سانفا غوهان البيت ورأت المكان البائس انتحبت وبكت قائلة: «لماذا جئت إلى هذا المكان التعيس؟ لماذا أتيت. وأنا ابنة خان. تركت نجل خان وأتيت إلى هذا البؤس؟». وأعربت عن عزمها على العودة إلى والدها. في صباح اليوم التالي رحلت. سافرت النهار بأكمله حتى غروب الشمس. ولكن ما الذي شاهدته عند غروب الشمس. رأت نفسها في بيت الرجل المسن.

لقد احتجزت في البيت بتأثير السحر. كان ينبغي عليها أن تبقى هناك الليل بأكمله. لم تعرف شيئاً عن زواجها الجديد. لكن عندما خرجت من البيت لتهرب. رأت صبياً دخل من الباب متعثراً. واعتقدت أنه مجرد قنفذ قبيح وقذر ومغمور.

في صباح اليوم التالي حاولت الفرار مرة أخرى ولكن بعد سفر طوال اليوم وعند الغروب وجدت نفسها بالقرب من البيت البائس ذاته والمكان عينه الذي خرجت منه.

كررت المحاولة في اليومين الثالث والرابع. لكن في كل مساء كانت تجد نفسها بالقرب من البيت. إنها لم تستطع أن تفعل شيئاً، ولا يمكنها الهرب. استلقت بجانب الصبي لتنام، وخلصت بأن الصبي زوجها، ولكنه بهيئة أخرى.

وفي مساء اليوم الخامس ركعت أمام الصبي وقالت: «إرجع إلى هيئتك السابقة. إرجع إلى ذاتك الحقيقية».

وتوسلت ليومين كاملين قائلة: «لماذا تعذبني؟ إرجع وكن الشخص الذي رأيته أول مرة».

وفي صباح اليوم التاسع، وبعد ذهابها إلى النوم في ذلك البيت البائس، الفقير، استيقظت سانفا غوهان لترى نفسها في بيت من ثلاثة طوابق من الحجر الأبيض. كانت مستلقية على سرير من الذهب. وكل شيء رائع ووفير. وكان الصبي هناك أيضاً. ولكن بالرغم من كونه في قصر بدلاً من البيت البائس، إلاّ أنه لم يكن أكثر وسامة أو نظافة من قبل.

عندما استيقظت سانفا غوهون كان هناك ثلاثة وثلاثون بطلاً قوياً في الخارج، وثلاثة آلاف محارب وعدد غفير من الناس. يقفون أو يتجولون وتساءلت من أين لدى هذا المخلوق القبيح الشنيع كل هذا العظمة.

في مساء اليوم الثاني عشر وعند الذهاب إلى الفراش، قامت بربط سلك من الحرير حول كاحله من دون علمه. وعندما استيقظت في منتصف الليل، كان قد اختفى. واندهشت عندما رأت سلك الحرير الذي ربطته حول كاحله امتد من السرير إلى السقف. ذهبت إلى سطح البيت فرأت قوس قزح يمتد من سطح البيت إلى السماء لقد ذهب إلى السماء على ذلك الطيف، فتبعته.

لقد ذهب إلى ايسيج مولان لطلب المزيد من القوة والثروة. نظر ايسيج مولان إلى الأسفل وسأل غاضباً «من هذا الذي يتبعك؟».

نظر الصبي إلى الأسفل ورأى سانفا غوهون. عندما وصلت إلى السماء دفعها فانزلقت على طيف قوس قزح حتى وصلت إلى سطح البيت ذي الحجر الأبيض، ثم تبعها. كان ايسيج مولان غاضباً جداً بحيث سحب قوس قزح ووضعه على الأرض حيث لا يزال.

ومنذ ذلك الصباح لم يكن هناك قوس قزح في السماء.

كان الصبي غاضباً أيضاً. فسقط من السماء وبدأ يضرب عروسه. ضربها ثلاثة أيام

بلياليها قائلاً وهو يضربها «لو لم تتبعيني لكنت قد حصلت على كل ما أردت من ايسيج مالان كان سيعطيني كل ما بوسعه».

أمر أبطاله الثلاثة والثلاثين الأقوياء بقيادة ماشيته وخيوله إلى الماء. وعندما وصلوا إلى شاطئ البحر وجدوا هناك شجرة الحور الرجراج. فاقتلعوها من جذورها. فجاء مانغاثي من الحفر ولديه عشرة رؤوس وهو يقول: «سوف آكل كل واحد منكم. سوف ألتهم كل واحد منكم ! «انك لن تكسب شيئاً إذا أكلتنا. لو أكلتنا سوف يأتي سيدنا ويقتلك».

سأل مانغاثي «ما هي الأسلحة التي بحوزة سيدك» تسعة وتسعون سهماً وقوس أصفر كبير. وهناك خمس وتسعون قبضةً على القوس لتحميها والسهم يتمتع بقوة تستطيع قطع ليس رأسك فقط. ولكن أي رأس في هذا العالم. ولرأس السهم ثلاثة جوانب.

قال المانغاثي «دمروا هذه الأسلحة. سأخذكم لخدمتي. وسأعاملكم كالبوركانات. وستعيشون. ستعيشون بالطريقة نفسها التي أعيش فيها. أما إذا اتبعتم رئيسكم الحالي فستبقون دائماً رعاة ماشية».

فأجابه الرجال «سنعمل من أجلك» وذهبوا إلى البيت لقطع السهام وتدمير الأقواس حاولوا تفكيك الأوتار والمقابض ولكن لم يستطيعوا أن يصيبوا أحداً منهم بأي حال من الأحوال. ولم يستطع إلحاق الأذى بهم. ولكنهم رجعوا إلى المانغاثي وقالوا له إنهم دمروا الأسلحة.

ذهب المانغاثي للقتال مع جسير بوغدو. معتقداً أنه ما دامت أسلحته قد دمرت. فسيكون من السهولة بمكان قتله. في حوالي منتصف الليل بدأت الكلاب في بيت جسير بوغدو بالنباح. فقالت سانغا غوهون: «ربما جاء أحد ما ليحبسك أوليقتلك». قال جسير «اني لست خائفاً» «لا يمكن لأحد أن يلحق الأذى بأسلحتي. لا أحد يستطيع تدميري» كان يعلم بأن أبطاله الأقوياء حاولوا ولكنهم فشلوا في محاولتهم. وخرج للدفاع عن بيته. وظهر المانغاثي على بعد مسافة وكان راكباً فرساً هائلاً. ولكن عندما رأى جسير بوغدو جاهزاً ويلوح بأسلحته رجع ولاَذَ بالفرار. أرسل جسير سهمه وقال له "اذهب" "واقطع الذراع الأيمن لذلك المانغاثي وبعد ذلك اقطع كل رؤوسه".

فعل السهم ما أمر به. بعد ذلك حرق جسير جثمان المانغاثي ونثر رماده.

بعد ثلاثة أيام قدم الأبطال الثلاثة والثلاثون إلى جسير وكان جسير غاضباً وألقى اللوم عليهم. قالوا له بأن غال نورمان خان (رماد الثأر والنار) في حالة حرب وتوسلوا إليه بأن يسمح لهم بالذهاب للحرب معهم. ولكنه كان غير راغب في ذلك وقال لهم "يجب ألاّ تذهبوا إلى الحرب

في عام يعاني من سوء العشب وحوادث كبيرة" ألحوا عليه قائلين: " خذنا معك: خذنا حتى ولو لثلاثة أيام".. وعندما رفض جسير. أخذوا أربطة مصنوعة من الجلد وحبالا من الشعر وأعلنوا أنه من الأفضل أن يموتوا على أن يحرموا من متعة كهذه. وكانوا في طريقهم لشنق أنفسهم. عندها وعدهم جسير بالذهاب معهم. أرسلهم لجمع كل الأسلحة التي يمكن استخدامها في الحرب. وخلال ثلاثة أيام كان الأبطال الثلاثة والثلاثون والرجال الثلاثة آلاف قد تدججوا بالسلاح.

امتطى جسير بوغدو فرسه الرائع وذهب في زي الأبطال الذي أصبح يرتديه حالياً كل الوقت. كان الأبطال الثلاثة والثلاثون خائفين من غال نورمان الذي كانوا في طريقهم للقتال معه، لأنه لا ينام باستثناء لحظات قليلة قبل شروق الشمس. لذلك قرروا تسلق جبلٍ عالٍ والمراقبة من هناك.

تسلقوا الجبل وانتظروا لمعرفة إذا كان غال نورمان سيخرج على هيئة نار أو على هيئته الذاتية. كان منطلقاً في جنوب شرق البلاد. لكنه رآهم على الفور وبدأ يشرب التاراسان. وامتطى فرسه ذا اللون الذهبي الكستنائي واستخدم درعًا ومرافقين وانطلق مباشرةً إلى مكان جسير وسأله:

"هل أتيت لمحاربتي؟ فإذا كان الأمر كذلك فلنفعل ذلك رجلا أمام رجل".

رمى جسير بوغدو درعه. وترجل من حصانه. وبدأ بالمصارعة. لقد تصارعا ثلاثة أيام بلياليها. واشتبكا بطريقة وحشية بحيث اقتلعا بأيديهما كل اللحم من ظهر أحدهما الآخر. ومزقا بأسنانهما صدريهما.

وأخيراً بدأ غال نورمان بالسيطرة على جسير بوغدو. ثم انطلق اثنان من أبطال جسير الأقوياء إلى الأمام وأمسك أحدهما بساق غال نورمان اليمنى. فرفسه غال ودحرجه على الأرض وانقلب عدة مرات حتى وصل أسفل التل. بعد ذلك أمسك البطل الآخر بساق غال اليسرى فرفسه غال أيضاً وتدحرج وانقلب مرات عدة بالطريقة نفسها. ثم نادى جسير بوغدو الآلهة وطلب مساعدتهم. ولكنهم لم يساعدوه. كانوا غاضبين. لأن زوجته سانغا غوهون كانت قد تبعته باستخدام قوس قزح إلى السماء. ثم نادى جسير أخاه داشن شوهر الذي أتى في الحال. وقتل الاثنان غالاً. ووضعا جثمانه في برميل حديدي، ودحرجاه نحو البحر ثم ذهبا إلى بيت غال.

كان لدى غال نورمان زوجتان. رمى جسير بوغدو سهماً نحو البيت فأصاب الزوجة الصغيرة. فخرج من جسدها طفل صغير. صرخ الطفل: "لقد ولدت قبل ثلاثة أيام من موعدي" "لو عشت تسعة أيام أخرى لقهرت جسير بوغدو وأخاه داشن" وبدأ يهز رأسه.



فاسيا وأبوه والمؤلف

سأل دش أخاه جسير قائلاً: "لماذا قتلت تلك المرأة؟ كنت سأتخذها زوجة لي" فترك أخاه غاضباً وارتفع إلى السماء. وضع جسير الزوجة الكبرى في برميل مصنوع من الحديد ودحرج البرميل نحو البحر. ثم بنى فرناً، وأضرم فيه ناراً. ووضع الطفل في النار. في صباح اليوم التالي عندما ذهب إلى الفرن وجد الصبي يلعب بجمر محترق. صرخ الطفل "آه يا أبي. يا له من مكان دافئ ولطيف هذا الذي وضعتني فيه".

في الليلة الثانية أضرم جسير ناراً أكبر ووضع الطفل فيه. في صباح اليوم التالي رأى الطفل مرة أخرى يلعب بالجمر المحترق. في الليلة الثالثة راقب الطفل ورأى أن أنبوباً أحمر وآخر أخضر ينزلان من السماء إلى سرته. ورفعا الطفل إلى الأعلى، وتدفق جدول ماء سقط عليه. أخذ بوغدو سهمه وأطلقه على الأنبوب وقطعه. ثم أضرم ناراً كبيرة وأحرق الطفل ليصبح رماداً.

أخذ بوغدو كل قطعان الماشية كلها، وكل الناس، وجميع الكنوز، ودمر مكان غال نورمان. عندما جلب الناس إلى منطقته، ليعيشوا فيها، بني لهم بيوتاً، ثم ذهب إلى بيته ذي الحجر الأبيض واستلقى هناك لينام. ولكن قال لسانغا غوغون أولاً "في حالة الخطر، إذا لم تستطيعي أن توقظيني من النوم خذي سيفي واطعنيني في فخذي الأيمن. وإذا فشل ذلك في إيقاظي فاطعنيني في كاحلي الأيسر وإذا فشل ذلك في إيقاظي فضعي قطرة من ماء الينابيع الباردة في أذني اليمنى".

ذهب للنوم، وبعد ذلك بوقت قصير ظهر مانغاثاي بسبعة عشر رأساً وهو أخو المانغاثي ذي الرؤوس العشرة الذي كان جسير قد قتله. بدأت الكلاب بالنباح، واستيقظ الحرس ونهض الأبطال الثلاثة والثلاثون وأحدثوا ضجة كبيرة. خافت سانغا غوغون، وحاولت إيقاظ زوجها. كانت في طريقها لتطعنه في عقب قدمه، ولكن قالت في سرها "إذا فعلت ذلك، فسوف أجرحه، وكيف سيتمكن من القتال؟ وإذا طعنته في فخذه سيتدفق الدم، وهو بحاجة إلى القوة ليقاتل! وإذا وضعت الماء في أذنه، فسيجري الماء من أذنه إلى رأسه وهذا يجعله أحمق، ولن يتبقى له عقل، فكيف يحارب عندئذ؟".

لم تفعل أيًا من الأمور الثلاثة. ولكنها بدأت بالبكاء. بكت طوال اليوم. بكت بمرارة. وفي الليل عندما حاولت مسح دموعها سقطت دمعة واحدة سهواً في أذن جسير. أيقظته الدمعة في الحال. كان خائفاً وانطلق. وقبل أن يستفيق جيداً. انتزع أسلحته وسارع إلى الفناء. كان المانغاثي هناك ونادى مخاطباً جسير:

"اذهب إلى ذلك الجبل في الشمال الغربي. وسأذهب أنا إلى ذلك الواقع في الجنوب الشرقي. وسنقذف الفؤوس أحدنا على الآخر."

وافق جسير. وقال المانغاثي "سأقذف بفأسي أولاً."

قال جسير بوغدو "لا. لقد ولدتُ هنا. فيجب أن اكون أول من يرمي".

قال المانغاثي "لا. أنت قتلت أخي. يجب أن أكون أول من يرمي!" فرمى فأسه بعيداً وطار بحركة دائرية نحو الجبل المقابل.

توجه الفأس مباشرة نحو رأس جسير وكان سيقطع رأسه بالتأكيد ولكن في اللحظة المناسبة حول نفسه إلى حجر. ارتطم الفأس بالحجر ولكن لم يثقبه أو يترك فيه أثراً – جهز جسير نفسه. وتناول أحسن سهامه وقال:

"حلق عالياً. يا سهمي! واكسر العمود الفقري الكائن تحت عنق المانغاثي. وحطم ساعده الأيمن. وادخل بعدها إلى صدره وقلبه ورئتيه وقطعها إلى قطع صغيرة. وعد إليّ".

همس بقوة جبارة في السهم بحيث ظهرت نار حمراء على القوس جراء السحر في موضع تلاقي السهم بالقوس. وجرى لهب أزرق على وتر السهم كله. لوى القوس إلى أبعد حد. وسحبه إلى أن كوّن نصف دائرة ومن ثم تركه ينطلق. توجه السهم مباشرة إلى المانغاثي وأصاب عموده الفقري أسفل الرقبة. ثم كسر ذراعه الأيمن ثم دخل في الجانب الأيسر من جسده وقطع القلب والرئتين إلى قطع صغيرة. ثم قتله. وعاد جسير بوغدو وصفيره يعلو ومن ثم استقر في كنانته.

في تلك اللحظة صرخ حصان مانغاثاي منادياً جسير "لقد قتلت سيدي ولكنك لن تستطيع قتلي أبداً. اتمنى أن يتحول جسمي إلى قطع صغيرة قبل أن أستسلم لك!" ثم اندفع بعيداً إلى الجنوب الغربي فنادى جسير فرسه قائلاً "أين أنت أيها الفرس الأزرق. الذي يبلغ طوله تسعاً وتسعين قامة؟".

وفي اللحظة التي ظهر فيها الحصان. امتطاه جسير بدون سرج. وقال للحصان "لن أدع

فرس المانفاثي يعبر خمسة وديان. قبل أن أقضم العضلات القوية في الجزء الخلفي من ساقه. ولن يعبر ستة وديان حتى أشكمه بلجامي".

جرى بكل قوته ولحق بحصان المانفاثي بالقرب من الوادي الخامس. ولكنه عضه في عصب ساقه القوي. وفي الوادي السادس قبض عليه وشكم لجامه.

وهنا قال جسير بوغدو

"لقد قتلتُ بطلاً كبيراً حينما قتلت المانفاثي. سأرسل له حصانه. وبذا سيكون لديه بهيمة جيدة ليمتطيها في العالم الآخر".

أخذ الحصان إلى حيث قتل المانفاثي. وهناك قتل الحيوان. والتقط الجبل وانتزعه ثم وضعه على جثتي المانفاثي والحصان. بعد ذلك عاد إلى البيت.

قال لزوجته "إ ذا غفوت. أوقظيني كما فعلتِ في السابق". ثم قال للأبطال الأقوياء الثلاثة والثلاثين والرجال البالغ عددهم ثلاثة آلاف رجل "هناك العديد من المانفاثيين. وسيأتون. فدافعوا عن ممتلكاتي. تجولوا وراقبوا ولكن لا تذهبوا فُرادى. بل مَثْنَى. أو ثُلاثَ. فإذا أكل أحد منكم. سيكون هناك آخرون يدافعون عن أنفسهم وآخرون سيأتون لمساعدتهم".

مرة أخرى نام. ولكن رجاله بدأوا يلهون باللعب عوضاً عن الحراسة. في تلك الأثناء جاء مانفاثي بسبعة وعشرين رأساً. علم جسير ذلك بسحره. واستيقظ من تلقاء نفسه. دون أن يقول شيئاً لزوجته وذهب إلى أحد الجبال في الجنوب الشرقي من البلاد. ومن هناك راقب المانفاثي ورأى أنه ذهب إلى شاطئ البحر حيث كانوا قد اقتلعوا شجرة الحور الرجراج ذات الأوراق الفضية واستقروا في حفرة هناك.

راقب جسير وانتظر الليل بكامله. ومع بزوغ الفجر دفع المانفاثي برؤوسه إلى الأعلى من خلال الثقب لينظر حوله. في تلك اللحظة رمى جسير سهمه وقطع رؤوس المانفاثي البالغ عددها سبعة وعشرين. وصاح جواد المانفاثي كما فعل الجواد الأول. وعومل بالطريقة نفسها. حيث قتل ودفن مع سيده تحت الجبل. رجع جسير إلى البيت ممتطياً صهوة جواده وقال لزوجته سانفا غوهون "لم يحرس أبطالي ورجالي ممتلكاتي بعناية. لقد نسوا فهل تستطيعين أنت مراقبة ممتلكاتي وحراستها؟".

بعد ثلاثة أيام جاء مانفاثاي إلى فناء المنزل. نظرت زوجة جسير حولها ورأته وقالت

لنفسها "إذا خرج زوجي للقتال وتعرض للضرب عندها ستجثم الكلاب مرتعدة. وإذا ضربهم هو. فالكلاب سترفع ذيولها وتصبح شجاعة". ولكنها بدأت تبكي مرة أخرى. وكانت تخشى أن توقظ جسير بوغود. وأخيراً سقطت دمعة من عينها في أذنه اليُمْنَى وأيقظته.

علم الفرس بوجود المانغاثي وجاء من الخلاء. فامتطى جسير الفرس وانطلق نحو التل وصاح بالمانغاثي قائلاً:

"كيف نحارب. يداً بيد أم بالأسلحة".

فقال المانغاثي "دعنا نتصارع". وقاد جواده للقاء جسير.

ترجل الرجلان من فرسيهما ودنا أحدهما من الآخر وأمسكا رأسيهما مثل ثورين. وقاتلا بضراوة شديدة بحيث إن كل منهما مزق اللحم من ظهر الآخر بيديهما ومزقا اللحم من صدريهما بالأسنان. حاربا يومين كاملين.

كان المانغاثي حينها قد فقد كل اللحم من ظهره وصدره. فعصره جسير وهو كتلة من العظام. وما كان داخله يصرخ كالماعز ويَئِنّ كالطفل. ومات أخيراً.

كان جسير مرهقاً إلى حد بعيد بعد قتل المانغاثي ذي السبعة والعشرين رأساً. فقال لسانغا غوهون "لا بد لي أن أنام الآن. يجب أن أنام تسعة أيام بلياليها. قومي بحراسة البيت ولا تنامي. وقومي بإيقاظي كما فعلت سابقاً"[**].

نام جسير ثلاثة أيام بلياليها. وبعد ذلك ظهر مانغاثي بسبعة وسبعين رأساً وكان حذراً في البداية أكثر من غيره من المانغاثيين. لأن اخوته قد قتلوا. وراقب الوضع عنْ كثب وهو واقف على الجبل.

عندما رأت سانغا غوهون المانغاثي الجديد ارتعبت ووكزت زوجها ولكنها لم توقظه. كان جسير يرى في حلمه بأن مانغاثياً قد أتى وهو موجود على أرضه.

حاولت سانغا غوهون مرة أخرى إيقاظه. وحاولت وخزه في كعبه. لكنها لم تكن تمتلك الشجاعة لفعل ذلك فانتظرت يومين. بعد خمسة أيام سحبت ذراع جسير وأيقظته من النوم. استيقظ بسهولة لأنه كان يحلم.

** هنا قال الراوي: «إن قصة جسير بوغدو هي أصل القصص في العالم جميعاً وهي ليست جميلة ولكنها أعظم من الكل. وهي حقيقية».

صرخ جسير "ما الأمر؟ " وقفز من مكانه. نظر إلى الخارج ورأى مانغاثاي على الجبل قال جسير " ما دام حل بأرضي ينبغي ألا أتركه هناك". لذا أخذ فرسه وسلاحه وخرج ليقابل المانغاثي وعندما وصل إلى قمة الجبل سأله:

"كيف تريد أن نقاتل؟ مصارعة بالأيدي أو بسرعة السهام؟". واتفق الاثنان على الجري إلى الجبال المقابلة. هرع جسير إلى الجبل الواقع في الجنوب الشرقي وهرع المانغاثي إلى الجبل الواقع في الشمال الغربي والشخص الذي يصل إلى جبله أولاً سيرمي السهم في البداية. كان جسير واقفاً على قمة جبله عندما كان المانغاثي على بعد خطوات من الجبل الواقف عليه. رمى سهمه فانطلق السهم مباشرة إلى المانغاثي، ودخل إلى جنبه ومزق قلبه، وكسر ذراعه والعمود الفقري وقتله.

أحرق جسير جثة المانغاثي وأحرق حصانه وذهب إلى البيت، وفي هذه المرة لم يكن بحاجة إلى النوم لأنه لم يكن تعباً.

ولم يكد يصل إلى بيته ذي الحجر الأبيض حتى هرع مانغاثي إلى باحة منزله. وقال لجسير "أنت قتلت أشقائي الكبار! أخرج الآن حالاً وقابلني". فقال جسير "إذهب إلى السهوب الفسيحة، حيث أشجار الصنوبر والبالغ عددها خمسين شجرة، وسأقابلك هناك".

ذهب المانغاثي إلى أشجار الصنوبر الخمسين. وقتل اثنين من الغزلان الرائعة، ذكراً وأنثى، ووضعهما على السفود وقام بِشَيِّهِمَا على نار هائلة. وعندما وصل جسير فجأة، أخذ أحد السفودين وجلس على الأرض وبدأ يأكل. هرع اليه المانغاثي واندفع نحوه بفأس. حيث حوّل جسير نفسه إلى صخرة. ضرب المانغاثي الصخرة إلى أن تعب، ولكن لم يترك أي أثر على الصخرة البيضاء الصلبة.

وافق جسير على الاسم، واعطى الرجل المسن عظم الثور وثلاثة غالونات من شراب التاراسان وعندما حان وقت رجوعه أرسل معه رجلاً وثلاثة من الخيول ليعود إلى بلاده بفخر وشرف.

وقالت أم جسير لولدها " يجب أن تبقى في المنزل مدة خمسة أشهر ولا تغادرِه".

وعندما بلغ الطفل خمسة أشهر بدأ بالمشي. قال جسير " الآن سأمتطي فرسي وأسافر في جميع أرجاء العالم، وأرى ما يحدث". بدأ رحلته وخلال اثنتي عشرة سنة تجول كل مكان، ذهب إلى منزل غال تولان ثانجيري (السماء الحمراء النارية) ووقع في غرام ابنته غال الجميلة. وعند سفره قال لها " سأعود قريباً وسآخذك إلى البيت واتخذك زوجة ثانية".

"من أنت؟" سأل أشير جسير عندما جاء والده إلى البيت. "هل أنت إنسان شرير أو إنسان صالح؟ هل أتيت بنية الخير أو الشر؟".

جاءت سانفا غوغون. وتعرفت على جسير وقالت: "هذا والدك : الذي رجع إلينا بعد أن تجول حول العالم مدة اثنتي عشرة سنة ". عندما سمع أشير كلماتها حضن أباه وقاده إلى البيت. قدمت سانفا غوهون كل ماكان في البيت من طعام وشراب ولحم والكثير من شراب التاراسان وأكل الثلاثة الطعام معاً.

وفي المساء اضطجع جسير لينام على جلد القندس وغطاء من جلد السمور الأسود. ثم أخبر سانفا غوهون كيف أنه شاهد ابنة غال تولان وأنه أراد أن يتخذها زوجةً ثانية وأضاف: "لن تجلب لك المتاعب. وأرجو أن يكون لي أكبر عدد من الأبناء".

"هل تعتقد إنني مسنة ؟ إنني لست كذلك. لماذا تتزوج بامرأة ثانية ؟ لدينا ابن. أتوسل إليك لا تتزوجها".

قال جسير: "لقد تزوجتك عندما كنت شاباً" لقد خدعتك وأتيت بك إلى البيت. لذا تزوجتك. ولكن عندما اتخذت هيئتي الحالية أمرت أن يكون لي زوجتان. الأولى أنت والثانية هي تلك التي أخبرتك عنها".

تشاجر مع سانفا غوهون ثلاثة أيام. ولكنها تمسكت برأيها ولم توافق. ثم قال "لن أطلب موافقتك مرة أخرى. سأذهب وأجلبها معي. وإذا لم أفعل سأموت غداً أو بعد غد". فقالت سانفا غوهون "إنني آسفة لأجلك". اجلبها! اجلبها ! لا تجلبها! إفعل ما يحلو لك".

جهّز نفسه وركب حصانه كما فعل في السابق. وانطلق إلى مملكة غال تولان تانجيري.

انطلق بفرسه ليلاً ونهاراً. وأخيراً وصل إلى ساحة من البرونز والفضة لم يجلس عليها بشر سابقاً.

وفي تلك الساحة ينبع جدول أسود بسواد الكبد. ولم يشرب حصان من ذلك الجدول. سقى جسير حصانه هناك. ثم جلس وأخذ غليونه الفضي وملأه بالتبغ ونادى على ألف من اليوركان من السماء. وأضرم النار في غليونه بالقداح وبدأ بالتدخين. وعندما نفث الدخان كان يهدر خارجاً كعاصفة من الريح. ولكن عندما فتح فمه وسمح للدخان بالخروج كان يخرج بصمت. دخن بهاتين الطريقتين.

وبعد أن انتهى جسير من التدخين وضع غليونه جانباً وسافر باتجاه الشمال الشرقي.

وعندما سحب الرسن جرحت الشكيمة فم الحصان وبدأ الدم يتدفق منه. وعندما ضرب الحصان بسوطه وصل السوط إلى العظم. فاندفع الحصان بكل قوته وبسرعة كبيرة حتى وصل أخيراً إلى الجبل الذي يدعى تقين أوندور هادا.

ثم سأل حصانه "حسناً. ماذا لديك من مهارات؟".

فأجابه الحصان "ماذا لديّ من مهارات؟ أستطيع أن أقفز إلى أعلى هذا الجبل".

"إذا رجعت مدة رحلة يوم، مع سرعتي الكبيرة أستطيع الصعود إلى القمة. وإذا فشلت في القفز إلى الجبل وسقطت فسنموت نحن الاثنين".

ذهب جسير إلى أسفل الجبل ورأى أكواماً هائلة من العظام هناك وهي عظام رجال وخيول. أخذ عظم فخذ رجل وقاسه على عظم ساقه، فكانت العظمة بطول ساقه بأكمله. ثم أخذ عظمة فخذ تعود إلى فرس وقاسها على عظم فرسه، فكانت بطول عظم قائمة الفرس بأكمله. ثم قال:

"إن لقي هؤلاء الأقوياء حتفهم، فنحن فاشلون بالتأكيد، فلنبك على مصيرنا!".

بكى الفارس وحصانه مدة ثلاثة أيام بلياليها، بعد ذلك عاد جسير بوغد وقام برحلة في يوم واحد ثم استراح. حينها اندفع الحصان بقوة نحو الجبل، وارتفع بقفزة هائلة ولكن لم يصل إلى قمة الجبل، فقد وصلت قائمتاه الأماميتان فقط إلى أعلى حافة في الجبل وتدلى هناك، متمسكاً بحوافره ثم بحوافره وأسنانه.

وصرخ "الآن يا سيدي، أنقذني إن كنت تستطيع، أو اقتلني إن كانت تلك رغبتك".

قفز بوغدو من هيكل سرجه من فوق رأس الحصان ووصل إلى القمة، بعد ذلك سحب حصانه إلى الأعلى من لجامه القوي واستلقى الاثنان هناك على قمة الجبل مدة أربع وعشرين ساعة دون حراك. وعندما أفاقا نظرا حولهما وشاهدا جدولاً بالقرب منهما، ففي ذلك الجدول كان ماء الحياة والشباب الذي تدفق من أسفل شجرة الحور ذات الجذع الذهبي والأوراق الفضية، وتدلى كأس من أحد أغصان الشجرة.

أخذ جسير ورقة من الأوراق الفضية من الشجرة الذهبية وأكلها، ثم أعطى واحدة من الأوراق الفضية إلى فرسه. ثم شرب كأساً من الماء وأعطى آخر لفرسه.

نزع السرج من فوق فرسه بصعوبة بالغة، حيث إن السرج كان قد تثبت بقماش السرج، والقماش قد التصق بدوره وأصبح وكأنه جزء لا يتجزأ من جسم الفرس.

ربط جسير وثاق فرسه، وقاده إلى الخارج ليرعى. وفي تلك اللحظة مر أيّل وأيّلة. أخذ جسير قوسه الأسود وسهمه القوي وقتل كليهما. ثم قام بسلخهما ووضع الأيلة على سيخ في شجرة الصنوبر. ووضع الأيّل على جذع شجرة الأرس. ثم اضطجع لينام. ونام ثلاثة أيام بلياليها.

عندما استيقظ جسير رأى أن فرسه قد أصبح سميناً وجميلاً أكثر بكثير من ذي قبل. وهو نفسه قد تحسن إلى حد بعيد. كان هذا التغير بسبب أكل ورقة شجرة الحور الفضية وشرب ماء الحياة.

جلس جسير وأكل الأيّلين. ومضغ اللحم والعظم وكل ما وجده.

جرّد اللحم من العظام في فمه وتخلص من العظام وطرحها من خلال منخريه. وعندما انتهى من تناول الطعام حوّل فرسه إلى حجرا صوّان ووضعه في جيبه. ثم حوّل نفسه إلى خان هيزديك شويون (النسر) وطار نحو مملكة غال تولان تانجيري. حيث رأى بيت الخان معلقاً ما بين السماء الفائمة والسماء الأولى.

عندما وصل جسير إلى البيت، وجد البيت بدون أبواب. لذا صلّى ثلاثة أيام بلياليها، وهو يدور في طريق الشمس (باتجاه الشمس).

وكان أمام بيت غال تولان شجرة من الضخامة بحيث لا يمكن لفارس على أسرع حصان أن يدور حولها يوماً كاملاً لينهي دورة واحدة حول الشجرة. وعلى أغصانها تغرد الآلاف من الطيور السماوية، وتتدلى من فروعها حكمة الوجود المكتوبة، وكذلك أديان الشعوب جميعها.

وبعد أن دار حول البيت باتجاه الشمس مدة ثلاثة أيام، وهو يصلي للبوركان. فتحت أبواب البيت من تلقاء نفسها من الجانب الغربي ودخل جسير البيت.

كانت الغرف داخل البيت دون أبواب وكذلك الجدران الخارجية للمنزل. صلّى جسير يوماً واحداً وليلة واحدة، ففتح بابان وخرج منهما غال تولان تانجيري.

رحب بعضهما ببعض، ودعا غال جسير بوغدو للجلوس. وأعطى الأوامر بجلب الحليب لجسير. وعندما أراد أن يشرب، قال له غال " من أين أتيت يا فأر الأرض الأسود؟ ".

فأجابه جسير. إنني لست فأراً أرضياً أسود لقد خلقني البوركان السماويون الألف، فأنا الابن الأصغر للخان تايورماس، والابن الأكبر لتانجيرين والبالغ عددهم خمسة وخمسين. لقد أتيت لأن والدي ووالدك سكبا الخمر لبعضهما البعض في قدح أحمر، وتبادلا المفصل الثامن للساق الأيمن للثور في عهد اتفقا فيه على أن يتزوج ابن أحدهما ابنة الآخر".

فقال غال "لا يحتاج اللحم الطري إلى سكين. والكلمات الصادقة لا تحتاج إلى طريق. قدم لي كتابك وسأرى بنفسي إذا كان مدوناً فيه ما تبادل آباؤنا من كؤوس الشراب الأحمر ومفصل قدم الثور واتفاقهما".

قدم جسير الكتاب وقرأه غال مدة ثلاثة أيام ووجد فيه كل كلمة قالها جسير.

وقال له غال "الآن بعد أن استضفتك وقرأت الكتاب، اتضح إنك كنت صادقاً فيما قلت".

سأزوجك ابنتي. ولكن أذهب لتراها أولاً. إنها في الغرفة السابعة والسبعين. وإن وافقت سيكون حينها كل شي على ما يرام".

وقبل الغروب بقليل ذهب جسير إلى ابنة غال. وبعد ذلك بقليل رأى نفسه في الغرفة السابعة والسبعين. وأدى التحية بسرعة. بعدها جلبت أطباقاً متنوعة من الحليب الحلو، والحثرة، وقشطة الحليب المغلي. تناولا الطعام بشهية ومن ثم توقفا عن تناول الطعام.

في تلك الليلة كانت المخدات على سريره مصنوعة من فرو القضاعة. والسرير نفسه كان من فرو القضاعة واللحاف كان مصنوعاً من جلد السمور الأسود وكان ناعماً للغاية بنعومة رئتي حيوان ما. في صباح اليوم التالي عندما أشرقت الشمس وأصبح نصف دائرتها فوق الأرض، قفز جسير من مخدعه على صوت غال تولان وهو يصرخ: "هل تشعر بالأسى لترك السرير الناعم؟ إن اللحم الطري لا يحتاج إلى سكين. والكلمات الصادقة لا تحتاج إلى طريق. "إن عروسي تكلمت كثيراً بحيث إن الوقت مر دون أن نشعر. وأصبحت الشمس في كبد السماء. عندما عقد أبوانا الاتفاق، ماذا كانت الشروط ؟".

"كان على والدك أن يعطي ما مقداره حمل عربة من الذهب وأسلحة ودروع محارب".

توجه جسير ذلك اليوم غرباً إلى منطقة الخمسة والخمسين تانجيراً. ذهب أولاً إلى حدّادي السماء السبعة. كان عليهم صنع الأسلحة والدروع المناسبة لمحارب. وقال لهم بأنه وعد غال أن تكون الأسلحة والدروع جاهزة خلال ثلاثة أيام. استغرقت رحلته إلى الحدادين يوماً واحداً وليلة واحدة.

ذهب جسير إلى والده وقال له بأن غان تولان منحه ثلاثة أيام للحصول على الذهب. كان الذهب لدى خان تورماس. وأعطاها لجسير. لضيق الوقت ولأنه كان على عجل من أمره، أقتلع جسير شجره من جذورها. وربط جذور الشجرة بذيل حصانه ثم قال للرجل الذي يحمل الذهب.

"اتبع مسار هذه الشجرة وسوف تعلم الطريق الذي سوف أسلكه".

تأخر وصول بوغدو مع أسلحته. لم يذكر الوقت الذي ينبغي فيه تسليم الذهب. فسأله غال "لماذا تأخرت؟" فأجاب جسير "لأن حدادي السماء تأخروا، وتطلب صنع الأسلحة وقتاً كثيراً".

تلقى غال الدروع والأسلحة. ثم سأل "أين الذهب؟ إذا بدأنا مراسيم الزفاف فربما ستخدعني".

فأجاب جسير "إن الزفاف سيستمر أكثر من يوم واحد. وسيكون الذهب هنا قبل انتهائه".

دعا غال تولان البوركان البالغ عددهم ألف رجل فأكل رجال البوركان وشربوا ورقصوا تسعة أيام.

كانت هنالك أكوام من اللحم وبحيرات من التاراسان. رقص الجميع. وسقط الكثيرون ثمالى. وأخيراً وصل حمل الذهب وأخذه غال والد زوجة جسير.

وفي اليوم التاسع قال جسير "حان وقت الذهاب إلى البيت" وافق غال تولان على ذلك. ووضع السرج على فرس جسير، وجهزوا فرساً للعروس. كان طول قامتها تسعاً وتسعين قامة "وارتفاع أذنيها تساوي طول تِسْع أذرع". كانت فرساً كميتاً، وعلى جبينها نجمة.

ثم سألت العروس عن هدية والدتها. فكانت هديتها زَوْجَيْ مقص ذهبي. ثم سألت أخاها، فأعطاها قدحاً سحرياً فضياً. وكان للقدح السحري قوة هائلة بحيث إذا حملته بيدها اليمنى ودفعته نحوها اجتاح كل شيء على بعد ثلاثين فرسخاً وتبعها.

ركبا فرسيهما، قال جسير بوغدو "الآن، ليتبعني كل الضيوف". ثم اقتلع شجرة صغيرة وربطها بذيل حصانه.

وقال "اتبعوا ذلك الطريق".

أمسكت العروس القدح السحري بيدها اليمنى، ولوحت به ثم قالت:

"كل من هو موجود هنا ينبغي أن يتبعنا". فتبعها أبواها والبيت وكل من كان هناك. تقدم جسير وزوجته المسير ولم تنظر إلى الوراء حتى ناداها أبوها قائلاً: "انظري حولك يا ابنتي لتشاهدي ما يحدث".

تظاهرت أنها لم تسمع واستمرت في رحلتها. ناداها الأب كرة ثانية وثالثة وقال " فقط انظري حولك!".

نظرت فوق كتفها نظرة ثاقبة. وفي تلك اللحظة رأت أن ثلث عدد الناس الذين كانوا يتبعونها فقط قد تبقى".

فقال أبوها بعد فترة وجيزة "يا ابنتي لقد احترق كل شيء! هل من الممكن أن تسمحي لوالدك ووالدتك أن يحترقا؟".

كانت العروس خائفة جداً من كلام أبيها. ونظرت فوق كتفها. وفي تلك اللحظة لم يبق مِن مَن كان يتبعها إلا الثلث الأخير من الناس.

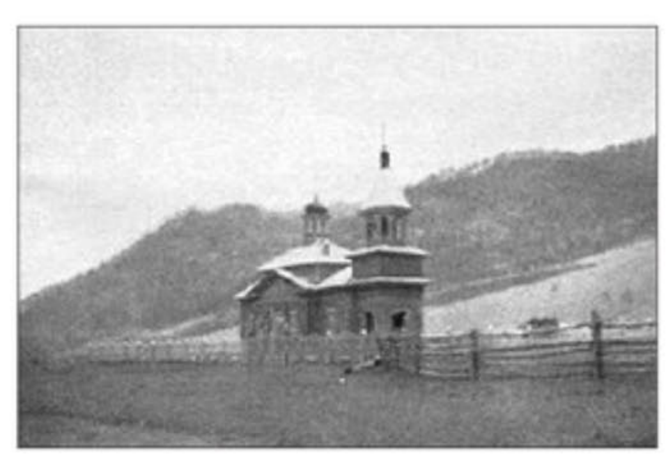


وقود جاف، روث البقر، جزيرة أولخون

لقد سافروا إلى أعالي السماء حتى وصلوا فوق الجبل حيث ماء الشباب والحياة وشجرة الحور الرجراج ذات الجذع الذهبي والأغصان الفضية.

وكان والد عروس جسير قد أعطاه سلماً من الفضة. ومن هذا السلم نزلوا من السماء إلى الجبل. كان السلم بمنزلة شعاع من أشعة الشمس. نزل الجميع، الناس والمواشي والقطعان. ثم ذهبوا إلى منزل جسير الكبير المبني من الحجر الأبيض. كانت زوجته وابنه ينتظران. وكان اشير بوغدوقد بلغ من العمر الآن ما يؤهله للزواج فقال لوالده "هل هذه هي العروس التي جلبتها لي؟".

فقال جسير "كلا إنها لنفسي. إنك ما زلت شاباً ولديك الوقت الكافي".



كنيسة بالقرب من محطة توقف في الطريق إلى بحيرة بيكال وهو الموضع الذي أسميته راغانز

بعد ثلاثة أيام جاء الناس وشاهدوا أن لجسير وليمة زفاف أخرى استمرت تسعة أيام بلياليها، وتناولوا جبالاً من اللحم وبحراً من الشراب. في اليوم العاشر أعاد الضيوف إلى ديارهم، وبقيت عنده الماشية.

استمتع جسير وزوجته الشابة باليوم الأول والليلة الأولى، ولكن في الأمسية الثانية تشاجرت الزوجة الأولى مع زوجها وعروسه ووبختهما.

في صباح اليوم التالي قالت الزوجة الشابة: "لا أستطيع العيش هكذا، وأفضّل أن أعيش مع المانغاثي ذي مائة وتسعة رؤوس على أن أعيش معك في هذا البيت. ابقَ مع زوجتك الأولى، سأذهب أنا إلى المانغاثي".

توسل جسير إليها قائلاً: "كان ينبغي أن أتزوجك أولاً، حيث كان ذلك الاتفاق بين أبوينا، ولكنني كنت صغيراً. اركعي لزوجتي الأولى وابق معي".

فقالت " أعدك بأن أبقى وأكون زوجتك إذا تحولت إلى حصان يبلغ ست سنوات، وأن ترعى الحشيش في الحقل هناك".

استجاب جسير لطلبها، لأنه كان يحبها كثيراً وحول نفسه إلى حصان أصفر وتوجه خارجاً إلى الحقل ليرعى. ثم بدأت العروس تمارس سحرها. أنشدت ترنيمة وتضرعت فيها بأن يبقى جسير حصاناً ويجر محراثاً ما دام يعيش المانغاثي ذو المائة والتّسْعَة رؤوس. وترنمت "إن جسير بين يدي، تعالى هنا أيها المانغاثي ذو المائة وتسعة رؤوس"، ووصل صوتها إلى المانغاثي.

ظهر المانغاثي في تلك الليلة وكان ممتطياً صهوة جواده الأسود الشنيع. كان جسير حينها في الحقل يرعى الحشيش كغيره من الخيول، وكانت إحدى قائمتيه الأماميتين مربوطة بوتد.

قفزت زوجه جسير الشابة واسمها آفا وفتحت الباب وسمحت للمانغاثي بالدخول. وقدمت له كل ما طلب من طعام وشراب.

سألها وهو يتناول الطعام " أين زوجك ؟ ".

فأجابته "إنه في الحقل يقضم الحشيش. سوف تحرث الأرض كل يوم معه. وتضعه كل ليلة في إصطبل حديدي دون نوافذ أو مخارج غير الباب. حتى لا يتمكن من الفرار منك أبداً".

في صباح اليوم التالي نهض مانغاثي وبدأ بالحراثة.

حرث اليوم بأكمله مع جسير بوغدو. ثم ربطه في الإصطبل الحديدي وأغلق الباب بإحكام.

غادرت سانغاغوهون مع ابنها البيت وتوجها إلى الجنوب الغربي نحو الجبل الأحمر. هنالك صنع الولد صندوقاً من لحاء الخشب ووضع والدته بداخله. رفع الجبل ووضع الصندوق تحته ثم حول نفسه صقراً وحلق بعيداً إلى جده الخان تايرماس. وعندما أبلغ جده بكل المتاعب. قال له الجد: سوف استدعي البوركان السماويين والبالغ عددهم ألفاً ليجتمعوا على دولان آودوم (الدب الكبير).

منذ قدوم المانغاثي إلى بيت جيسر وإلى تجمع البوركان السماويين مضت تسعة أشهر. وكان كل يوم يحرث جسير الحقل. ويسوقه المانغاثي ذو الرؤوس المائة والتسعة. والذي استقر في بيت جسير وعاش مع زوجته الشابة ألفا.

ثم خاطب أشير البوركانات الألف قائلاً "لقد صنعتم بطلاً. وهل خلقتموه ليحرث الأرض للمانغاثي؟".

نظر البوركانات إلى الأسفل من السماء وشاهدوا أن المانغاثي ذو المئة والتسعة رؤوس يحرث الأرض. وقد اتخذ جسير بوغدو حصاناً له. وكان المانغاثي يحمل هراوة كبيرة في يده. يلهب بها ظهر البطل ليعمل بسرعة أكبر في حرث الأرض.

تشاور البوركانات مع دولون أودون تسعة أيام وأخيراً قرروا أن يصنعوا بطلاً حديدياً. صنع حدادو السماء هذا البطل. كانوا يطرقونه كل يوم من الأيام التسعة. وفيما كانوا يفعلون ذلك كانوا ينشدون هذه الكلمات: "نتمنى ألاّ يسحقك رجل ذو إبهام. ونتمنى ألاّ يقتلك رجل ذو كتفين. ونتمنى ألاّ يؤذيك سلاح أو معدن ماضٍ".

وبعد أن انتهى حدادو السماء من صنع البطل، ذهب أشير بوغدو إلى حدادي السماء السابعة، وطلب منهم صنع أسلحة، وأقواس، وأسهم وكنانة. ثم عاد بعدها إلى البوركانات الألف وقال لهم "لقد صنعتم بطلاً والآن امنحوه فرساً". كان في السماء تسعة خيول زرقاء. وأعطى البوركان أصغر تلك الخيول للبطل الحديدي. كان ذلك الفرس يسمع كل ما يحدث في الأرض وكل ما يجري في السماء، وما فوقها. وجه الفرس أحد أذنيه إلى الأعلى ليسمع ما يحدث في السماء، في الأعلى، ووجه الأذن الثانية إلى الأسفل نحو الأرض ليسمع كل الأصوات التي تصدر من الأرض.

أخذ أشير هذه الفرس إلى منزل جده، وحالما وصلت بكل زركشتها، حضر البطل الحديدي، لأن البوركانات الألف نفخوا الروح فيه ومنحوه الحياة. عندما يمشي هذا البطل كانت سبعة هكتارات من الأرض تئن من حوله، وحينما حضر إلى البيت، قال خان تورماس الذي كان قلقاً جداً على ابنه:

"ليس لديك الوقت للانتظار، اركب فرسك واذهب بسرعة لتحرر جسير بوغدو".

وانطلق أشير وانطلق معه البطل الحديدي مع الفرس التي تسمع كل شيء والتي طارت تحت الغيوم، وأعلى الأشجار، إلى أن وصلوا إلى قمة الجبل الأحمر، حيث كان أشير بوغدو قد خبأ والدته، ونزلا عن الفرس وذهب إلى أشير بوغدو إلى والدته، وسألها "أين الأسلحة والدروع التي استخدمها والدي؟" فأجابت "وضعتها جانباً حيث لا يمكن لأحد أن يجدها". ثم أخبرته بالمخزن الذي وضعتها فيه والمكان وأعطته المفتاح.

قال أشير "سنذهب الآن إلى المانغاثي الذي يحرث الأرض مع والدي".

قالت سانغا غوغون "اذهب، ولكن لا تذهب إلى البيت لأن ألفا ستقتلك".

ثم ذهب البطل الحديدي لإطلاق سراح أخيه جسير بوغدو من سلطة المانغاثي، وذهب أشير للعثورعلى أسلحة والده ودروعه.

وجد البطل الحديدي المانغاثي يحرث مع حصان بائس وأعجف فناداه:

"لماذا تحرث بحصان بائس وأعجف كهذا؟ خذ فرسي القوي هذا لبعض الوقت، ليحصل حصانك ولكي يستعيد نشاطه ثانية". فقال المانغاثي "لن أستخدم حصانك، إن حصاني جيد". ولكن سرعان ما غيّر رأيه وقال: "سأجرب حصانك القوي".

حرر المانفاثي جسير من لجامه، ووضعه على الحصان الأزرق. رأى جسير بوغدو البطل الحديدي وتيقن بأن البطل كان شقيقه الذي خلقه البوركانات وبدأ بالبكاء وحرص على أن لا يراه المانفاثي. ربط المانفاثي الرسن وثبته على رقبته ووضع المحراث على الأرض. كان للجواد الأزرق قوة رهيبة، لا يعرف أحد ما هي قوته. بدأ ببطء ثم ازدادت سرعته أكثر فأكثر حتى المحراث، ومن ثم جر المانفاثي في دوائر كبيرة حول البطل الحديدي.

وجه الرجل الحديدي السهم تلو الآخر إلى جسد المانفاثي وقتله، ثم جاء الحصان الأزرق إلى الرجل الحديدي ومعه جثة المانفاثي.

جلب أشير بوغدو الماء من تسعة ينابيع، وذهب إلى الغابة وقطع أوراقاً من شجرة العرعر وجففها. غسل جسير بذلك الماء، وبخّره بالدخان المتصاعد من أوراق شجر العرعر، وأعاده إلى ما كان عليه سابقا تماماً.

بعد ذلك وضعا جثة المانفاثي في برميل ذي خمسه وتسعين طوقاً حديدياً ودحرجاه نحو بحر جازدا والمسمى البحر الوحشي.

توجه جسير بوغدو نحو بيته. انطلقت نحوه ألفا التي شهدت كل ما حدث ووضعت ذراعيها حوله. وقال لها "ما دمت تمتلكين السحر والقوة، لمَ سمحت للمانفاثي بتعذيبي كل هذه الفترة؟ الآن سوف أجعلك تعملين كثور مخصي يبلغ ثلاث سنوات من العمر، واحلب اللبن منك مثل ما أفعل ببقرة يبلغ عمرها ثلاث سنوات."

صرخت ألفا وقالت: "إنك لن تفعل ذلك أبداً" وتشابكت معه بالأيدي. تصارعا مدة ثلاثة أيام بلياليها، أصبحت الكفة العليا لها. ثم قاتلا مدة تسعة أيام بلياليها، حينها فازت فوزاً أكيداً.

ثم صرخ جسير على البطل الحديدي وقال "أين يد المساعدة التي وعدتني بها ؟" توجه البطل الحديدي إلى ألفا وقال لها، "سآخذك الآن، لقد جلبك أخي إلى هنا خداعاً، يجب أن تكوني زوجتي أنا".

سألت ألفا وقالت: هل أحضرت إلى هنا لأكون زوجة لكما الواحد بعد الآخر؟ وهل سأكون زوجة أحدكما عندما يملني الثاني؟" وألقت بنفسها على البطل الحديدي وهي تصرخ "أطلب من غال تولان ودل تولان ثانجيري أن يسحقاك سحقاً".

وفي هذه الأثناء قدم أشير بوغدو للمساعدة. وحاول الثلاثة قهر ألفا وحصرها في برميل مع تسعة وتسعين طوقاً حديدياً حولها. وبعد الانتهاء من ذلك دحرجوها نحو البحر الوحشي وذهب الجميع إلى بيت جسير.

قالت سانفا غوهون "حسناً. هل استمتعت مع زوجتك الشابة؟ لو لم يكن لدي ابنك ولم أرسله إلى السماء لكنت حتى الآن تحرث للمانفاثاي وهو يلهب ظهرك الهزيل بسوطه!" قال البطل الحديدي لجسير "إنك أخي الأكبر وأنا مستعد لمساعدتك. ولكني بلغت ما يؤهلني لأبحث عن عروس".

أجابه جسير بوغدو "أنت رجل بالغ" "ينبغي عليك العثورعلى عروس".

البطل الحديدي

قطع البطل الحديدي جانباً من جسمه وعثر على كتاب في كبده. قرأ هذا الكتاب مدة ثلاثة أيام بلياليها دون توقف. كان يضحك أحياناً وأحياناً يبكي ويغني أغاني في أحيان أخرى.

كتب في هذا الكتاب أنه هناك سبعة من دونجينات النبلاء. ولدى الأكبر منهم ابنة جميلة من المقرر أن يتزوجها البطل الحديدي. أما الأخوة الستة الآخرون فكانوا دون أبناء.

وقبل أن يذهب البطل الحديدي للعثور على تلك العروس. حوّل جواده إلى حجر قداحة ووضعه في حجابه الحاجز. ثم سلق لحم عشرة أغنام في غلاية واحدة. وجعل حجم اللحم كله بحجم لحم غنمة واحدة. وقام بتقطير التاراسان في عشر أوان كرّة بعد أخرى ووضعها في غلاية واحدة. فأصبحت قوة هذا الشراب عشرة أضعاف.

بعد ذلك وضع اللحم والشراب في عربة حديدية وانطلق في رحلته. وعندما وصلت العربة إلى تل. دفعها دفعة قوية فوصلت إلى الأعلى. وعند النزول ركب العربة. وهبط من التل برفق.

سارع البطل الحديدي مباشرة نحو الجنوب الغربي. ووصل إلى حدود بلد جديد. وعبر الحدود وسافر حتى وصل إلى ساحة برونزية وفضية. وهي منطقة لم تطأها قدم إنسان. في تلك الساحة كان هناك ينبوع ماء أسود كالكبد (كالفحم). وينبوع لم يشرب منه أي فرس. وعندما شرب البطل الحديدي الماء ودخن قال "إنكِ أرض إذا هبت عليك ريح الوادي من جانب الجبل تتماوجين مثل فرو القندس. وعندما تهب ريح الوادي ضد جانب الجبل تصبحين مثل فرو السمور. عندما أارجع مع عروسي سأستقر هنا. وسيكون هذا مكاني".

بعد ذلك نزل طوال الوقت. كانت منطقة منحدرة ونزل بسرعة شديدة. بعدها سمع لهاثاً وكأنه لعشرة رجال. وسمع وقع أقدام وكأنها لعشرة جياد. لم يعلم ما ينبغي عليه أن يفعل. كان خائفاً ولكنه قال لنفسه: "إذا طارد الذئب غزالاً ليومين فسوف يموت من الجوع. وإذا لم ينجز الرجل ما خطط له فالأفضل له أن يموت. وإذا لم تخيط المرأة ما قطعته. فالأفضل أن تقطع أصابعها". ثم تنفس بقوة عشرة رجال وجعل الصوت الذي ينطلق من عربته مثل ضجيج عشر مركبات.

سرعان ما قابل المانفاشي ذا الخمسة والعشرين رأساً. وعندما رآه أمامه أسرع بعربته بحيث نزع أسفل سرج المانفاشي وقلب إلى الأعلى ما تبقي منه. ثم قطع جزءاً من فخذ المانفاشي الأيمن. وتقدم قليلاً إلى الأمام. وتوجه بعربته نحو المانفاشي وألقى عليه التحية وسأله قائلاً: "ما هو المكان الذي تريد أن تهدمه وتدمره؟".

فأجاب المانفاشي: "إنني ذاهب إلى الشمال الشرقي. لقد سمعت بأن لدى جسير أخاً يدعى البطل الحديدي. أريد أن اختبر قوته. ما زال شاباً وصوته رقيقاً وعظامه لينة. وأود أن أقتله بكل جوارحي".

فصرح الرجل الحديدي "أنك لا تدع الناس يكبرون ويزدادون قوة. لأنك تريد أن تهدم وتدمر!" وقفز من عربته وسدد ضربة قوية إلى جبهة المانفاشي. فصرخ المانفاشي ساخراً "آه إنه أنت! إذن أنت البطل الحديدي. الذي يبحث عن عروس!" ثم ترجّل من على فرسه وهو يستهزئ به.

اقترب الاثنان من بعضهما البعض ونظر كل واحد منهما إلى الآخر شَزْرًا. مثل ثورين منطلقين إلى المعركة. كانا سوداوين كغيمتين قاتمتين وكانا غاضبين وهائجين. هرعا نحو بعضهما البعض ليتصارعا. وسرعان ما تحولت الأرض من تحتهما إلى تلال ووديان.

مزق البطل الحديدي كل اللحم من ظهر مانفاشي بأصابعه. وانتزع كل لحم صدره بأسنانه. وفي منتصف اليوم التالي قتل المانفاشي. ووضع رأسه باتجاه الشمال الغربي. وقدميه باتجاه الشرق. ووضع جبلاً على رأسه وصدره. وجبلاً آخر بين ساقيه وقدميه. لكي يتسنى للناس المرور بينهما حينما يسافرون من مكان إلى آخر.

الآن ذهب البطل الحديدي إلى نقطة أبعد فشاهد خيمة حديدية. يلمس سقفها السماء. كان البطل الحديدي خائفاً. حول عربته إلى حجر قداح. وحول نفسه إلى حيوان الظربان. واتجه نحو البيت الحديدي تحت الأرض. حفر حفرة في الأرض. واختلس النظر. فرأى مانفاشي بمئة

وثمانية رؤوس. وقد وضع قدميه على أحد الجدران ورأسه على الآخر. كان المانغاثي يتنفس بصعوبة. ويخرج من إحدى زوايا فمه لهب أزرق مرتعش. ويخرج من الزاوية الأخرى لهب أحمر متدفق.

وعندما رأى البطل الحديدي أن المانغاثي يغط في نوم عميق. تسلل وزحف إلى الأعلى وسرق فأسه المعلّقة هناك. وجعلها صغيرة وأخذها معه تحت الأرض. ثم رجع ونحر به المانغاثي بسرعة. قفز المانغاثي وصرخ "لقد سرقني أشخاص مخادعون! أصابتني سهام حادة".

تعثر حول المكان. لم يكن باستطاعته عمل أي شئ. فقد صوابه. وتدفق الدم من منخريه. ولفظ أنفاسه الأخيرة.

قلب البطلُ البيتَ الحديدي العظيم رأساً على عقب. وزرع أشجاراً صغيرة للأيائل لتأكل. وصنع للغزلان أجمة ودغلاً. وأتى بالغربان السوداء لتعشعش في المكان. وثعلب أصفر ليتسابق فيها. وأمر أن لا يترك الثلج آثاراً عند سقوطه في الشتاء. وأن لا ينكسر العشب أو يسحق في فصل الصيف. لكي يبقى كل شئ سريًا ومخفيًا. وكل شئ على حاله ومهجور.

أضرم النار مستخدماً حجر القداحة وبدأ بالتدخين وارتفعت أعلى شعلة من صوانه عبر السموات إلى السماء التاسعة. وانخفضت أدنى شعلة خلال كل طبقات الأرض وصولاً إلى الطبقة السابعة. ناشد البوركانات الألف. ونفث دخانه بصفير هادر ومن ثم تركه يرجع بصمت عميق.

عندما انتهى من التدخين انطلق مرة ثانية بعربته إلى الجنوب الغربي باستمرار. ولدى وصوله إلى تلٍ. أعطى عربته دفعة قوية فتوجهت إلى القمة. وعند النزول ركب العربة وهي تسير بسرعة وبصورة مريحة. وأخيراً رأى المانغاثي ذا الخمسين رأساً راكباً على حصان أسود بلون الأرض. كان المانغاثي يرتدي عباءة من جلد الماعز وصرخ من فوق ظهر حصانه على البطل الحديدي.

"لقد قتلت والدي وأخي الأصغر. والآن وقد وقعت في يدي لحسن الحظ".

ترجل المانغاثي عن حصانه. وقفز البطل الحديدي من عربته وتوجه الاثنان نحو بعضهما كثورين أو مثل غيمتين رهيبتين سوداوين. واشتبكا في صراع يائس. انتزع كل منهما لحماً من ظهر الآخر بأصابعه. ومزقها من صدر أحدهما الآخر بأسنانه. وقاتلا مدة ثلاثة أيام بلياليها وصنعا تلالاً ووديانًا. وحيثما كان هناك تل أصبح واديًا. وحيث كان هناك وادٍ أصبح تلاً. ولكن لم يستطع أي منهما قهر الآخر. وافق الاثنان على قذف سلاحهما على الجبال المقابلة لهما. فيتقذف

المانفاشي سلاحهُ على الجبل الواقع في الحدود الغربية من السماء. ويلقي البطل الحديدي سلاحه من الجبل الواقع على الحدود الشرقية من السماء.

تنازعا طويلاً واستخدما كلمات نابية لحل مسألة من يرمي سلاحه أولاً. طلب المانفاشي بأن يرمي سلاحه أولاً لأنه عاش هناك. وطلب البطل الحديدي ان يرمي سلاحه أولاً لأنه غريب في هذه الديار.

أصر البطل الحديدي على طلبه ولكنه استسلم في النهاية لطلب المانفاشي. وأخذ موقعه على الجبل الواقع في الجهة الشرقية، حيث تحول إلى حجر اليشب قبل أن يدركه فأس المانفاشي.

رمى المانفاشي بفأسه وضرب الحجر ولكن دون جدوى. رجع البطل الحديدي إلى هيئته السابقة مرة أخرى، أمسك بالفأس ووضعها في عربته وصرخ قائلاً: "لقد رميتَ رميةً موفقة حيث أصبت عربتي، كيف سأسافر الآن؟ قف بحجمك الحقيقي لأرميك بسلاحي".

أخذ البطل الحديدي قوسه ولوى القوس على نصف دائرة. وتحدث إلى السهم وهو يسحب الوتر نحو رأس السهم:

"إذهب يا سهمي واخترق جنب عدوي ومزق قلبه ورئتيه وكبده. ثم أَخرج بعد ذلك واكسر ساعده وعموده الفقري بدءاً برقبته ثم عُد إليَّ ثانية".

فعل السهم كل ما طلب منه وعاد إلى جعبته.

في هذه الأثناء نادى فرس مانفاشي الأسود البطل الحديدي قائلاً: "والدتي موجودة في بحر اللبن، ووالدي على جبل مرتفع. ولا أخاف منك، سأذهب إليهما" وانطلق مسرعاً.

أخرج البطل الحديدي صوانه وحوله إلى جواده الأزرق السماوي. هرع الجواد الأزرق وراء فرس المانفاشي الأسود منادياً:

"عندما تكون قائمتاك الخلفيتان في الوادي الثاني، ستكون قائمتاي الأماميتان هناك، وعندما تستقر قوائمك الأربعُ في الوادي الثالث ستكون هناك قوائمي الثلاثُ، وعندما تكون في الوادي الرابع بقوائمك الأربع، ستكون قوائمي الأربع في الوادي نفسه. وفي الوادي الخامس سأقضم العضلة الكبيرة في ساقك، واقبض عليك مستخدماً لجامك وأعود بك إلى هنا".

فعل الفرس الأزرق ذلك. جلب فرس المانفاشي الأسود إلى البطل الحديدي. ثم قتل البطل الحديدي الفرس بفأس المانفاشي، ووضع تلاً على جثة المانفاشي، وتلاً آخر على جثة فرسه، ثم وضع

فرسه في جيبه على هيئة حجر صوان. وانطلق بعربته إلى أرض باردة بحيث إن روث الحصان يتجمد قبل أن يقع على الأرض ويصبح صلباً كالجليد.

صرخ البطل "آه. آه. يا لحرارة هذا المكان". فتح صدره كان يعرق بشدة. ثم ذهب إلى مكان شديد الحر بحيث يجف روث الحصان ويتناثر إلى حبات غبار قبل أن يلمس الأرض. صرخ "آه. آه. يا لبرودة هذا المكان! " أنزل قبعته إلى الأسفل. وَزَرَّ قميصه بإحكام قائلاً "آه. آه. يا للبرودة. لقد كدت أتجمد من البرد".

بعد أن قاد عربته خارج الأرض الساخنة. وصل إلى غابة كثيفة بحيث إن أصغر ثعبان على وجه الأرض لا يستطيع أن يمر من بين أشجارها. وهي كبيرة ومترامية الأطراف بحيث لا يمكن لعين أن ترى حافاتها أو نهاياتها. توسَّل للبوركان الألف أن يمنحوه فأساً بشفرة يبلغ عرضها ذراعاً. حصل على الفأس ثم بدأ يشق طريقه من خلال الأشجار. ولكن كل ما قطعه في النهار كان ينمو ثانية خلال ساعات الليل. وقطع الأشجار ثلاثة أيام. ولكنها كانت تنمو ثانية خلال ساعات الليل. وفي الصباح تنتصب واقفة هناك. وعندما أدرك أن لا فائدة ترجى من فأسه انتزع سهمه من جعبته وتحدث إليه قائلاً: "اقطع الأشجار واجعلها مساوية للأرض. ثم شق طريقاً واسعاً بحيث يمر من خلاله جمل محمل بالبضائع وبسهولة. وكذلك ثور أبقع يمر من خلاله بزلاجته دون عناء. وعندما تنجز كل ذلك عد إلى الجعبة.

فعل السهم كما أمر. لم تنمُ الأشجار التي قطعت ثانية أبداً. ومر البطل الحديدي خلال الغابة دون صعوبة. ثم ذهب بعد ذلك إلى مكان مرتفع ونظر إلى الأسفل فرأى وادياً واسعاً. وفكر في نفسه قائلاً: "لا يمكن لأي بطل أن يقفز من هذا الوادي. والمرور من خلاله صعب أيضاً. حيث هناك الكثير من الثعابين".

عندما رأت الثعابين البطل الحديدي قالت "يجب أن لا نسمح لهذا الرجل أن يمر من تحتنا أو من فوقنا أو من خلالنا".

لا جدوى من المضي قدماً. لذا حوّل البطل الحديدي عربته إلى حجر صوان ووضعها في جيبه. وحوّل نفسه إلى ثعبان أصفر مرقط وتوجه إلى الوادي. عبر صعوداً وهبوطاً ومر عبر الوادي ثلاث مرات لكي لا يشتبه به أحد. ثم خرج من الجهة المقابلة. أخذ حجر الصوان من جيبه وحوله إلى عربة ثانية. ورجع إلى هيئته الأولى. أي البطل الحديدي ثانية.

وعندما شاهدت الثعابين ذلك بدأ الواحد يسأل الأخرى "ماذا رأيت؟" وترد الآخر "ماذا

رأيت؟ لقد قطعنا على أنفسنا وعداً بألاّ ندع هذا الرجل يمر فوقنا أو تحتنا أو من خلالنا. والآن مر من خلالنا". غضبن كثيراً حتى بدأت الواحدة تلدغ الأخرى وبدأن قتالاً وحشياً. كانت هناك جلبة رهيبة. ولدغت الأفاعي بعضها البعض الآخر حتى الموت وتعرضت كلها للدغ حتى الموت.

استمر البطل الحديدي بالسفر بعد ذلك حتى وصل إلى بحيرة. كان وراء البحيرة شريط ضيق من الأرض. وبعدها بحيرة ثانية من السموم. أخرج جواده وسأله " ماذا سنفعل الآن؟ كيف السبيل لعبور هذه البحيرات؟" .

فأجابه الفرس "ارجع مسافة رحلة يوم واحد. وسأقفز فوق تلك البحيرات. تمسك بي بشدة" .

فعلا ذلك. وقفز الفرس الأزرق فوق البحيرتين. ولمست نهاية ذيله ومقدمة حوافره الأمامية المياه السامة للبحيرة الثانية. فسقط على الفور.

جلد البطل الحديدي فرسه وسحب لجامه حتى تدفق الدم من الفرس. وصرخ قائلاً "لِمَ لمْ تقفز ببراعة ؟ لقد كنت على وشك أن تسقط في البحيرة السامة. وكنا سنموت معًا."

فأجابه الحصان "ما زلت حتى اليوم رجلاً أحمقَ. ألا تعلم أن عدم لمس الماء هي خطيئة. نحن بشر حي وينبغي أن نلمس الأشياء ونحن نجتازها" .

أجاب البطل الحديدي "هذا صحيح. لم أكن أعرف هذا حتى الآن" .

ثم جعل الفرس حجر صوان مرة أخرى. واستمرا بالترحال وهو يدفع بعربته أمامه. اقترب من الجبل الأحمر وهناك شاهد تلاً وأكواماً من عظام الرجال. وركاماً من عظام الحيوانات ومقداراً وافراً من اللحم وجدولاً من الدم.

رأى العديد من المكفوفين والعديد من الكسحان والعرجان ورجالاً بدون أياد وآخرون بدون أقدام. رأى أناساً عظماء وأشخاصاً فقراء. أناساً ذا حجم صغير. وأناساً فقراء وآخرين أغنياء كلهم يسعون جاهدين لتسلق الجبل. كان العظماء الأغنياء يمتطون جياداً. وتسلقوا مسافة ما ومن ثم سقطوا مرة ثانية إلى الأسفل مع خيولهم. تسلق الفقراء المشوهون على الأقدام أو زحفوا بكل ما في وسعهم وعلى أفضل وجه يستطيعون القيام به. وتهرأ اللحم الموجود في الجزء الأمامي من أجسادهم كله من جراء التسلق وتمزق اللحم الموجود في الجزء الخلفي من أجسادهم كله من جراء السقوط.. وكل من سقط قضى نحبه.

اقترب البطل الحديدي من الجبل. نظر إلى أكوام العظام ومجاميع البشر. بكى ثلاثة أيام بلياليها. أخرج حجر الصوان وحوله إلى فرسه الذي بدأ بالبكاء أيضاً. ثم أخرج البطل الحديدي فرسه إلى حجر صوان ووضعه في جيبه. وحول العربة إلى صوّان ووضعها في جيبه. ثم حوّل نفسه إلى ظربان.و ذهب ثلث المسافة إلى أعلى الجبل متسلقاً حتى تهشمت مخالبه. ثم تحول إلى سنجاب. وتوجه من فرع شجرة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر. كان متعباً إلى حد بعيد لكنه تسلق الجبل حتى تلاشت مخالبه. وأخيراً تحول إلى صقر. وبجهد كبير طار إلى قمة الجبل وسقط هناك واضطجع هناك ثلاثة أيام بلياليها دون حراك.

انتعش مرة ثانية في نهاية اليوم الثالث. أخرج الحصان والعربة من حجر الصوان. قدم الماء لحصانه وسمح له بالرعي. مر غزالان هناك فقتلهما ووضعهما على أسياخ وطبخهما وأكلهما.

بعد أن تناول هو وحصانه الطعام، عثر هناك على برميل هائل من الحديد ذي تسعة وتسعين طوقاً فملأه بماء الحياة والشباب ودحرجه إلى أسفل الجبل.

تحطم البرميل وسال الماء منه على هيئة تيار كبير. عادت الحياة للأشخاص والخيول عند سفح الجبل وتضرع رجل مسن إلى كل بوركان أن ينجح البطل الحديدي قائلاً «ليمشِ حتى يتحول حجرٌ بحجم الثور إلى رماد من تلقاء نفسه، وحتى يسقط حجر بحجم فرس من جبل صلب».

ومن قمة الجبل الأحمر رأى البطل الحديدي في الأفق بيتاً كبيراً أبيض اللون يلامس السماء. كان ذلك البيت يعود إلى حميه. نزل البطل الحديدي من الجبل وجلس على تل من النحاس والحديد لم تطأه قدم بشر من قبل. وبسحره وضع دمامل كبيرة على رقبته وظهره. ووضع قروحاً كريهة المظهر على يديه وقدميه. وحول نفسه إلى رجل مسن ومريض وبائس. وجعل عربته تبدو متهرئة ومعطوبة ودفعها قدماً إلى أن دخلت باحة المنزل.

كان في وسط تلك الباحة عمود ذو أغصان وعلى هذه الأغصان تسع وتسعون حلقة متشابكة. ربطت سبعة جِيَاد على تلك الحلقات. كان لون كل جواد يختلف عن الآخر. وعلى سرج كل جواد أسلحة فارسها. كان فرسان تلك الخيول هم طالبوا يد الفتاة التي يود البطل الحديدي أن تكون زوجته.

دفع البطل الحديدي عربته ووضعها بين جوادين. ثم باستخدام السلالم الفضية ومن خلال الأبواب الذهبية دخل البيت كرجل مسن كريه الرائحة تغطي جسمه القروح. وعندما دخل البيت رأى الشباب طالبي يد الفتاة الرائعين وهم جلوس على الطاولة و معهم والد العروس.

قال الرجل المسن وهو يترنح ويتقرب من الخان «مرحباً يا حموي!». فأجابه الخان «أيّ حمو أنا لك؟ فلتسقط ميتاً! إن أول شخص من الأشخاص السبعة يرميك خارجاً سيحظى بيد ابنتي!».

فقفز أحد الشباب وحاول أن يمسك بالرجل المسن لرميه خارجاً. ولكنه لم يستطع زحزحته عن الأرض، وكأنه كان مسمراً بها. ولم يستطع أحد أن يرفعه عن الأرض.

صرخ الحمو «إذا أمسكتم به جميعاً معاً تستطيعون رميه خارجاً لقد حلّ بيننا الشيطان!».

أمسك الشباب السبعة بالرجل المسن فأمسك أحدهم بساقه وأمسك الآخر بذراعه، ولكن الرجال السبعة جميعاً لم يستطيعوا أن يزحزحوه من مكانه. دفعهم بعيداً وطوّح بهم في اتجاهات مختلفة. سقط أحدهم في زاوية، وسقط الآخر تحت الطاولة، والثالث في مكان آخر. هرع طالبو يد الفتاة السبعة إلى باحة المنزل من الخوف والارتباك. فكوا قيود جيادهم وامتطوها وفروا بسرعة.

جَرَّ الرجل المسن نفسه خلال الغرف وهو يجلس هنا وهناك في كل غرفة ملوثاً كل الأرضيات والمقاعد. لم يكن بوسع الخان فعل شئ – لم يستطع أن يخيفه أو يغريه أو يبعده. لذا أرسل في طلب بطلين من الأبطال يعيشان في جنوب غربي البلاد. وكانا يحتاجان إلى سفر ثلاثة أيام على الخيل للوصول إلى أولئك الأبطال.

عندما وصلهما الرسول قالا له: «يجب أن نجهز أسلحتنا ودروعنا. اذهب حيثما جئت. سنتبعك ونتخطّاك».

بقي الرجل المسن مدة خمسة أيام وحده، وخلال ذلك الوقت لوث غرف البيت كلها. ثم زحف إلى فناء المنزل، وأخذ عربته وذهب إلى المربع الحديدي والفضي أعلى التل. وهناك أضرم ناراً واضطجع لينام بهدوء.

وفي اليوم الذي غادر فيه الرجل المسن البيت أتى البطلان. ذهب الخان لاستقبالهما ولكنهما صرخا عند مدخل البيت. «أين هذا الشخص الذي يزعجك؟».

فأجابهما الخان «لقد غادر قبل أن تأتيا. إن خمس عشرة امرأة تغسل الغرف التي لوثها. غادر عندما سمع بأنني أرسلت في طلب بطلين عظيمين. لم يتمكن طالبو يد ابنتي السبعة من إبعاد الرجل المسن البائس، وقد فر الآن بعربته إلى الشمال الشرقي».

انطلق البطلان على الفور في الاتجاه الذي أشار الخان إليه. وصلا إلى الساحة الحديدية والفضية على قمة التل ووجدا الرجل المسن يغط في نوم عميق ويشخر بصوت عال. صرخا به. توقف عن الشخير. وفتح عينيه وجلس. ترجل البطلان عن جواديهما وسألا: «ما هذه الجروح والقروح على يديك وجسدك؟ لماذا أنت مضطجع هنا؟ وماذا تفعل؟».

فقال الرجل المسن «لو كنتما قد تعرضتما للدغ أفعى صفراء سامة مثلي. لكان جسداكما متقرّحين كجسدي. وما هذه الدمامل على رقبتيكما وظهريكما؟».

فأجاباه: «لو أصابك هوداي ميرغان (الرعد) لكان لديك دمامل مثلنا». ثم قال البطلان: «إن حياتك معلقة على خيط من الحرير الأحمر. ولا تزال تتحدث إلينا بوقاحة. سوف نكسر ظهرك ونقتلع رأسك من جسدك».

ثم قفزا لينهيا حياة الرجل المسن. نهض الرجل المسن. هرعا إليه وبدأت المصارعة. لم يعطهما مجالاً. كان يقاتل وهو يمرح. استمر الصراع تسعة أيام بلياليها. وحيثما وضعوا أقدامهم حفروا حفرة عميقة. وحيثما كانت هناك حفرة تصاعد عمود من الغبار. تكون تل من اللحم الذي مزقه البطلان من جسد الرجل المسن. ومن اللحم الذي مزقه الرجل المسن من جسد البطلين. جاءت الغربان من بعيد على شكل مجاميع للاستيلاء على اللحم. جاءت من كل الاتجاهات. الغربان: «نتمنى أن تقاتلوا سنوات عديدة! إنه من دواعي سرورنا أن ننظر إليكم وأنتم تتقاتلون».

خارت قوى الرجل المسن في اليوم العاشر. وعند المساء وقع على الأرض لا حول له ولا قوة. وضعه البطلان في برميل حديدي بتسعة وتسعين طوقاً حوله ودحرجاه إلى البحر الأسود الضبابي. ولكن قبل أن يسقط في الماء قال الرجل المسن: «في المكان الذي بدأت فيه ثمة صخرة على الشاطئ ويقبع على الصخرة وقواق أبيض بحجم رأس حصان. هناك سبعون سلسلة جبلية بين الساحة البرونزية والفضية وبين طائر الوقواق. ويجوب على طوال تلك السلسلة من الجبال السبعين تسعون ذئباً مسعوراً. سيأتي طائر الوقواق مع تلك الذئاب المسعورة والبالغ عددها تسعين لإنقاذي». ثم أغمي عليه. وكانت تلك آخر كلماته.

سمع طائر الوقواق الأبيض تلك الكلمات فانطلق في الحال خلف الذئاب المسعورة والبالغ عددها تسعين ذئباً.

بعد مرور ثلاثة أيام بلياليها وصل الوقواق والذئاب المسعورة التسعون إلى شاطئ البحر الأسود الضبابي. حلق طائر الوقواق ثلاث مرات على طول الشاطئ وهو ينعق بصوت عالٍ. عندها

اختفى البحر الأسود الضبابي بأكمله ودخل في جوف الأرض بسبب سحر الوقواق. أما الأعشاب التي نبتت على جوانب البحر، فقد ذبلت وجفت عند رؤيتها طائر الوقواق.

شوهد برميل حديدي في قاع البحر قبل أن يجف البحر بأكمله. وهرعت الذئاب المسمورة البالغ عددها تسعين ذئباً باتجاه البرميل الحديدي وقضمت أطواقها الخمسة والتسعين. عندما اختفت الأطواق، أنهار البرميل الحديدي. وهنا عثروا على هيكل عظمي للبطل الحديدي. أخذت الذئاب الهيكل العظمي بعناية وحملته إلى طائر الوقواق على شاطئ البحر. بدأ طائر الوقواق بالغناء ابتداءً من قدمي البطل الحديدي. وعندما وصل إلى رأسه بدأ اللحم يغطي العظام أول مرة، وفي المرة الثانية بدأ بالتنفس، عندما وصل إلى رأسه في المرة الثالثة قفز البطل الحديدي قائلاً: «منذ متى وأنا نائم؟» ثم تذكر ما حدث. اغتسل وشكر طائر الوقواق والذئاب التسعين المسمورة، ورجع إلى هيئته السابقة كرجل مسن بائس تغطي جسمه القروح.

سأله طائر الوقواق: «لماذا أنت بهذا الغباء؟ لماذا لا تذهب إلى الخان بهيئتك الحقيقية؟».

فأجابه البطل الحديدي: «إذا ذهبت إليه كرجل شاب، سوف يوكل إليّ الخان مهام صعبة للقيام بها، وهي مهام ربما تقتلني، ومن الأفضل العمل بهذه الطريقة، إن عروسي على علم بكل ما أفعله». ثم قال للذئب ولطائر الوقواق: «قمتما بخدمتي بصورة جيدة، إنني ممتن لكما، حان الآن وقت العودة إلى دياركما في سلام. «سحبت الذئاب العربة من قاع البحر، رجع البحر إلى هيئته السابقة وظهر العشب مرة أخرى على طول الشاطئ.

ذهب البطل الحديدي مرة ثانية إلى الخان لطلب يد ابنته الجميلة، ولكن بشكل أسوأ من ذي قبل. كان هناك حفل زفاف في البيت. كان الخان يزوّج ابنته إلى الشاب الأصفر سناً من البطلين اللذين وضعا الرجل المسن في البرميل الحديدي ودحرجاه إلى البحر الأسود الضبابي ليبقى هناك.

عندما رأى البطلان الرجل المسن قادماً وهو يقود عربته أمامهما، هرعا وامتطيا جواديهما وانطلقا بسرعة.

لقد كانا على يقين بأنهما لن يريا الرجل المسن ثانيةً قط.. والآن شعرا بأنه من الصعب التخلص منه بالتأكيد.

دخل الرجل المسن الغرفة التي كان قد لوثها في اليوم الأول وقال: «تحية مني إليك يا حموي!».

أصاب الخان الهلع وصرخ: «ماذا يعني هذا؟ لقد أصبح الخانات الثلاثة عشر كلهم سحرة. إن اللفات التسع والسبعين استخدمت لأغراض السحر! إنني خائف! لا أعرف لماذا يأتي أحد عندي لأغراض الخير أو الشر».

قال الرجل المسن: «أكرموا وفادتي وضيفوني على الرغم من أنني فقير وبائس». أمر الخان باستضافة الرجل المسن.

جلبوا له الحليب، ولكن من الحوض الذي تشرب منه الكلاب. أخذ الوعاء ورفعه إلى فمه وكأنه يشرب منه، ولكنه سمح للحليب بالجريان على جسمه. وهكذا لوث أرضية الغرفة عندما سال الحليب عليها.

قال الخان: «ما الذي ينبغي عمله؟» أرسل الخان بطلب مليّن بوهي، وهو بطل جبار في رحلة استغرقت خمسة أيام. وكتب رسالة يدعوه للمجيء على وجه السرعة ويبلغه أن ساحراً فظيعاً على هيئة رجل مسن سبب له متاعب جمة وعذاباً شديداً. وانه حتى الآن لم يتمكن أحد من التغلب عليه. وكتب الخان إليه: «لو استطعت قهره سأزوجك ابنتي. لقد لوث الساحر العجوز بيتي، وان ثلاثًا وثلاثين امرأة ينظفن الغرفة وراءه».

خلال تسعة أيام ونصف اليوم وصل البطل القوي. أي قبل يوم ونصف من وقته المقرر. وعندما سمع الرجل المسن بقدوم البطل استقل عربته وذهب بعيداً إلى الساحة البرونزية والفضية على قمة التل ونام كما كان الحال في السابق.

عندما وصل ملين بوهي بيت الخان صرخ قائلاً: «هل ذلك الشيطان موجود الآن؟» خرج الخان وأجاب: «لا! لقد رحل تواً من هنا لكن تعال لتتناول بعض الطعام». سار الخان نحو البيت وتبعه ملين بوهي. ولكن عندما رأى ملين المخلفات البشعة التي تركها الرجل المسن في المدخل، توقف وقال: «لن أدخل». فقال الخان: «أدخل من خلال أبواب أخرى» فدخلا من أبواب أخرى.

قال الخان: «لا أعلم من هذا الشخص الذي أتى عندي، أهو رجل مسن بنوايا حسنة أم نوايا شريرة. أعرف إنك إذا قتلته سأقدم لك ابنتي».

أكل ملين بوهي وشرب بسرعة ثم انطلق. وصل إلى قمة التل ورأى الرجل المسن. ترجل عن فرسه وحاول إيقاظه وسأله: «لماذا يداك وقدماك بشعتان هكذا؟».

فأجابه البطل الحديدي: «لو لدغت الثعابين الصفراء يديك وقدميك لبدتا بالبشاعة نفسها».

«وما تلك الدمامل على عنقك وظهرك؟» فأجابه البطل الحديدي: «لو أصابك هوهوداي ميرجند [الرعد] لكانت لديك تلك الدمامل أيضاً».

قال ملين بوهي: «أنت على حافة الموت. وتجيبني بهذه الوقاحة! سأمزقك إرْباً إرْباً».

انطلقا نحو بعضهما البعض مثل ثورين هائجين وكانا عنيفيْن كغيمتين قاتمتين يملؤهما الرعد. اشتبكا مع بعضهما البعض. وتصارعا بشراسة لمدة يومين بحيث أصبحت أضلاعهما السفلى عارية تماماً. وفي صباح اليوم الثالث أمسك كل واحد منهما بالآخر من ضلعه الأخير ورمى كل واحد منهما الآخر على الأرض. وسحب ضلع الآخر عند القتال. ولكنهما بقيا في كامل وعيهما. استلقيا على الأرض وكل واحد منهما يحمل ضلعاً في يده.

دعا البوركانات السماويون الألف للتجمع معاً واتخاذ قرار حكيم وقالوا: «هذان شقيقان. لقد خلقناهما نحن. ولماذا يتقاتلان؟».

ألقى البوركانات خطاباً خطياً إلى الأسفل فسقط بين المصارعين وهو ينص على ما يأتي: «أنتما شقيقان. والبطل الحديدي هو الأخ الأصغر سناً».

أخذ ملين بوهي الرسالة وقرأها ثم قرأها البطل الحديدي. وعلما أنهما أخوان خلقهما البوركانات البالغ عددها الألف. تصالح الاثنان على الفور وأعطى كل واحد منهما الآخر ضلعه ووضعاه في مكانه السليم. فأصبح كل واحد منهما بهيئة جيدة مرة أخرى.

أخرج البطل الحديدي فرسه. وكان مستعداً للعودة إلى بيت الخان عندما سأله شقيقه: «لماذا جعلت من نفسك رجلاً مسناً؟ لماذا لا تذهب إلى الخان بهيئتك الحقيقية؟ لنذهب معاً إلى الخان» فانطلقا معاً.

قال ملين بوهي للخان: «ذلك الرجل المسن كان ساحراً رهيباً لديه قوة سحرية هائلة لم أستطع أن أتغلب عليه وحدي. لهذا استدعيت شقيقي من المناطق الشمالية. هذا البطل الحديدي. لقد ساعدني في التغلب على الساحر وقضينا عليه. لن ترى ذلك الرجل المسن مرة أخرى. إنني متزوج. لذا أريدك أن تعطي ابنتك لشقيقي الأصغر البطل الحديدي الماثل أمامك».

وافق الخان على ذلك وأرسل برجال لذبح الأكباش. وأقام احتفالاً يشبه الاحتفال الذي يقام في الأعراس. ثم قال الخان عند انتهاء الاحتفال: «إذهب الآن لرؤية عروسك».

كانت العروس في الغرفة السبعين. وكانت رائعة الجمال بحيث كانت رقبتها ساطعة مثل



أصدقاؤنا اليوراتيون في جزيرة أولخون المقدسة، في بحيرة بايكال في سيبيريا. وقد تخلّى الرجل والمرأة عن بيتهما لنا.

أشعة الشمس. عندما تنظر نحو الغرب كان خدها الأيمن يشرق فيقول الناس في غرب الكرة الأرضية: «أشرقت الشمس» وعندما تنظر نحو الشرق يقول الناس في الشرق «لقد بزغ القمر».

عندما دخل البطل الحديدي الغرفة السبعين استقبلته الفتاة وقالت: «إنني أعرف كل ما حدث لك منذ أن غادرت منزل جسير بوغدو حتى تأتي إليَّ. كان الكثير من تلك المصاعب من صنع يدي لأختبرك بها، ولأعرف إن كنت قادراً على التغلب عليها. لقد جئت على هيئة رجل مسن وسخرت من والدي». فقال البطل: «لو لم آتِ على هيئة رجل مسن لقتلني والدك. لو أتيت رجلاً شاباً لأوكل إليَّ مهام صعبة ومستحيلة. كان لا بد أن أتغلب عليه وكان ذلك هو السبيل الوحيد».

استيقظ البطل الحديدي عند شروق الشمس وسار بسرعة إلى الخان. وشرب الخان والبطل الحديدي وملين بوهي معاً. قال البطل الحديدي: «لقد تأخرت كثيراً، لا بد لحفل الزفاف أن يبدأ على الفور».

دعا الخان شعبه إلى وليمة الزفاف. كانت هناك جبالٌ من اللحم وبحار من الشراب، وكل أنواع التسلية والرقصات. واستمر الحفل تسعة أيام بلياليها. وعند انتهاء الحفل امتطى العريس جواده وكذلك فعلت العروس، وكان جوادها ذهبيًّا ذا مظهر بديع يخطف الأبصار. طلبت العروس هدية من والدتها، فأعطتها مقصها الذهبي الذي كان بوسعه مضاعفة القماش. فعندما تبدأ صاحبة المقص بالعمل يكون بوسعها أن تقص القماش طوال اليوم دون أن ينفد.

كان للخان ستة أشقاء، وكان هو أكبر الأشقاء جميعاً. سألت العروس وهي تتجه نحوهم "ماذا سيعطيني أعمامي الستة؟".

قدم العم الأكبر وشاحاً أحمرَ. له القدرة على إحياء الموتى. وأعطاها العم الثاني كأساً فضية وقال لها: "عندما تلدين ولداً وتشربين الحساء وفيه قطع من اللحم ستصبحين قوية". قال العم الثالث "ها هو القرن الذهبي. عندما تتممين بولد. سوف يمتص الحليب منه ولن يعطش أبداً." وقال العم الرابع: "هذا سوار من فضة. إنه يحميك ضد كل الأسلحة والهجمات من كل نوع." وأعطاها العم الخامس خاتماً له القدرة على جعل الفقير غنياً. وتمنى العم السادس لها الصحة والغنى لا أكثر.

تمنى ميلين نوهو لشقيقته الصحة والازدهار. ودعا البطل الحديدي الناس جميعاً إلى وليمة في بيته قائلاً: "عندما يكون الطريق مستقيماً سافروا فيه. وعندما تشاهدون دائرة. ذلك هو مكان التخييم. واقضوا الليلة هناك".

اقتلع شجرة الأرزية وربطها بذيل الفرس وامتطى فرسه أمام ضيوفه. جاء البطل الحديدي إلى الجبل الأحمر الذي تسلقه بصعوبة بالغة. حيث ماء الحياة والشباب. وانتظر هناك شريكته. كانت العروس على علم بطريق آخر إلى الأسفل. شربا من ماء الحياة ثم نزلا إلى الأسفل على الطريق السهل. الذي لم يكن يعرفه أحد في العالم باستثناء العروس.

اشير بوغدو

بعد أن عالج جسير بوغدو البطل الحديدي وأنقذه وبعد أن توجه اشير باتجاه الغرب ليتخذ نالهان التاجي. ابنة جاسير بايبان عروساً له. عاش جسير بوغندو مع زوجته السابقة في سلام بعض الوقت. ثم جاء أحد عشر مانغاثياً في وقت واحد. كانوا أقوياء ولؤماء. كان لدى المانغاثي الأحد عشر أربعمائة وسبعة رؤوس.

سألهم جسير بوغدو: «لماذا أتيتم؟».

فأجابوا: «جئنا للبحث عن عمل. أعطنا أشغالاً ومهامَّ لنقوم بها وننفذها وإلا قتلناك».

فقال جسير: «لديّ ما يكفي من العمل. لم لا أعطيهم بعض الأشغال».

أرسل جسير ثلاثة وثلاثين بطلاً جباراً لحفر حفرة عميقة جداً. وعندما انتهوا من الحفر قال جسير للمنغاثايين: «تعالوا أيها المنغاثاييين. سأريكم أين يمكنكم العمل. «تبعه المنغاثيون ومعهم الأبطال البالغ عددهم ثلاثة وثلاثين. عندما وصل المنغاثيون إلى حافة الحفرة وقفوا في صف واحد ينظرون إلى داخل الحفرة. فدفعهم الأبطال الثلاثة والثلاثون من الخلف في الحفرة.

وبعد ذلك ألقوا فيها بصخرة كبيرة وطويلة طمرتهم. جاهد المنغاثيون لرفع الصخرة بقوتهم الهائلة. ولكن الأبطال الثلاثة والثلاثين أبقوا الصخرة في الأسفل. مات المنغاثيون الأحد عشر في تلك الحفرة. واستقرت الصخرة الكبيرة عليهم. ثم تراكمت أحجار أخرى على تلك الصخرة. وبنى جسير بوغدو منزلاً رائعاً فوق الحفرة. وعلى حائط ذلك البيت وضع جسير صورته وهو بكامل زيه وسلاحه ممتطياً صهوة جواده، وقد سحب قوسه.

عندما عاد إلى بيته، وجد أن البطل الحديدي كان قد وصل وكذلك الكثير من المدعوين. لم يكن جميع الضيوف قد وصلوا بعد. وعندما جاء الضيوف كلهم، جمع جسير بوغدو أبناء شعبه وقدم لهم وليمة استغرقت تسعة أيام بلياليها. بعد ذلك ذهب البطل الحديدي للعيش في الساحة الحديدية الفضية كما أراد.

أما أشير بوغدو، الذي كان ذاهباً لجلب ابنه جاسير بايان خان، فقد وصل أخيراً إلى حدود مملكته التي هي تحت إمرة الخان.

عندما وصل كان الوقت خريفاً وأوراق الأشجار قد تغير لونها إلى اللون الأصفر وكانت تتساقط على جانبه، ولكن وراء حدود مملكة الخان كان الوقت ربيعاً. وتفتحت أوراق الأشجار وبدأت أوراق العشب تنمو.

جلس أشير على الحدود بين البلدين، وقال لنفسه: «سافرت فصل الصيف بأكمله، ووصلت إلى الحدود. ماذا سيحدث لي الآن ؟» وبدأ بالبكاء. بكى لبعض الوقت ثم دخن بعدها وتوجه بجواده إلى الأمام.

وفي الطريق التقى شاباً يمتطي جواداً أحمر بلون الدم. وفي أذنيه حلقات كبيرة مثل عجلات العربة، وعيناه بحجم الصحون، وكان وجهه أحمر. وأسنانه بحجم المجرفة. تبادلا التحية وقال كل واحد منهم انه يبحث عن عروس.

استمر أشير في رحلته إلى أبعد نقطة حتى التقى المانغاثي ذا السبعة والسبعين رأساً.

سأله المانغاثي: «إلى أين أنت ذاهب ؟».

فاجابه أشير: «ما شأنك في ذلك؟ إنها مسألة خاصة بي، الطريق مفتوحة أمامك. أنا أشير بوغدو. ما اسمك؟».

فقال المانغاثي: «أنا هو هشين آهاي، وأعيش في جنوب غرب البلاد. سمعت بميلادك ولكنني لم أعتقد أنك كبرت إلى هذا الحد. هل قتلت العديد من أمثالي؟».

قال أشير: «قابلت العديد من الرجال الأشداء وقتلتهم جميعاً».

«وهل ستستغرق وقتاً طويلاً في قتلي؟».

قفز المانغاشي من سرج حصانه. ونزل أشير من فرسه ونظر إلى المانغاشي. اقتربا من بعضهما البعض بحذر ثم اشتبكا. صارعا بعضهما البعض ثلاثة أيام بشراسة. قضم كل واحد منهما معظم اللحم من الجهة الأمامية من جسد الآخر. ومزقا بأصابعهما كل اللحم من الجهة الخلفية من جسم الآخر.

في مساء اليوم الثالث قتل أشير المانغاشي. ومزق جسده قسمين. ودفن الجزء الأول تحت تل في الجهة الغربية من الطريق. ووضع الجزء الثاني تحت تل في شرقي الطريق. ثم قتل الحصان ودفنه تحت تل ثالث.

امتطى أشير جواده وذهب بعيداً حتى وصل إلى مرج واسع جدا بحيث لم يتمكن من رؤية أي من جانبيه أو نهايته. ورأى بعيداً في الأفق بيتاً أسودَ يبلغ طوله فرسخاً ونصف الفرسخ. ومرتفعاً جداً بحيث يلامس السماء. كان سقفه من النحاس وعلى الأوتاد السبعة والخمسين أمام البيت سبع وخمسون جمجمة حصان. وعلى الأوتاد السبعة والخمسين الباقية عتاد من الأسلحة والدروع.

تأمل أشير ذلك ثم قال: «قال لي والدي إنه قضى على المانغاشي كلهم. لقد قتلت واحداً ولا أزال أعثر على المزيد منهم». عندما وصل إلى البيت حوّل نفسه إلى حيوان المرموط وحفر حفرة تحت الأرض. ولكنه لم يستطع اختراقها. لأن الأرضية كانت مصنوعة من الحديد. كان في الجانب الغربي من البيت ثقب صغير ترك سهواً. زحف أشير داخل الثقب. رأى داخل البيت مانغاشياً بسبعمائة رأس. هو أب الكثير من المانغاشيين العظام. وزوجته كانت هناك أيضاً. كانت مجازفة منه أن يهجم عليهما. لذلك تسلل أشير إلى الخارج بهدوء شديد. جعل جواده بطول مائة وتسعين قامة. وجعل نفسه ضخماً جداً بحيث يمس رأسه السماء. كانت رقبته هائلة. ومنظره رهيباً. وعندما تغير أشير إلى هذا الشكل صرخ على المانغاشي ليخرج لملاقاته.

قال المانغاشي: «من تجرأ على إيقاظي؟ من تجرأ على مناداتي؟» عندما رأى أشير سأله: «من هذا؟ من يكون؟ هل هذا بوركان؟».

سأله أشير: «أي نوع من المخلوقات أنت؟ لقد خوزقت سبعاً وخمسين جمجمة على أعمدة أمام بيتك المظلم؟ إنني هنا لأقاتلك. لقد أتيت لهذه الغاية».

قال المانغاثي: «أنت أشير بوغدو. إنني أعرف والدك ووالدتك. لن أقاتلك. أن والدك لم يؤذني قط».

قال اشير: «إذا لم ترغب بالقتال. احفر لي حفرة عميقة لي». وأرغم أشير المانغاثي على الحفر. حفر سبعة عشر يوماً. ثم أراد أن يخرج وأن يسحب بحبل. قال أشير: «لا أعتقد أن الحفرة عميقة بما فيه الكفاية». ثم دعا زوجة المانغاثي وقال لها: «اذهبي إلى الأسفل وانظري إن كان زوجك قد قام بعمل جيد».

قالت الزوجة: «لماذا ينبغي أن أذهب إلى الأسفل؟ إن زوجي يستطيع القيام بالعمل وحده».

قال أشير: «إنه لا يستطيع الحفر بسرعة كافية. لا يستطيع أن يحفر ويملأ الدلاء وحده بسرعة».

ترددت قليلاً فأمرها أشير قائلاً. «ادخلي في الدلو! أقول لك ادخلي!» دخلت الدلو على مضض. وقال أشير وهو يدليها إلى الأسفل: «يجب أن تكون الحفرة بعمق ستين قدماً». كانت تقيس المسافة وهي تنزل داخل الدلو. صرخ المنغاثاي قائلاً: «إن العمق قد بلغ الآن واحداً وستين قدماً. لقد أعْدَدْتهُ بعناية». قال أشير: «هذا يكفي. أرسلا كل الأدوات إلى الأعلى. «قاما بإرسال العدة. ثم أدلى أشير بالدلو إلى الأسفل. دخل المانغاثي الدلو أولاً. وسحبه أشير إلى الأعلى حتى وصل حافة الحفرة تقريباً. ثم سرعان ما قطع الحبل وسقط الدلو إلى الأسفل. فسحق المانغاثي وقتل.

صرخت زوجة المانغاثي قائلة: «كنت أعلم بخطتك هذه. إنك ماكر. لقد كنت لطيفاً ومتملقاً معي. لقد قتلت زوجي. استسلمت لكلماتك المعسولة وانتهيت. لربما استطعت أن أقاتلك وأسحقك لو بقيت هناك في الأعلى.»

ملأ أشير يوغدو الحفرة بحجارة هائلة الحجم. ثم قلب البيت رأساً على عقب. وأخذ كل ممتلكات المانغاثي وأرسلها إلى منزل والده.

سافر أشير إلى أبعد من ذلك. سافر إلى أن التقى بمانغاثاي بثلاثمائة رأس وفيه ثلاثون قرناً. صرخ قائلاً "لا تحسب نفسك بطلاً. لقد قتلت والدي وشقيقي. سوف أرد لك الصاع صاعين. لن تخدعني أو تتغلب عليَّ أو تحتال عليَّ".

قفزا من صهوة جواديهما وتوجها نحو بعضهما البعض. كان الاشتباك طويلاً ومروعاً. تصارعا اثني عشر يوماً بلياليها. تمزق كل اللحم من عظامهما. قدمت الغربان من الشرق

والشمال والجنوب. وهي تقول: "استمرا في القتال! استمرا في القتال! أعطونا اللحم إلى الأبد". قال المانفاشي: "دعنا نجرب السهام". ذهبا إلى قمتي الجبلين المتقابلين. في المساء شاهد أشير ماعزين برّين. فقتلهما برمح واحد ووضعهما على أسياخ لتشوى على النار. ثم اضطجع ونام. في صباح اليوم التالي بينما كان يأكل المعزتين صرخ المانفاشي قائلاً: "لقد قتلت والدي ووالدتي وشقيقي! لن تتجرأ على رمي سهمك قبل أن أرمي أنا أولاً".

لم يكن لدى المانفاشي سهم. لقد أراد خداع أشير لأن السلاح الوحيد الذي كان لديه هو فأس يبلغ عرضها ثمانين قامة. ألقى المانفاشي بالفأس. وفي منتصف الطريق استطاع اشير ايقافه بسحره. قال المانفاشي: "ما هذا؟ هل تعبتُ؟ هل أصبحت ضعيفاً بعد اثني عشر يوماً من القتال؟ هذه المرة الأولى التي أخفق فيها في إصابة الهدف. ما الذي حدث؟". ثم انطلق نحو فأسه.

هنا صرخ أشير: "توقف! سوف أرمي أنا الآن".

قال المانفاشي: "انتظر حتى الغد. لماذا أنت في عجلة من أمرك؟".

أجاب اشير: "حسناً. ربما لن يصلك سهمي. لِنَرَ من منا أكثر سحراً"!.

قال المانفاشي: "اتفقنا".

قرأ أشير في كتابه واكتشف بأن المانفاشي قد صنعه غالتا أولاف تانجيري. وأن للمانفاشي عمة تعيش بعيداً في السماء الجنوبية الشرقية وهي التي أبقت على حياته. حوّل أشير حصانه إلى حجر صوان ووضعه في جيبه. وحوّل نفسه إلى صقر وحلق بعيداً في اتجاه الجنوب الشرقي. طار تسعة أيام بلياليها حتى وصل في نهاية المطاف إلى منزل العمة.

جعل أشير نفسه الآن مثل المانفاشي تماماً وفيما هو يتقدم كان يبكي بمرارة. كانت العمة تعيش في بيت أبيض. ولها سن واحدة وعين واحدة. سمعت بكاء ابن أخيها. فخرجت من البيت قائلة: "لِمَ البكاء ؟ تعالَ هنا". فقدمت له صدرها ليرضع من حليبها.

قال المانفاشي المزيف: «لقد ظهر أشير بوغدو على وجه الأرض. وأنا لا أملك القوة الكافية للتغلب. عليه. امنحيني قوة كافية! أعطني الشجاعة !».

قالت له: «لم ترضع بالقوة المألوفة كعادتك. لقد رضعت القليل من الحليب. الآن خذ الكثير منه».

و هنا رضع بكل قوته وقال: «قلت لكِ بأنني فقدت قوتي جراء القتال فترة طويلة مع أشير

يوغدو.» هنا سحب الحليب منها بشدة. فانتزع منها الحياة. فسقطت على الأرض مغشياً عليها. داس عليها أشير وقتلها. ثم وجد صندوقاً ذهبياً. ركل الصندوق حتى انكسر. وجد بداخله ثلاث عشرة دجاجة. وضعها جميعاً في جيبه وانطلق بعيداً. سافر مدة تسعة أيام. وعاد إلى مكان القتال ثانيةً. لم يكن المانغاثي موجوداً هناك. كان قد ذهب لقتل أشير. حوّل نفسه تماماً مثل أشير وارتفع عالياً حتى وصل إلى ايسيج مالان وقال له:

«ماذا فعلت بي؟ إن المانغاثي يقاتلني ولا أستطيع التغلب عليه. أعطني المزيد من القوة. ما يكفي من الشجاعة. أعد لي حياتي».

لم يتعرف إيسيج مالان على المانغاثي. وأعتقد أنه أشير. وقدم له حياة أشير. في تلك اللحظة جاء أهي لأورينغ إبى وقال لايسيج مالان:

«لقد خُدعتَ. هذا مانغاثي».

«كيف خُدعت؟».

«خدعت. لم تكن تلك عيني أشير. إن عينيه مختلفتان تماماً. خذ منظار الفحص وانظر إلى المانغاثي.»أخذ ايسيج المنظار الوردي ورأى المنغاثاي يطير كالغراب. نظر إليه طويلاً. ولاحظ بأن الغراب تحول إلى مانغاثاي عندما حط على الأرض. في تلك اللحظة دعا ايسيج هوهوداي. وقال له: « لقد خدعني المانغاثي. وأحتاج إلى مساعدتك».

أجابه هوهوادي: «سوف أساعدك». وعلى الفور أرسل إلى المانغاثي مطراً وبرداً من الدم وبرقاً محززاً ومتدفقاً حتى مزقه هو وجواده وحوّلهما إلى شظايا».

كانت حياة أشير على الأرض. فأرسل ايسيج مالان شلموصين (روحين خفيتين) لإعادته مرة أخرى.

تحول الشلموصان إلى غرابين. ذهبا إلى الأسفل ووجدا الحياة وجلباها معهما وقدماها إلى ايسيج مالان بعد انتظار دام بضعة أيام على الجبل. لم يستطع أن ينتظر أكثر من ذلك. سحق الدجاجات البالغ عددها ثلاث عشرة وذهب بعيداً. بعد فترة وجيزة التقى مانغاثاي آخر. أكبر من أي مانغاثاي رآه سابقاً. كان له ألف رأس. كان الفك الأسفل للرأس الرئيس يصل إلى الأرض وهو واقف. والفك الأعلى يلامس السماء. تقدم إلى الأمام فاتحاً فكيه وبدأ بسحب أشير إلى داخل فمه بأنفاسه.

تسابق الفارس والجواد إلى داخل ذلك الفم الهائل ولم يكن لديهما القدرة على مقاومة تيار هذا النفس. وفي الحال حوّل أشير جواده إلى رقاقة حجر صوان وحوّل نفسه إلى صخرة سوداء بحجم جواد كبير. تدحرجت الصخرة وأسرعت إلى داخل فم المانفاثي إلى لسانه مباشرة. وكانت يدا أشير وذراعاً مصنوعتان من الحجر. فعلقت في حلق المانفاثي وقاومت البلع. لم يستطع بلع الصخرة الكبيرة إلى الأسفل ولم يستطع أن يبصقها خارجاً. كافح طويلاً وهو يئن ويزأر في عذاب شديد مدة سبعة أيام بلياليها.

وقال في سره «هذا بالتأكيد أشير بوغدو. فهو الوحيد الذي يستطيع التغلب عليّ» وصرخ فيه «اقتلني إن شئت. وإلاّ فأخلِ سبيلي!».

ليس هناك دعاء أو تضرع يستطيعَ أن يحرك الحجر. ولكن في اليوم العاشر اخترق اللسان.

طلب أشير الآن أسلحة من ايسيج مالان. فلبى طلبه وظهرت الأسلحة. فقطع رئتي المانفاثي فسقط ميتاً على الأرض.و خرج أشير وأخذ فأس المانفاثي التي كان يبلغ عرضُها خمسين قدماً. فقطع بها كل رؤوس المانفاثي وكل أضلاعه. كان شيء ما يتحرك داخل جوف المانفاثي: خرج من جوفه ثعبان رهيب. فتح أشير جسم الثعبان فخرج منه ثلاثمائة وخمسة وسبعون شخصاً على قيد الحياة. كانوا يضرمون النار ويطبخون الطعام. سألوا أشير بوغدو قائلين: «ما اسمك؟ لقد عشنا هنا فترة طويلة. لا تتغير المواسم في هذا المكان. لا ربيع ولا صيف ولا خريف ولا شتاء. يا لك من بطل صنديد! لقد أنقذتنا. نتمنى أن تحقق كل آمالك وكل ما تريد». قال لهم أشير: «اذهبوا إلى الأماكن التي أتيتم منها. اذهبوا إلى الأرض التي عشتم فيها من قبل. لقد حاربت سنين طويلة مع هذا المانفاثي ووالده وأخيه. اعتزم الآن الذهاب لإيجاد عروسي وسوف أذهب إليها». قتل فرس المانفاثي. وامتطى فرسه وانطلق إلى أن وصل أخيراً إلى بيت حَموِه. وهو أحد كبار التانجيريين.

سأله التانجيري: «ما الذي أتى بك هنا أيها المخلوق الأرضي؟»

«لقد أتيت من أجل ابنتك».

قال التانجيري: «انتظر حتى أقرأ كتابك».

أعطاه أشير كتابه. قرأ التانجيري الكتاب واكتشف كيف حارب أشير المانفاثيين. وقرأ كل

مآثره. قرأ ثلاثة أيام وانتهى. قال تانجيري: «الآن اقرأ أنت كتابي.» قرأ أشير كتابه كله مدة خمسة عشر يوماً. وقال له تانجيري: «أنت أستاذ في القراءة. أنا لا أستطيع قراءته في خمسة عشر يوماً. الآن ينبغي عليك أن ترى عروسك. وفتح الباب لأشير باحترام.

سألت العروس: «تحية لك! من أين أتيت؟».

«لقد جئت إليك. هناك العديد من الفتيات على الأرض. ولكنني سمعت عن جمالك الأخّاذ وجئت».

قالت: «هناك رائحة كريهة على الأرض. لذا لا أستطيع العيش هناك».

أجاب أشير: «هناك منازل في الأرض بنفس منزلة البيوت هنا. لو كان الجو سيئاً لمات الناس جميعاً ولكنهم يعيشون عيشة كريمة. البوركانات يأتون إلى الأسفل لزيارتنا ويتناولون الطعام في بيوتنا».

قالت العروس: «اسمح لي أن أقرأ كتابك». قرأت كتابه. ثم عانقته وقالت له: «إغفر لي! لم أكن متأكدة من أنه أنت».

قال أشير: «يجب أن يكون حفل الزفاف غداً. لقد قضيت وقتاً طويلاً في الكفاح. كم رحلة رهيبة قطعتها حتى أصل هنا».

قالت العروس: «عرفت كل صراعاتك ورحلاتك. وكنت أعلم بقدومك». وفي اليوم التالي جمع تانجيري كل شعوب السماء واحتفلوا تسعة أيام بلياليها في عظمة وأبهة.

وعندما تهيأ للرحيل قدم والد العروس لابنته جواداً رمادياً يبلغ طوله تسعين قامة. وقدحاً من الفضة لا يغرق ولا يتحرك مع الموج عندما يلقى في النهر.

وقبل البدء بالرحيل حوّل أشير وعروسه فرسيهما إلى حجري صوان صغيرين. وجملاً الهدايا التي قدمت لهما كلها أشياء صغيرة ووضعوها في جيوبهما. ثم أصبحا غرابين وطارا إلى الأسفل حيث بيت جسير بوغدو. وهناك اتخذا أشكالهما الحقيقية ثانية واستعادا خيولهما وهداياهما إلى حجمها الطبيعي. ثم جمع جسير بوغدو شعبه واحتفلوا تسعة أيام بلياليها. كما لم يحتفلوا من قبل قط.

الفصل الثاني عشر
أساطير وحكايات شعبية منغولية

بورولداي بوغدو خان، رقم ١

كان هناك خان يُدعى بورولداي بوغدو. وكان يبلغ من العمر سبعين عاماً. وكانت زوجته تبلغ من العمر ستين عاماً. ولم يكن لديهما أولاد.

قام الخان في أحد الأيام بإخراج كتاب من رأسه وقرأ فيه. ورد في ذلك الكتاب أن الخان لم يقم بإحصاء ماشيته منذ خمسين عاماً. لذلك، انطلق من أجل أن يجدها ويعدها.

اكتشف الخان في أحد الأماكن أن عدد الماشية لم يزدد، وأنها كانت نحيلة وجائعة، ولم يكن لديها إلا القليل من الماء لتشرب.ذهب الخان أبعد من ذلك ووجد فرساً معها مُهر. تراءى للخان أن هذا المهر كبيرٌ كجبل، وبالنظر إليه بدأ بالبكاء، وكان يقول في ذهنه:

«سيصبح هذا المهر جواداً رائعاً، ولكن ليس لدي ولد أو بنت ليمتطيانه». من ثم قال للمهر «عمري سبعون عاماً، وعندما تُصبح مناسباً للسرج لن يكون هنالك أحد ليُخضعك ويمتطيك. أنا كبيرٌ جداً في السن وليس لدي ولد أو بنت».

عندما وصل الخان إلى المنزل، كان لا يزال يبكي بمرارة. «لماذا تبكي؟» سألته زوجته، وعندما رفض الإفصاح لها عما يُبكيه، خرجت وعادت بحبل من الوبر وهددت بأن تشنق نفسها إن لم يُخبرها. عندها قال «أنا أبكي لأنني رجل عجوز وسأصبح طاعناً بالسن. لقد رأيت اليوم مُهراً رائعاً ولكن عندما سيصبح مناسباً للسرج لن يكون هنالك أحد ليمتطيه. إذ ليس لدينا ولد أو بنت».

قالت الزوجة «لا تبكِ! على الرغم من أنني امرأة عجوز لم أفقد الأمل في إنجاب ولد أو بنت، ولكن إذهب أنت إلى خلف الجبل، إلى بيت الكهنة السبعة وتوسل إليهم ليتنبئوا لنا».

ذهب بورولداي بوغدو خلف الجبل ووصل إلى خيمة مربعة كبيرة ولكن لم يجد لها باباً. مشى الخان حول الخيمة ولم يكن هنالك باب يمكن رؤيته. عندها قال لنفسه «أي أحمق أنا! عد إلى الخلف مقدار عشر ياردات واركض واركل الباب بكل قوتك». فعل هذا فانفتح سبعون باباً أمامه. كان في الداخل سبعة كهنة، ولكنهم كانوا صامتين.

توسل الخان بهم أن يتنبئوا له. توسل في اليوم الأول، وتوسل في اليومين الثاني والثالث.

عندها سأله أصغر الكهنة، دون أن ينظر إليه، «لماذا كل هذه الضوضاء الحمقاء؟ رغبتك هي الحصول على أطفال: هنالك طفل في الخيمة أصلاً».

عاد بورولداي بوغدو إلى بيته فوجد أن طفلاً قد وُلد له، ولكن لم يكن ممكناً لسكين أو فأس أن تقطع حبله السري. أخذ الأب حبلاً من الوبر وربط أحد طرفيه بالطفل وربط الطرف الآخر بحصانه ولكن الحبل انقطع: عندها بكى الخان، وتوسل بحصانه أن يخبره ما الذي يجب أن يفعله، فقال الجواد:

«خذ شعرة من ذيل المهر الرائع، واربط طرفها حول الطفل وأعطني الطرف الآخر».

امتطى الخان جواده خارجاً إلى الحقل، حيث كان المهر في المرعى، ولكن المهر لم يدعه يقترب منه. أخيراً، وجد الخان شعرة طويلة علقت بأجمة من الشوك، فأخذها إلى البيت، وربط أحد أطرافها حول الطفل وأعطى الطرف الآخر للحصان. سحب الجواد فانتصب الطفل واقفاً.

في سبعة أيام لم يكن لجلد خروف بعمر سبعة أعوام أن يُغطي الطفل. عندما أصبح الطفل بعمر عشرة أشهر اعتنى بالماشية، وكان في كل مكان.

في أحد الأيام رأى الولد ذئباً، وسأل أباه ما هذا.

«إنه رفيق شجاع، اقتله» أجاب الأب. طلب الولد سهماً وقوساً. أخذهما وقتل الذئب. «ما أروع ولدنا هذا!» قال الأب والأم العجوز لبعضهما البعض.

في أحد الأيام، وصل الولد إلى مرعى مفتوح وجميل، وقرر أن يبني خيمة هناك. بعد بناء الخيمة، تعب الولد فاستلقى ليرتاح. تمنى أن ينام سبعة أشهر ولكن في الشهر الرابع، جاهدت الأم بكل الطرق لتوقظه، وأخيراً وخزته بمبردٍ في أخمص قدمه، فانتفض واقفاً.

«بينما أنت نائمٌ، وُلدتْ لك أخت»، قالت الأم، «ولكن شخصاً جاء عن طريق فتحة الدخان واختطفها».

«اكتبِ التماساً إلى أيسيج مالان للحصول على جواد. ما الذي أستطيع فعله بلا جواد حكيم؟». قال الولد لأبيه. كُتب الالتماس، وأجاب أيسيج مالان. «هنالك جواد وأسلحة على القمة المستوية للجبل الأحمر».

أخذ الولد ثلاثة براميل من التاراسان وثلاثة خراف، وأدى مراسيم الإراقة، وأكل وشرب، ومن ثم ذهب إلى الجبل الأحمر.

بعيداً عند حافة السماء رأى جواداً: جاء الجواد قريباً منه، وركض حوله، ولكن لم يستطع الولد أن يمسكه. وأخيراً ناداه الجواد قائلاً «إذا كنت أنت سيدي الحقيقي اضربني في القلب، سيمر السهم خلاله دون أن يسيل الدم: وإذا نزف دماً، فأنت لست سيدي، ولكنك عدو شرير».

رمى الولد السهم، ولم يسِل الدم.

قال الجواد «اركب فوقي ! أنت سيدي».

عندما امتطى الولد ظهر الجواد، ركض الجواد ثلاثين يوماً مُحاولاً أن يُسقطه عن ظهره، ولكنه لم يستطع. صرخ الولد أخيراً بغضبٍ شديد «هل تتحامق معي؟ أنا سيدك الحقيقي! سأقتلك!».

أجاب الجواد «كان يجب أن أمتحنك وأختبر قوتك، الآن سأخدمك بإخلاص».

انطلقا فوراً للبحث عن الأخت. سافرا مراراً حتى وصلا إلى مملكة أخرى. رأى الولد أثراً وظن أنه لأخته: وبعد أن تتبعه عدة أيام، انتهى الأثر عند أسفل صخرة. وقف الولد، وأخذ بعضاً من التبغ، ورمى بعضه للآلهة، ومن ثم دخّن. بينما كان يُدخن، ظهر شاب على جواد أسود يعدو آتياً من الغرب. كان ابن الخان زودوك شين ميرجن زوبون زود. حَيَّا الشابُ الولدَ، وقال إنه يبحث عن أخته الرضيعة.

بعد ذلك ظهر شاب من الشرق على جواد رمادي، وكان ابن الخان غازار زارا. من ثم ظهر من الجنوب الغربي شاب ثالث هو، نادور غاي ميرجن، على جواد كميت (كستنائي اللون). كان كلُ واحد منهم يبحث عن أخته الطفلة الرضيعة، وكان كلُ منهم قد تبع أثراً أوصلهُ إلى الصخرة. شكّل الأربعة مجلساً، وقرروا أن أخواتهم لا بُد أن يكُنّ أسفل الصخرة الكبيرة.

«قال الشاب الأول للثاني، إرفع الصخرة!».

فقام برفعها حتى غار في الأرض إلى ركبتيه. رفع الشاب الثالث الصخرة حتى غار في

الأرض حتى خصره. رفع الشاب الرابع الصخرة حتى انغرس في الأرض إلى أكتافه. من ثم غضب الأول وقال: «ما الفائدة التي جنيناها حتى الآن. إذا لم نستطع أن نفعل شيئاً؟» وأخذ بقبضتيه الصخرة ذات التسعة والتسعين بوداً (وحدة وزن روسية تُعادل 16.4 كغم) من الوزن. وقذفها خلف سبعة أودية. ووجد أنها كانت تُخفي حفرة عميقة.

قال الشباب «الآن. يجب على أحدنا أن يذهب ويأمر حدّادي السماء التسعة المقدسين أن يصنعوا سلسلة طويلة بحيث تصل قاع هذه الحفرة».

لم يرغب أي منهم في الذهاب. أخيراً ذهب ابن بورولداي بوغدو بنفسه وتوسل للحصول على سلسلة بطول تسعمائة «ساش». طويلة جداً بحيث أمضى الحدّادون التسعة تسعة أيام في صنعها.

جاء الولد بالسلسلة إلى الفتحة وقال «أياً كان الذي سيذهب إلى الأسفل. سيسحبه بمجرد أن يهُز السلسلة». من ثم طلب من زودوك أن يذهب أولاً.

نزل الشاب إلى الأسفل مسافة مائتي ساش. وخاف عندها. فقام بهز السلسلة. نزل الشاب الثاني إلى الأسفل مسافة أربعمائة ساش. ومن ثم هز السلسلة. نزل الشاب الثالث إلى الأسفل مسافة ستمائة ساش. وهز السلسلة. وقاموا بسحبه.

قال الشاب. «لقد وصلت إلى القاع. لم يكن هنالك فتحة سوى حفرة صغيرة بحجم ثقب إبرة».

غضب ألتون. ابن الخان العجوز. غضباً شديداً حينها. وقال للشباب الثلاثة. «إن لم يكن لديكم إلاّ القليل من القوة. فلماذا أتيتم للبحث عن أخواتكم؟». من ثم حرّر جواده وقال له «قف حراً. وانتظرني برهة. إذا ما أطلت الغياب. عُد إلى البيت. في كل الأحوال. إحذر من هؤلاء الرجال الثلاثة. فمن الممكن أن يُحاولوا قتلك».

نزل الولد إلى الأسفل على كامل طول السلسلة: وكانت أقصر بمائة ساش. فكر وفكر. وأخيراً قال لنفسه «من غير اللائق أن أصعد. بعدما تعهدت بأن أصل» لذلك. قفز وسقط على جنبه. وكسر جميع أضلاعه. وغاص في الأرض حتى منتصف جسده. كانت هنالك مساحة واسعة. ولكن لم يأته أحد. واستلقى هنالك تسع سنوات. أخيراً. زحفت فأرة وصنعت عشها في ثيابه. عندما رأى ذلك فكّر «أنا نصف حي فقط. لو أنني كنت حياً بالكامل. لما بنت الفأرة عشها في ثيابي». مع هذا قام بضرب الفأرة. وسحق أحد جوانبها. زحفت الفأرة بعيداً. ووجدت عشبة وأكلتها. فعادت كما كانت من قبل.

زحف ألتون على الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال. زحف حتى وجد عشبة من النوع نفسه. أكل العشبة، وأكلها فأصبح كما كان. مشى عندها حتى وصل إلى مكان مفتوح وأبعد من ذلك إلى مرج كبير، ورأى هناك نسراً عجوزاً لم يكن يقدر على الطيران. سأل ألتون النسر: «ما الذي يُتعبك؟» أجابه النسر «أنا مغطى بالكثير من القروح بحيث لا أستطيع أن أتحرك. اذهب أنت واحضر لي ماء الحياة من تسعة ينابيع».

أحضر ألتون الماء، وشرب النسر العجوز منه، وطار مرتفعاً في الهواء. قال النسر «عندما تحتاج إلى صديق نادني. وسأحضر لك».

سار ألتون في المرج، وأبعد من ذلك، حتى وصل إلى جبل ذي قمة مستوية: تسلق الجبل، ورأى أناساً يقفون هناك بعدد الأشجار المزروعة. اقترب أكثر ورأى مائة من القدور فوق نيران موزعة هنا وهناك. كان لحم الرجال والوحوش معاً يغلي في القدور. حوّل نفسه إلى رجل عجوز ذابل، وتوجه إلى أحد القدور، وسأل الرجل الذي يقف بقربه. «لمن كل هذا اللحم الموجود في المائة قدر؟».

أجاب الرجل «إنها من أجل مانفاشي ذي مائة رأس».

ليس بعيداً من هناك، كانت خيمة المانفاشي، وكان ينام خلف سبعين ستارة. وعلى اليمين سبع ستائر، وخلفها الزوجات الأربع للمانفاشاي.

سألت إحدى الزوجات عندما ذهب إلى الخيمة «من أين أتيت أيها العجوز؟».

«أنا راعي ماشية زابميام ياما: ضلت بعض أبقاره وخيله بعيداً، وأنا أبحث عنها».

قالت المرأة «لم يرها أحد هنا».. ولكن عندها فقط نظرت في عينيه، وفكرت «بالرغم من أن هذا الرجل عجوز إلا أنه يمكن أن يكون أخي». بينما كان ألتون يستدير ويهم بالرحيل سارعت خلفه وقالت «أنا أختك، ولكن لا تقلق علي: أنا سعيدة هنا. لا تتعارك مع المانفاشي، لأنه ساحر عظيم».

«أنا ابن الخان بورولداي بوغدو. يجب أن أكتسب المجد. سأقاتل المانفاشي وأحررك» أجاب ألتون. لم تستطع أن تثنيه عن ذلك فقالت له: «سأخبرك سراً. على يمين الباب، لدى المانفاشي ماء الحياة، وعلى اليسار لديه ماء سام. حتى لو التقطت رائحة الماء السام فسوف تموت».

قال الأخ «لدي سحر أيضاً. أستطيع أن أغير ماء الحياة إلى ماء سام والماء السام إلى ماء

الحياة. بحيث عندما يشرب أحدهم من ماء الحياة سيكون كأنما شرب من الماء السام. وعندما يشرب من الماء السام سيكون كأنما شرب من ماء الحياة».

على عمود بالقرب من الخيمة كان يوجد هذا النقش: «إذا ما رغب شخص ما في قتالي. فليذهب إلى قمة الجبل المقابلة وينتظر حتى آتيه».

شرب ألتون ماء الحياة. وذهب إلى الجبل. وجد أمامه ماعزين. فامسك بهما. ولَوَى رقبتيهما. ثم سلخهما ووضعهما ليشويهما على أسياخ أمام النار. رأى الكثير من عظام الحيوانات وعظام البشر: أخافه هذا. ولكنه قال لنفسه: «لقد شربت من ماء الحياة. سيشرب المانغاثي من الماء السام. وسأقهره» واستلقى كي ينام.

بعد وقت قصير امتطى المانغاثي جواده صاعداً. ومعه فأس وسبعون وتداً ومطرقة بوزن تسعين بوداً. صرخ المانغاثي «أي نوع من المحاربين أنت؟. تستلقي على أرضي. وتشوي ماعزي؟ سأقتلك بنفخة واحدة!».

ضرب ألتون بالفأس. ولكن الفأس لم تؤثر فيه البتة . من ثم جرحه في جانبه الأيمن وأحدث فيه جرحاً صغيراً. وأخذ الأوتاد ليُدخلها فيه. ولكن الأوتاد ارتدت. وطارت مرتفعة في الهواء. وهامت بعيداً باتجاه المحيط. ثم ضربه بالمطرقة. فانكسرت من منتصفها وطارت بعيداً إلى البحر. أصبح المانغاثي بذلك بدون سلاح. صاح بغيظ «أي رجل أنت على أرض رجل آخر».

استيقظ ألتون. وانتفض من موضعه وقال « كم من الوقت نمت؟ لقد كانت البراغيث تقرصني» وفرك جنبه. عندها رأى المانغاثي. وفي الحال بدأ بالقتال. حاول أحدهما أن يُمسك بالآخر ثلاثة أيام. ومن ثم تقاتلا ثلاثين يوماً. ولكن لم يستطع أيٌ منهما أن يتغلب على الآخر. في النهاية قال المانغاثي «أنا عطشان. فلننزل إلى الخيمة ونشرب من ماء مقوٍ». نزلا. وشرب ألتون من ماء الحياة. وشرب المانغاثي من الماء السام. والتي غيرها ألتون بسحره».

عادا إلى الجبل. ومن ثم تقاتلا ثلاثين يوماً أخرى: أصبح المانغاثي أضعف قليلاً.

مرة أخرى. أخذا قسطاً من الراحة. وشرب ألتون من ماء الحياة وشرب المانغاثي من الماء السام. أثناء الأيام الثلاثين الثالثة ضرب ألتون المانغاثي بالشجرة تلو الأخرى حتى أصبحت جميع جذوع الأشجار ملطخة بالدم. من ثم قتل المانغاثي بغضب عارم وانتزع رؤوسه المتعددة من جسده».

صنع ألتون طاحونة، وسحق جسد المانغاشي ورؤوسه، وأحرق الكتلة حتى أصبحت رماداً، ونثر الرماد في الهواء، فحملتها الريح بعيداً إلى المحيط. نزل ألتون عن الجبل وجمع الناس وأخبرهم أن سيدهم قد مات، وأنهم أصبحوا أحراراً. قالت أخت ألتون، «ولكن لديه ولد أسفل هذه الأرض بمسافة سبعة ساشات وتحت غطاء من الذهب».

رفع ألتون الأرض، ورفع الغطاء الذهبي، وأخرج المانغاشي الصغير. أوقد ألتون ناراً ورماه فيها، ولكن النار لم تحرقه.

قالت أغوي نا غون، أخت ألتون، «إذا ما عاش عشرة أيام سيكون قادراً على قتل عشرة آلاف من الناس، وإذا عاش عشرين يوماً فلن يتغلب عليه مائة ألف. اقتله بسرعة!».

بنى ألتون تنوراً كبيراً ووضع المانغاشي الصغير فيه. استغرق حرقه تسعة أيام وتسع ليال: من ثم حمل ألتون رماده إلى أم الولد، والتي كانت نفسها مانغاشاي، وسألها «أيهما تفضلين الحصول عليه، ذيول سبعين جواداً، أم قمم سبعين شجرة؟».

قالت المانغاشي: «أستطيع أن أصنع حبالاً من ذيول الخيل، ومن الممكن أن أصنع الخشب من قمم الأشجار».

أحضر ألتون سبعين جواداً وربطها بأذيالها. أخاف هذا العمل، فركضت في جميع الاتجاهات ومزقتها إلى قطع. جمع ألتون القطع وأعاد الحياة إلى المرأة، ووضعها على خازوق يتكوّن من سبعين قمة من قمم الأشجار، وماتت.

قلب ألتون البيت رأساً على عقب، وأخذ ما أعجبه منه، وساق الماشية أمامه، وذهبت معه النساء الأربع إلى الحفرة التي كانت فيها السلسلة، وحمل كل شيء إلى الأعلى بواسطة السلسلة، ومن ثم طلب من النسوة الأربع أن يصعدن.

ألّحت أخته عليه قائلة «إصعد أنت أولاً! قد يكون هنالك أعداء في الأعلى».

أجابها ألتون «لم يكن لي أعداء غير المانغاشي، وقد مات».

صعدت النسوة إلى الأعلى ولحقهن، ولكن قبل وصوله إلى أعلى السلسلة مباشرة كانت قد قُطعت، وسقط إلى القاع، وانغرس في الأرض حتى ذقنه.

تذكر ألتون النسر، وناداه فأتى. قال النسر «أنت في ورطة كبيرة، ولكني سأذهب لإحضار ماء الحياة».

عندما شرب ألتون من ماء الحياة خرج من الأرض وأصبح كما كان من قبل. قال ألتون «لقد أنقذتك مرة، وأنت رددت الجميل لي. ولكن هل تستطيع أن تخرجني من هذه المملكة الموجودة تحت الأرض؟».

أجاب النسر «سوف آخذك على ظهري. ولكن أحضر لي أولاً بعض اللحم لآكله، كي استجمع بعضاً من قوتي».

وجد ألتون عنزة في الريف المفتوح، فذبحها، وأعطاها للنسر. بعد أن أكل النسر، أخذ ألتون على ظهره وطار مرتفعاً، ولكن قبل أن يصل إلى الأعلى ببضع ساشات أصبح النسر ضعيفاً، وبدأ في السقوط.

قطع ألتون لحماً من فخذه وأطعمه الطيْرَ، ولكن في اللحظة التي أكل فيها النسر من اللحم سقط إلى القاع.

قال النسر «أنا مريض، وقد أموت».

انطلق ألتون لإحضار ماء الحياة ليُعيد الحياة إلى الطير.

سأله النسر «لماذا أعطيتني لحمك؟ كان يجب أن أبذل كل جهدي لأحملك إلى الخارج، ولكني لن أستطيع أن أخرجك من هذا المكان الآن، كما ترضى».

حزِن ألتون حزناً شديداً، ووضع يديه خلف ظهره ومشى مبتعداً، وقال «لقد نزلت هنا منقذاً، وليس مؤذياً. لمَ أعاقب هكذا؟» واستمر بالسير حتى وصل إلى سقيفة مصنوعة من القش. كان هنالك بداخل السقيفة رجل وامرأة عجوزين يقومان بعد قطع نقد فضية، وكانا يتجادلان.

قال أحدهما «لدي الكثير» وقال الأخرى «لدي أكثر». عندما رأيا ألتون نادوه، «تعال وقسّم القطع الفضية بيننا بالتساوي، وسنفعل ما تقول».

قام ألتون بتقسيم قطع النقود بالتساوي، وعندما سأله الرجل العجوز ما الذي يريده مقابل تعبه، «أرغب في العودة إلى بيتي، وهو في بلاد فوق هذه» قال ألتون، «اتبع نصيحتي، وافعل ما أقوله لك، وسوف تذهب. خُذ دودكياً (نوع من قصب السكر)، وعضه، وستصبح بذلك عند الحفرة، وعضه مرة أخرى، وستصبح ظرباناً وتتسلق حتى تتعب، وعضه مرة ثالثة، وستصبح عقعقاً وتطير عالياً، وعضه مرة رابعة، وستصبح غراباً أسودَ وتطير حتى القمة».

فعل ألتون ذلك، وعندما وصل إلى القمة اتخذ شكله الطبيعي، ووضع الدودكي في جيبه

وسافر. بعد قليل. وجد جواده مستلقياً على الأرض. وقد قضمت الذئاب قوائمه الخلفية بشكل رهيب.

كان الشباب الثلاثة قد حاولوا قتل الجواد. ففر منهم. وحاولوا اللحاق به على ظهور خيولهم. لم يستطيعوا أن يتغلبوا عليه. من ثم أحضروا تسعة ذئاب من ايسيج مالان باباي. قامت الذئاب التسعة بمطاردة الجواد. ووثبت عليه. وعضته. ولكنه هرب. ووجد طريقه عائداً لينتظر سيده، أو ليموت بالقرب من الحفرة.

ذهب ألتون إلى قمة الجبل الأحمر. وأحضر بعضاً من ماء الحياة. ورش جواده بها وداواه. فأصبح الجواد قوياً كما كان قبلاً. من ثم امتطاه ألتون وقاده باتجاه الغرب. وعاد إلى بيت زودو. بيت الجواد الأسود. عندما أصبح بالقرب من الخيمة جعل جواده حجر صوان ووضعه في جيبه. من ثم حول نفسه إلى ذبابة وجلس على حافة فتحة المدخنة. وأنصت فسمع أخت زودو تسأله «لماذا أسقطت الرجل الطيب في الحفرة؟» وأجاب الشاب «إذا كنت تشعرين بالأسف من أجله. لماذا لم تذهبي خلفه؟» ووبخ أخته.

طار ألتون عندها مبتعداً. واتخذ شكله الأصلي. وحول الصوان إلى جواد وامتطاه إلى الخيمة. عندما رآه الأخ والأخت شعرا بالخوف. فركض أحدهما باتجاه والثاني باتجاه آخر.

سأل ألتون «لماذا أنتما خائفان؟ من سيكون فوق الأرض. ومن سيكون أسفلها؟» واخذ الدودكي من جيبه ونادى زودو وأرغمه على عضه. وحالما فعل ذلك تحول إلى ثعلب وركض باتجاه الغابة.



المنفي الروسي مع شامانين بوراتيين اثنين واقفين إلى جانبيه.



عربتي جاهزة. الحداد الإيطالي

استولى ألتون على خيمة زودو وشعبه. وأرسل أخت زودو إلى بيته هو. من ثم ذهب بنفسه إلى خيمة الرجل صاحب الجواد الرُّماديِّ اللون. وحوَّل جواده إلى حجر صوان. وحول نفسه إلى ذبابة. وجلس على حافة فتحة المدخنة. وأنصت. سمع بعد قليل أخت الرجل تسأله "لماذا تعاملت مع الرجل الطيب بهذه القسوة ؟ لقد أنقذني من المانفاثي؟".

فأجاب الأخ "إذا كنت تشعرين بالأسف نحوه بهذا الشكل. فانزلي في الحفرة وموتي معه".

حول ألتون نفسه إلى شكله. وذهب إلى الخيمة. وقال:

"عندما كنت تحت في المملكة تحت الأرض. وجدت هدية لك". تَفَاجَأ كثيراً عند رؤيته. ولكن الأخ فرح بتلقي الهدية. جعل ألتون الدودكي يبدو جذاباً جداً. وأخرجه. وطلب من الشاب أن يعضه. وحالما قام الشاب بعض الدودكي تحول إلى ظربان وهرب إلى الغاب. استولى ألتون على كل شيء وأرسل الأخت إلى خيمته.

ذهب ألتون إلى بيت الرجل الثالث. وحول نفسه إلى ذبابة. وأنصت. وسمع الأخت تقول "لماذا قطعت السلسلة وقتلت الرجل الطيب؟"

أجاب الأخ "إذا ما كنت مغرمة به. لماذا لا تعودين إليه؟".

ولمفاجئة الرجل ولإبهاج الأخت. دخل ألتون إلى الخيمة. وطلب من الأخ أن يعض الدودكي. وفعل الشاب ذلك بسبب فضوله. وتحول في تلك اللحظة إلى عقعق وطار بعيداً. استولى ألتون على

ممتلكات ذلك الرجل وأخته. وذهب إلى الديار عائداً إلى خيمته. وهنالك وجد الأخوات الأخريات بالإضافة إلى أخته هو.

كان المكان كله قد أصبح في حال يرثى لها لأن أباه وأمه أصبحا عجوزين جداً. لم يتعرف والداه عليه. ولكن أخته عرفته. وكان هنالك فرح كبير.

تزوج ألتون من أخوات الشباب الثلاثة. واجتمع الناس وأقيم احتفال وولائم تسعة أيام وتسع ليالٍ.

بورولداي بوغدو، رقم 2

كان بورولداي بوغدو هو الأكبر من بين ثلاثين خاناً. وكان معلماً لثلاث وسبعين لغة. كان يبلغ من العمر سبعين عاماً. وكانت زوجته تبلغ من العمر ستين عاماً. لم يكن لديهما أطفال لسنوات عديدة. أخيراً. وخلف ثلاث وسبعين ستارة. وُلد لهما عشرة أبناء.

في إحدى الليالي. وبينما كان الجميع نياماً في الخيمة. خُطف الأب والأم. ولم يُعرف من الفاعل. عندما فتح الأطفال عيونهم صباحاً لم يشاهدوا أحداً. فوراً. أصبح أحد الأولاد طفلاً بعمر ثلاث سنوات وأصبح آخر طفلاً بعمر أربع سنوات. ذهبا باتجاه الغابة. وتحولا إلى سنجابين وبدأ بأكل الجوز.

في اليوم التالي. أتى سبعمائة رجل إلى الغابة بحثاً عن الولدين. ولكنهم لم يجدوهما.

عندما ذهب الرجال. اتخذ الولدان شكلهما ومشيا باتجاه الشرق حتى وصلا إلى خيمة ضخمة لها سبعمائة باب. أرسل الأخ الأكبر أخاه الصغير إلى الداخل ليرى أي نوع من الأماكن هذا. مشى خلال ثلاثة عشر باباً. ووصل إلى مانغاثي له ثلاثة وستون رأساً وستة قرون. وكان نائماً نوماً عميقاً. خاف الولد وبدء بالرجوع بهدوء. ولكن عندما وصل إلى الباب الثالث. استيقظ المانغاثي. وفتح عيون رؤوسه جميعها. وصاح:

«أياً كنت. إذا ما كنت نقياً. حَيِّني: وإذا لم تكن نقياً. فاتركني». من ثم رأى الولد فسأله:

«من أين أتيت؟».

«أنا ابن الخان بورولداي بوغدو».

صاح المانغاثي بغضب «لقد جرحني أبوك. وأصابني بأذى كبير. وجئت أنت الآن لتعذبني!». أمسك بالولد. وربطه. وقال «سوف آكلك غداً».

تعبَ الأخ الذي كان ينتظر في الخارج، وحول نفسه إلى سنجاب وعاد إلى الغابة.

ذهب المانغاثي إلى الغابة بحثاً عن سيخ ليشوي الولد. بينما كان هناك، التقى بتاجر عائد بسلع من دول مختلفة. قام المانغاثي بدعوة التاجر إلى خيمته واستضافه. سمع التاجر ولداً يبكي. «من هذا؟» سأل التاجر.

أجاب المانغاثي «إنه ابن رجل كان قد سبب لي أذى كبيراً. سوف آكله غداً».

قام التاجر بإعطاء المانغاثي سبعة براميل من نبيذ قوي. شرب المانغاثي النبيذ وابتهج. من ثم تحدثت بعض رؤوس المانغاثي عن الحرب، ونامت بعضها، وبكى بعضُها الآخر، وضحكت البقية.

قال التاجر «أعطني الولد! سوف أضعه لك على سيخي». أعطى المانغاثي الولد للتاجر، ولكن التاجر لم يقتله أو يضعه على السيخ. أخذ التاجر الولد إلى دياره وجعله إبناً له.

بكى الولد باستمرار. قالت زوجة التاجر «إنه خائف من المانغاثي. اذهب إلى الكهنة السبعة واطلب منهم ليتنبئوا. ربما يكون الولد مريضاً». ولكن الولد قال:

«أنا لست مريضاً. أنا أبكي من أجل أخي».

أرسل التاجر سبعمائة رجل للبحث عن الأخ، الذي ما زال سنجاباً، وبحث الرجال طوال تسعة أيام ولم يجدوه. عندها ذهب الولد مع الرجال للبحث عن أخيه. حول نفسه إلى سنجاب، وبدلاً من إيجاد الأخ، أضاع السبعمائة رجل الولد الذي أحضروه معهم.

التقى السنجابان، ولكن الأخ الأكبر لم يتعرف على الأخ الأصغر. «هل هذا عدو؟» اعتقد ذلك، وذهب مباشرة إلى ايسيج مالان.

تبعه الأخ الأصغر حتى باب خيمة ايسيج مالان، ولكنه لم يدخل. صاح الأخ الأصغر «أخرجْ يا أخي! إن لم تفعل سأخنق نفسي». لكن الأخ الأكبر لم يصدق أن السنجاب الآخر هو أخوه، ولم يخرج.

«عندي علامة ولادة بحجم عشرة من أطراف الأصابع أسفل كتفي الأيسر، وكذلك أخي» قال الولد الأكبر لايسيج مالان. «إذا ما كان لهذا السنجاب الشيء نفسه فهو أخي، وإن لم يكن، فهو عدوي».

وُجدت العلامة، واحتضن كل منهما الآخر. من ثم ذهبا إلى التاجر، الذي كان يجلد السبعمائة رجل بالسوط، أولاً لفشلهم في إيجاد الولد، و ثانياً لأنهم أضاعوا الآخر.

شعر التاجر بالسرور لحصوله على ولدين بدلاً من واحد. وجعلهما لرعاية الماشية. ولكنهما أهملا عملهما. وسلبت العجول الحليب كله من الأبقار. كاد التاجر يجلد الولدين بالسوط. ولكن زوجته لم تسمح له بذلك . سأل التاجر الولدين أين كانا ولماذا غابا طويلاً.

أجاب الولدان «لقد كنا نصارع ابن الخان لاراجا مينا».

في اليوم التالي. قادا الأبقار إلى البيت في وقت متأخر جداً. وكانت العجول قد أخذت كل الحليب من الأبقار. سأل التاجر «أين كنتما؟ لمَ لمْ تراقبا القطيع؟».

«لقد صعدنا إلى السماء لنطلب أقواساً وسهاماً من الحدّادين التسعة المقدّسين. ستكون أقواسنا وسهامنا جاهزة في سبعة أيام».

عند انقضاء الأيام السبعة. كان الحدّادون قد جهزوا الأقواس وجعبة من السهام لكل ولد. أخذ الأخوان أقواسهما وسهامهما إلى البيت. وأقام التاجر احتفالاً وولائم كبيرة.

قال لشعبه «لقد وجدت هذين الأخوين في الحقل الواسع. أطلب منكما أن تعطوهما أسماء».

أخرج التاجر قطعة من الزبدة بحجم كوب. وقطعة من اللحم بحجم صحن. أكل رجل عجوز الزبدة واللحم وقال:

«سأسمي الأخ الأكبر ألتن غوري. وسأسمي الأصغر مونغون غوري».

أعطى الشعب جواداً لكل ولد: للولد الأكبر جواداً أحمر بطول تسعين ساشاً. له أُذنَان بطول تسعة ساشات. كان للحصان أربعون سناً. أربع كبار وست وثلاثون صغيرة. أعطوا الولد الأصغر جواداً كميتاً طوله ثمانون ساشاً. له أُذنان بطول ثمانية ساشات. كان للحصان أربعون سناً. أربع كبار وست وثلاثون صغيرة. امتلك الولدان الآن كل ما يلزم المحاربين. وأصبحا جاهزين للارتحال حتى يجدا أباهما وأمهما.

سأل التاجر «عندما كنتما صغيرين. أخذتكما واعتنيت بكما دائماً. لماذا تتركاننا ونحن عجوزان؟».

«نحن ذاهبان للبحث عن أمنا وأبينا. ولكننا سنعود. حتى لو عشنا ألف عام فلن ننساك».

ذهب الأخوان إلى مكان ولادتهما. ولكنهما وجدا أن كل شيء قد انهار. باستثناء عمود ربط الخيل الذي وقف بالقرب من الخيمة. كان الأب قد كتب على العمود «إذا ما عاش إبناي. فليقرآ

هذا: «لقد أخذنا بوغو كورت زولوت. ونحن تحت سلطته. إذا ما استطعتم. أنقذونا! في ساحة بيت الخراف لحم ضأن، ووعاء حديدي مملوء بالأرسا [رائب صلب، حليب رائب]».

فتح الأخوان صومعة الحبوب، ووجدا علفاً لخيلهما، ووجدا لحم الضأن والأرسا. فأكلا وشربا. وكانا على وشك مغادرة المكان عندما لاحظا أنه كُتب على العمود أنه يجب عليهما أن يُسافرا مسافة ثمانية فراسخ كل يوم طوال ثمانية أيام.

كان قد مضى على سفر الأخوين ثلاثة أيام عندما التقيا بابني خان ما. علم هذان الأخوان، بسحرهما، بقدوم الأخوين، وفضلا أن يحارباهما. كانا قد أعدا جيشاً وأسلحة وكل ما يلزم .

تقدم الأربعة، ولكنهم عجزوا عن اتخاذ قرار حول من يبدأ الرماية أولاً. أخيراً قال ألتين غوري، الأخ الأكبر. إنه يمكن أن يبدأ ابنَا الخان بالرماية أولاً.

أمسك الأخوان بالسهام بواسطة السحر ووضعاها في سروجهما، من ثم ضحكا وقالا: «أنتما غير قادرين على الرماية، ومع ذلك تخرجان للحرب. الآن جاء دورنا. ثم قالا لسهام الأخوين «لا تخضعي لأي سحر ولكن اذهبي وانثري العدو كالرمل أمام الرياح». طارت السهام من الأقواس، وقُتل كل من ابني الخان. قام الأخوان بحرق الرجلين وجواديهما أيضاً. ذهب الأخوان إلى خيمة الرجلين الميتين، ووجدا زوجاتهما وأطفالهما، وقالا:

«لقد جئنا لرؤية أزواجكن. عندما جئنا إلى العالم، سرق شخص ما أبانا وأمنا. هل رأيتموهم؟».

أجابت النساء «لسنا إلا نساءً. لا حكمة لنا كالرجال. لا نعلم شيئاً». ولكنهن ضحكن في قرارة أنفسهن. «شعر قصير، وإدراك قصير» قالت الزوجات عند رحيل الأخوين.

سافر الأخوان باتجاه الغرب حتى أبصرا خيمة جميلة، وكانت مغلقة ومحروسة، ولكنها فُتحت بأمرهما. دخل الأخوان ووجدا أباهما وأمهما هناك، وكانت عيناهما ويداهما وأقدامهما اليمنى قد فُقدت. لم يتعرفا على ولديهما.

سأل الأخوان «أين كان بيتكما؟».

قال الرجل «في الأرض المقابلة. لقد كنت فيما مضى الأكبر من بين ثلاثة عشر خاناً وكنت أتقن العديد من اللغات، وقد وُلد لي ولدان. هل رأيتموهما؟».

«نحن ولداك. عندما كنا نائمين خلف ثلاث وسبعين ستارة، خطفت وأخذت بعيداً أنت

وأمنا وكل ما تملكان. على الرغم من أنكما والدانا. فقد ربانا تاجر ما. سنذهب لنأتي بماء الحياة. وسنجعلكما في حال جيدة مرة أخرى».

أحضر الأخوان قارورة من ماء الحياة. واستعادا عيون وأيدي وأقدام وقوة والديهما. من ثم أخذا أباهما وأمهما وجميع ممتلكات وعوائل أبناء الخان وذهبا إلى ديارهما وإلى خيمة والدهما المدمرة. والتي جَعَلاَها كبيرة وجميلة بواسطة السحر.

قال الأخ الأصغر «الآن. يجب أن نذهب إلى التاجر».

فأجاب الأخ الأكبر. إذهب أنت! سأبقى أنا هنا لأحرس أبانا وأمنا».

تجادل الأخوان وتنازعا. وفي النهاية ذهب كلاهما. كان التاجر مسروراً عندما رآهما. وأقام احتفالاً وولائم كبيرة دامت سبعة أيام وسبع ليالٍ.

قال التاجر «لقد أنقذتكما من الموت. عندما ضاع أحد الإخوة. أرسلنا سبعمائة رجل لإيجاده. كلف هذا كله الكثير من الوقت والثروة. يجب عليكما الآن ألا تتركانا. إذا ما رغبتما. سنذهب إلى خيمة والدكما. ولكن يجب ألا نفترق في أي حال من الأحوال».

قال الأخوان«تعال معنا».

جهّز التاجر كل شيء. وحمّل العربات بالذهب والثروات. وذهب هو وزوجته مع الأخوين إلى خيمة أبيهما.

لاحقاً وبمرور الوقت. أصبح كل من الأخوين خاناً عظيماً. ولكنهما عاشا دائماً مع أبويهما وأميهما.

شاراو

كان هنالك شاب يُدعى شاراو. كان ضجراً. وأخبر أمه في أحد الأيام أنه لو كان لديه مبلغ ضئيل من المال فسيخرج إلى العالم ويعقد صفقات ليزيده. أعطته أمه ما طلبه. وخرج ليبدأ حياته. التقى في الطريق برجل عجوز يحمل قطاً تحت إبطه.

سأل الشاب «أين تذهب بهذا القط؟». أجابه العجوز «أنا ذاهب لقتله. لأنه يُقاتل كلبي ويخدشه».

«لا تقتل القِطَّ بِعه لي» قال شاراو.

«جيد جداً. لكن ماذا سوف تعطيني مقابله؟»

«هل تقبل بمائة روبل؟».

لم يكد الرجل العجوز قادراً على إخفاء فرحته. فقال على مضض «نعم». ثم أعطى القط للشاب الأحمق.

عندها. ولأنه لم يعد لديه مال. عاد شاراو إلى دياره. ولكنه لم يكن قد ابتعد كثيراً حتى قفز القط من بين ذراعيه وفرّ مبتعداً.

عندما وصل إلى البيت. سألته أمه «ماذا فعلت بالمال؟».

أجابها الشاب «لقد ابتعت مستودعاً جيداً مليئاً بالحبوب وإذا ما كان لديّ مائة روبل أخرى. فمن الممكن أن أعيد الكرة».

أعطته أمه المائة روبل. وخرج عازماً على أن يكون حكيماً جداً هذه المرة. وعلى بعد مسافة قصيرة من خيمة والدته. التقى برجل معه كلب. سأله الشاب «إلى أين تأخذ هذا الكلب؟».

أجابه الرجل «أنا ذاهب لأقتله. إنه يُقاتل قطيّ. ويأخذ منه طعامه. وبسببه لا أحظى بالهدوء».

«لا تقتل الكلب. بِعهُ لي. سأعطيك كل ما لدي من المال». كان خائفاً من ألا تكون المائة روبل كافية لشراء الكلب. لأنه دفع المبلغ نفسه لقاء القط.

«سأعطيك مائة روبل مقابل الكلب».

كان الرجل مسروراً لأنه سيتخلص من كلب عديم القيمة مقابل هذا المبلغ الكبير من المال. وعاد الشاب باتجاه بيته. لكن الكلب قفز وسحب الرسن بشدة بحيث فقد شاراو صبره. أطلق سراحه أخيراً. وفر الكلب مبتعداً في الحال.

عندما وصل الشاب إلى بيته. سألته أمه ماذا فعل بالمال.

أجابها «لقد ابتعت المزيد من الحبوب. الآن. أرغب في الزواج. في مملكة ليست بعيدة من هنا يعيش الخان سازراي (خان طائر العقعق) . ولديه ابنة اسمها سارونغ-غوهونغ (نوع آخر من الطيور) . أود الزواج منها».

ذهبت الأم إلى الخان سازراي وقالت له «لدي ابن شاب طيب. ولديك ابنة جميلة. فلنزوجهما ونصبح أقرباء».

سأل سازراي «كيف يكون هذا ممكناً؟.كان والد ابنك تاجراً. وأنا خان. إذا ما قام ابنك ببناء جسر من الفضة من خيمتي حتى خيمتك، فسأزوجه ابنتي. وإذا لم يفعل فسأقطع رأسه».

عادت الأم إلى بيتها باكية. سألها شاراو «ما الذي يجعلك تبكين؟».

تنهدت الأم قائلة «يجب أن تجد لنفسك عروساً غيرها. يقول الخان سازراي إنك ابن تاجر ولا يمكن أن تتزوج من ابنته حتى تبني جسراً من الفضة من خيمته حتى خيمتنا، وإذا لم تبنِ هذا الجسر فسيقطع رأسك».

قال الشاب «إذاً، من الأفضل أن أهرب وأحتفظ برأسي». وخرج في الحال.و ذهب بعيداً، ومشى حتى وصل إلى غابة كثيفة. التقى في الغابة بالكلب الذي أنقذ حياته.

«آه، أيها الكلب» بكى شاراو. «لقد أنقذت حياتك، فساعدني الآن. يجب أن أبني جسراً من الفضة من أجل الخان سازراي، ولا أعلم كيف أفعل ذلك، لأني رجل فقير».

فقال الكلب «خذ هذا الخاتم، واذهب إلى بيتك، وانظر إلى الشمس، واصنع ثلاث دوائر بيدك، وقل بينما تستدير، 'فليُبن جسر من الفضة الليلة من خيمتي حتى خيمة الخان سازراي».

فعل الشاب ما قاله له الكلب، وعندما استيقظ في الصباح التالي، كان جسر الفضة موجوداً. ذهب إليه، وأخذ فأساً وبدأ بالعمل، كمن كان يُنهي مهمة صعبة. أتى الخان لينظر إلى الجسر، وتفاجأ بشدة، ولكنه قال «لماذا تأخرت في العمل، ألم تكن ساعات الليل كافية؟».

قال شاراو«لقد بنيته في ليلة واحدة، إذا ما استطاع أي رجل أن يبنيه في وقت أقل فيمكنه الحصول على مطلبي في الزواج بابنتك».

قال الخان «سنُقيم حفل الزفاف في سبعة أيام».

بعد حفل الزفاف، ذهبت ابنة الخان لتعيش مع زوجها، ولكنها استاءت وتذمرت بمرارة.

سألت«كيف يُعقل هذا؟، تستطيع أن تبني جسراً من الفضة، ومع ذلك تعيش في هذه الخيمة القديمة الرثة؟».

لم يقل الشاب شيئاً عن الخاتم وإنما أخفاه بعناية شديدة. كان ينام في الليل والخاتم في فمه. في إحدى الليالي سعل الشاب فطار الخاتم وسقط على الأرض، ولكنه التقطه بسرعة.

سألت الزوجة «ما هذا؟ ما الذي تخفيه في فمك؟». وعندما رفض أن يخبرها، ضايقته

ليلاً ونهاراً حتى سئم مضايقتها له وأخبرها أنه خاتم له قوة سحرية تمكنه عند النظر إلى الشمس وصنع دوائر ثلاث بيديه أثناء الدوران من تحقيق أمنيته. أياً كانت تلك الأمنية.

توسلت سارونغ-غوهونغ قائلة «اسمح لي أن أحفظه لك. أخشى أن تفقده». وضايقته طوال أسبوع كامل. واستمرت في ذلك حتى أعطاها الخاتم.

كان لسارونغ-غوهونغ عشيق في مملكة خلف البحر. وفي تلك الليلة بينما كان زوجها نائماً، عزمت على ألا تنتظر. ولكنها ستنهض مع الشمس. وتجرب قوة الخاتم. لذلك. وعند شروق الشمس. صنعت الدوائر وتمنت. وأصبحت في تلك اللحظة مع عشيقها.

عندما استيقظ شاراو ووجد أن زوجته قد اختفت. ذهب إلى الخان وقال له «انظر أي زوجة لدي. لقد هربت وتركتني».

قال الخان «لقد أعطيتك ابنتي. وإذا لم تكن عندك الآن فقد قتلتها».

قام الخان باعتقال شاراو على الفور وقيده. ورماه في سجن تحت الأرض. من ثم قال له «سأنتظر سبعة أيام. إذا لم تعد ابنتي في ذلك الوقت فسأعتبرها ميتة. وسأقطع رأسك».

جلس الشاب في السجن يوماً وليلة. ولم يكن لديه ما يأكله. وتساءل ما الذي يمكن أن يفعله لينقذ نفسه. سمع في اليوم التالي ضجة. ورأى قطاً قادماً باتجاهه. «أنت أحمق» قال القط. «كان يجب عليك ألا تخبر أحداً عن الخاتم. زوجتك في مملكة أخرى. ولقد تزوجت من عشيقها. لقد تشاورت أنا والكلب. ولكن لا أستطيع أن أفكر في شي لمساعدتك. كم من الوقت ستكون في هذا السجن؟».

أجاب الشاب «سبعة أيام. وسأقتل في اليوم الثامن».

قال القطة «إذا لم نستطع أنا والكلب أن نحضر لك الخاتم خلال سبعة أيام فقد ضمت. لكنك طيب وشجاع. وقد أنقذت حياتينا. وسوف نحاول أن ننقذ حياتك».

ذهب القط إلى الكلب وتشاورا مرة أخرى. وفي النهاية قال الكلب للقط «اصعد على ظهري. وسنذهب إلى المملكة الموجودة خلف البحر».

عندما وصلا إلى المكان الذي توجد فيه الزوجة. أمسك القط بفأر كان يعيش في الخيمة «إذا ما فعلت كما آمرك» قال القط للفأر. «فسأتركك. وخلافاً لذلك فسأسحقك وآكلك».

«لم أرتكب أي ذنب» أجاب الفأر. «فلماذا تدمرني؟ لا تسحقني أو تأكلني. سأفعل أي شيء ترغب فيه».

«هذا ما يجب أن تفعله. في فم المرأة التي تعيش أنت في خيمتها خاتم من الذهب. أحضره لي».

عمل الفأر طوال الليل ليصنع حفرة إلى الغرفة التي تنام فيها المرأة. ووصل هناك مع طلوع الفجر. فقفز فوق الفراش. وزحف إلى وجهها. ودغدغ أنفها. فعطست المرأة في الحال. وعطست مرة ثانية. فطار الخاتم من فمها. اختطف الفأر الخاتم وخرج به من الحفرة في دقيقة.

عاد القط إلى الكلب. وجلس على ظهره. وانطلقا عائدين إلى مملكتهما. أراد الكلب أن يحمل الخاتم. لكن القط قال له:

«لا. لك فم كبير. وأنت تبقيه مفتوحاً دائماً. هل رأى أحد يوما كلباً يركض وفمه مغلق؟ فمي صغير. سأحمل أنا الخاتم». تمنى القط لو كان هنالك قارب. كانا قد قطعا نصف المسافة عبر البحر عندما عطس القط. وسقط الخاتم في الماء.

قال الكلب «لقد أصبح الرجل في عداد الموتى. فلن نستطيع أن نخرج الخاتم من قاع البحر».

وصلا إلى اليابسة والتقطا بعضاً من السمك. وبدآ بأكله. عندها وجد القط الخاتم في سمكة كان يقضمها.

قال الكلب «يجب أن نسرع. تمسك قدر ما تستطيع!» وركض مثلما لم يركض كلب من قبل. عندما أطل نور الصباح. نظر الكلب إلى الشمس وتمنى. فأصبحا عند السجن. ذهب القط إلى الشاب.

كان مساء اليوم السابع. وكان شاراوقد فقد الأمل في الخلاص.

قال القط «خذ الخاتم. إصنع الدوائر باتجاه الغرب. لأن الشمس لا تشرق في هذا السجن. وسوف تتحقق أمنيتك».

تمنى شاراو أن يخرج من السجن وأن يكون في قصر الخان. وأصبح هناك. وقال لِحَمْوِهِ. «زوجتي تعيش مع رجل في مملكة عبر البحر. أريدك أن تستعيدها».

أجابه الخان «لقد قتلت زوجتك. وإذا لم يكن هذا الكلام صحيحاً. أحضرها هنا بنفسك وسأبقي على حياتك».

نظر الشاب إلى الشمس. وصنع الدوائر الثلاث بيديه. وتمنى أن تحضر زوجته وعشيقها أمامه. فظهرا فوراً. قال الشاب لِحَمْوِهِ «الآن. ما الذي ستفعله؟».

قال الخان «سأفعل بهما ما كنت سأفعله بك اليوم». وقام بقطع رأسيهما.

هونكوفاي والحصان ذو الرأس المدور

بعد أن أصبح هذا العالم عالماً، وأصبحت هذه الأرض أرضاً، وأصبح الماء ماءً، عاش بالقرب من الجانب الشمالي من جبل ألتاي، بالقرب من القمة المسماة هوهوي، خان غني جداً بحيث يستحيل أن يصبح فقيراً، وكان في صحة جيدة بحيث لا يمكن أن يموت.

كان لهذا الخان زوجة اسمها ديري سيسين (المبرد الفولاذي). كانت تُغني كل مكان تكون فيه بجلالها وتملأ خيمتها بحضورها. كانت أفكار سيسين صافية كأشعة الشمس.

كان للخان جواد رمادي اللون ذو رأس مدور، وكان يُبقي الجواد في مرعى على جبال ألتاي، حيث كانت ترعى معه ثلاثة عشر من الأيائل.

عندما تولى الخان الحكم، لم تكن قطعانه قد أحصيت منذ زمن طويل، لذلك قرر أن يُحصيها، ذهب في البداية إلى أرين، عمه الأبيض في الشمال الغربي، وجمع كل شعبه، وكل عشيرة موجودة هناك، وطلب من كبارهم أن يجتمعوا، وبدأ بالعد في الجانب الشمالي الغربي. عندما أحصى الجميع في ذلك الجانب، ذهب إلى الجنوب الغربي، وأحصى كل حيوان في ذلك المكان.

اكتشف الخان أن أعداد شعبه ومواشيه قد ازدادت بشكل كبير. وقد كان مسروراً بذلك، ولكنه لم يعثر على جواده ذي الرأس المدور. رأى الخان آثاراً لرجل وحصان ضخم، وعلم أن شخصاً ما قد جاء إلى ألتاي وسرق جواده الرائع. لذلك، عاد الخان إلى دياره حزيناً جداً.

قامت ديري سيسين بوضع جميع أنواع الطعام والشراب أمام الخان، وسألته «لماذا أنت حزين؟ أي شر قد حدث؟».

قال الخان «لقد سرق شخص ما جوادي الرمادي ذا الرأس المدور»، وأخبرها عن الآثار التي رآها.

«لديك الكتاب الذي أُعطيتك إياه عند ولادتك، نظر فيه واعلم ما الذي حدث. الكتاب موجود أسفل وسطك».

فتح الخان وسطه، وأخرج الكتاب وقرأ، فوجد أن ابن الخان تيمور شي بين هو الذي سرق الجواد الرمادي ذا الرأس المدور، ورد في الكتاب أيضاً أن مملكة تيمور بعيدة بقدر خمس وخمسين سنة، ولم يكن بمقدور الخان القيام برحلة بهذا البعد، ولكن كان هنالك محارب عظيم، هونكوفاي حقيقي، وهو قادر على القيام بها.

من أجل إيجاد هونكوفاي هذا، استدعى الخان جميع الأشخاص من ذوي العلاقة بالموضوع، وحضر الجميع باستثناء شاب واحد.

سأل الخان «لماذا حضر الجميع إلا ذلك الشاب؟»

تحدث عم الشاب وقال: «هونكوفاي، ابن أخي، هو الابن الوحيد لأبيه، ولم يحضر لأن لديه ثروة كبيرة، إنه ثري وقوي جداً، بحيث أنه لم يأخذ هذا الاستدعاء بعين الاعتبار».

غضب الخان بشدة، وأرسل ثلاثة محاربين لإحضار هونكوفاي.

عندما وصل المحاربون الثلاثة إلى خيمة هونكوفاي لاحظوا أنها أغنى حتى من غيمة الخان نفسه.

ظهرت شيك شوري نوغون زوجة هونكوفاي أمام الخيمة.

سألت المرأة «لماذا أتيتم؟».

«لقد أتينا بناءً على أوامر الخان لنخبر زوجك أنه تم استدعاؤه».

أجابت شيك شوري «إن زوجي يعاني من الصداع منذ ثلاثة أيام، وهو لا يقابل أحداً ولا يذهب إلى أي مكان» . ثم أخذت هراوة وطردت هؤلاء الرسل الثلاثة.

«إن خيمة هونكوفاي أفضل من خيمتك أيها الخان» قال الثلاثة عند عودتهم. «إنها براقة جداً، من الذهب والفضة بحيث لم نستطع أن ننظر إليها بأعين مفتوحة».

سأل هونكوفاي زوجته عندما عادت إلى داخل الخيمة بعد أن ضربت الرسل «من الذي جاء؟ ولماذا نبحت الكلاب؟».

«كان هناك بعض المارة، ولقد نبحت الكلاب عليهم»، تلك كانت إجابتها.

عندما سمع الخان ما قاله رجاله، أصابه غضب شديد.

صاح الخان «ماذا؟، أنتم ثلاثة محاربين، وقد ضربتكم امرأة وطردتكم!».

أرسل الخان تسعة من المحاربين لاستدعاء هونكوفاي، وعندما ظهروا عن بعد قام الرجل، الذي كانت مهمته مراقبة الناس، بإخبار شيك شوري بأن هنالك تسعة رجال قادمين نحوهم، فخرجت لملاقاتهم.

صاحت فيهم. «لماذا أتيتم؟. لقد أخبرتكم جميعاً بأننا لن نستقبل أي إنسان هنا!». وأخذت هراوة كبيرة وطردت المحاربين التسعة. ولكنها ضربتهم هذه المرة بوحشية أكبر.

سأل هونكوفاي عندما عادت شيك شوري إلى داخل الخيمة «ما المشكلة؟ لماذا تنبح الكلاب؟».

«مرّت ظبية مع صغيرها، فنبحت الكلاب عليها».

قال المحاربون التسعة عندما وقفوا أمام الخان. «لم نقدر على القيام بشيء. لقد ضربتنا المرأة بالهراوة بوحشية وطردتنا بعيداً».

كان هنالك محارب قوي جداً يحبسه الخان في سجن من حديد. استشاط الخان غضباً على الرجال التسعة المضروبين. وأطلق سراح المحارب القوي، والذي كانت قلنسوته الحديدية تزن أربعين بوداً. أجلس الخان هذا المحارب في عربة تجرها تسعة خيول وأرسله ليقهر شيك شوري. عندما أصبح بالقرب من خيمة زوجها، خرجت شيك شوري لملاقاته. التقطت أثقل هراوة من هراواتها وذهبت باتجاه المحارب. ضربته بالهراوة. وأشتبك معها حتى اضطر كلاهما للتوقف لالتقاط أنفاسهما. ترنحت المرأة عائدة إلى الخيمة، وهي تلهث بعمق.

سأل هونكوفاي «مع من تتقاتلين؟».

أجابته «لم أرَ أحداً. ولكني لست بصحة جيدة اليوم».

فكّر هونكوفاي «لا بد أنها تقوم بشيء ما». لقد نبحت الكلاب ثلاث مرات. إنها تُخفي عني سراً ما». وخرج ليرى ما الذي يحدث. وفي تلك اللحظة كان المحارب العظيم يهم بالمغادرة في عربته التي تجرها تسعة خيول قوية.

صاح هونكوفاي «لماذا أنت هنا؟».

أجابه المحارب «لقد أرسل الخان الرجال ثلاث مرات من أجلك. ولكن زوجتك لم تسمح لأحد بالاقتراب من عتبتك».

«إذا ما كان هذا صحيحاً، فسأطيع أوامر الخان». وبذلك حضّر هونكوفاي نفسه وذهب مع المحارب.

سأله الخان «لماذا لم تأتِ منذ البداية؟. أود أن تقوم بالعثور على جوادي الرمادي ذي الرأس المدوروإعادته لي. لقد سُرِق مني . وستكون خاناً من بعدي».

قال هونكوفاي ، أرغب في الذهاب. ولكن يجب أن يكون لديّ الجواد المناسب وأسلحة قتال جيدة. أستطيع أن أبدأ خلال ثلاثة أسابيع.اطلب من جميع الناس أن يُصلوا إلى البوركانات: وَصَلِّ أنت أيضاً. وسأصلي أنا أيضاً. كي أنال أسلحة وجواداً أستطيع أن أمتطيه كل هذه المسافة».

عندما عاد هونكوفاي إلى خيمته كان قد أصبح أكثر نشاطاً. وهمة ومليئاً بالعزم والحقد وكان أقوى مرتين مما كان من قبل.

في أحد الأيام. خلال تلك الأسابيع الثلاثة. ظهر جواد في الفناء. وكان على سرجه عدة محارب كاملة.

عندما حان وقت الذهاب لإيجاد الجواد ذي الرأس المدور. جاء الخان بنفسه مع جميع الناس إلى خيمة هونكوفاي. صلّوا جميعاً إلى البوركانات وطلبوا منهم النجاح. قال الناس إنه لا يمكن لأحد أن يذهب مع المحارب الشاب. بما أن الطريق طويلة جداً بحيث إذا ما سافر فيه ولد بعمر خمس سنوات فسيصبح بعمر ستين سنة عند نهاية الرحلة. وإذا ما ذهب رجل مكتمل العمر فسوف يموت وهو لا يزال مسافراً.

في كل خطوة خطاها جواد هونكوفاي كان يعبر ستين خطوة. واستمر في زيادة طول خطواته. كان يقذف كتلاً من الأرض وراءه بحجم عجل بعمر سنة واحدة. وكان سريعاً جداً بحيث أنهى الرحلة كاملة في يوم واحد.

وصل هونكوفاي عند خيمة تيمور شي في المساء التالي. ونادى كي يخرج أحد لملاقاته. أرسل تيمور شي رجلاً ليقول له بأن الوقت متأخر. وعلى الضيف أن ينام في مكان آخر وأنه سيلاقيه غداً.

حوّل هونكوفاي جواده إلى شظية صوان. وذهب إلى الغابة المجاورة. وقضى الليل هناك.

قابل هونكوفاي تيمور شي في اليوم التالي. وخرجا معاً للمصارعة في مكان مرتفع. عندما قطعا مسافة قمة الجبل. بدأ تيمور شي وهونكوفاي باختبار قوتيهما. وأمسك كل منهما بالآخر. وتصارعا على مدى ثلاثة أسابيع . مزق كل منهما اللحم كله عن ظهرهما. وقضما كل ما اعترض طريقهما.

عند نهاية الأسابيع الثلاثة. أصبحا ضعيفين جداً بحيث كلما هبت رياح خفيفة انحنيا أمامها. أصبحت الشمس والقمر أحمرين بسبب الغبار الهائل الذي أثاراه في تلك الأرض. والدم

الذي نَزَفَاهُ هناك. لم يقدراً على التوقف عن القتال. لأنه لم يستطع أي منهما أن يحرر نفسه من الآخر.

نظر البوركانات الألف إلى الأسفل من السماء وكانوا خائفين. وطلبوا اجتماعاً وقرروا أن يفصلوا المحاربين. لذلك أرسلوا تيمور بوغو (الثور الحديدي). وهو محارب عظيم. كي يفرقهما. عندما نزل الثور الحديدي من السماء ولمس الاثنين. كسرا إحدى قوائمه. صعد المحارب العظيم عائداً إلى السماء مرة أخرى. وأعلن للبوركانات أن كلاً من تيمور شي وهونكوفاي يرفض أن يتوقف حتى يقتل أحدهما الآخر. عندها طلب البوركانات الألف من هوهوداي (الرعد) أن يصيبهما ويقتلهما بدون استخدام الصاعقة.

حاول هوهوداي. ولكنه لم يستطع أن يقتلهما. ولم يخضعا لهذه الصاعقة. بالرغم من أنها فرقتهما.

استراحا لبعض من الوقت. وقاما بتحية بعضهما البعض. ودخّنا. من ثم قررا أن يرميا السهام على بعضهما البعض . ذهب أحدهما إلى قمة الجبل الجنوبي الغربي. وذهب الآخر إلى قمة الجبل الشمالي الشرقي.

صاح تيمور شي. عندما أصبحا على قمتي الجبلين: «أنا سيد هذا المكان. وبذلك لي الحق في رماية السهم الأول».

أجابه هونكوفاي.«لقد أتيت من بعيد. وأنا ضيف. يجب أن ارمي أنا السهم الأول».

بعد جدال طويل. تقرر أخيراً أن يرمي تيمور السهم الأول لكونه سيد المكان. وتناول من جعبته سهما له ثلاث رؤوس. وسحب قوسه. وقال للسهم:

«اقطع عدوي سبعة أجزاء. وغَطِّ الأجزاء السبعة في سبعة جبال. بحيث لا تجتمع أبداً في جسد واحد».

طار السهم مباشرة باتجاه هونكوفاي. وقطعه إلى سبعة أجزاء. وغطى كل جزء بجبل. ولم تكد الأجزاء السبعة تستقر تحت الجبال. حتى تحولت إلى سبعة ثيران برية ضخمة غاضبة. وقطعت طريقها خارجة بواسطة قرونها. وحررت نفسها. وأصبحت هونكوفاي. نادى المحارب. بشكله الطبيعي. على تيمور شي من الجبل الشمالي الشرقي وقال له: « دورك الآن لتقف ودوري لأرمي!» من ثم شد خيط قوسه وقال للسهم: «اضربه في ذراعه الأيمن فوق الكوع. واكسر عموده الفقري أسفل العنق. وأقتله!»

كسر السهم ساعد تيمور شي الأيمن ومن ثم كسر عموده الفقري. سقط المحارب ارضاً، ولكنه لم يكد يلمسها حتى وقف بأفضل حالٍ وقوياً مرة أخرى، كأنما لم يحدث شئ.

نزل الاثنان من الجبال والتقيا في الوادي، وحيا كل منهما الآخر كالأصدقاء، ودخّنا، وتحادثا.

قال هونكوفاي «لم يبقَ لنا شيء لنفعله غير أن نجد أين هي حياتنا»

قال تيمور شي «حياتك موجودة خلف الوادي الثالث، على الجبل الرابع يعيش دب أسود تقبع حياتك في جسده، سآخذ ذلك الدب من أذنيه وأقطعه نصفين، وستكون تلك هي نهايتك».

لم يعلم هونكوفاي أين هي حياة تيمور شي، وطلب من جواده أن يخبره.

قال الجواد «على قمة سيهير ماي، الجبل الأبيض صخرة كبيرة ومدورة ومسطحة، و أسفل تلك الصخرة تعيش ثلاث عشرة قبرة، و حياة تيمور شي تقبع في تلك الطيور».

امتطى هونكوفاي جواده، ومضى مبتعداً، ولم يتوقف حتى وصل إلى سيهير ماي. كانت هناك أكوام عظام هائلة عند سفح الجبل : كانت تلك عظام الرجال الذين حاولوا أن يصعدوا إلى قمة الجبل وهلكوا، سقطوا وقُتلوا، لأنه لم يكن بوسع إنسان أن يصل إلى قمة سيهير ماي.

تساءل هونكوفاي «كيف سنتسلق تلك القمة المرتفعة؟».

قال الجواد «يجب أن نعود بمقدار رحلة يوم واحد، من ثم نعود ونسرع باتجاه الجبل، وبقوة الجري يمكن أن أثب عالياً بحيث أتشبث بالقمة، في تلك اللحظة قم أنت بقطع قطعة من كل حافرٍ من حوافري الأمامية، عندها سأنجح، وخلافاً لذلك فسأفشل».

حدث كل شيء كما طلب الجواد، عاد هونكوفاي بمقدار رحلة يوم واحد، واندفع الجواد بقوة كبيرة، وارتفع بقفزة واحدة إلى الحافة العلوية في سيهير ماي، وتمسك بها، أخذ هونكوفاي سكينه وقطع قطعاً من الحوافر الأمامية للحصان، ووثب إلى القمة، هنالك على قمة الجبل، كان ماء الحياة، فشرب هونكوفاي وحصانه منها كثيراً.

كان مقبض سوط هونكوفاي أجوفَ، فملأه بالماء، نثر هونكوفاي هذا الماء إلى الأسفل على العظام التي رآها عند سفح الجبل، فعاد كل أولئك الرجال إلى الحياة مرة أخرى.

صاح الآلاف من الناس «لقد أعادنا محارب عظيم إلى الحياة، عساه أن يحقق كل هدف يتمناه».

ذهب هونكوفاي بعيداً. ووصل إلى الصخرة الكبيرة المدورة والمسطحة. وحاول بكل ما اوتي من قوة. ولكنه لم يقدر على رفعها. لذلك قام بجمع الحطب. وأشعل ناراً على الحجر. وسخّنه حتى صار أحمر اللون من شدة السخونة. من ثم توسل إلى البوركانات الألف كي ينزلوا المطر. هطل المطر. وانقسم الحجر أربعة أجزاء. رفع هونكوفاي إحدى تلك القطع. وأمسك بطيور القبرة الثلاث عشرة. وقتل عشرة منها. ووضع ثلاثة في جيبه. وأعاد ملء مقبض سوطه بماء الحياة. ونزل إلى أسفل الجبل. ذهب هونكوفاي باتجاه الجبل الرابع. حيث كانت توجد حياته هوفي الدب الأسود. كان يعلم أن تيمور شي ذاهب إلى هناك. عندما اقترب من الجبل رأى ضوءاً. فمضى باتجاهه. وكان تيمور شي هناك مستلقياً وظهره باتجاه النار.

قال تيمور شي.«أنا مريض. أشعر بصداع رهيب. وسأقوم بتدفئة عمودي الفقري. أين كنت أنت؟ ماذا رأيت. أو ماذا سمعت؟ ماذا كنت تفعل؟».

«لقد قمت بالسفر هنا وهناك فقط. لم أرَ شيئاً ذا أهمية. ولكني أمسكت بثلاثة من طيور القبرة الصغيرة».

صاح تيمور شي «أرني إياها!».

أظهر هونكوفاي طيور القبرة الثلاث.

قال تيمور شي.«آه. هذه طيور مقدسة. يجب ألا يمسها شخص صغير السن. أعطني هذه الطيور. أنا سيد هذا المكان. سأدعها تطير بعيداً».

قال هونكوفاي «ها هي». ومد يده بينما كان يخنق طيور القبرة الثلاث. في تلك اللحظة. وضع تيمور شي يده على فمه وسقط ميتاً. سقط رأسه باتجاه الجبل الشمالي. وامتدت قدمه باتجاه الجنوب الغربي.

جمع هونكوفاي الحطب. وصنع كومة. وحرق الخان تيمور شي بين. وسحق عظامه الكبيرة. ونثر كل ما تبقى منه مع الرياح. من ثم ذهب إلى خيمة تيمور وبحث عن الجواد الرمادي ذي الرأس المدور. لم يجده في البداية في أي مكان. ولكنه استمر في البحث. وأخيراً وجده في إسطبل له ثلاثة جدران حديدية. كل جدار بداخل الآخر.

كان الجواد يقف بصعوبة. ويكاد يهلك من التعب. أعطى هونكوفاي بعضاً من ماء الحياة للجواد من مقبض سوطه وأخرجه من الإصطبل الحديدي.

كان لدى تيمور شي الكثير من الذهب والفضة، وأسرابٌ من الطيور والمواشي. كان لديه ثلاثة وثلاثون بطلاً قائمين على خدمته، وعدد كبير من الناس. أخذ هونكوفاي كل شيء، أخذ الأبطال الثلاثة والثلاثين وكل اتباعه وأرشدهم إلى طريق خيمته، وذهب بنفسه إلى دياره بواسطة السحر بأسرع ما يمكن، وهو يقود الجواد الرمادي ذا الرأس المدور ويمتطي فرسه. بعد أن قطع جزءاً من الطريق وأصبح في أرضه، وصل إلى مكان شامان عظيم، واسمه هوهاي هوبشي، وتوقف لبرهة قصيرة ليستريح هناك.

عندما غادر هونكوفاي دياره، كان قد ترك عمه، هارا زاتون (الزاتون الأسود)، ليدير المكان عوضاً عنه، وبينما كان هونكوفاي عائداً، كانت شيك شوري قد أنجبت توأمين وأسمتهما هوراجن وايسبيجن.

كان العم يتمنى ألا يعود ابن أخيه أبداً، وأن يتولى كل شيء ويستحوذ عليه . عندما علم أن ابن أخيه قد انتصر وأنه عائد، قرر أن يلاقيه على الطريق عند مسافة ما، وجهز نفسه لذلك.

قام بتقطير التاراسان بحيث تركز عشر مرات ومزجه بسُم قوي، وصنع من عَشْرِ قدور من هذا التاراسان المسموم قدراً واحِدَةً، وصنع من عشرين قدراً من التاراسان النقي قدراً واحدة، ومن ثم ذبح عشرة خراف وصنع من لحوم هذه الخراف العشرة مقدار خروف واحد، بعد ذلك طبخ عشرين خروفاً وجُعلها بحجم خروف واحد. من ثم وضع كل ذلك في خرجة سرج الفرس، وذهب إلى الخيمة، ونادى على زوجة ابن أخيه، شيك شوري:

«أخرجي! لقد اعتقدت أن ابن أخي قد انتصر، ولكن يبدو أنه قد هُزم، وقد سحقه جواده وقتله. لقد أصبحت الحرب وشيكة . هنالك ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون محارباً قادمون لأخذ ماشية ابن أخي وأخذ كل ما يُعده ذا أهمية. أعطني الصغيرين، وسأخفيهما بعيداً في مكان آمن».

قالت شيك شوري «إنهما في المهد، إنهما لم يتجاوزا ثلاثة أيام من العمر، دعني أبقيهما حتى الغد، دعهما يكبران قليلاً، وفي اليوم التالي خذهما أينما تريد».

ولأنها لم تتخلَّ عن الولدين طوعاً، ولأن هارا زاتون لم يكن قادراً على الانتظار، امتطى جواده، ثم قال، «إن أطعمتِ الولدين طعاماً سيئاً أو أخفيتهما في أي مكان، في غيابي، فسوف أقتلك».

مضى هارا زاتون مبتعداً إلى جبل الشامان، وهناك التقيا، العم وابن الأخ.

قال زاتون، «أنا أحييك، وأنا مسرور لأنك أحرزت نصراً عظيماً»، ومد يده.

لم يأخذها هونكوفاي.

«بينما أنت غائب، وُلد لك إبنان. لقد ولدا منذ أربعة أيام فقط».

لم يتوقف هونكوفاي أبداً، أو يعطِ يده، ولكنه استمر في المضي باتجاه خيمته.

صاح زاتون به «يا ابن أخي!، ما المشكلة؟ لماذا تزدريني؟» لم يتوقف هونكوفاي، ولم يستمع.

«آه، يا ابن أخي، بماذا تفكر؟ لقد أحرزت نصراً عظيماً، ومع ذلك تمر من جبل مقدس دون أن تقوم بالإراقة، هذه خطيئة، فكر بأن ابنيك ما زالا بعمر أربعة أيام!».

توقف هونكوفاي، توقف بسبب ولديه، عندما ترجلا عن جواديهما، احتضن هارا زاتون ابن أخيه وقبله، بدا السرور الشديد، على ذلك المخادع، فقاما بإراقة التاراسان الجيد، وجلسا وأكلا وشربا، شرب زاتون القليل، تظاهر فقط بالشرب، وسرعان ما شربا التاراسان النقي كله وأكلا اللحم الجيد.

قال هونكوفاي «حسناً، يا عماه، بما أننا بدأنا، فلننته، هل لديك المزيد من التاراسان؟»

كانت الجياد الثلاثة مربوطة بأشجار بالقرب منهما، وعندئذ قام هارا زاتون هذه المرة بإحضار اللحم والشراب المسموم، أكل ابن الأخ وشرب، وسقط بسرعة دون أثر للحياة أو الحركة، خرج من فتحة أنفه اليمنى لهب أخضر وأزرق، وخرج من فتحة أنفه اليسرى لهب أحمر، جلس العم على مسافة ما، وقوسه مشدودة وجاهزة لرمي سهم إذا ما عاد ابن أخيه إلى الحياة، جلس هناك يومين وانتظر، وفي اليوم الثالث رفع هونكوفاي رأسه إلى حد ما، ورأى هارا زاتون جالساً وقوسه مشدودة وجاهزة لإطلاق سهم.



قرية ألاجوبرسك - رود في سيبيريا



مجموعة من النساء المنغوليات غير المتزوجات أو النساء الصغيرات في أوستوردي

"عماه، هل ترغب في قتلي! أقتلني إذاً، ولكن اترك أطفالي".

رمى زاتون السهم وقتل ابن أخيه. عندما أصاب السهم هونكوفاي، قام فرسه والجواد الرمادي ذو الرأس المدور بتحرير نفسيهما وصرخا في زاتون:

"طالما أن عندنا حوافر فلن تمتلكنا، سوف نطير إلى من خلقنا!" وذهبا إلى السماء.

علمت أرملة هونكوفاي بكل ما جرى بواسطة سحرها وفكرت "سوف يأتي القاتل الليلة، يجب أن أنقذ ولديّ".

وضعت ولداً تحت إبطها الأيمن، والآخر تحت إبطها الأيسر، وأسرعت الخطى باتجاه جبل الشامان نفسه. بالالتفاف إلى الشمال الغربي وصلت إلى نقطة ما حيث انتصبت شجرتا صنوبر ضخمتان بالقرب من بعضهما البعض. قامت بعمل حفرتين صغيرتين أسفل شجرتي الصنوبر ووضعت ولديها الصغيرين فيهما.

تمنت شيك شوري أن تعود بسرعة إلى بيتها وأن تصل إليه قبل وصول العم الشرير. عندما تركت ولديها خلفها وقطعت مسافة ما، نظرت إلى الخلف. كان الصغيران قد زحفا خارج الحفرتين وكانا يمصان أصابع بعضهما البعض. تسبب هذا المشهد ببكاء الأم. فعادت أدراجها، وأرضعتهما من حليبها، من ثم وضعت الولدين في الحفرتين واختفت.

بالقرب من الخيمة، رأت شيك شوري نعجة مع حملين. ذبحت الحملين، وسخنت فرناً ووضعتهما فيه. وعندما احترق كلاهما جيداً، وضعت العظام في كيس، وأخذت الكيس إلى بحيرة، وربطت بالكيس حجراً، وأغرقته في مكان حددته بعناية. كان الوقت نهاراً، فعادت إلى الخيمة وانتظرت. لم يطل الوقت حتى ظهر زاتون.

صاح زاتون بشيك شوري: "اخرجي".

فخرجت.

قال زاتون "لقد رأيت جسد ابن أخي مستلقياً وميتاً، أعطني الصغيرين. وسأضعهما في مكان لا يمكن لعدو أن يجدهما، سوف أطعمهما وأربيهما بعناية".

قالت شيك شوري "كما قلت، لقد أتى هؤلاء المحاربون لقتلنا، فاعتقدت أننا سنموت جميعاً، لذلك أحرقت الولدين، ووضعت عظامهما في كيس، وأخفيتهما".

قال العم الكاذب، "أرني أين أخفيتهما، يجب أن أعرف المكان"

أرشدته إلى المكان. ورفعت الكيس، وأرته إياه. فأخذ منها الكيس وحمله إلى الخيمة. وسواء بسبب خوفه من أن تعود العظام إلى الحياة، أو لاعتقاده أنها ستزيد من قوته، لأن الولدين كان يمكن أن يصبحا محاربين عظيمين، قام بطحن العظام غباراً دقيقاً، ومزجه مع الدهن، وطبخ المزيج وأكله.

تحرك هارا زاتون الآن إلى داخل خيمة ابن الأخ واستولى على كل ثروته وآنيته. وقام باقتلاع عين شيك شوري اليسرى، وقطع يدها اليسرى ورجلها اليسرى، وجعلها بعد ذلك خادمة كي تُطعم كلاب فتاته.

كبر الولدان، هوراجن وايسبيجن، تحت شجرتي الصنوبر بسرعة كبيرة. وصنعا لنفسيهما قوسين، ومن ثم صنعا سهاماً. قاما في يومين بقتل الطيورِ والأرانب، وأكلاها نيئة. في اليوم الثالث، لم يقتلا شيئاً، ومع ذلك قاما بالصيد حتى منتصف النهار. بعد منتصف النهار، التقيا في وادٍ صغير في غابة كبيرة بدينجين شاراماب، وهو مانغاثي بثلاثة وسبعين رأساً.

قال دينجين شاراماب "لقد ارتحلت طوال اليوم في الغابة ولم أجد شيئاً حتى الآن. وهنا أجد طعاماً رائعاً!" وأمسك الولدين من أقدامهما، واستمر في المشي، وهو يمسك بهما كالعيدان. في خيمته، ربط كل ولد بعمود، وقطع شريحتي لحم من أفخاذهما ووضعها في أسياخ شواء من أجل عشائه، ونام بينما كانت تُشوى قطع اللحم. بدأ الولدان بالبكاء بمرارة بسبب الخوف والألم.

وفي ذلك الوقت بالذات، مرّ رجل غني بغنى الخانات ولكن ليس له أطفال، وكان معه ثمانون حزمة من البضائع. وسمع بكاء الولدين، وأوقف قافلته كاملة، ودخل إلى الخيمة وأيقظ المانغاثي النائم،و سأل الرجل "لماذا تأكل لحم هؤلاء الأولاد؟".

"لقد خرجت للصيد طوال اليوم ولم اصطد شيئاً حتى قابلتهما. إن لحمهما جيد، وأنا مسرور بأكله".

قال تورغوباي "حسناً، كُلْ ما هو موجود على السيخ، ولكن بعني الولدين، وسوف أعطيك مقابلهما ثمانين جواداً". قال المانغاثي "خذهما!".

أخذ التاجر الولدين إلى دياره، وعالجهما، وجعلهما ابنيه.

عاش هوراجن وايسبيجن سنة كاملة مع التاجر. وكبرا فأصبحا صيادين ماهرين، وَمَلأَ مخزن أبيهما بالطرائد والفراء الجيد من جميع الأنواع.

الفصل الثاني عشر

قال التاجر أخيراً "لا تصيدا المزيد! لا مكان لدي للطرائد!"

قال الأخوان "دعنا نرعى الماشية إذاً".

كان في مكان قريب جبل تومتوي. قام الولدان بقيادة أسراب التاجر ومواشيه لترعى على ذلك الجبل. وبينما كانت المواشي تأكل، تدرب الولدان، واختبرا قواهما. فقذفا حجارة بحجم خروف. قذفاها بعيداً جداً بحيث يحتاج المرء إلى يومين للوصول إلى المكان الذي سقطت فيه الحجارة. من ثم قاما بقذف حجارة ضخمة، بحجم ثور صغير. وسقطت تلك الحجارة على بعد مسيرة يوم واحد. كان بالقرب منهما منحدر حاد يُغطي مساحة فدانين. حملا هذا المنحدر إلى بيتهما بالتناوب، بحيث يحمله أحدهما مسافة قصيرة ومن ثم يحمله الآخر. وضعا المنحدر بالقرب من البوابة، ونقشا عليه تاريخ حياتهما منذ أن قاما بالصيد أول مرة. قصّا كيف قاما بالبحث عن الصيد، وكيف عاملهما المانغاثي، وكيف ابتاعهما التاجر. قصا كل ما حدث في الوقت الحاضر أيضاً. وأضافا "إذا ما تسبب أي إنسان بأذية لوالدنا الجديد، فسوف ننتقم منه بشكل مفزع ومن ثم نذبحه".

دخلا إلى الخيمة، وأكلا وذهبا إلى النوم، وبعد ذلك ذهبا إلى الجبل المرتفع حيث وجدا المنحدر الحاد. لم يكن الولدان قد وصلا إلى قمة جبل تومتوي من قبل. وبينما كانا يتسلقان، سمعا ثغاء ماشية وبكاء رجال. ارتفع هدير الماشية، وبكاء الرجال كأنما كانوا يُعانون بشدة، وكانت تلك الأصوات تبدو آتية من بعيد. عندما وصل الولدان قمة الجبل، شاهدا وادياً طويلاً وعميقاً. كان ثمة صف من القدور من بداية الوادي حتى نهايته، وفي كل قدر عشرة ثيران صغيرة، وعلى جانب كل قدر سيخ ضخم وضع فيه عشرة رجال فيه على شكل خازوق.

جلس الأخوان على قمة الجبل ونظرا. "من يفعل كل هذا؟" سألا. من ثم علما بواسطة السحر أن هؤلاء هم شعب الخان توداي بين ومواشيه. حارب هذا الخان شارا ناغوي (الكلب الأصفر) ثلاث سنوات، وهو السيد المجنون لأرض السلام، وقد هُزم.

كان لدى الخان توداي بين ابنتان. ألتان هوروبشي ومونغون هوروبشي. وعندما تغلب الكلب الأصفر على توداي، طالب بهاتين الإبنتين.

قام الأخوان هوراجن وايسبيجن حينها بالتخطيط حينها على قمة الجبل كي يقهرا الكلب الأصفر ويساعدا الخان توداي.و فكرا بالطريقة التالية: "كم من الأذى يتسبب به هذا الكلب الأصفر!. إنه يغلي ألفاً من الثيران الصغيرة كل يوم ويشوي على الأسياخ ألفاً من الناس".

أخذ الأخوان عندها حجرين مدورين كبيرين، يشبهان عجلتين كبيرتين. وسخنا الحجرين حتى أصبحا أحمرين كالقماش الأحمر . وقال أحدهما للآخر:

"للكلب الأصفر فكّان كبيران، بحيث عندما يتنقل يلامس الأعلى منهما الغيوم ويكشط الأسفل الأرض. عند شروق الشمس سيسرع صاعداً الوادي باتجاه الموقع الذي نجلس فيه الآن، ويذهب باتجاه الشمس بفم مفتوح. في ذلك الوقت سوف ندحرج هذين الحجرين الأحمرين داخل فمه. وإذا ما كنا محظوظين، فسوف يبتلعهما . وسوف يحرقان القلب في جسده" .

في اليوم التالي، بينما كانت الشمس تشرق، سارع شارا ناغوي باتجاهها بفم مفتوح. فقام الأخوان بدحرجة الحجرين الساخنين. فدخل الحجران داخل فمه، فقفز عالياً، وعوى بشكل مفزع، وسقط إلى الخلف. فارتطم رأسه بالجبل الشمالي الغربي، وتمددت قد ماه باتجاه الجبل الجنوبي الشرقي.

عندما مات السيد المجنون لأرض السلام، ذهب الأخوان على امتداد الوادي، وأفرغا الثيران الصغيرة من القدور، وسحبا الرجال من الأسياخ. كان بعضهم نصف مشوي، وكان البعض نصف حي. أعادا الجميع إلى صحة جيدة، الثيران الصغيرة من القدور وأيضاً الرجال من الأسياخ، ومن ثم ذهبا باتجاه خيمة الخان توداي بين.

عندما أصبحا على مرأى من الخيمة، خرجت أكبر مهرة زرقاء وكذلك أضخم بقرة حمراء عجوز وأكبرها سناً، وأكثر امرأة مسنة وعاجزة، وخاطبوا الولدين:

"عبثا تحاولان أن تعيدا الحياة لنا. لا تقفا ضد الكلب الأصفر . سوف يقتلكما، وسوف نضيع نحن، مهما حدث غير ذلك" .

عندما سمع الخان توداي بين بأن الكلب الأصفر قد مات، أعدّ ثمانية خيول زرقاء وانطلق إلى الأمام لملاقاة الأخوين. بعد الترحاب، ذهب الأخوان مع الخان إلى خيمته الرائعة. أمضى الأخوان تسعة أيام هناك، وأقام الخان توداي بين ولائم كبيرة من جميع الأصناف لإرضائهما. قال الخان "لقد قمتما بمأثرة كبيرة بحيث لا يمكن أن تكون أكبر من ذلك. سأعطيكما أي جائزة تبدو جيدة لكما" .

"نحن نعيش بعيداً عن هنا. لا حاجة إلى جائزة، فقط أعطنا ابنتيك" .

قال الخان توداي "سأفعل هذا" . وذهب ليُجهّز لحفل الزفاف. تم إعداد بحر من الشراب

وجبل من الطعام. استمر حفل الزفاف تسعة أيام وتسع ليال. وعندما حان الوقت، وأصبح الأخوان مستعدين للعودة إلى خيمة أبيهما، أعطى الخان توداي الأوامر بإعداد ثمانية خيول كميتة وأن ترسل معها عربة حربية وثمانية محاربين. مشت الأم نصف الطريق إلى الديار مع ابنتيها. توقفوا في الطريق عند خيمة المانغاثي دينجين ، والذي كان قد قطع اللحم من الأخوين وشواه على الأسياخ. أمسك به الأخوان، ووضعا السلاسل في رسغيه وكاحليه، كانت سلاسل تزن أربعين بوداً. وقاما بوضع عارضة قوية عبر المدخنة وشنقاه عليها، وتدلى وجهه إلى الأسفل فوق النار، حيث مات هناك، وتابعوا رحلتهم مبتهجين.

أخيراً، وصلوا إلى الخيمة التي ولد فيها هوراجن وايسبيجن وحيث كان عمهما الكاذب سيداً. التقيا بالقرب من الخيمة بامرأة لها عين واحدة، ويد واحدة، وقدم واحدة: كانت تحمل اللحم للكلاب في المكان، وتنوح.

سألت الأخوين. "أبناء أي خان أنتم؟" . هل سبق أن عرفتما ابني هوراجن وايسبيجن؟ هل سمعتما بهما؟ هل ما زالا على قيد الحياة في أي مكان؟ فقالا "لقد سمعنا أن دينجين المانغاثي قد أسرهما في وادي هابغاتا، حيث شوى لحمهما بالأسياخ، ومن ثم أكله" .

ناحت الأم قائلةً "آه" لقد تمنيت حتى هذا اليوم أن يكونا على قيد الحياة، ولقد أبقاني هذا الأمل صامدة مع شقائي" . من ثم سقطت إلى الخلف وماتت أمام ولديها.

دخل الولدان إلى الخيمة وأمسكا بالعم الكاذب، وحملاه وعائلته إلى الشمال إلى سفح جبل هناك حيث تلتقي ثلاث طرق، وقاما هناك بتثبيتهم بسبع أشجار صنوبر. ووضعا برميلاً بجانب كل شجرة صنوبر. وثبتا سكيناً كليلاً ومقصاً أثلم على كل برميل. "إذا ما مر رجل بهذا المكان، فعليه أن يقطع بالسكين قطعة صغيرة من لحم كل شخص معلق هنا. وإذا ما مرت امرأة بهذا المكان، فعليها أن تقص بالمقص قطعة صغيرة من لحم كل شخص. من لا يقوم بهذا فسوف يُقطع رأسه" .

عاد الجوادان اللذان ذهبا إلى السماء مسرعين من الغرب وتوقفا عند مربط الخيل بالقرب من الخيمة. كان عليهما كل ما هو ضروري من عدة لحصان وراكب. أخذ الأخوان الجوادين وتخلصا من العدة، من ثم أديا صلاة الشكر طويلاً. واستمرا في الصلاة ثلاثة أيام بلياليها إلى البوركانات المقدسة، ركبا بعد ذلك على الجوادين ومضيا بعيداً خلف ثلاث عشرة أرضاً إلى الشمال الغربي، حيث كان هنالك جبل شاهق وهو سيهير مي، أو الجبل الأبيض. كان

على ذلك الجبل ماء الحياة الشافي والشجرة الأرزية الحمراء الشافية. صعدا إلى قمة الجبل وأخذا من لحاء الشجرة ومن ماء الينبوع.

كان الخان هيرديك شوبون (النسر) قد قطع ثلاثة أرباع الطريق. كان يطير منذ ثلاث سنوات. لم يستطع أن يرتفع أكثر فاستلقى هناك منهكاً. ولم يبق فيه إلاّ قليل من رمق الحياة، متمسكاً بجناحيه ومنقاره بجانب الجبل.

أخذ الأخوان بعض الماء من الينبوع وبعضاً من لحاء الشجرة الأرزية الحمراء الشافية. وقاما برش النسر بمزيج من الماء واللحاء. فعاد إلى الحياة، ودار ثلاث مرات، من ثم طار إلى قمة الجبل وأعلى من ذلك.

قال الخان هيرديك، "شكراً لكما، إذا ما واجهتما حرباً أو أي خطر يهددكما، فاطلباني، وسوف أطير إليكما. يجب أن يساعد أحدنا الآخر". من ثم اختفى بين الغيوم.

انطلق الأخوان عائدين إلى ديارهما. وضعا بعضاً من لحاء الشجر في فم شيك شوري، وسكبا بعضاً من ماء الحياة في فمها، وعالجاها. عادت شابة، وعادت لها يدها وقدمها وعينها، عندما عادت إلى رشدها، علمت أن هذين الاثنين هما ولداها، فاحتضنتهما، وأخذتهما داخل الخيمة. حيث أصبحوا خمسة الآن".

سأل الأخوان "هل كان لنا أب؟".

"نعم، ولكنه هُزم في معركة وقُتل عندما كنتما رضيعين".

"هل تُخفين شيئاً عنا؟ هل تخافين أن تخبرينا؟ سوف نحفر رفات والدنا ونخرج عظامه أينما كانت".

أخرجت شيك شوري كتاب أبيهم من صندوق، وأحضرته لولديها، وقرأ كل ما كان في الكتاب. قرءا كيف ذهب والدهما لإيجاد الجواد الرمادي ذي الرأس المدور، وكيف قتله عمهما. كان كل شيء مشروحاً فيه. صعدا على ظهر الجوادين ومضيا بعيداً. لم يكن لشيك شوري قوة لإيقافهما. ذهبا إلى هوهاي هوبشي بارسام، جبل الشامان، ووجدا هناك عظام أبيهما، التي نمت فوقها الطحالب.

جمع هوراجن وايسبيجن العظام. كانت كلها موجودة باستثناء الإصبع الكبير من القدم اليمنى. بحثا في كل مكان، وأخيراً وجدا أثراً من أونجين (الثعلبة)، كانت هي التي سرقت

الإصبع. تبعا الأثر. واستمرا في تتبعه حتى اكتشفا أن شونو (الذئب) قد أكل أونجين. وبالمضي أكثر. شاهدا أن شونوقد التهمه هارا غروجيونغ (الدب الأسود)؛ وبالمضي أكثر أيضاً وجدا أن هارا غروجيونغ قد أكله بارا (النمر). وأن بارا قد أكله أيربت (الأسد). فقاما بالصيد حتى وصلا إلى أيربت. فقتلاه ووجدا الإصبع الكبير لأبيهما في معدته. من ثم عادا وثبتا الأصبع بالقدم بالشكل المناسب.

قام الأخوان برش الهيكل العظمي بماء الحياة الشافي، الممزوج بلحاء الشجر المسحوق من الشجرة الأرزية الحمراء الشافية. في المرة الأولى التي رَشَّا فيها الماء. ظهر اللحم على العظام. وفي المرة الثانية، أصبح هونكوفاي كالرجل النائم. وفي المرة الثالثة عاد إلى الحياة بحال جيدة.

من ثم عاد هوراجن وايسبيجن مع أبيهما إلى الديار. وأقاموا الاحتفالات والولائم عدة أيام.

فارهان تولاي هوبون

كان هنالك أخوان – اسم الأخ الكبير ألبات ميرغين هوبون. واسم الصغير فارهان تولاي هوبون. كان للأخ الكبير زوجة اسمها ديري سيسين (المبرد الفولاذي). ولم يكن الصغير متزوجاً.

قال فارهان لأخيه في أحد الأيام «فلنجرب أي منا أقوى من الآخر».

ذهب الأخوان إلى شاطئ البحر الأصفر. ووجدا هناك حجراً كبيراً بحجم جواد. رفع الأخ الأكبر الحجر حتى حزامه وغارَ في الأرض حتى خصره. قام فاهان. الأخ الأصغر. برفع الحجر. وهزه ثلاث مرات. ومن ثم قذفه إلى البحر الأصفر. وعادا إلى ديارهما وبدآ برماية السهام. أخذ ألبات ميرغين سهماً ذا أربعين رأساً وقال له:

«يوجد خلف الجبل الثالث عشرة أيائل ورفيق له. إذا كنت سأموت. فاقتلهما؛ وان لا. فدعهما يعيشان».

لم يصب السهم الأيّل. ولكنه أصاب مانغاثي ذا مائة وثمانية رؤوس وثلاثة عشر قرناً. واخترق ضلعه السادس وقتله.

أطلق فارهان. الأخ الأصغر. سهماً إلى ما وراء الجبل الثالث والعشرين وقتل أيلّين هناك.

قال ألبات ميرغين «إذاً. فلقد انتصرت لا يمكن أن تعيش كما أنت منذ اليوم».

قطع فارهان جبينه، وفتحَهُ، وأخرج كتاباً. قرأ في الكتاب إن أجمل امرأة في العالم هي شانداغان ساغاي، ابنة أيسيج مالان، وأنها ستصبح عروسه.

خلف جبل معين، كانت فرس بيضاء كالحليب ترعى مع ثلاثة عشر حماراً، وكان مهرها يمشي خلفها. كان المهر بطول تسمين قامة (مقياس يعادل ستة أقدام أو 1.82 متراً) ولونه رمادياً غامقاً. قادَ فارهان تولاي المهر إلى بيته، وأطعمه أربعين يوماً، وأسرجه، وبدأ بركوبه إلى السماء ووجد هناك الخيمة التي تعيش فيها شانداغان ساغاي، جميلة كل العوالم العليا والسفلى.

مضى طويلاً وسريعاً حتى أنهك جواده، من ثم حوله إلى حجر صوان، ووضع الصوان في جيبه، وجعل من نفسه ذئباً، واستمر في الجري. سافر فارهان كذئب حتى تعب، من ثم استعاد شكله، وامتطى المهر ذا اللون الرمادي الغامق حتى وصل أخيراً إلى فتحة، وهي باب خلال النقطة الأعلى في السماء. كان اسم هذا الباب سينبور أولاي تولغاي.

دخل فارهان تولاي من الباب وشاهد على الجانب الآخر نهاية خيمة كبيرة. من ثم مشى أكثر وشاهد الخيمة بأكملها. كانت خيمة رائعة وضخمة جداً، بحيث إنها كانت ترتفع حتى تلامس سماء ثانية. عندما وصل إلى هذه الخيمة الجميلة، دخلها، وفي الحجرة الخامسة والسبعين وجد شانداغان ساغاي.

سألت شانداغان «متى أتيت؟ وماذا أنت فاعل؟».

«أنا ابن غالتون أومري. أنا ذاهب لإيجاد عروس. أنا أبحث عن أغين نوغون». قامت عندها شانداغان ساغاي بإعداد الشاي في إبريق فضي، وشرباه معاً.

قال فارهان تولاي «لقد سافرت طويلاً». أنا تعِب. هنالك مشكلة ما، شيء يؤلم رأسي. انظري بداخله». وضع رأسه على ركبتيها. كانت أصابعها، التي تعبث في شعره، تبعث لديه شعوراً رائعاً، فغط في النوم. في الوقت نفسه صرخت هي، فوثب فارهان وخرج مسرعاً. كان هنالك أربعة وسبعون باباً علاوة على الباب الخارجي، أي خمسة وسبعون باباً. أغلق هذه الأبواب، فوجد أمامه خمساً وتسعين حجرة. فأغلق كل حجرة بإحكام، من ثم جعل المنزل صغيراً جداً، بحجم صندوق صغير، ووضعه على جواده وشانداغان ساغاي بداخله، ومن ثم سارع مبتعداً بخفة.

كان لدى أيسيج مالان ثلاث شالموصات (أرواح خفية) تعمل على خدمته، وثلاث أرواح مرافقة، والتي كانت تعمل في كل مكان، وتراقب في كل الأوقات وتنظر في كل الاتجاهات بسرعة كبيرة. لاحظت هذه الشالموصات أن المنزل قد اختفى، وأن الابنة قد اختفت، وأن كل شيء قد اختفى، فأسرعت لإخبار أيسيج مالان.

فتح أيسيج مالان أبوابه وشاهد فارهان تولاي يسرق ابنته بعيداً. - رآه مبتعداً. يسرع الخطى، ويجرى بكل سرعته. فنادى الشالموصات الثلاث، وأرسلها لتحضر له الأحمق المثالي. فأحضرت الأحمق بسرعة، وقال له أيسيج مالان: «لقد أحضرتك أيها الأحمق لهذا الغرض. لقد أتى رجل وسرق خيمتي وابنتي وجميع ممتلكاتها. أسرع والحق به وأمسك به وأعد ابنتي».

«أعطني الوسيلة والمساعدة لأقوم بذلك» أجاب الأحمق المثالي.

أرسل إيسيج مالان ثلاثمائة محارب معهم هراوات، وثلاثمائة آخرين معهم مطارق، وثلاثمائة آخرين معهم سيوف حادة، كي يُساعدوا الأحمق. ذهبوا بسرعة وكانوا يقتربون من فارهات تولاي. وكان فارهان على الأرض الآن، يسرع الخطى دائماً. كان جواده لا يكل، ولكن الأحمق والمحاربين كانوا يقتربون منه في كل لحظة: لذلك ارتفع فارهان في الهواء مع جواده وأسرع إلى بلاد مرتفعة عند أحد الجوانب.

فقد الأحمق ورجاله أثر فارهان، ولكن الأحمق علم ما الذي يجب فعله. فارتفع في الهواء أيضاً. «فقال الأحمق لمساعديه التسعمائةسوف أطير أيضاً. ولكن ابقوا أنتم هنا. فقضوا الليل في المكان الذي تركهم فيه. أثناء الليل، أحرقوا جميع الأشجار في الغابة المحيطة بهم جميعها، وأكلت خيولهم العشب كله، ولم يَنْمُ شيء في ذلك المكان منذ ذلك اليوم.

شاهد الأحمقُ فارهان من مسافة طويلة جداً. وعندما كان على وشك اللحاق به، قام فارهان بتحويل نفسه إلى رجل عجوز وجلس بالقرب من ينبوع ماء عذب. وكان قد صنع كوخاً، وجلست امرأة بداخله، كانت المرأة هي شانداغان ساغاي.

كان يبدو على فارهان الفقر المدقع، متمنطقاً بحزام من القشر الداخلي من شجرة أرزية حول وسطه. مع ذلك، لم تَخْفَ هذه الخدعة على الأحمق.

سأل الأحمق «أي نوع من الرجال أنت، تسرق إبنة رجل آخر مع بيته وممتلكاته؟ بأي حق تفعل هذا؟!».

وثب كل منهما على الآخر، وتشابكا، وبدأ بالقتال، وتقاتلا تسعة أيام مع استراحة قصيرة لأخذ الأنفاس. في النهاية، قام الأحمق برمي فارهان تولاي على ثلاثة جبال، من ثم أسرع خلفه، وعندما وصله قال:

«كيف يمكنك بهذه القوة البسيطة أن تفكر في أن تصبح بطلاً؟».

كان فارهان قد انغرس في الأرض حتى خصره. وكاد يموت من التعب. ولكن عندما سمع هذه الكلمات الساخرة. أصابه غضب رهيب. وخرج من الأرض. ومع قيامه قلب مائة وخمسين فداناً من الأرض حوله في دائرة.

صاح فارهان «بالرغم من أنك أحمق مثالي. وقد رميتني عبر ثلاثة جبال. الآن. سوف أرميك بعيداً جداً بحيث لن يراك أحد ثانية!». وفي تلك اللحظة أمسك بالأحمق ورماه عبر سبعة جبال. فانغرس الأحمق مسافة ثمانين قامة في الأرض وبقي هناك.

عاد فارهان تولاي إلى كوخه في الربيع. وأخذ شانداغان ساغاي مع جميع ممتلكاتها. وذهب إلى دياره. ولكنه لم يجد شيئاً هناك. كانت خيمته قد اختفت. وماشيته قد اختفت. كان كل شيء قد اختفى. لم يكن هنالك شيء حيث كانت الخيمة باستثناء غراب أسود وثعلب أصفر. وكان بالقرب من المكان عمود لربط الخيل مكتوب عليه: «تحت هذا العمود عشرة براميل من التاراسان ولحم عشرة خراف. كل الخراف واشرب التاراسان. لقد خطفنا من بيتنا. ونحن أسرى لدى مانغاثاي ذي مائة وثمانية رؤوس. ابحث عنا وأنقذنا».

أكل فارهان وشرب ومن ثم ذهب لينقذ شعبه. سافر فارهان حتى وصل إلى مستنقع لا قعر له وغابة كثيفة. مر بالاثنين. وشاهد خلف الغابة الكثيفة جواد أخيه. وكانت إحدى عينيه مقلوعة ورجله مكسورة. فجعل جواده يبدو كمخلوق رث ورمادي وصغير وهزيل. وجعل من نفسه رجلاً عجوزاً جائعاً وتعيساً وشعره يخرج مسافة قدم من قلنسوته وتخرج أظافره من قفازيه.

مضى أبعد من ذلك. فشاهد سبعمائة من ثيران أخيه الصغيرة. وستمائة خروف. وخمسمائة معزاة. وواحدة فقط من معزاته . وشاهد بعد ذلك كلبين. وذئبين آتيَيْن لمقاتلة الكلبين. قتل فارهان كلا الذئبين ومضى أبعد من ذلك. من ثم التقى بأربعة شباب على أربعة جياد حمراء. كان لدى كل شاب سوط من حديد.

سأل فارهان «إلى أين تذهبون؟».

أجابوه «نحن رعاة ماشية».ونحن ذاهبون خلف المواشي».

لوّح فارهان بسوطه ثلاث مرات. فقُيِدت الخيول ورُبط الشباب بسروجها. وشاهد بعد ذلك المانغاثي ذا المائة وثمانية رؤوس يتمشى.

سأل المانغاثي «إلى أين أنت ذاهب أيها الرجل العجوز؟».

«أنا أحد رعاة ماشية الخان توداي وأبحث عن ماشيته. لقد أتيت لأرى إذا ما كانت مع ماشيتك. أنا عطشان، وليس لدي شيء لأشربه»

قال المانغاثي «أنت تعلم الكثير. هل تعلم أين هو فارهان تولاي هوبون؟ إذا كنت تعلم فأخبرني».

«بالطبع أعلم أين هو. لقد قُتل منذ وقت طويل على يد الأحمق المثالي. أي رجل عظيم كان فارهان تولاي. كان شخصاً ذا عظام كثيرة! تحتاج إلى ثلاثة أيام لتمشي فوق عظامه».

قال المانغاثي «سأبصق شيئاً في هذه اللحظة». وبصق حجراً كبيراً. «سأعطيك هذا الحجر لتحتفظ به. أذهب إلى بيتك وخبئه بعناية» قال المانغاثي. «طالما أن هذا الحجر معك فلن يستطيع أحد أن يؤذيك أو يضر بك. يجب أن أذهب أنا خلف ماشيتي».

قام فارهان بكسر الحجر على شجرة، فسقط صندوق مغطى بالصفيح. فتح الصندوق، فوجد بداخله ستة عشر طيراً صغيراً، فقتل منها ثلاثة عشر ووضع ثلاثة في جيبه. من ثم ذهب ليبحث عن خيمة المانغاثي بينما كان المانغاثي خارجاً يبحث عن ماشيته.

كانت زوجة المانغاثي في بيتها، وكانت امرأة غاضبة ذات وجه قبيح. جلس على إحدى ركبتيها أخو فارهان، وعلى ركبتها الأخرى جلست ديري سيسين زوجة ألبات. وكلما خرجت امرأة المانغاثي كان عليهما أن يخرجا معها.

سأل فارهان «لماذا تجعلين من أخي وزوجته خدماً لك؟»، بينما كان يدفع المرأة ويمسك بأخيه وديري سيسين.

صاحت زوجة المانغاثي «سيأتي زوجي بسرعة ويجعلك تدفع ثمن فعلتك هذه!».

«لن يأتي إلي، لأني ذاهب إليه» قال فارهان. من ثم قيدها بإحكام بحبل من شعر الخيل، وترك أخاه وزوجة أخيه، وذهب لإيجاد المانغاثي. وبينما كان ماشياً، خنق الطيور الثلاثة التي كانت في جيبه حتى ماتت. وعندما وصل إلى المانغاثي وجده ميتاً.

أحضر فارهان أشجاراً يابسة وأحرق الجثة. من ثم صنع طاحونة خشبية وطحن العظام الكبيرة لعدوه، وحولها كلها إلى رماد ونثره في كل مكان.

سأل فارهان زوجة المانغاثي «أيهما ستأخذين، قمم سبعين شجرة أم ذيول سبعين جواداً جيداً؟».

قالت زوجة المانغاشي «من الممكن أن أصنع حطباً للنار من قمم الأشجار. ومن الممكن أن أصنع حبالاً من أذيال الخيل».

جلب فارهان قمم سبعين شجرة. وصنع منها خازوقاً. ووضعها على الخازوق. فخوزقها وقتلها: من ثم أعادها إلى الحياة مرة أخرى. من ثم جلب سبعين جواداً. وربط المرأة بأذيالها. ومزقها سبعين قطعة. بعد ذلك. جمع القطع السبعين معاً وأعادها إلى الحياة مرة ثانية. من ثم خوزقها على خازوق مرة أخرى وتركها هناك. قام فارهان بتفتيش البيت بعناية. فوجد في إحدى الحجرات مهداً من الحديد. كان في المهد رضيع. ابن المانغاشي. أمسك فارهان بالولد ورماه على زاوية الحجرة ليقتله.

بكى الطفل قائلاً «آه! لا تستطيع أن تقتلني اليوم». فرماه فارهان على الزاوية الثانية.

بكى الولد قائلاً «لا. لا تستطيع أن تقتلني اليوم». فطوح به فارهان إلى الزاوية الثالثة.

قال الطفل «آه. لا! لا تستطيع أن تقتلني اليوم».

فكر فارهان «ماذا يجب أن أفعل لأقتل هذا المخلوق؟». أمر رجاله قائلاً. « أحفروا لي حفرة بعمق عشرين قامة. وضعوا فيها كل ما تجدونه هنا من الحطب».

تم فعل هذا. وأشعلت نارٌ كبيرة في عمق الحفرة. من ثم رموا المانغاشي الصغير فيها.

صاح الولد «آه. كم هو ممتع ومريح هذا المكان. إنه دافئ ولطيف جداً!»: وبدأ يلعب بالجمر.

وبما أنه لا يمكن فعل شيء لقتل الطفل. عاد فارهان ليستشير البوركانات الألف. فأعطوه أربع سلاسل. وقال له البوركانات «أربط يديه وقدميه بهذه السلاسل وخذه إلى مكان في الغابة حيث توجد أربع أشجار: واربطه بالسلاسل إلى هذه الأشجار. وابنِ بيتاً بالقرب منها. وابنِ بداخل البيت الخشبي بيتاً من الحديد. وابنِ داخل البيت الحديدي بيتاً من الرصاص. وأملأ المساحات بين البيوت. الخشبي والحديدي والرصاصي بالثلج: وعندما يتم هذا. انتظر داخل بيت الرصاص تسعة أيام. وخلال هذه الأيام التسعة سنخلق حرارة فظيعة. وسينفجر الولد».

بنى فارهان البيوت. من ثم التجأ هو وأخوه وزوجة أخيه داخل بيت الرصاص. بينما خلق البوركانات حرارة رهيبة في كل البلاد حول بيت المانغاشي حيث كان الولد. والذي تورم بشكل فظيع ومن ثم انفجر أخيراً.

الفصل الثاني عشر

عندما انتهت الأيام التسعة، خرج فارهان وأخوه من بيت الرصاص، وأحرق جسم طفل المانغاثي، ونثر الرماد، وأخذ كل مواشي المانغاثي وثرواته، وعاد إلى دياره. عندما وصل فارهان إلى خيمته كانت زوجته قد اختفت، كانت قد فرت عائدة إلى إيسيج مالان، والدها.

انطلق فارهان في رحلة ثانية إلى السماء. بينما كان صاعداً في طريقه، رآه أبو شانداغان، فذهب إلى هوهوداي ميرغن (الرعد). وقال له «اضرب ذلك الفارهان بصاعقة واقتله». فعل هوهوداي كما أمره إيسيج مالان، وسقط فارهان على الأرض، وسقطت معه الشمس والقمر معه، وعم الظلام في كل مكان.

عقد البوركانات مجلساً وقالوا لإيسيج مالان «يجب أن ترسل رسلك ليُعيدوا الشمس والقمر. لا نستطيع أن نحيا هكذا».

أرسل إيسيج مالان ثلاثمائة محارب مع ثلاثمائة جواد وثلاثمائة عتلة حديدية لرفع الشمس والقمر. ولكن المحاربين لم يستطيعوا أن يرفعوها وعادوا أدراجهم.

قام عندها إيسيج مالان بطلب الحدّادين المقدسين السبعة من السماء وأرسلهم إلى الأسفل مع أكيارهم، وأرسل أيضاً ثلاثمائة محارب، وفي هذه المرة حمل كل محارب مطرقة تزن تسعين بوداً. كان على الحدادين أن يقوموا بالتسخين وعلى المحاربين أن يطرقوا. عملوا شهراً كاملاً. ولم يُنجزوا شيئاً. كان كل ما فعلوه عديم الفائدة.

طوال هذا الوقت كان الظلام يعم كل مكان. وأخيراً عقد البوركانات مجلساً ثانياً. وكان هنالك حكيم عظيم جداً، زاريا أزيرغيشا (القنفذ). فأرسل البوركانات هذا البوركان العجوز الحكيم إلى إيسيج مالان، وقال له:

«أعد الحياة إلى فارهان الذي قتلته، ولا تتأخر في ذلك: وأعطه شانداغان ساغاي. إن السماء والأرض تقبع في الظلام بسبب ابنتك؟».

قال إيسيج مالان «سأعطيه ابنتي فوراً». واستدعى في تلك اللحظة هيرديك شوبون (النسر). وقال له:

«خذ ابنتي إلى المكان الذي قام فيه هوهوداي ميرغن بضرب زوجها بصاعقة. وخذ معك قارورة من ماء الشباب والحياة، واسكب الماء على جسد فارهان وأعده إلى الحياة مرة أخرى».

فعل الخان هيرديك كل ما أمر به أيسيج مالان. فوثب فارهان تولاي هوبون حياً وبصحة جيدة، وفي تلك اللحظة ارتفعت الشمس والقمر إلى مكانيهما في السماء.

عاد فارهان إلى دياره مع زوجته، وجمع شعبه، وذبح الخراف والماشية، وأقام حفل زفاف وولائم كبيرة.

قال فارهان لزوجته «لقد سافرت زمناً طويلاً . أنا متعب وأريد أن أنام. أريد أن أنام أربعة أيام وأربع ليال. لا توقظيني، ما لم يأتِ أناس أشرار وتكون هناك حاجة كبيرة لي. عندها اضربيني على فخذي الأيسر بقبضتك».

استلقى فارهان وغط بسرعة في نوم عميق. بعد يومين، أتت امرأة مسرعة إلى الباب وصرخت «أنا خائفة من كلابكم. دعوني أدخل! دعوني أدخل! أنا جارتكم!».

كانت امرأة مانغاثاي، وقد جاءت لسرقة فارهان؛ ولكن شانداغان ساغاي، باعتقادها أنها جارة لهم، أدخلتها، وأحضرت إبريقاً فضياً، وصنعت الشاي، وأعطتها بعضاً من العسل، ومن ثم خرجت للحظات لإحضار التاراسان، تاركة المرأة مع فارهان، والذي كان نائماً طوال هذا الوقت خلف سبع ستائر.

عندما عادت شانداغان، كانت المرأة الغريبة قد اختفت، وكان فارهان قد اختفى أيضاً. ذهب أخوه ألبات ميرغين للبحث عنه. فتتبع آثار المرأة حتى وصل عند مانغاثاي ذي ثلاثة وستين رأساً.

تقاتل ألبات ميرغين سبع سنوات مع هذا المانغاثي، وأثناء هذه السنين، أنجبت زوجة فارهان ولدين: كان اسم الكبير ألتين شاغوي واسم الصغير مورغون شاغوي.

كبر الولدان بسرعة. وعندما أصبح عمرهما تسعة أيام، لم يكن جلد كبش بعمر عشرة أعوام كبيراً يكفي لصنع معطف لأي منهما. أصبح الولدان بسرعة قناصين رائعين وصيادين عظيمين. كان في البلاد المجاورة مجموعة من الرفاق، شباب يقومون بالرماية على علامة تبعد ثلاثة فراسخ، ولم يقدر أحد على الإصابة من على هذا البعد باستثناء الأخوين. «لقد أصبنا! لقد أصبنا!» صاح الآخرون. فسأل الأخوان «لماذا تقولون ذلك وأنتم تعلمون أنه نحن الذين أصبنا؟».

كان الشباب محتارين وغاضبين. تحدث أحدهم وقال:

«إذا ما كنتم رجالاً بما فيه الكفاية لتطلقوا، فلماذا لا تنقذان أباكما من المانغاثي؟».

«لم يفكر الأخوان أبداً بأن لهما أباً. ولكن هذه المرة ذهبا إلى البيت وسألا أمهما إذا ما كانت امرأة المانغاثي قد أخذت فارهان تولاي هوبون، وكان كذلك. لقد كان أبوهما.

أجابت شانداغان ساغاي،لقد كان فارهان تولاي أباكما. ولكنه مات قبل أن تُولدا».

لم يُصدقا هذا. وعندما لم يقدرا على معرفة مكان أبيهما ذهبا إلى الحقل ووضعا خطة هناك.

قال الأخ الأكبر «اذهب إلى داخل المنزل. إن الإبريق يغلي. وسأصيح من الخارج قائلاً بأن العجول قد امتصت حليب الأبقار حتى جففته: سوف تخرج أمنا مسرعة. من ثم أصرخ أنت من المنزل قائلاً بأن الماء يفيض من الغليان. من ثم سنركض إلى الداخل. ونأخذ غطاء الإبريق. ونمسك بها ونبقي يديها في الماء حتى تُخبرنا بمكان أبينا».

دخل الأخ الأصغر إلى البيت وكان يتحدث مع أمه عندما قام الأخ الأكبر فجأة. والذي بقي في الحقل. بالصياح «أماه. تعالي بسرعة! إن العجول قد امتصت حليب الأبقار حتى جففته. لن يكون لدينا حليب!»

خرجت الأم مسرعة. ولم تكد تصل الحقل حين صاح الأخ الأصغر من داخل المنزل: «آه يا أماه. تعالي بسرعة! إن الماء يفيض من الغليان ويطفئ النار!»

عادت شانداغان ساغاي مسرعة. وتبعها الولد الأكبر كأنما هو ذاهب لمساعدتها. وعندما أصبحت بداخل المنزل. أمسك الأخوان بيديها ووضعاهما في الماء الحار. وقالا لها «أخبرينا أين والدنا».

أجابتهما بغضب «إن رماد أبيكما موجود حيث يجب أن يكون رماد والديه». فوضعا يديها في الماء مرة ثانية. فأخبرتهما بكل شيء. لأن الماء كان حاراً جداً.

عندها. أخذ الأخوان أسلحتهما وانطلقا مشياً على الأقدام. وذهبا إلى حدود أرض أبيهما. وأخذا معهما اثني عشر فتيلاً. وناشدا البوركانات للحصول على خيول. صلّيا يوماً وليلة. ممسكين بالإثني عشر فتيلاً. في اليوم التالي. وضعا الإثني عشر فتيلاً على الأرض. واستمرا في الصلاة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. وفي اليوم الرابع. في الصباح. شاهدا أربعة خيول رمادية بالقرب منهما. وكان على سرج كل جواد عُدة محارب. ركبا الجوادين ومضيا مبتعدين. وهما يمتطيان الجوادين الآخرين. بعد المضي في السير وقتاً طويلاً. التقيا بعمهما. الذي كان عائداً في طريقه إلى الديار.

قال ألبات ميرغين. «لقد قتلت المانغاثي ذا الثلاث وستين رأساً. ولكني لم أجد أثراً لأخي. فارهان تولاي هوبون».

قال الأخوان: «إن فارهان تولاي هو أبونا، وأنت عمنا». عندها استدار العم وعاد مع ابني أخيه، ومضوا مباشرة إلى بيت المانفاثي. لم يجدوا أحداً هناك، ولكنهم وجدوا آثاراً تتجه نحو الغابة. تبعوا تلك الآثار، والتي استمرت، حتى وجد الولدان والدهما أخيراً. كان على رأسه عجلة تزن تسعين بوداً، وكانت ثمانية مسامير حديدية قد دقت في جسده، أربعة في جانبه الأيمن وأربعة في جانبه الأيسر.

قام ألبات وأخوه بالإمساك بسبعة من صغار المانفاثي وربطوهم، وربطوا أمهم أيضاً. من ثم رفعا العجلة من فوق رأس فارهان وأخرجا المسامير.

كان بالقرب من ذلك المكان جبل كبير وواسع ذو قمة مستوية، حيث تتقاطع أربعة طرق. كان عند التقاطع ثماني أشجار أرْز ضخمة. فأخذوا صغار المانفاثي وأمهم إلى ذلك المكان، وربطوا كل واحد بشجرة أرز، بواسطة حبل وبر قوي. من ثم ثبتوا رؤوسهم وأقدامهم وأيديهم على جذع الشجرة بالمسامير ونزعوا الحبال عنهم.

وُضع برميل أمام كل مانفاثي، وعُلق على كل برميل سكين مثلمة ومقص بالٍ. وكُتب على كل شجرة الكلمات الآتية: «كل من يمر من هنا، رجلاً كان أو امرأة، يجب أن يقطع قطعة من اللحم من جسد طفل المانفاثي المعلق هنا، ولتستخدم كل امرأة المقص وليستخدم كل رجل السكين. ومن لم يفعل ذلك فسوف يُثبت بالمسامير على شجرة كما هو حال هؤلاء الثمانية هنا».

من ثم تركوا امرأة المانفاثي وأولادها السبعة عند تقاطع الطرق، ومن ثم قلبوا بيت امرأة المانفاثي رأساً على عقب، وأخذوا كل ما كان لديها، وعادوا بها إلى ديارهم، وعاشوا هناك بعدها بابتهاج.

ألتين شاغوي

عند غابة سفح جبل، أتى رجل يبلغ عمره سبعين عاماً وامرأة عمرها ستين عاماً. وقاما بتنظيف مساحة صغيرة هناك، وقطع الرجل أشجاراً لبناء خيمة. وعندما انتهى من بناء الخيمة، عاشا فيها. وبعد فترة وجيزة، أنجبت المرأة العجوز ولداً، وكان الولد من الفضة من أسفل خصره ومن الذهب من فوق خصره.

بعد يومين من ولادته، أصبح جلد خروف بعمر عامين صغيراً جداً على الولد. في ثلاثة أيام، أصبح جلد خروف بعمر ثلاثة أعوام ضيقاً جداً عليه.

كان العجوزان يعيشان حياة متقشفة جداً. وكان لديهما بقرة واحدة فقط. ولم يكن للبقرة حليب يكفي للولد ذي الثلاثة أيام. بدأ الأب والأم بتوبيخ ابنهما.

قالا له «أي ولد شره أنت!».

بعد خمسة أيام، قال الولد لهما: «أنا طفلكما، الوحيد، وأنتما غير قادرَين على إطعامي: ماذا كنتما ستفعلان لو كان لكم ولدان أو ثلاثة غيري؟».

«من غير الممكن أن يكون هنالك أحد مثلك. إراقة الحليب على الأرض أو إعطاؤه لك سيان، فأنت لا تكتفي أبداً مهما كان مقدار ما نعطيك».

قال الولد «أنتما مخطئان، من الممكن أن يأتيكما من هو أكثر شراهة مني. أنتم تعطيانني الحليب في كأس، ولكن إذا وُلد لكما ولد يمكن أن يأكل البقرة، فماذا أنتم فاعلان عندها؟».

وكان يرضع من ثدي أمه أيضاً.

أضاف الولد «عندما أرضع من ثدي أُمي، أكتفي».

قال الوالدان بحذر «بالرغم من أنه صغير إلا أنه يفهم». «فلنلق به خارجاً! ولنتخلص منه!».

قال الولد «ارمياني خارجاً إذا ما رغبتما بذلك، «ولكن إذا ما فعلتم ذلك، فخذوني بعيداً إلى جبل ما، ولا تُلقَيا بي في مكان قريب، هنالك، في البعيد، سوف أطلب الطعام من البوركانات المقدسة».

اعتقد الأب والأم أن الولد يهزأ بهما إلى درجة لا يمكن التسامح معه وأنه يجب عليهما أن يتخلصا منه.

قال الأب والأم «آه، شرير، لقد رُزقنا بولد شرير جداً!».

كان يقابلهما جبل شامخ. أخذ الأب ولده إلى ذلك الجبل وتركه على القمة. بكى الطفل نصف الأربع والعشرين ساعة، ومن ثم استدار إلى البوركانات الألف المقدسة، وسألهم:

«لماذا تخلقون والدَين لا يطعمانني؟ بما أنكم خلقتم من رمَياني، فأعطوني الطعام والثياب، وأعطوني جواداً وعدة». وبكى حتى غط في النوم. عندما استيقظ في الصباح التالي، وجد نفسه في غرفة في خيمة غريبة، كان فيها الكثير من الناس، وقطعان من الخيول، وكان هناك الكثير من

المواشي التي ترعى في المرج القريب. خرج الولد. ونظر حوله. ومن ثم عاد. وأمضى ليلة ثانية.

عندما أخذ الأب ولده إلى الجبل لم يكن الطفل قادراً على المشي. في الصباح التالي كان الوالدان ينظران إلى الجبل ويتساءلان كيف أصبح الولد. وشاهدا خيمة جميلة وتعجّبا من ظهورها هناك في ليلة واحدة.

« لقد أتى عدو لنا. وبالتأكيد كي يقتلنا في النهاية» قال الأب والأم. «فلنصعد إلى الجبل. ولنقدم قرباناً للبوركانات. لا بد أن ولدنا قد مات الآن».

لم يذهبا إلى الجبل. ولم يقدما قرباناً للبوركانات.

بقي الولد تسعة أيام وتسع ليال في خيمته: ومشى في جميع الغرف. وفي الليلة بعد اليوم الثامن. وجد كتاباً. كان هذا الكتاب. والذي كان كبيراً كباب عادي. قد سقط من خلال المدخنة. قرأ الولد الكتاب. وفهمه كله. كان مكتوباً فيه أنه سيصبح خاناً عظيماً. وكان مكتوباً فيه أيضاً أي أرض ستكون تحت سلطته. وكتب اسمه فيه. ألتين شاغوي. قرأ ثلاث ليالٍ ونصفاً ومثلها من الأيام. كان موضحاً في الكتاب أن جميع شعبه وجميع قطمانه كانت في حال جيدة.

في وقت قصير. أصبح ألتين كأنه بعمر عشرة أعوام. وقال «الآن يجب أن أحصي شعبي وماشيتي وخيولي».

في ذلك الوقت. أنجبت أمه طفلاً ثانياً. شَرِهاً حقيقياً. كان أكولاً شنيماًا أعلم الناس ألتين بأن أباه وأمه رزقا بابنة. واضطرا إلى ذبح بقرتهما لإطعامها. وكانا يُعانيان من الحاجة. وكانت أمه تموت من الجوع.

أمر ألتين بأن تُساق عشرة ثيران صغيرة إلى خيمة أبيه. وذهب بنفسه مع الرجال الذين ساقوا الثيران. ساعد في تحضير اللحم من أجل أمه. من ثم أخذها وأخذ أباه وأخته إلى خيمته.

«لقد ظننتم أنني شره عندما رميتماني خارجاً» قال ألتين. «ولكن أصبح لديكما الآن شرهة حقيقية».

كانت الأخت الصغيرة رهيبة. بكت ليلاً و نهاراً. وعندما لم تكن تبكي كانت تشرب الحليب. قرأ ألتين في كتابه. ووجد أنه يجب أن تُسمى الطفلة وأن يكون لها مهد. فجمع الناس. وأقام وليمة كبيرة. وأسمى أخته في احتفال مناسب. أصبحت هادئة بعد ذلك. ولم تبك بعدها: حظي أبوها وأمها بالسلام والراحة.

قال ألتين «يجب أن أحصي ماشيتي». عندما أصبح ولداً بعمر ثلاثة عشر عاماً. كان جواده. الذي أعطته إياه البوركانات. موجوداً على جبل تيفين أولان هادا. ذهب إلى الجبل العظيم مشياً على أقدامه. ووصل إلى قاعدته. وتسلق واستمر في التسلق. من ثم توقف أخيراً. لأنه لم يستطع أن يتقدم أكثر من ذلك. فتحول إلى نسر ومن ثم طار مرتفعاً. - طار طوال ثلاثة أيام. وطار حتى وصل إلى القمة.

انتصبت على القمة شجرة حور رجراجة ذات جذع ذهبي وأوراق فضية. عند أسفل تلك الشجرة. كانت مياه الحياة تتدفق صاعدة. ولم يكن الجواد هناك. شرب ألتين الماء. وتحول إلى قصبة وانتظر. عند منتصف النهار. جاء الجواد ليشرب. كان يوجد على ظهر الجواد عدة محارب كاملة.

لا يهطل المطر أبداً على الجبل ولا ينزل الثلج هناك. عندما أتى الجواد باتجاه الينبوع توقف فجأة قبل أن يلمس الماء. سأل الجواد «ما هذا؟. توجد هنا رائحة لحم. إنها تبدو كرائحة إنسان. لا يجوز أن يكون أي إنسان في هذا المكان».

لم يعلم الجواد أن سيده قد ولد بعد. وقال «ليس لرجل الحق في الوجود هنا غير سيدي المستقبلي». ونظر حوله في كل مكان. ولم يشاهد أحداً. فبدأ بالشرب. تحول ألتين من القصبة إلى شكله الطبيعي وأمسك باللجام. خاف الجواد بشدة بحيث ركض وجرّ معه ألتين. وجره لمدة يوم وليلة. حول الجبل الكبير.

قال ألتين «إذا ما كنت ترغب في قتلي. فاقتلني بسرعة. وإذا ما كنت ترغب في إنقاذي. فتوقف حالاً. وإلاّ فسوف أصاب بالدوار وأموت بسرعة».

توقف الجواد. وامتطاه ألتين. وكونه غير معتاد على أن يُمتطى. اندفع الحيوان مبتعداً. وركض يوماً وليلة حول ذلك الجبل الأحمر ذي القمة المستوية. وأخيراً. بعد أربع وعشرين ساعة من الجري. قال الجواد «أنا الآن مستعد للسرج».

سأل ألتين «أي سحر لديك؟».

«لدي هذا السحر. إذا ما وضع شخص ما كأساً من الحليب على النار. أستطيع أن اركض ثلاث مرات حول العالم قبل أن يغلي. أي قوة لديك أنت؟».

«أنا قوي جداً. بحيث لا يستطيع أحد أن يقهرني. كيف سننزل عن هذا الجبل؟».

قال الجواد «أغلق عينيك وتمسك بالسرج بإحكام، واربط كلتا أذنيك بمنديل. وإذا لم تفعل ستشعر بالدوار. سوف أعود إلى الخلف مسافة ميل واحد. وأجري بكل سرعتي، وأقفز في الهواء، ومن ثم سأهبط على الأرض بسلام».

عندما استعدا، عاد الجواد مسافة ميل واحد إلى الوراء. من ثم انطلق باتجاه حافة الجبل. تمسك ألتين بإحكام، ولم يكن يسمع شيئاً، ولم يشعر بشيء. ووجد نفسه في دياره وعلى جبله. أمام خيمته مباشرة. ربط الجواد بعمود ربط الخيل. من ثم رأى أخته. كانت الآن قادرة على المشي. فسألته «متى أتيت يا أخي؟»، وذهبت باتجاه الجواد.

«لا تقتربي من الجواد» قال لها ألتين. «يمكن أن يقتلك».

«لماذا يقتلني الجواد؟ عليَّ أن أكون ودودة مع جواد أخي».

مشت حوله، ونظرت إلى الجواد بعناية، ومن ثم ذهبت إلى أبيها وأمها. وقالت لهما «آه، لدى أخي جواد رائع إنه سمين وكبير ولابد أنه قوي جداً».

خرج الأب، وعندما شاهد الجواد خاف من كبر حجمه، بحيث إنه سقط على الأرض مغشياً عليه. عندما استعاد وعيه كان ضعيفاً جداً بحيث لم يقدر على الوقوف، فزحف إلى داخل الخيمة على يديه وركبتيه.

شرب ألتين شراباً، وامتطى جواده، ومضى به ليحصي قطعانه وماشيته. ساقَ جميع الحيوانات إلى مرج كبير جداً، وأحصاها طوال ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، ولكنه لم يستطع أن ينتهي. في اليوم الرابع، اكتشف أنه قبل ثلاث سنوات ولد مهر لأفضل فرس لديه، وقد اختفى المهر. وبحثوا عن عظام ليروا إذا ما كان ذئب قد التهم المهر، فلم يجدوا شيئاً.

أخيراً، في الجانب الشمالي من المرج، وجدوا أثراً. لقد قام لص بسرقة المهر. وكان هنالك ثلاثة إخوة يعيشون في ذلك الاتجاه، فظن ألتين أنهم هم الذين أخذوا المهر؛ لذلك، مضى إلى خيمتهم وربط جواده بعمود ربط الخيل لديهم. ولكن العمود لم يقف، وخرج من الأرض. فأخذ ألتين سهماً، ورماه في الأرض، وربط جواده به. من ثم دخل إلى الخيمة ووبخ الأخوة الثلاثة، وضرب الأرض بقدميه حتى اهتزت خيمتهم.

صاح بهم ألتين «هل ظننتم أنه لا يوجد مالك للمهر؟». «كيف تجرأتم وأخذتم ما هو ملكي؟»

من ثم خرج من الخيمة ورأى مهره في حظيرة مع جوادين آخرين صغيرين. كان المهر هائل الحجم عند النظر إليه، ضخماً، مثل جواد ألتين المُسرج. تحدث عندها الأخوة الثلاثة بجرأة.

قالوا له «لا تصرخ عالياً! إذا ما كنت راغباً في الحرب فنحن لها . هنالك مكان غير بعيد من هنا يُسمى تايمي ساغان (السهل الأبيض المفتوح). في ذلك السهل خمس أشجار صنوبر كبيرة. يمكننا هناك أن نرى من هو الأقوى».

امتطى ألتين جواده فوراً ومضى إلى ذلك المكان. أشعل ناراً. وأخرج جواده، واستلقى ليرتاح، فغط في النوم. في تلك الدقيقة تحول إلى حجر. تبع الأخوة الثلاثة ألتين وقالوا لبعضهم البعض بينما كانوا مسافرين «إذا ما كان نائماً، فسوف نقضي عليه بسرعة».

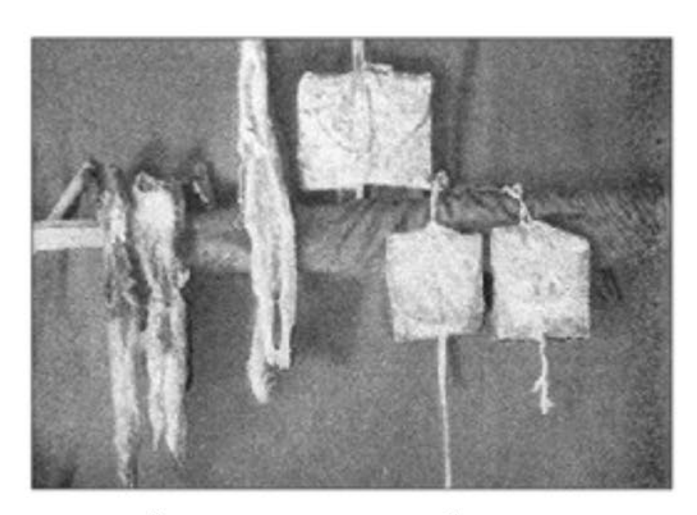
وجدوه مستلقياً على الأرض ونائماً، فرموا نحوه ثلاثة سهام. لم يتحرك ألتين. استيقظ، واتخذ شكله الطبيعي، واعتقد أن براغيث من الأرض قد قرصته. عندما رأى الأخوة، ووجد السهام بجانبه، فسألهم:

«أي نوع من الأشخاص أنتم، تحاولون قتل رجل وهو نائم؟ لن تستطيعوا فعل ذلك بي أبداً، لأني أصبح حجراً عندما أنام. كيف خططتم لقتلي، - جميعكم مرة واحدة، أو واحداً تلو الآخر؟ هل ستلاقونني بالسهام أم بالمصارعة؟».

قال الأخ الأكبر «سأواجهك وحدي». «سوف نتصارع ونرى من هو الأقوى، أنت أم أنا».



الآلهة التي تحمي البيت من الخارج جزيرة أولخون



آلهة البورات، أو تماثيل لآلهتهم خارج أونغونز

في تلك اللحظة، أمسك ألتين بالمتفاخر من خلف عنقه، وأداره ثلاث مرات حول رأسه، وضربه بشجرة الصنوبر فقتله. عندها جاء الأخ الثاني، فتعامل مع ألتين بالطريقة نفسها، وقتله كما قتل أخاه. من ثم جاء أصغرهم، وكان قوياً جداً، كان بقوة ألتين تقريباً. تصارع الاثنان طوال ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، وقطع كل منهما اللحم عن الجهة الأمامية من جسد الآخر ومزق اللحم عن ظهره، وعملا خنادق في الأرض بأقدامهما بينما كانا يتصارعان. كانت الغربان والعقبان تطير قادمة من الشمال والجنوب، وتحمل اللحم بعيداً، وتأكله.

في اليوم الرابع، رمى ألتين الأخ الثالث، والذي قال قبل أن يموت: "لقد قاتلتك عبثاً، ولكني قاتلت من أجل أَخَوَيَّ" ثم مات.

قام ألتين بسحب ثلاث أشجار صنوبر من جذورها وأحرق الإخوة الثلاثة ودفنهم. من ثم ذهب إلى خيمتهم، وقلبها رأساً على عقب، وأخذ كل شعبهم وأملاكهم وماشيتهم وعاد بخيوله الثلاثة إلى خيمته على الجبل.

قال ألتين لوالده «لقد أحصيت خيلي وأمهاري».

«لقد انتهيت منها جميعاً، سأذهب الآن لأبحث عن عروس لي».

قال أبوه وأمه «يجب أن تفعل هذا»، «نحن عجوزان، وقد حان الوقت لك لتتزوج».

قرأ ألتين في كتابه ثلاثة أيام. « يعيش الخان غال نورمان، والد العروس، في الجنوب البعيد» قال الكتاب، «اسم ابنته غاغوراي نوغون، وهي عروسك».

لم يسمع غال نورمان لأحد بالاقتراب منه، ولا ينام في النهار أو الليل باستثناء لحظة قبل الفجر: كيف سيذهب ألتين إلى هذا الرجل، وكيف سيترك أخته، وكيف سيترك أباه وأمه، اللذين أصبحا عجوزين وضعيفين الآن؟ قام ألتين بجمع الناس ليطلب المشورة من كل من كان أكبر من عشر سنوات وأقل من خمسين سنة من العمر. قدم الطعام والشراب وأخبرهم بما يريد. قال ألتين «أنا ذاهب لإيجاد عروس. أي رجل سيُدير الأمور عندما أكون غائباً؟».

قال حكيم عجوز، عمره ثمانون عاماً، والذي كان موجوداً هناك بمحض الصدفة، «بالرغم من أني عجوز، فإني حكيم. وهذه مشورتي: اختر رجلا مثقفاً من بين الناس، ودعه يُدير الأمور في مكانك».

سأل ألتين «أين يمكن أن أجد مثل هذا الشخص، شخص جيد؟».

لم يتحدث أحد، حتى قام أخيراً رجل عجوز وقال «لدي ابن عمره عشرون عاماً، ويتقن سبع لغات. يمكنه أن يُدير أمور البلاد لك».

أرسل ألتين ثلاثة خيالة لإحضاره. قال له الرسل «يطلبك الخان لتمثل أمامه». كان الشاب يرتدي قميصاً واحداً. قال الشاب «أنا نفسي خان». «ولا أُدين لخانكم بشيء، لقد علّمت نفسي بواسطة أبي، ولم آخذ شيئاً من أي إنسان. أنا لست مديناً لأحد. ولكن بما أن الخان يطلبني فسوف أذهب.» فوضع عباءة سوداء وسروالاً أسود وقلنسوة وحذاءً من جلد السمك، ثم ذهب إلى ألتين، الذي خرج لملاقاته، وأخذه من يده، وسار به داخل خيمته. سأله ألتين «ماذا تود أن تأكل؟». ووضع شراباً أمام الشاب وبجانبه الكتاب الذي كان قد قرأه هو بنفسه.

قال ألتين «إذا ما أنهيت قراءة هذا الكتاب في ثلاثة أيام... فسوف أصدق أنه إذا ما كنت أنت في مكاني فسيكون الوضع جيدا كما لو أني موجود. وإذا لم تتمكّن من الانتهاء منه، فسيكون الوضع أسوأ».

بدأ الشاب في قراءة الكتاب، وأنهاه في أوانه.

قال ألتين «أنت حكيم وستصبح الآن مكاني، وسأتركك، وعندما أعود، سوف تذهب أنت للبحث عن عروس لك».

قال الشاب «لا أستطيع أن أبقى هنا، إن أمي تبلغ من العمر سبعين عاماً ويبلغ أبي من العمر ثمانين عاماً، من سيطعمهما؟ لا أخوة لدي».

قال ألتين «أحضر أباك وأمك إلى هذا المكان وكن أخي».

قال الشاب «إن خيمة أبي وشؤوني الخاصة أعزُّ عليَّ من كل شيء آخر. لم أفكر قَطُّ بتركها».

«سأغيب تسع سنوات» قال ألتين. «أترك والديك في بيتهما وقم بزيارتهما بين الحين والآخر . أرسل لهما الطعام والثياب. خُذ من أشيائي أي شيء ينقص خيمتك».

قبل الشاب. لرغبته في ألا يُغضب الخان.

قال ألتين «أنا راضٍ ولكن في غيابي. أحتاج إلى معرفة أنك في حال جيدة. فهل تقدر أن تعطيني إشارة ما؟»

قام الشاب بإعطائه خاتمه الفضي. قال الشاب «إذا ما كنت في حال وصحة جيدة». «فسوف يلمع الخاتم. وإذا ما مت فسوف ينقسم نصفين. أعطني أنت أيضاً إشارة ما».

أجابه ألتين «سأريك أولاً مكان مسكنك ومن ثم سأعطيك إشارة». بعد أن أراه خيمة جانبية. أعطاه سهماً وقال له: «احتفظ بهذا السهم بعناية. إذا مت فسوف يفسد. وإذا عشت فسيكون كما هو الآن».

كان ألتين مستعداً لامتطاء جواده عندما تذكر فجأة شيئاً كان قد نسيه. ونادى. «لم أستدعِ الشعب ليتمنوا لي حظاً موفقاً». فجمع الناس. ومن ثم قدم لهم اللحم والشراب بكثرة. فتمنوا له أفضل الأماني. وذهب هو باتجاه الجنوب. بلا حاشية.

قال جواد ألتين. «أستطيع أن أمضي بقوة إذا ما رغبت» ومن ثم اندفع إلى الأمام مثل الرياح القوية. وبعد قليل وصل إلى الحدود. وكانت الشمس عالية عندما ترك ألتين دياره. ولكنه وصل إلى الحدود عند منتصف النهار. فأخذ بعضاً من التبغ. ودخّن. قال لجواده «نستطيع أن نعمل معاً بشكل جيد».

عند المساء. وصلا إلى ثلاث طرق. ومرّ أمامهما ثعلب أصفر. صاح ألتين «كيف تجرُؤ على قطع طريقي؟». ورمى الثعلب بسهم فشطره شطرين. غاص نصفه السفلي في الأرض فصاح بألتين:

«سأخبر التينغيريات المقدسة عما فعلته بي». وطار الرأس والجزء الأمامي إلى السماء.

اندفع ألتين متقدماً بسرعة. ولكنه واجه محارباً مقدّساً نزل من السماء ووقف أمامه. كان اسم المحارب تيل بوغي تينغيري. واندفع المحارب باتجاه ألتين. وضربه في صدره. وقسمه نصفين. وأمسك بجزئه العلوي وطار به إلى السماء. وترك الجزء السفلي حيثما سقط.

قال المحارب «لقد فعلت هذا بينما كان يطير . «لأنك قتلت ابنتي الوحيدة. لقد أرسلتها إلى الأرض في مهمة غير شريرة. لقد ذهبت لتبحث عن جذور الزنبق».

عندما غاب سيده، وقف جواد ألتين وذرف الدموع. « سواء بكيت أو لم أبك، يجب أن أفعل شيئاً». وحول نفسه إلى نسر. وفكر «سوف أذهب الآن وأسأل من خلقني لماذا قُتل سيدي. ذلك الثعلب التعيس بأي حق قطع الطريق على الناس، ليتسبب بمقتل رجل؟ سأجعلها تأخذ ما تبقى من سيدي إلى الجنة».

طار النسر في السماء، مباشرة إلى زاياشا زايان تينغيري، الذي خلقه، وأخبره بما حدث. «سيُعقد مجلس» قال زاياشا، وأرسل فوراً إلى البوركانات الألف المقدسين.

«من تجرأ على قتل الرجل الذي خلقت؟» سأل زاياشا، عندما تجمع البوركانات الألف في الصباح التالي عند الفجر. فأخبروه، ومن ثم استدعى تيبل بيلغ وحكم عليه أن يُحضر النصف السفلي من ألتين إلى السماء. من ثم قالوا له «بما أنها لم تتصرف بشكل صحيح، فإنّ ابنتك مُلامة أيضاً. لقد عاشت حياة شريرة على الأرض ولم يكن لها الحق في قطع طريق الناس».

ذهب تيبل بيلغ إلى الأرض وعاد بالنصف السفلي من ألتين بعد ثلاثة أيام من مقتله. وكان ما يزال هناك بالقرب من تقاطع الطرق.

حضرت في هذا الوقت أخت ألتين إلى السماء، واشتكت بمرارة. وسألت البوركانات عمن تجرأ وقتل أخاها.

أخذ تيبل بيلغ النصفين إلى الحدّادين المقدّسين. فعملوا سبعة أيام وسبع ليالٍ على ألتين. واستطاعوا بصعوبة أن يُعيدوه إلى شكله الطبيعي مرة أخرى. ولكن لم يستطيعوا أن يُعيدوا إليه أنفاسه: كان على البوركانات الألف أن يفعلوا هذا، وأعادوا الحياة إليه من جديد. من ثم أمر ألتين أخته بأن تعود إلى الديار بلا تأخير. فتحولت إلى غراب أسود وطارت عائدة إلى الأرض.

«هل يجب أن أقاتل أحداً في طريقي؟» سأل ألتين، عندما غادر البوركانات.

«لا، سوف تذهب مباشرة مع الحظ الطيب» قالوا له. «ستهب إلى حميك، ومقابل خيمته، على جبل شاهق، توجد شجرة حور رجراجة ذهبية، وهناك ماء الحياة عند أسفل الشجرة، ويجلس على قمة الشجرة طير وقواق أبيض بحجم رأس جواد. يعلم هذا الطير كل ما حدث في السماء، وكل ما يفكر به البوركانات. يستطيع أن يعيد الموتى إلى الحياة ويُعطي الثراء للناس الفقراء،

لدى طير الوقواق هذا حكمة هائلة. اشرب من ماء الحياة. واعط بعضاً منه للحصان. وامض متقدماً في الصباح التالي. من هنا والى ذلك جبل نجوم ذهبية». وصل ألتين إلى الجبل ولم يتوقف أبداً حتى وقف أمام شجرة الحور الرجراجة ذات الجذع الذهبي. نزل عن جواده. وشرب من ماء الحياة. وأعطى بعضاً منه لحصانه. وأشعل ناراً. وأكل الأوراق الفضية من شجرة الحور الرجراجة. لأن كل من يأكل من هذه الأوراق لا يشعر بالجوع أو البرد أبداً بعد ذلك.

نظر ألتين إلى الجنوب مباشرة ورأى خيمة حميه الضخمة. كانت بطول ميل كامل. وضخمة الحجم. وكانت عالية جداً بحيث تلامس السماء. نام في تلك الليلة جيداً. واستيقظ باكراً جداً. ونزل عن الجبل إلى الخيمة الكبيرة. ومضى إليها. وربط جواده بعمود ربط الخيل. وأسرع بالدخول. كان غال نورمان قد استيقظ للتو من نومه. توجه ألتين إليه وقال له:

«تحية مني لك يا حماي».

سأله غال نورمان «أي نوع من الناس أنت. تأتيّ إلي دون دعوة؟ كيف تجرأت على القدوم إلى هنا؟ لا يُسمح لأحد بالمجيء إلي. سواء كان ماشياً أو على ظهر الخيل!».

«ستصبح ابنتك زوجتي. لقد قرّر البوركانات المقدسون هذا وأنا أعتمد عليهم».

قال غال «إذا ما كان هذا صحيحاً فتستطيع أن تراها. إنها خلف سبعة وسبعين باباً. اذهب إليها».

كانت الأبواب حديدية.. قوية وثقيلة. قام ألتين بفتح كل باب منها بركلة. وعندما وصل إلى باب الحجرة السابعة والسبعين رأى هنالك عذراء جميلة جداً. جالسة عنده. وكانت تتألق كضياء الشمس في النهار وضياء القمر أثناء ساعات الليل.

سألت العذراء «كيف فتحت الأبواب؟ لم يكن لأحد من قبل القوة على فتحها. لم يدع أبي أحداً يمر. كيف مررت؟».

«أنا ألتين شاغوي. وأنتِ عروسي. لقد قرر هذا البوركانات المقدّسون. وسُجل في كتاب حياتي. لقد قابلت أباكِ. وهو الذي أرسلني لأسمع منك ما هي رغباتكِ».

قالت العذراء «أنا لا أثق بكتابك ولا أعلم إذا ما كنت تقول لي الحقيقة أم تكذب. ربما جئت من أجل جمالي. ورغبتك أن تخدعني. وبالنسبة لأبي. فأنا لا أثق به في أي شيء. هل ستكون أنت زوجي فعلاً؟ لكني سأقرأ في كتابي وأكتشف ذلك.»

كان في صدرها كتاب صغير، بحجم كف إنسان. فأخرجته وقرأت: «ستتزوجين ألتين شاغوي». عندما قرأت ذلك، أمرت بإحضار الطعام والشراب وبدأت باستضافة ألتين.

في الصباح، صاح غال نورمان عند باب ألتين، «هل ستُطيل النوم؟». فخرج ألتين إلى حميه. سأل الخان «لماذا تنام طويلاً؟».

«لقد جئت من بعيد وأنا منهك، لماذا لا أنام؟».

قام غال نورمان باستضافة ألتين، ومن ثم أعاده عائداً إلى عروسه في الحجرة السابعة والسبعين. عند شروق الشمس في اليوم الثاني، نهض ألتين وخرج فوراً.

تساءل حموه «لماذا تنام طويلا؟ ألم تستيقظ؟ ألم تقدر على النهوض مبكراً؟».

«عندما أتعب، أكون أكثر تعباً في اليوم الثاني من اليوم الأول».

قال الخان «تعال وكل واشرب معي. سوف أعطيك ابنتي، ولكن لي كلب أصفر على جبل بعيد. إذا ما أحضرت الكلب، تستطيع أن تأخذها إلى خيمتك، وإذا لم تحضره فلن تحظى بها».

ذهب ألتين إلى عروسه، واستشارها، وسألها كيف سيأتي بالكلب الأصفر.

«لا يستطيع أحد أن يحضر ذلك الكلب» قالت له، «من الأفضل أن تعود إلى خيمتك. لقد أتى الكثير من العرسان إلى هنا وفقدوا حياتهم وهم يُحاولون جلب ذلك الكلب الأصفر لوالدي».

«أعتقد أنك قادرة على مساعدتي في جلب الكلب».

«كيف أستطيع مساعدتك؟ أستطيع فعل ذلك بطريقة واحدة فقط. بواسطة سحري ستقدر على العيش دون نوم».

قال ألتين «سأذهب بأي حال وسوف أحضر الكلب».

ذهب ألتين إلى غال نورمان، وقال له «أنا ذاهب لآتيك بالكلب». ومضى مبتعداً باتجاه الشمال بسرعة كبيرة. ولم يتوقف حتى وصل إلى البحر الأسود. هناك، بالقرب من الشاطئ، كانت توجد شجرة صنوبر كبيرة. وكان على الشجرة ثلاث عذارى جميلات، كانت الأولى تبكي، وكانت الثانية تضحك، وكانت الثالثة تغني.

فسأل ألتين «كيف يكون هذا؟ لماذا أنتن مختلفات هكذا؟».

«نحن بنات الخان هيرديك شوبون (النسر). تقاتل أبونا ثلاث سنوات مع الخان موغوي.

وفي نهاية تلك المدة كسر موغوي جناحي والدنا. لقد أرسلناه ليتعافى في مكان ما على جبل بعيد. والآن، يريد الخان موغوي أن يأكلنا بينما أبونا غائب. سوف يأتي اليوم ويأكل أختي التي تبكي، وسوف يأتي غداً ويأكل أختي التي تغني، وفي اليوم الثالث سيأكلني أنا».

«أين يعيش الخان موغوي؟».

«في هارا دالاي (البحر الأسود)، قبالته مباشرة. عندما يخرج يهدر البحر ويثور كاملاً. له رأسان، وعين واحدة كبيرة في رأسه الأساسي. تلك العين كبيرة بحجم القمر. إذا لم تقدر على إرسال سهم فيها فسوف يقتلك فوراً. ولكن قذف هذا السهم صعب جداً. فإذا ما عاد السهم بقطرة دم واحدة فسوف تموت، دون أن يُنقذك أحد».

قال ألتون «أتركن هذا المكان، وأنقذن أنفسكن! لا تنتظرنه». لم يتحركن، وبقين مكانهن. فترك ألتين جواده في الحقل بالقرب من شجرة الصنوبر، ومشى باتجاه البحر، ومعه قوسه وسهمه. بالقرب من المكان الذي سيخرج عبره موغوي من البحر، حول ألتين نفسه إلى قصبة. بعد وقت قصير، بدأ البحر بالهدير والثوران، وشاهد الخان موغوي آتياً. سحب ألتين قوسه، وصوب باتجاه عين موغوي الوحيدة.

قال ألتون للسهم لا تَعُدْ ومعك حتى قطرة دم، إمسح نفسك تماماً».

انطلق السهم مباشرة إلى داخل العين، ومزق رأس الخان موغوي إلى قطع صغيرة كثيرة. ولم يعد السهم، لم يستطع، فقد كان ملوثاً بالدماء.

اتخذ ألتون شكله الطبيعي، وركض بسرعة عائداً إلى الأخوات، ولكن الخان موغوي كان ساماً بشكل فظيع. سقط كل شعر ألتين، وجفت كل أوراق العشب في محيط ميل.

قال ألتين للأخوات «لقد قهرت عدوكم».

سألنه «إلى أين أنت ذاهب؟».

قال ألتين «لم آتِ كي أنقذكن، لقد جئت كي أحضر الكلب الأصفر للخان غال نورمان. أود أن أرى والدكنّ، الخان هيرديك؛ ربما يستطيع مساعدتي». لم يجبن في البداية، من ثم تحدثت الأخت الكبرى قائلةً:

«كان يجب أن أكون أنا زوجتك، ولكن طالما أنك توددت إلى ابنة خان آخر فمن غير اللائق الحديث في هذا. لكن تذكر، سأكون زوجة ابنك. إن أبانا عاجز ولا يستطيع أن يُساعدك بأي طريقة».

مضى ألتين إلى ذلك الجبل الذي ترتفع منه سلالم ذهبية تصل إلى السماء. وصعد هذه السلالم على جواده، وذهب إلى الحدادين المقدسين للحصول على أطوق وسلاسل وأغلال. قال أحد الحدادين «ليس لدينا الوقت لصنع هذه الأشياء نحن نعمل دائماً من أجل إيسيج مالان».

صاح ألتين بغضب «فلتحترق ضرباتك! ولتعجز يداك عن الارتفاع! ولتتحن أنت!». حدث كل ما قاله. وذهب إلى كل واحد من الحدادين الآخرين، وسمع الإجابة نفسها دائماً. ولعنهم جميعاً بالطريقة نفسها.

صاح الحدادون الثلاثة «إرجع! إرجع! أعد كلماتك الشريرة وسنفعل كل ما ترغب فيه».

فأعادهم إلى ما كانوا عليه، فعملوا بسرعة، وصنعوا كل شيء بشكل جيد، وعملوا كل ما طلب منهم. أخذ ألتين الأطواق والسلاسل والأغلال، وهبط من النجوم الذهبية على ظهر الجواد، ومن ثم عاد إلى الجبل حيث يعيش الكلب الأصفر.

تسلق ألتين الجبل الكبير طوال خمسة أيام وخمس ليال. كان يُفكر دائماً: «أي وقت أفضل للإمساك بالكلب، الصباح أم المساء؟» فوصل قبل الفجر مباشرة إلى قمة الجبل. وضع جواده في جيبه على هيئة حجر صوان، وتحول إلى غراب، وذهب للبحث عن الكلب، فوجده نائماً.

أنشد ألتين «إذا ما كنت جيداً، فلتقم جميع هذه السلاسل والأطواق والأغلال بتثبيته!»، بينما طلب المساعدة من البوركانات. في اللحظة التي أصبحت فيها كل هذه السلاسل والأغلال على الكلب، استيقظ الكلب، مقيداً، ووثب وركض وسحب. لم تكن هنالك فائدة من كل هذا! لم يقدر على القيام بشيء، كان مقيداً ولا يمكن أن يتحرر. كان الغراب موجوداً هناك بالقرب منه بينما كان يجاهد. «لقد سمعت أن ألتين قد وُلد» قال الكلب، «لا بد أنه قد أتى. لا بد أن يكون هنا، لا أحد غيره يستطيع فعل هذا بي!»

قال الغراب «لقد أتى ألتين بالتأكيد، أنا هو».

توسل الكلب الأصفر «أطلقني، سوف أذهب معك، أم تريد قتلي؟ حررني، ولنصبح أصدقاء».

اتخذ ألتين شكله الطبيعي وصعد على ظهر جواده. جعل الأطواق والأغلال تسقط وقاد الكلب بواسطة السلاسل. كان بالقرب من بيت غال نورمان عندما قابل رجلين على الطريق وقالا له:

«أطلق الكلب. هذا أمر من غال نورمان. لقد أرسلنا لملاقاتك».

«لن يُصدقني غال نورمان إذا ما ذهبت إليه بدون الكلب. سيجعلني أعود مرة أخرى في هذه الرحلة الطويلة. لا بد أنكم غرباء وتعتقدون أني جاهل. كُل هذين الرجلين وحصانيهما!» قال ألتين للكلب الأصفر.

أكلهم الكلب مباشرة.

وصل ألتين إلى خيمة غال نورمان، وربط جواده في عمود ربط الخيل، وربط الكلب بالزاوية اليمنى من الخيمة، ودخل على حميه.

قال ألتين «لقد أحضرت الكلب الأصفر. تعال وشاهده».

نظر غال نورمان خارج الباب، وشاهد الكلب، وشعر بالرعب لدرجة أنه أغمي عليه واستلقى هناك دون حركة. قام ألتين بهزه حتى أعاده إلى وعيه. «هل ترى كيف هي بسالتك» قال ألتين. «لقد ارتعبت من مجرد النظر إلى الكلب. لقد ذهبت إليه، وأمسكت به، وأحضرته لك. للكلب شهية مروعة. يستطيع أن يأكل كل ما لديك، ويدمر كل ممتلكاتك في يوم واحد».

قال غال نورمان، وبحذر شديد «أنت أحضرت الكلب، والآن يجب أن تتخلص أنت منه. يمكن أن يأكل كل شعبي!».

«أقم حفل الزفاف غداً، وسأرسل الكلب إلى دياره».

أجابه الخان «سوف أفعل».

قام ألتين بإعطاء الكلب نصف ثور، وقال له «كل جيداً وعُد إلى الجبل».

قال ألتين «اجمع الناس، وليكن حفل الزفاف غداً، لأني يجب أن أسرع في العودة إلى دياري». ومن ثم ذهب إلى عروسه.

و سألته «أين كنت؟ وماذا رأيت وفعلت؟».

فأخبرها كيف تسلق النجوم الذهبية، وكيف حصل على السلاسل والأطواق والأغلال من الحدادين المقدسين، وكيف ثبت الكلب الأصفر، وكيف أحضره إلى والدها.

«لم تقل شيئاً عن الأخوات الثلاث الموجودات على شجرة الصنوبر. لقد أمرنكَ عند رماية السهم أن يعود لك. لماذا لم يعد؟ أنا أعلم بشأن الأخوات وما قلنه. لقد قالت لك إحداهن أنها ستكون زوجة ابنك».

أقيم حفل الزفاف في اليوم التالي. وكان هنالك الكثير من الناس. وحظوا بالكثير من اللحم والشراب. وحصلت الغربان والعقاعق على ملء بطونها.

في اليوم الخامس. وصل ألتين وعروسه إلى خيمته على الجبل. ومن ثم ذهب الشاب الذي تركه للقيادة إلى عروسه. ولكن هذه قصة أخرى.

الخان يرينتي وابنه سوكتو

كان يرينتي يبلغ من العمر خمساً وتسعين سنة. وكانت زوجته. أونتون دورياي. تبلغ من العمر ستين سنة. وعلى الرغم من أنهما عاشا في خيمة حجرية ضخمة. لم يكن لديهما ابن أو ابنة.

كان يرينتي يملك الآلاف والآلاف من الماشية. ولكنه لم يُفكر خلال أربعين عاماً بأن يحصيها . وأخيراً ذهب ليُحصي قطعانه. وعند عدها. وجد أنه فقد جواداً ذا لون رمادي فاتح وخمسة وثمانين فرساً بعضها مع مهر وبعضها بدون مهر. عندما علم هذا. بدأ بذرف الدموع.

وكان ينوح قائلاً «أنا عجوز. ولا أطفال لدي. والآن فقدت أفضل خيولي. في دالانتاي يعيش مانغاثاي ذو سبع وسبعين رأساً. هو السارق. هو من سرق خيولي». وعاد يرينتي إلى بيته باكياً.

سألته زوجته. أونتون دورياي «لماذا تبكي؟»

أجاب يرينتي: «أنا لا أبكي. لكن الريح لذعت عيني وجعلت الدموع تنهمر منهما».

جلسا ليأكلا ويشربا.

قال يرينتي «على الرغم من أني لم أبكِ. إلا أنني قد فقدت خيولي. يجب أن أبحث عنها حالاً. ويجب أن أجدها».

سألت أونتون دورياي «لماذا تقوم بهذا اليوم؟ لا يجب أن تذهب الآن. يجب أن تبقى معي».

قال «سأذهب دون تأخير. سأصبح عجوزاً جداً في وقت قريب. ولن يكون لديَّ القوة للسفر».

أعد نفسه فوراً. وارتدى سروالاً من جلد الثور (كان هناك خمسة وسبعون جلداً في ذلك السروال). ثم سحب حذاءً من جلد السمك. ووضع حزاماً فضياً حول جسمه. ووضع عباءة حريرية

على أكتافه، ووضع على رأسه قلنسوة من جلد السمّور. ومن ثَم أخذ جعبة وكل ما يخصها، خمسة وتسمين سهماً. ثم شرب زيت العنكبوت، حيث لم يكن بحاجة إلى طعام لعشرة أعوام بعد شرب ذلك الزيت. عندما أصبح جاهزاً، فتح مخزنه الحديدي وأخرج منه ثوراً أحمرَ له قرون بطول ستين قامة، وأخذ حبلاً من الجلد غير المدبوغ، ووضعه حول أنف الثور، وجلس على ظهر الحيوان، وامتطاه مبتعداً باتجاه الغرب.

مضى يرينتي بعيداً، مضى إلى جبل خلف حدود أرضه، هناك ووجد خيوله، كانت عين الجواد اليمنى قد اقتلعت، ورجله الأمامية اليمنى قد كسرت، عالج يرينتي جواده وأعاد الحيوان إلى البيت، ومعه خَمْسٌ وثمانون فرساً بعضها مع مهر وبعضها بدون مهر. ثم مضى الرجل العجوز إلى أبعد من ذلك على الثور الأحمر ليجد المانغاثي ويأخذ بثأره.

بعد فترة من الزمن، التقى بشابين على ظهري جوادَيْهما، كان في أيديهما عصي حديدية في أيديهما وكانا يبحثان عن قطيع خيول ضائعة. فناداهما وقال لهما «أستطيع أن أخبركما عن مكان القطيع».

«كيف يمكن لك أن تعلم أيها العجوز؟ أنت تكذب». وضحك الاثنان عليه بينما جلس هو على الثور الأحمر ذي القرون الطويلة.

غضب يرينتي من سخريتهما فوثب من الثور، وأمسك بالشابين، وربط كلاً منهما بذيل الجواد الذي كان يمتطيه، وجلد الجوادين، وأرسلهما مسرعين باتجاه ديارهما عبر السهل الرملي.

ثم مضى بعيداً على ثوره الأحمر. وعندما وصل إلى قمة الجبل توقف هناك ونظر حوله في جميع الاتجاهات بإمعان، مفكراً في أي اتجاه من الأفضل أن يذهب. شاهد في الأفق خيمة بدت وكأنها تلامس السماء الزرقاء، كانت براقة ورائعة. وقف جواد المانغاثي بجانب الخيمة. كان هذا الجواد أسود، باستثناء بقعة بيضاء على الجانب الأيمن من ردفه.

نادى الجواد على سيده «انهضْ! هنالك شخص ما يا أونهوي أونديرأوشين. لا بد أن هناك عدواً آتياً».

خرج المانغاثي مرتدياً قميصا قصيراً، ثم وثب على جواده وأسرع باتجاه الجبل.

سأل يرينتي «لماذا تأخذ مني خيولي وأنا رجل عجوز؟».

قال المانغاني، قافزاً من على ظهر جواده ومسرعاً باتجاه الثور الأحمر «لأنك عجوز، فأنا حر في أن آخذها وأحتفظ بها. والآن سأمزقك إلى قطع صغيرة!»

انزلق يرينتي هابطاً من الثور وانطلق باتجاه المانغاني. اقتربا من بعضهما البعض بشكل جانبي وتواجها. وقام كل منهما بتمزيق اللحم عن الآخر بأصابعه العشرة. ركض الجواد باتجاه الثور وعض عموده الفقري. انسحب الثور، وحرر نفسه، وانطلق بقرونه الطويلة باتجاه الجواد، وقاتله، وطعنه في صدره. ثم انطلق الثور باتجاه المانغاني، وطعنه، ورفعه على قرونه، وقتله.

كان رأس الجواد على ظهر الثور. كان الجواد قد عض العمود الفقري للثور بقوة بحيث لم يستطع أن يتركه، وعندما مات قَطع رأسه عن جسده. ثم قام يرينتي بإبعاد الرأس.

قال العجوز «ممتلكات المانغاني لا تنفعني بشيء»، ومضى عائداً إلى دياره على ظهر ثوره الأحمر.

كان كل شيء بحالٍ جيدة عند وصوله، ولكن بعد يومين، أنجبت أونتون دورياي ولداً وبنتاً. جمع يرينتي الناس، وقدم لهم التاراسان واللحم في اليوم الأول، وفي اليوم التالي وضع الرضيعين في مهد وطلب من الرجال أن يُعطوهما أسماءً.

قام رجل عجوز ذو شعر رمادي من الشمال بتسمية الولد، فأسماه الخان سوكتو، وقام رجل عجوز ذو شعر رمادي من الجنوب بتسمية البنت أغوي.

أرسل يرينتي الرجل العجوز الأول إلى دياره بتشريف، وأعطاه سروالاً وعباءةً (شوبا)، وأعطاه عظماً نخاعياً من ثور. قام الرجل العجوز بإعطاء سوكتو قصبة. وتلقى الرجل العجوز الثاني ذي اللون الرمادي سروالاً وعباءة وعظماً نخاعياً، وقام هو بإعطاء أغوي عصاً سحرية. تلقت كل من القابلات عباءة حريرية وذبيحة من البقر. أعطى يرينتي المرأة التي استقبلت ابنه خاتماً من الذهب، وأعطى المرأة التي استقبلت ابنته خاتماً من الفضة. أعطت النساء كل طفل خاتماً من الفضة. ذهب الناس جميعاً إلى بيوتهم، راضين وسعداء.

بعد مرور عشرة أيام، أصبح الطفلان كأنهما في العاشرة من عمريهما، وكان جلد كبش أصغر من أن يكون معطفاً ليرتديه الولد. في ذلك الوقت، قالت دورياي لزوجها:

«اذهب وأحضر لي لحم عنزة برية. لقد مللت اللحم المعتاد».

كان لدى الرجل العجوز جوادٌ بطول تسعين قامة. كان هذا الجواد بعيداً عن الخيمة، يرعى

مع ثلاثة عشر من الأيائل البرية في الجبال. أخذ يرينتي نايهُ وعزف عليه بشكل عذب. واستدعى بالموسيقى الجواد الأحمر. فركض قادماً إلى البيت بسرعة. وضع يرينتي قماش سرج حريري على الجواد. ومن ثم وضع سرجاً من الفضة. ووضع لقمةً من الفضة في فم الجواد وحلية من الفضة على السرج ثم امتطاه. وأخذ قوساً وجعبة. وذهب للصيد.

لم يجد شيئاً في اليوم الأول. ولم يجد شيئاً أيضاً في اليوم الثاني. تهيأ في ذلك المساء ليقضي الليلة في الغابة وقال لنفسه «أنا عجوز. لهذا لا أرى صيداً».

في اليوم الثالث. قتل الكثير من الماعز. وأخذ منها خمسة عشر على جواده الأحمر. وانطلق باتجاه دياره. عندما أصبح في نصف الطريق إلى خيمته. هبط الجواد على قائمتيه الخلفيتين في الأرض وبدأ بالإصغاء. غضب العجوز من الجواد. واعتقد أنه كسول وبدأ بضربه. وصاح به: «لماذا تتوقف في منتصف الطريق؟».

قال الجواد «لقد عشتَ عمراً طويلاً دون أن تكتسب ذكاء أو حكمة لماذا تضرب جوادك؟».

«لماذا توقفت؟».

«لقد توقفت لسبب. والآن سأخبرك إياه. بينما كنت غائباً للصيد. ذهبت زوجتك إلى أورهوي. وأعادت المانغاثي إلى الحياة. وأخذته إلى خيمتها. وهو الآن مختبئ خلف سبعة وسبعين باباً موصدة. لقد جهزا قدوراً من التاراسان المسموم ليُطعِمَاكها. سوف تشرب أولاً من تاراسان جيد. وستكون القدر الثانية مسموماً. سوف تثمل من القدر الأولى وتتسمم من القدر الثانية. في اللحظة التي تصل فيها إلى البيت أخرجني. وأبعد عني اللجام والسرج وكل ما هو علي. لا تدع زوجتك تلمس لجامي. إن زوجتك تريد قتلك وقتلي. لا تشربِ ما تعطيك إياه زوجتك. إذا ما شربت فسوف تموت. لا أستطيع أن أفيدك بأكثر من هذا. لقد أخبرتك بمصيرك. سوف أقوم لاحقاً بمساعدة ابنك وابنتك».

عندما وصلا إلى الخيمة. خرجت أونتون دورياي لملاقاة يرينتي. «كم من الوقت غبت! لقد أتعبت نفسك من أجل لا شيء. أعطني الجواد. سوف أساعدك. سأربطه بعمود ربط الخيل».

قال يرينتي «لم أدع أحداً من قبل يربط جوادي. سأفعل هذا بنفسي».

قام يرينتي برفع السرج عن الجواد بسرعة وأطلقه. ثم قال للجواد «كن سميناً قدر ما

تستطيع». دخل يرينتي إلى الخيمة. أخذته دورياي من يده، وأمرته بأن يسلخ جلد الماعز وأن يرتديه. تم تجهيز كل شيء، وأحضر التاراسان بسرعة. قامت دورياي بإعطاء يرينتي كأساً بعد الآخر. فثمل بعد وقت قصير. وقال لها «أعطني المزيد من الشراب».

قالت المرأة «لا أعلم إن كان يوجد المزيد من التاراسان. إذا ما وجدت فسأحضره».

كانت معنويات دورياي عالية. فأحضرت قدراً أخرى من التاراسان. شرب يرينتي كل ما في القدر وفقد الإحساس. خرج السم كلهب أزرق وأحمر من فمه وفتحات أنفه. بينما استلقى زوجها هناك. نادت دورياي على المانغاثي: «إن عدوك ميت الآن. اخرج لي الآن!».

خرج المانغاثي، ولكن يرينتي لم يكن ميتاً فوثب. وتقاتل الاثنان: تقاتل الرجل العجوز مع زوجته الكاذبة والمانغاثي أيضاً. تقاتلوا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. كان يرينتي قد بدأ بالتغلب على المانغاثي.

وصاح المانغاثي بدورياي. «لماذا أحبيتني؟ كان من الأفضل أن أبقى حيث كنت من أن أعاني مرة ثانية. كان من الأفضل أن أبقى ميتاً بسلام من أن أعاقب بهذه الطريقة».

أخذت دورياي بعض الحبوب الزرقاء ورمتها عند أقدام المانغاثي، وكانت تنشد كلمات ما عندما نثرتها. أصبح المانغاثي أقوى، من ثم رمت حبوباً حمراء عند أقدام الرجل العجوز وأنشدت، فأصبح ضعيفاً ومتعثراً.

في اليوم الرابع، أصبح يرينتي ضعيفاً جداً، وأجهز عليه المانغاثي، وخنقه، وقتله. قام الاثنان بوضع جسده في برميل عليه خمسة وعشرون طوقاً ودحرجوا البرميل في هارا دالاي (البحر الأسود): ثم أقاما وليمة.

قال المانغاثي «يجب أن تقتلي ابنكِ وابنتكِ.قد ينتقمان مني لمقتل أبيهما».

فقالت دورياي «لا أستطيع أن أقتل طفليّ . إذا كنت ترغب في ذلك فافعلها أنت».

«لا قوة لي لفعلها. لقد قاتلت أياماً كثيرة مع زوجك. سأستريح، ومن ثم سأنظر في شأنهما».

في الليل، اقتحم الجوادُ الأحمر الخيمة، وسرق طفلي يرينتي، وركض مبتعداً إلى الجنوب على القمة المسطحة لجبل شاهق.

ذهب المانغاثي ودورياي لمطاردته.

عدا الجواد الأحمر مبتعداً وسريعاً جداً. لم يقدرا على اللحاق به. وأنقذ الطفلين. كان على قمة ذلك الجبل ماء الحياة.

قال المانغاثي «فلنعد أدراجنا. ما الذي يستطيع ذلك الجواد أن يفعله؟ كيف يكون الجواد مفيداً دون سيد؟ وكيف تكون السكين مفيدة دون مقبض ؟».

أعطى الجواد ماء الحياة للأطفال. ووجد هناك بالقرب من الينبوع قرناً حديدياً. شرِبا منه. وأبقاهما على الجبل هناك ثلاث سنوات كاملة. جاء مطر من الشمال في الصيف. ولهذا السبب تغطّى الجانب الأيمن من الجواد بالطحالب. وسقط الشعر من جانبه الأيسر بسبب الحرارة. لعب الطفْلاَن طوال ثلاث سنوات. وبعد ذلك قال لهما الجواد «أنتما كبيران بما فيه الكفاية الآن. يمكن أن أنزلكما إلى الوادي. إذا ما كنتما محظوظين فسوف تنجحان».

نزلا عن الجبل. وتجولا مبتعدين يداً بيد. وصلا بعد وقت قصير إلى مكان مفتوح كبير. حيث كان هناك خمس وثمانون شجرة صنوبر كبيرة. خلف الأشجار. كانت تقبع خيمة رائعة تلمع كالفضة. وأقام سوكتو ملجأ لأخته بالقرب من شجرات الصنوبر. وقال لها «ابقِ هنا حتى أعود». وذهب إلى الخيمة الفضية العالية. شاهد بالداخل مانغاثاي له مائة وثمانية رؤوس. وزوجته التي كانت امرأة طويلة جداً.

سأله المانغاثي «من أين أتيت؟ ومن أي بلاد؟ لا بد أنك ابن خان ما».

«يقول الناس. ولا أعلم إن كان صحيحاً. إني ابن الخان يرينتي. وقد أُخذت من أبي عندما كنت رضيعاً».

«لقد كان أبوك عدوي اللدود. أنا مسرور بقدومك. لي شأن معك».

وفي الحال قام المانغاثي بضرب سوكتو خَمْساً وعشرين ضربة قوية. ثم حبسه في مخزن حجري وأعطاه قطعة صغيرة من الخبز الأسود ليأكل. قضى سوكتو عدة أيام في ذلك المخزن. عندما مر خان ما. صديق للمانغاثاي. أخذ معه إلى بيته خمسة وسبعين برميلاً من التاراسان. أعطى الخان بعضاً من التاراسان للمانغاثي. فشرب وبدأ يثرثر.

«لدي ابن الخان يرنتي محبوس هنا. لقد ضربته خمساً وعشرين ضربة بعصا وأعطيته بعضاً من الخبز. سأفعل هذا به كل يوم حتى أقتله».

قال له الخان «ليس لدي أبناء. من الأفضل أن تعطيني إياه. مثل هذا الشخص الصغير لا يستطيع أن يقوم بأي أذى».

«إذا لم أقتله فمن الممكن أن يُصبح عدوي».

قام الخان بإعطاء المانفاشي نصف برميل من التاراسان ليشربه وتوسل اليه مرة أخرى ليحصل على الولد.

فقال المانفاشي أخيراً «أعطني كل ما لديك من براميل التاراسان وخذه».

أخذ الخان الولد إلى دياره وصاح عند البوابة «لقد أحضرت معي ابناً!» سُرّت زوجته سروراً عظيماً. وأخذت الولد إلى داخل الخيمة وقالت له:

«سأدعو الناس إلى وليمة ولْنَتَبَنَّهُ».

جاء كل الناس. وبينما كانت الوليمة قائمة بدأ الولد بالبكاء. فداعبوه وحاولوا إسكاته. وقف الأب عند أحد جوانبه. والأم على الجانب الآخر. وسألوه «لماذا تبكي؟».

قال الولد «لقد كنا اثنين. أنا وأختي. لقد تركت أختي في ملجأ. ولا أعلم إن كانت ميتة أم حية».

طلب الخان إحضار أربعة خيول سوداء. وذهب مع بعض الرجال لإحضار الأخت. وذهب سوكتو معهم. مضوا بسرعة. ولم يتوقفوا حتى وصلوا إلى الملجأ. لم تكن أغوي موجودة هناك. وجدوا رماداً وكان ما يزال دافئاً. صاح سوكتو «لا بد أنها حية. وغير بعيدة من هنا».

بحثوا عن آثارها فوجدوها. كان الوقت في الصباح الباكر. أدت الآثار إلى وادٍ قريب. كان الندى يُغطي العشب. ووجدوا أغوي تشرب من الندى الذي جمعته في كفيها. كان وجهها وجسدها مغطيين بالتقرحات من لدغات الحشرات. ولم تكن ترتدي أية ثياب. فأعطوها حليباً جاءوا به من ديارهم. مقدار ملعقة واحدة. أخذها الخان بين ذراعيه وحملها. وعندما أصبحوا في منتصف الطريق إلى خيمته أعطاها مقدار ملعقة ونصف من الحليب. وصاح عند البوابة:

«لقد جلبت لنا ابنة!».

سُرّت زوجته سروراً عظيماً. وركضت إلى الخارج. وأخذت الطفلة بين ذراعيها. وحملتها داخل خيمتها. ثم دَعَوْا كل الناس وأقاموا وليمة جديدة. استمرت تسعة أيام وتسع ليالٍ. خلال هذا الوقت. كبر الأخ والأخت وصارا جميلين.

كان في الإصطبل مهر رمادي رائع. قال الخان «سيكون هذا المهر لولدي». وصنع لجاماً من قماش أحمر. وعناناً من المادة نفسها. اعتنى سوكتو بالمهر. فقد كان مغرماً بالخيول. بعد مرور عام. قال لوالده:

«أرني سروالك وعباءتك. أريد أن أرى ثيابك وأسلحتك».

أحضر الخان سرواله المصنوع من جلود سبعين أيلاً، وحذاءه المصنوع من جلد السمك. كان سوكتو أنحف من أبيه بمقدار بوصتين. ولكن الحذاء كان مناسباً. بعد ذلك، أحضرا عباءة حريرية رائعة، وحزاماً فضياً، وقلنسوة من جلد السمّور، كبيرة ككومة قش.

قال الخان «الآن، أحضر قوسي وكل أسلحتي».

قام سوكتو بارتداء ثيابه ووقف هناك بعدة والده الرائعة. لا تغضب، قال للخان «يجب أن أذهب لأرى المكان الذي وُلدتُ فيه، وسأعود بعد ذلك».

أجابت أمه «أنت صغير جداً، وسنوات عمرك ليست كثيرة. وجوادك صغير أيضاً. من الأفضل أن تنتظر سنة أخرى».

قال أبوه «طالما خطط للذهاب، فدعيه يذهب. يجب ألا نمنعه».

امتطى سوكتو جواده، وانطلق في رحلته. مضى بعيداً، وأخيراً أطلق جواده ليرعى. ثم صلّى للبوركانات الألف، وسألهم «لماذا تخلقون رجلاً وتتركونه بدون جواد مناسب؟».

أعطاه البوركانات فوراً، جواداً طوله تسعون قامة، بأذنين بارتفاع تِسْع أذرع، وعدة من الأسلحة، ورداءً رائعاً. أعاد جواده الصغير، ووضع رداء والده وأسلحته تحت حجر، وامتطى جواده الجديد، وذهب مباشرة إلى المانغاثي ذي المائة وثمانية رؤوس والذي كان قد جلده.

أصبح سوكتو الآن محارباً، وشعر المانغاثي بالرعب عندما شاهده.

قال له سوكتو «لقد كانت لديك القوة وقمت بجلدي». وأمسك بالمانغاثي من خصره وعنقه ودفعه باتجاه أشجار الصنوبر، وأخذ تسعة وتسعين مسماراً وثبته بها على أكبر شجرة صنوبر، من ثم أخذ تسعة وتسعين طوقاً وربطه بها على شجرة الصنوبر.

قال له سوكتو «لن تموت أو تتحرر. لن تستطيع أن تحرر نفسك أبداً، ولن يحررك أحد. ستبقى هنا للأبد». ثم تركه وعاد باتجاه الخيمة، وعندما أصبح على بعد فرسخ واحد عن المكان، رمى باتجاهه سهماً، قائلاً للسهم:

«دمّر الخيمة واقتل زوجة المانغاثي». انطلق السهم مخترقاً مركز الخيمة وأصاب المرأة، فأنجبت ولداً قبل أوانه وماتت. جلس الطفل على الأرض وبكى «لقد بقي على موعد ولادتي ثلاثة أيام».

رمى سوكتو الولد في فرن وأشعل ناراً كبيرة فيه. في الصباح التالي كان الطفل يلعب بالجمر الحي. قال له الطفل «أي مكان لطيف ودافئ هذا الذي وضعتني فيه».

أحضر سوكتو المزيد من الحطب، وأشعل ناراً أكبر. وكان الطفل ما يزال حياً في الصباح التالي. في الليلة الثالثة، شاهد سوكتو ماءً يتدفق إلى داخل الفرن على الرضيع ليبقيه بارداً. كان أنبوباً قادماً من السماء إلى الفرن.

اشتكى الولد «لقد بقي على ولادتي ثلاثة أيام، وبعد ذلك بتسعة أيام كنت سأصبح جاهزاً للقتال».

في الليلة الرابعة، قطع سوكتو الأنبوب، واحترق الولد في النار.

ثم قام المحارب الشاب بأخذ أملاك المانفاشي وعاد إلى دياره إلى خيمة والده. كان الهدوء يعم كل شيء هناك. فترك كل شيء أحضره وانطلق إلى البيت الكبير حيث تعيش أمه والمانفاشي ذو الخمسة والسبعين رأساً. نادى عليهما من الخارج. عرفت أونتون دورياي صوته.

فقالت «كل من له ابن لا يفنى أبداً! لقد جاء ولدي!».

لمست المانفاشي بقصبتها، وخرج كلاهما. سألهما سوكتو «أيهما تفضلان خازوقاً مدبباً أم حجراً مربعاً؟».

أجابوه «لا نريد أياً منهما. نرغب في أن تكون ابننا كي ترعانا».

قال لهم «تعالوا، تقدموا إلى الخارج أمامي. سأجد لكما مكانا جيداً» أخذهما إلى حيث تلتقي ثلاث طرق، كان على أحد الجوانب شجرة صنوبر كبيرة، وكانت على الجانب الآخر شجرة أرزية ضخمة. قام بتثبيت المانفاشي بالمسامير على الشجرة الأرزية بواسطة خمسة وتسعين مسماراً، وثبت أمه على شجرة الصنوبر باستخدام خمسة وتسعين مسماراً أخرى. ترك بالقرب منهما برميلين كبيرين، ووضع بجانب أحد البرميلين سكيناً أثلم، ووضع بجانب البرميل الآخر مقصاً بالياً، وكتب على الأشجار: «يجب على كل رجل يمر من هنا أن يستخدم السكين الأثلم لقطع قطعة من لحم هذين الاثنين المعلقين هنا، ويجب على كل امرأة تمر من هنا أن تستخدم المقص البالي لتقطع قطعة من لحمهما أيضاً، وإذا لم يفعلوا، فستتم معاملتهم مثل هذا المانفاشي وهذه المرأة».

قلب خيمة المانفاشي رأساً على عقب، وساق جميع المواشي، وعندما وصل إلى خيمة أبيه لم يرَ أحداً، فذهب مباشرة إلى مكان ولادته. كان الثلج الذي سقط هناك مثل ما هو ولم يذب بعد. لم

يكن هنالك شيء حي على مرأى البصر. كان هناك مخزن حديدي بالقرب من الخيمة الكبيرة. ففكر سوكتو المحارب.«ماذا يمكن أن يوجد بداخلها؟».

كان الثور الأحمر يعيش في البناء الحديدي؛ لقد عاش على ما يجتره طوال الوقت الذي أُحتُجز فيه هناك.

قال الثور «شكراً لك. ولكن لا بد أن أهلك من أجل ابن سيدي».

أخرج سوكتو الثور ليرعى. ثم ذهب إلى هارا دالاي. البحر الأسود. حيث كان جسد والده موجوداً في برميل. حوّل نفسه إلى سمكة كبيرة. وبعد قليل التقى بسمكة أكبر وسألها: «لماذا هذا الماء مليء بالوحل. ولماذا تخرج منه رائحة الدم؟ إذا لم تنظفي الماء فسوف يستدعيكِ أبيرغا زغوهون».

سألت السمكة الكبيرة. «من أين أنت؟».

أجابها سوكتو «أعيش بالقرب من غازادا دالاي».

«اذهب إلى ديارك. وعندما تذهب سأنظف هذا البحر».

اتخذ سوكتو هيئته السابقه مرة أخرى. وكان بالقرب من الشاطئ جبل. ذهب إلى الجبل وانتظر. عصف البحر ثلاث مرات خلال ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث قذف بالبرميل إلى الخارج. ورماه من الماء مقدار فرسخ كامل.

جاء سوكتو إلى الشاطئ وضرب البرميل ليفتحه. ولكنه لم يجد فيه شيئاً غير العظام. أحضر الماء من الينابيع التسعة. وغسل العظام بالمياه التسعة. وأحضر شجر العرعر من تسعة أماكن وأحرقه للحصول على البخور. بعد ذلك. أخذ ماء الحياة من الينبوع الموجود على الجبل وغسل العظام طوال ثلاث ليالٍ بالماء. بعدها عاد يرينتي إلى الحياة كما كان من قبل. في طريق العودة إلى الديار التقيا بالحصان الأحمر.

قال الجواد « لقد عانيت بسببك كثيراً. ولقد عانى ابنك وابنتك أيضاً بشكل كبير. على الرغم من أنني نصحتك إلا أنك لم تستمع إليّ. ومن هنا جاءت كل المتاعب».

أمسك الجواد بيرينتي من عنقه. وهزه ثلاث مرات بعنف. ثم ذهبا إلى خيمة الخان.

قالت زوجة الخان لسوكتو«لم أعتقد أبداً أنك ستكون بطلاً هكذا». في الصباح التالي. اجتمع الكل معاً. - الأبوان. والأم. والأخت. والأخ.

سأل الولد «إذا ما قلت كلمة ما، فهل سترغبون في أن أحققها؟».

أجابت الأم «سنستمع لكل ما تقول».

«كان والدي خاناً، وأرغب أن تكون كل بناياتي على الحدود بين أراضي أبويّ كليهما».

قال الخان «من الصعب تنفيذ هذا. المباني الموجودة على كلتا أراضي المنطقتين كبيرة ومتعددة. ستصبح عجوزاً قبل أن تنقلها جميعاً».

«لا، سوف أنجزها في ليلة واحدة إذا وافقتم على ذلك».

قالت الأم «افعل ما يُسّرك».

جلس سوكتو تلك الليلة في البيت، ولم يذهب إلى أي مكان. صلّى من المساء حتى منتصف الليل للبوركانات المقدسة. نام عند منتصف الليل. عندما استيقظ في صباح اليوم التالي كان كل مبنى قد أصبح على الحدود. جمع الخان كل شعبه في المكان الجديد وأقام الولائم.

قال سوكتو «أرغب الآن أن أجد عروساً».

أجاب الناس «يستحيل الوجود بدون زوجة».

قالت الأم «يجب أن تقرأ في كتاب حياتك».

فتح وسطه ووجد الكتاب في كبده. قرأ في الكتاب ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. استخدم في الليل مصباحاً وفي النهار ضوء الشمس. بكى في بعض الأوقات، وغنى في أوقات أخرى.

قال الكتاب «يعيش في البلاد الجنوبية الخان غال، ولديه ابنة، غوي غوهون دوهي، وهي عروسك».

بدأ سوكتو بالتحضيرات للرحلة وأبقى جواده، الجواد الأحمر، قائماً ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ فوق الثلج، وأعطاه القش والقليل من الماء. كان هذا من أجل تقوية حوافره. من ثم وقف الجواد لثلاثة أيام وثلاث ليالٍ فوق الرمل. فكر سوكتو «نستطيع الآن أن نذهب!».

قالت أغوي «يا أخي، أنت ذاهب إلى مكان بعيد، أعطني إشارة أعرف منها كيف هو حالك، سواء كنت حياً أم ميتاً، قتيلاً أم بصحة جيدة».

قال لها «سأعطيكِ هذه الإشارة، في الخارج، عند الزاوية الجنوبية الشرقية من الخيمة، تنمو شجرة حور رجراجة ذهبية الجذع بأوراق فضية، يوجد على غصينات شجرة الحور الرجراجة

تلك آلاف الطيور الصغيرة التي تُغرد. ستتكلم هذه الطيور بطريقتها، ويمكن أن تسمعي منها الأخبار عن طريق معرفة كلامها. إذا ما متُّ فسوف تفسد الشجرة وتسقط، وستطير الطيور بعيداً. وإذا ما كنت بحال جيدة فسوف تكون الشجرة خضراء وجميلة، وسيزداد عدد الطيور فيها. قال لها هذه إشارة أخرى، وأخذ سهماً ووضعه بجانب سرير أخته: «إذا ما كنت بحال جيدة فسوف يكون هذا السهم أحمر اللون ويزداد جمالاً. وإذا ما مت فسوف يذبل ويصبح بشعاً».

قالت أغوي «لقد أحسنت الفعل. بواسطة هذه الإشارات سوف أعلم كل شيء عنك. وسوف أعطيك إشارة» وأعطته خاتمها الذهبي. «إذا ما كنت حية وبحال جيدة، فسوف يبرق هذا الخاتم. وإذا ما مت أو مرضت، أو تزوجت مرغمة خلافاً لرغبتي، سيصبح الخاتم بشعاً وباهتاً».

جمع سوكتو الناس كلهم، وقدم لهم الشراب واللحم بكثرة، وطلب منهم أن يتمنوا له النجاح وأن يتذكروه. قال لهم وهو منصرف «سوف أحضر معي إلى الديار عروساً لكم».

تمنى له رجل عجوز، له لحية رمادية تصل إلى ركبتيه، الصحة الجيدة والنجاح في رحلته.

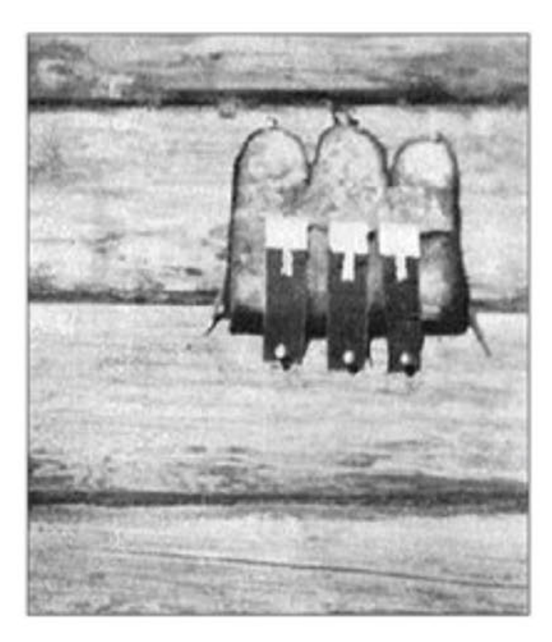
امتطى سوكتو جواده، ومضى حتى وصل إلى مملكة أخرى، ثم توقف، ليجد أمامه مباشرة ينبوعاً. أخرج غليونه وأشعل التبغ على الينبوع، ثم رمى التبغ في الماء. قام بالدعاء للبوركانات الألف جميعاً وطلب منهم الأذن للحصول على رحلة موفقة.

ثم مضى مبتعداً، ومضى خلف حدود المملكة. وبعد وقت قصير سمع وقع أقدام عشرة خيول وأصوات عشرة ركاب. فكبح لجام جواده. قال لنفسه «هل هؤلاء أعداء أو أناس طيبون؟ يجب على الرجل أن يحقق هدفه، لماذا أخاف؟ هؤلاء بشر مثلي!».

فأسرع، وحوّل نفسه إلى أحد عشر محارباً شاباً على ظهور الخيل. وأصدر وقع الأقدام والأصوات نفسها التي سمعها، ولكن بصوت أعلى.

بعد قليل، قابل رجلاً ذا وجه كبير. كان كل سن في رأسه كبيراً بحجم رفش، وكان في أذنيه حلقات بحجم عجلة عربة. كان يركب على جواد رمادي فاتح، وكان جسمه بطول ثمانين قامة وارتفاع أذنيه ست عشرة بوصة. عندما مرّ بالقرب منه، حيّاه ومرّ، ثم توقفا واستدارا في مواجهة بعضهما البعض.

سأله سوكتو «من أي مكان أنت؟».



محتويات «حقائب الآلهة»
قطع من القماش والحرير محاكة
بأشكال صغيرة لرجال مقصوصين
من صفيح

قال الرجل الضخم "أنا ذاهب إلى الخان يرنتي. لقد سمعت أن لديه ابنة، أغوي نوغون دوهي. أريدها زوجة لي. ولكن على الرغم من أنني سمعت بها، إلا أنني لا أعرف كيف أجدها. لقد أخبرت أن أخاها محارب. من أنت، وما اسمك؟".

"أنا ناشين هويمير هوبون. لقد انطلقت أيضاً لإيجاد عروسي غيي غوهون دوهي. ولكنها بعيدة جداً".

ودع كل منهما الآخر بمودة. وقال كل منهما للآخر "اذهب في طريقك، وسأذهب في طريقي لعلنا ننجح، وتتحقق أمنياتنا".

وجد الرجل الضخم خيمة يرنتي أخيراً، وأفصح عن رغبته دون انتظار.

قالت أغوي "أنا لست مستعدة للزواج منك، لقد ذهب أخي إلى عروسه، ولن أتزوج قبله. سأتزوجك عندما يحين الوقت لذلك، إذا ما فعلت شيئاً يفعله أخي. في الخارج وفي الحقل حجر بحجم ثور صغير، ارمِ الحجر من فوق كتفيك، من المكان الذي هو فيه إلى هذه الخيمة. إذا ما فعلتها، فسوف أتزوج منك، وإذا لم تفعلها، فلن أكون زوجة لك أبداً".

ذهب مباشرة إلى ذلك الحجر، ورفعه إلى خصره، ولكن لم يقدر على رفعه أكثر من ذلك، وأسقطه، ثم صعد على ظهر جواده وعاد إلى دياره دون التحدث إلى أي إنسان.



الآلهة المنزلية البوراتية
آلهة بيت ميخايلوفيتش

مضى سوكتو إلى أن وصل إلى خيمة حديدية كبيرة. كان أمام الخيمة جماجم خمسة وعشرين جواداً موضوعة على عصي. كانت الغربان قد أكلت اللحم كله من على كل واحدة منها. كانت عددٌ وأسلحة وثياب مثبتة هناك أيضاً. توقف، وحوّل جواده إلى شظية صوان. ووضع الشظية في جيبه. وحوّل نفسه إلى ابن عرس. ونبش تحت البيت. ومر من خلال الباب. ودخل إلى حيث يمكن أن يرى من يعيش في تلك الخيمة الحديدية الكبيرة. شاهد مانغاثي له مائة وثمانية رؤوس وكان نائماً. كان بالقرب من رأسه الأساسي فأس. وكانت أقدامه مثبتة على الجدار بقوة. وكان يخرج من فمه لهب أزرق وأحمر.

قام ابن عرس بسرقة الفأس وإخفائها. وقفز إلى حلق المانغاثي وقطعه. وزحف خارجاً ومن ثم عاد إلى شكله الطبيعي مرة أخرى وحول شظية الصوان إلى جواده الأحمر.

قال الجواد "هل تفتخر بعدم قتل المانغاثي. لم يبع أي رجل أي دم بسعر بخس. سيصبح هذا مكاناً لشامان كبير لاحقاً". امتطى سوكتو جواده. ومضى مبتعداً وقابل مانغاثاي له خمسة وعشرون رأساً ممتطياً جواده.

تساءل المانغاثي "كيف مررت بالقرب من خيمة أبي. والتي لا يمر منها إنسان. ماشياً كان أو على ظهر الخيل؟".

"بينما كنت ماراً. شاهدت جماجم خمسة وعشرين جواداً على عصي. وكان هنالك عقعق أسود ينعق. وثعلب صغير يتجول هناك. إن المكان مهجور".

"هل مضى وقت طويل على مغادرتك لخيمة أبيك؟".

"لقد تمنيت الزواج أول مرة منذ ثلاث سنوات. أنا ذاهب لأجد عروسي. غيي غوهون دوهي".

قال المانغاثي ومضى مبتعداً "أود أن أعرف من قتل أبي. سأجده أينما كان".

أخذ سوكتو سهماً ورماه وراءه قائلاً: "مثلما أنا حي وبحال جيدة اذهب واذبح هذا المانغاثي ذا الخمس والعشرين رأساً وحصانه". قتل السهم المانغاثي وحصانه وعاد إلى الجعبة.

مضى سوكتو مبتعداً. وشاهد ثلاث طرق. كان بين اثنين منها سقيفة وفيها امرأة عجوز مجعدة ومتغضنة الجلد بشكل فظيع. لم يكن لديها سوى عين واحدة وسن واحدة في رأسها.

قالت له «إذا كنت ابناً لأب طيب. فتوقف. وإذا كنت ابناً لأب شرير فامشِ دون توقف».

توقف سوكتو، ونظر إلى الداخل. فشاهد التاراسان في كأس فضي. «أنا مرهق يا جدة. أعطني التاراسان لأشرب. أنني أسير في رحلة طويلة، وأنا منهك وعطش».

أعطته التاراسان. فرأى في الكأس مئات الديدان. ولكنه لم يرغب أن يرفض التاراسان الذي أعطته إياه. قال لها «أي تاراسان طيب هذا! أعطني المزيد يا جدة. لا يوجد ما يكفي للشرب هنا. أعطيني كأساً كبيرةً. كوني كريمة. لماذا أنتِ بخيلة؟ أعطيني المزيد يا جدة. أعطني الكثير».

ابتسمت العجوز وذهبت خلف السقيفة. أخرجت هذه المرة ثلاثة غالونات في إناء واسع وقوي. وضع الإناء على السرج. قال لها «أنا مخطئ. قبل أن اشرب اجلبي غليونك. وسأعطيكِ بعض التبغ». عندما استدارت لتجلب غليونها رمى التاراسان عليها، وانطلق مسرعاً.

فقذفت خلفه مكشطة بطول عشرين قامة تستخدم في دبغ الجلد. من ثم سقطت على الأرض. وفي تلك اللحظة غطت الديدان الكريهة سبعة فدادين من الأرض. احترقت الأرض المغطاة بالتاراسان كلها فوراً. تبعت المكشطة سوكتو، شعر بها آتية نحوه. فصنع جبلاً من الحجر خلفه وانتظر في الناحية الأخرى من ذلك الجبل ليرى ما الذي سيحصل.

انتظر ثلاثة أيام وليالٍ. من ثم اخترقت المكشطة الجبل وخرجت من الجهة الأخرى. أمسك بها سوكتو وكسرها. من ثم سافر حتى وصل إلى جواد بلون رمادي فاتح طوله ثمانون قامة وارتفاع أذنيه ثمانية أذرع. كان يستلقي بالقرب من الجواد شاب كان لحمه مأكولاً بالكامل تقريباً، وكان ذلك بفعل ديدان في جسده. كان الجواد قد حفر الأرض عميقاً وكان نحيلاً جداً. أخرج سوكتو الجواد ليرعى. كان الراكب ما يزال مستلقياً بلا حركة، ومع ذلك لم يكن ميتاً بعد.

قال الغريب «أنت رفيقي. سوف تقوم بدفني. لقد مررت بساحرة عجوز على جانب الطريق، وشربت من تاراسانها، والتهمني الدود الذي كان فيه. أنا ابن الخان شور غالفون. لقد خرجت لأجد عروساً. اسمي شوراك تايجي هوبون».

أحضر سوكتو ماءً من الينابيع التسعة، وغسل الشاب، وأحرق شجر العرعر من تسعة أماكن، وعالجه. أصبح الاثنان صديقين عظيمين الآن. ذهب سوكتو مبتعداً ووصل إلى مرج. كان في المرج جموع من الضفادع، وكان بعضها بحجم ثور صغير بعمر ثلاث سنوات.

قالت الضفادع لبعضها البعض «لا تدعوا ذلك المسافر يمر». حوّل سوكتو جواده إلى شظية حجر وحول نفسه إلى ضفدع أسود بحجم ثور صغير، بحيث لا يتعرف عليه الآخرون. من ثم تحرك إلى الأمام ببطء. تحرك لمدى تسعة أيام وتسع ليالٍ في ذلك المرج المغطى بالضفادع. عندما وصل

إلى الجهة الأخرى من المرج، اتخذ شكله الطبيعي. سأل بعض الضفادع عندما شاهدته سالماً خلف حدودها: «لمَ تركتموه يمر؟»، وأُصيبت بغضب شديد.

وعلى بعد من هناك كان مرج آخر مغطى بالثعابين من عدة أنواع. قالت الثعابين لبعضها البعض «لا تدعوا ذلك المسافر يمر. إن عبر هذا المرج فسوف نقتل الثعابين التي سمحت له بالمرور».

عاد سوكتو إلى الوراء مسافة ما، وحوّل جواده إلى شظية حجر وحوّل نفسه إلى ثعبان مثل الثعابين الموجودة في المرج. فأمضى سبعة أيام وليالٍ بين هذه الثعابين العدوانية السامة، ومر بها دون أن تلحظه ومن ثم عاد رجلاً مرة أخرى. أصيبت الثعابين بغضب رهيب عندما علمت أن سوكتوقد عبر المرج.

مضى سوكتو مبتعداً حتى شاهد جبلاً يلامس السماء، فمضى إلى أسفل الجبل ووجد الكثير من العظام والهياكل العظمية. قام بقياس عظام الخيول، فوجد أنها أكبر ثلاث مرات من عظام جواده، وقاس عظام الرجال، فوجد أنها أكبر بثلاث مرات من حجم عظامه. بكى طوال تسعة أيام وتسع ليالٍ. كان الجبل شديد الانحدار بحيث لا يمكن لرجل أن يتسلقه. أخيرا، قال له جواده:

«إهدأ، لا فائدة من البكاء! إرجع إلى الوراء مقدار رحلة يوم واحد وأحكم شد حزام سرجي. هنالك شعرة في نهاية ذيلي تنمو منها ثلاث شعرات. خذ تلك الشعرة وضعها تحت ذراعك. في قوة سحرية، وأمسك بي بقوة».

عاد سوكتو مقدار رحلة يوم. قال الجواد «الآن، سأسرع بكل قوتي، وأقفز إلى قمة الجبل».

فعل ذلك، على القمة، عند حافتها، كان حجر بحجم ثور، وصلت قوائم الجواد الأمامية إلى ما بعد ذلك الحجر وأمسك بحافته. كان من السهل أن يسقط منه ومن الصعب أن يتشبث بها، وقال الجواد، «ارمِ تلك الشعرة أمامي».

رمى سوكتو الشعرة، في تلك اللحظة اختفى الحجر، وظهر أمامه طريق جيد مستوٍ خلال وادٍ، وعلى البعد ظهرت غابة واسعة. عبرا الوادي ووصلا بعد وقت قصير إلى قمة الجبل، حيث كانت شجرة حور رجراجة ذهبية الجذع وفضية الأوراق. عند أسفل الشجرة كان يوجد ماء الحياة، وكانت توجد كأس فضيّة معلّقة على أحد أغصان الشجرة. بدون الكأس، لا يستطيع أي إنسان أن يشرب من الينبوع أو أن يأخذ الماء منه. شرب سوكتو منه وأعطى الماء لحصانه. من ثم انطلق

الجواد ليرعى. وأضرم سوكتو ناراً. وصنع فراشاً من قماش السرج. ووسادة من السرج. واستلقى ونام بعمق.

في الصباح التالي عندما استيقظ سوكتو. كان جواده قد تغير كثيراً. كان سميناً وقوياً. سوكتو نفسه شعر بأنه أقوى وأفضل وخطط لكيفية إنهاء رحلته. كانت توجد خلف الجبل أراضي حميه. فامتطى جواده ومضى باتجاهها.

على الحدود. جعل جواده يبدو رمادياً ونحيلاً. وجعل من نفسه شيخاً عاجزاً ذا لحية بيضاء تصل إلى ركبتيه. ونحيلاً وتعيساً. ثم سار باتجاه الخيمة. كانت خمسة خيول بألوان مختلفة مربوطة بعمود ربط الخيل. وحضر خمسةُ شبابٍ رائعين للحصول على عرائس ودخلوا الخيمة الجميلة. قام سوكتو بربط جواده الرمادي البائس والهزيل بعمود ربط الخيل. ودخل إلى الخيمة.

قال الرجل العجوز الرث «تحياتي أيها الحمو!»

ضحك المحاربون الخمسة عندما قال ذلك. وسألوه «أي نوع من العرسان أنت. أيها الرجل العجوز الفقير؟».

سأله الخان «من أنت. أيها العجوز؟».

«لماذا تخاطبني بهذه الطريقة؟ أي حمو غريب أنت! لديك خمس بنات. يجب أن يخترن عرسانهن. إجمع الناس غداً. ودع كل واحدة من بناتك تَخْتَرِ الرجلَ الذي يُسعدها».

كانت البنات خلف سبعة وسبعين باباً في ذلك الوقت. قام الخان في اليوم التالي بجمع الناس واستضافهم. وأعطى بناته خمسة عظام نخاعية. قال لكل واحدة منهن «اختاري عريسك». كان على كل واحدة منهن أن تُعطي العظم النخاعي للرجل الذي تختاره.

ذهبت الأخوات الخمس معاً وأعطت أربع منهن العظام لأربعة شباب غرباء. أما الخامسة. والتي كانت الأخت الأصغر. فلم ترضَ أن تُعطي العظم إلى الغريب الخامس. ولكنها رمته باتجاه الرجل العجوز. وهربت بسرعة. تعجب الجميع من هذا وكانوا أسفين على الشاب الخامس الذي تُرك دون عروس.

قام الخان بإعطاء أربع خيام رائعة للغرباء الأربعة الشباب. وأعطى العريس الخامس. الرجل العجوز. سقيفة من القش. قال الحمو «ستعيش هنا».

في الصباح التالي. نادى على أزواج بناته الأربع: «لقد مللت أكل اللحم المعتاد. اقتلوا بعض

الماعز البري من أجلي». ولم يقل شيئاً للرجل العجوز. ذهبت عروس الرجل العجوز إلى والدها:

قالت له «سأرسل زوجي إلى الصيد».

سأل الأب «لماذا ترسلين ذلك الأحمق العجوز؟ سيصطدم بشجرة ويقتل نفسه».

«دعه يقتل نفسه إذا ما رغب بذلك. أنا خجلة لأني زوجة ذلك الرجل العجوز».

ذهب الأربعة لصيد الماعز البري. وذهب الرجل العجوز أيضاً. وجعل جواده أعرج. وكان الحيوان يكاد لا يقدر على الحركة. كان يعرج بشدة وبؤس. وصلوا إلى الغابة. فقام الشباب الأربعة الغرباء بالصيد طوال اليوم. ولم يجدوا صيداً. وقتل الرجل العجوز عنزة واحدة فقط. وعندما رماها قال: «فليصبح كل الجسد ساماً باستثناء الأمعاء. فلتكن الأمعاء هي الدواء». ثم جلس في الغابة بالقرب من نار كان قد أشعلها. جاء الأربعة إليه. فسألهم «هل قتلتم شيئاً؟». فأجابوه «لا. هل اصطدت شيئاً؟».

«عنزة صغيرة واحدة ولا أعلم كيف أسلخها». فسلخوها له. قالوا له «قسّم اللحم أربعة أقسام». فقسمها. وأعطاهم اللحم الصافي. وأبقى الجلد والأمعاء. حملوا اللحم إلى حميهم. وطبخت عروس الرجل العجوز الأمعاء وأخذتها إلى أبيها. فوجدته عليلاً ومتورماً ومريضاً جداً. وكان يشتكي:

صاح الخان بغضب «لقد أكلت اللحم فمرضت منه. فلماذا تجلبين لي الأمعاء؟ هل ترغبين في قتلي؟».

حثته ابنته « تذوقه فقط. أو حتى شم رائحته!».

أخذ مقدار ملعقة. ووجد أنه طيب. فأخذ مقدار كأس. فشفي. وأصبح بحال جيدة تماماً.

في الصباح التالي. طلب العرسان الأربعة وقال لهم: «اذهبوا مرة أخرى وأحضروا لي الأمعاء هذه المرة». قبل أن يغادروا. جاءت الابنة الصغيرة إلى والدها. وقالت له «سأرسل الرجل العجوز ليصطاد».

«لا ترسليه. إن جواده أعرج. لا يستطيع ذلك الرجل العجوز أن يقتل شيئاً».

توسلت الابنة «دعه يذهب. إذا ما حدث له شيء فلن أشعر بالأسف عليه».

ضحك العرسان الشباب الأربعة. وسخروا من الرجل العجوز.

فثار غضبه من ضحكاتهم. وعندما وصلوا إلى الغابة أضرم ناراً وجلس بقربها. «اذهبوا للصيد» قال لهم. «سأبقى هنا بقرب النار». فقتل عنزة أخرى. عندما رمى السهم قال له: «فلتكن الأمعاء سامة. وليكن اللحم هو العلاج».

سأل الأربعة عندما عادوا في المساء. «ماذا قتلتم؟» فأجابوه «لا شيء».

«على الرغم من أني قتلت عنزة واحدة كبيرة. إلا أني لن أقوم بتقسيمها هذه المرة» قال الرجل العجوز. فأصروا على تقسيمها حتى قال لهم في النهاية: «سأقوم بتقسيمها إذا ما قام كل واحد منكم بإعطائي جلداً بعرض إصبع من رقبته وحتى نهاية ظهره» فوافقوا على هذا. قام الرجل العجوز بقطع الشريط. ثم أخذوا الأمعاء وتركوا له اللحم النظيف.

قامت الأخوات الأربَعُ بطبخ الأمعاء وقدمنها لوالدهن. فأكلها. وأصيب بمرض شديد. وتورم حتى أصبح بحجم ثور بعمر ثلاث سنوات وبدأ بالبكاء: «لقد أوشكت نهايتي قريبة! لا بد أني سأموت هذه المرة!».

طبخت عروس الرجل العجوز اللحم النظيف وأحضرته لوالدها المريض. فسألها «لماذا تحضرين لي اللحم؟ لا أريده». فانحنت أمامه. وتوسلت إليه: «جرب ولو قليلاً. كان اللحم لذيذاً جداً. وفي اللحظة التي أكل فيها الخان ملء فمه منه عادت له الصحة الجيدة مرة أخرى.

في اليوم الرابع. طلب العرسان الأربعة وقال لهم:

«الليلة. ستنجب فرسي الرمادية الكبيرة مهراً. فهل تراقبونها؟ لقد أنجبت ثلاثة أمهار في ثلاث سنوات وسُرق كل واحد منها».

وافق الأربعة على المراقبة. سمعت عروس الرجل العجوز بهذا وقالت: «سأرسل زوجي ليُراقب معهم».

قال الأب «لا حاجة لنا به. لماذا ترسلين ذلك الأحمق؟».

أجابت زوجته «أستطيع الاستغناء عنه. لا أشعر بالأسف نحوه. فليقتل نفسه إذا ما رغب في ذلك». قال الأب «أرسليه إذاً».

كان القطيع موجوداً في واد. فذهب العرسان الخمسة إلى هناك. نزل صقيع ثقيل ليلاً وكان الهواء بارداً جداً. فأشعلوا ناراً وجلس الأربعة بقربها يرتعشون. لم يشعر الرجل العجوز بالبرد.

قال للأربعة «دفئوا أنفسكم. سأذهب أنا إلى الجانب الآخر من الوادي». وذهب ووجد الفرس الرمادية، وحول نفسه إلى قصبة وراقب ليرى من الذي يسرق المهر كل سنة.

عند منتصف الليل، جاء مانغاثي ذو خمسة وخمسين رأساً وخمسين قرناً. كانت الفرس قد أنجبت مهرها، قامت القصبة برمي المانغاثي بسهم، فقتلته، وأخذ المهر ووضعه مع أمه، ثم جمع عصياً، وأشعل ناراً وأحرق المانغاثي. ملأ رماد عظامه سبعة وتسعين كيساً. ثم قام الرجل العجوز بصناعة طاحونة هوائية، وطحن كل هذا الرماد في الأكياس السبعة والتسعين وتركه للرياح لتحمله بعيداً. تم كل شيء بحلول الصباح، لم يعلم الفرسان الأربعة بما حدث. عند الفجر، كان الرجل العجوز عند النار. كانوا تقريباً قد تجمدوا، وعلى وشك الموت بسبب البرد. فقام هو بجمع الحطب، ودفأهم، ثم سألهم:

«ماذا رأيتم خلال الليل؟ وماذا كنتم تفعلون؟».

«لم نرَ شيئاً. ما رأيت أنت؟».

«لقد رأيت شيئاً رائعاً. لقد رأيت من يقوم بسرقة الأمهار. ولكني لن أخبركم». فحثوه وتوسلوا إليه . وأخيراً قال لهم: «أعطوني أربعة أشرطة من اللحم من أفخاذكم، حتى أخبركم».

نظروا إلى بعضهم البعض، وقالوا «يجب أن نعطيه الأشرطة». فقطعوا الأشرطة وأعطوها له، فقال الرجل العجوز «لقد رأيت، وهذا ما رأيت فقط، ظلاً، طيراً، أو شيئاً ما، لا أعلم ما هو بالضبط، يأخذ المهر ويبتلعه، هذا كل ما رأيت».

عاد الأربعة، ومثلوا أمام حميهم وقالوا له: «عند منتصف الليل، جاء ظل، أو طير، أو شيء من ذلك النوع، نحن غير متأكدين، وبلع المهر، لم نستطع أن نصيبه».

قال الخان «طوال أربع سنوات، يحدث الشيء نفسه، اذهبوا الآن وكلوا». عندما ذهب الأربعة جاء الرجل العجوز.

وسأل الخان «ماذا فعل أزواج بناتك الأربعة؟ علهم أصابوا شيئاً؟ هل قتلوا شيئاً؟».

«لقد شاهد أزواج بناتي الأربعة البارحة كيف قام ظل بابتلاع مهر الفرس الرمادية، ولكن ماذا كنت تفعل أنت أيها الرجل العجوز؟».

فأجاب العجوز: «لا شيء سوى إحضار الأشرطة».

قال الحمو «أعطني إياها، أي نوع من الأشرطة هذه؟» سأل الرجل العجوز وهو ينظر إليها.

«لقد أخذت هذه الأشرطة من أزواج بناتك. لقد ذهبوا لقتل عنزة. ولم يقتلوا شيئاً. فأعطيتهم لحماً صافياً. واحتفظت بالأمعاء. ومرضت أنت من اللحم. وشفيت بواسطة الأمعاء. من ثم أعطيتهم الأمعاء مقابل أشرطة من ظهورهم. ومرضت من الأمعاء. وشفيت بواسطة اللحم الصافي».

«يبدو أنك أكثر حكمة من الأربعة. ولديك فهم وبعد نظر أفضل من أي واحد منهم. كيف حصلت إذا على الأشرطة الأربعة الأخرى من العرسان؟».

«مقابل إخبارهم بأن ظلاً. أو طيراً. قد أمسك بالمهر. لم أخبرهم بما حصل فعلاً. سأخبرك بالحقيقة كلها. جاء مانغاثي عند منتصف الليل. فأصبت ذلك المانغاثي وقتلته. المهر حي الآن. ويستطيع أي شخص أن يراه في المكان الذي قتلت فيه المانغاثي».

قال الحمو «أنت ابن خان. وأنت شاب. كُن لطيفاً واتخذ شكلك الطبيعي». أمضى الحمو يوماً كاملاً في الانحناء والتوسل: «أخبرني الحقيقة. أخبرني ما هو اسمك». وأخيراً. تحدث الرجل العجوز:

«اسمي الخان سوكتو. أنا ابن الخان يرينتي».

«لماذا لم تخبرني باسمك؟».

لم يُعطه سوكتو أي جواب. استدعى الحمو أزواج بناته الأربعة. وجعلهم يكشفون ظهورهم وأفخاذهم. وجرب الأشرطة فوجد أنها مناسبة.

قال لهم «لا يمكن أن تكونوا أزواجاً لبناتي». «لقد قطعتم أجسادكم. ويمكن أن تقطعوا أجساد بناتي». وطردهم في المساء نفسه.

في اليوم التالي. أقيمت وليمة رائعة واستمرت تسعة أيام وتسع ليالٍ. وكان سوكتو شاباً في ذلك الوقت وبشكله الطبيعي.

قال سوكتو «جهزوا لحفل الزفاف بسرعة يجب أن أعود إلى دياري والى أبي وأمي وأختي».

قال الخان «بالقرب من غازادا دالاي. يوجد كلب أصفر. أحضر لي الكلب. وسوف نقيم حفل الزفاف. وإذا لم تحضره فلن نقيم حفل الزفاف أبداً».

ذهب سوكتو إلى عروسه وأخبرها بكل شيء. وسألها «ما الذي يريد والدك أن يفعل بي؟».

قالت العروس «لا يستطيع أي محارب أن يحضر ذلك الكلب. من الأفضل أن تعود إلى ديارك بدلاً من أن تحاول. من المستحيل أن تحضره. بالرغم من أن الكثير من الرجال قد ذهبوا لإحضاره، ولكن لم يعد أيٌ منهم. جد لنفسك عروساً أخرى. هنالك الكثير من العذارى في بلاد أخرى».

قال سوكتو «لن أعود إلى دياري. سوف أحضر الكلب الأصفر. لا أعلم إن كنت سأموت على الطريق أو أعود. ولكني سأقوم بالمحاولة». من ثم ذهب ليستشير جواده.

قال الجواد «يجب أن تذهب إلى السماء. وأخبر إيسيج مالان. وخذ المشورة منه. يمكن أن يساعدك الحدادون المقدسون السبعة».

حول سوكتو جواده إلى شظية صوان. وذهب إلى السماء على هيئة نسر رمادي.

سأله إيسيج مالان «ماذا يجب أن تفعل؟». فأخبره سوكتو المهمة.

أمر إيسيج مالان الحدادين السبعة أن يصنعوا سلسلة ضخمة لعنق الكلب. وأغلالاً ثقيلة لقوائمه الخلفية. وطوقين حديديين لتقييد فمه.

ذهب سوكتو إلى الحدادين وصنعوا له كل ما يلزم. وبينما كانوا ينفخون في الكير. أنشد سوكتو: «لأنني بحال جيدة. ستقوم هذه السلسلة بإعطائي الكلب الأصفر». ذهب خلال الجنان إلى حيث الكلب الأصفر. لم يستطع أن يذهب على الأرض. ولم يجده. شاهد الكلب من السماء. وعندما أصبح فوق شاطئ المحيط المتجمد. رمى السلسلة والأغلال والأطواق. وأنشد: «إذا ما كنت منتصراً. فلتربط هذه السلاسل حول عنق الكلب الأصفر. ولتُغل هذه الأغلال أقدامه. ولتقيد هذه الأطواق فمه. وإذا لم أكن منتصراً. فلتسقط على الأرض وتصبح غير مؤذية». وبينما كان يتكلم سقطت الأغلال على الكلب وأمسكت به. انطلق سوكتو عندها إلى الأرض. عوى الكلب. وتخبط حول نفسه. ولكنه لم يقدر على فعل شيء. من ثم توقف وقال:

«لم يكن في العالم كله سحرٌ قادر على أذيتي. لقد سمعت أن الخان سوكتوقد وُلد. لا بد أنه محارب عظيم. لأنه لا أحد غيره قادر على ربطي بهذه الطريقة. آه يا سوكتو. إذا ما كنت ترغب في قهري. فافعلها بسرعة. وإذا ما كنت ترغب في قتلي. فاقتلني الآن. وإذا ما كنت ترغب في مساعدتي. فساعدني هذه الدقيقة».

في تلك اللحظة. انحلت السلاسل. وسقطت الأغلال. وانفكت الأطواق. جلس سوكتو على جواده. وقاد الكلب إلى خيمة حميه. وربطه بعمود ربط الخيل.

صرخ الخان «لا حاجة لنا بهذا الكلب هنا! أعده إلى المكان الذي وجدته فيه!».

قال سوكتو «لا أستطيع أن أعيده. إنه يأكل ثوراً صغيراً في كل وجبة!».

سمع الكلب المحادثة وقال لسوكتو:

«أعطني طعاماً كافياً، وسأعود إلى مكاني وحدي. أنا لا أخاف شيئاً على الأرض. وسأكون صديقاً عظيماً لك عشر سنوات. أذا ما واجهت أية متاعب مع حميك فسأكون بجانبك».

أكل الكلب الأصفر كثيراً. أكل ثوراً كاملاً وعاد إلى دياره على حافة المحيط المتجمد.

في حفل زفاف سوكتو، أكل الجميع تسعة أيام وتسع ليالٍ. سألت العروس أباها. «ماذا ستعطيني كهدية؟» فأعطاها جواداً بطول تسمين قامة له أذنان بارتفاع ثمانية أذرع، وسرجاً من فضة وغطاء من الحرير. فامتطيا جواديهما، وتبعهما الناس. أظهر سوكتو الطريق لرفيقته. وربط بذيل جواده شجرة أرزية سميكة جداً بحيث لا يقدر تسعة رجال على تطويقها. «عندما أتوقف على الطريق» قال سوكتو. «يعني أننا سندخن، وعندما أصنع دائرة بالشجرة فتعني مخيماً ليلياً».

سافر بسرعة ووصل إلى دياره في تسعة أيام. وكان الجميع بحال جيدة، وكانوا ينتظرون مجيئه. فجمع الناس، وأعد اللحم والشراب للجميع، ولكنهم انتظروا أولئك الذين تبعوه. وصلوا بعد ثلاثة أيام ومن ثم أكل كل واحد منهم تسعة أيام وتسع ليالٍ. وفي نهاية ذلك الوقت عاد الضيوف إلى ديارهم، وعاش سوكتو وزوجته كما يعيش الناس عادة.

في ذلك الوقت، عاد مرة أخرى من أجل أخت سوكتو نارين هويمير هوبون، الرجل الكبير، الذي لم يقدر على قذف الحجر الكبير.

سأله سوكتو «ما شأنك، ولماذا أتيت؟».

«لقد أتيت لأطلب أختك».

«ما السبب الذي يجعلك تفكر في الحصول عليها؟».

«لقد قال إيسيج مالان أني سأحصل عليها زوجة لي».

قال سوكتو «أنا أصدقك، ولكن عليك أن تبقى معي ثلاث سنوات، وتساعدني في إعداد قوائم بشعبي، تحصي قطعاني وماشيتي. أنا منهك جداً. لقد سافرت وكافحت طوال اثنتي عشرة سنة، وأحتاج إلى المساعدة».

وافق نارين هوبون على هذا، وساعد في عد القطعان. وعند نهاية السنوات الثلاث، قال له سوكتو: «لقد حان الوقت لتحصل على خيمة خاصة بك». من ثم قام بدعوة الناس وبدأ في اليوم التالي حفل زفاف استمر تسعة أيام وتسع ليالٍ. أكلت فيه الغربان والعقاعق كل ما أرادت. أكل العالم أجمع، وكانوا سعداء.

قالت الأخت «لقد اعتنيت بخيمتك طوال اثني عشر عاماً. ماذا ستعطيني كهدية؟»

كان لدى سوكتو جوادٌ رمادي بطول ثمانين قامة، وقد درب ثمانية أيام.

قال لها «خذي هذا الجواد، ولا تطلبي شيئاً آخر من أي أحد. أشكرك على اعتنائك بخيمتي بينما كنت أقاتل المانغاثي، وأفوز بعروسي».

امتطت أخت سوكتو جوادها ومضت مع عريسها، راضية وسعيدة.

ألامالدجين وأخته التوأم هانهاي

وُلد ألامالدجين بوغدو وأخته التوأم في إبريل من أب كان يبلغ من العمر خمسة وسبعين عاماً وأم تبلغ من العمر ستين عاماً.

بعد ولادة التوأمين، قام الأب بدعوة جميع الناس إلى وليمة دامت ثلاثة أيام. وأثناء الوليمة أخذ عظمتين نخاعيتين وطلب أن يتقدم رجل إلى الأمام ويُسمي الولد. فقام رجل عجوز بتسميته، وتلقى عظمة من العظمتين النخاعيتين. وقامت امرأة عجوز بتسمية الأخت التوأم، وحصلت على العظمة الثانية.

بعد عشرة أيام، لم يكن جلد خروف بعمر عشرة أعوام كبيراً بما فيه الكفاية يتسع لألامالدجين. وعندما أصبح عمر الولد ثلاث سنوات، علمه والده الحساب. وعندما لعب الولد مع الأولاد الآخرين كان يقول لهم دائماً أنه سيصبح خاناً.

استمرت هذه الحياة حتى أصبح الولد في الثانية عشرة من عمره، فاستأجر رجالاً لقلع الحجارة، وبنى خيمة بطول فرسخ واحد، ومرتفعة بحيث يبدو سقفها المصنوع من الفضة كأنما يلامس السماء.

كانت هناك سبعة آلاف نافذة في الأسفل، وسبعة آلاف نافذة في الأعلى. وكان خارجها كله مغطى بالفضة، وزينت من الداخل بالفضة. وكان في الخيمة سبع وسبعون حجرة ضخمة.

الفصل الثاني عشر

كان لدى ألامالدجين الكثير من الماشية والكثير من الناس. وعاش في أبهة. كانت هنالك طرق جيدة تصل خيمته بكل مكان. عندما أصبح عمره سبعة عشر عاماً. أصبح حكيماً وشهيراً جداً بحيث جعله الناس خاناً.

لم تُعد قطعانه وماشيته طوال ثلاثة عشر عاماً. فقرر الآن أن يحصيها. كان للخان عمّان. فاستدعاهما. فجاءا على جوادين رماديين. فأخذهما من أيديهما. وسار بهما إلى داخل خيمته وأولم لهما. «ليس لدي وقت لعد القطعان» قال ابن الأخ. «هل تقومان بالعد لي؟»

بدأ العد. ولكن لم يتمكنا أن ينهيا العد بعد مرور ثلاثة أيام. كان هناك الكثير من القطعان. وأخيرا انتهيا من العد. كانت القطعان الموجودة في الأمام نحيلة جداً ومضطربة. وكانت تلك الموجودة في الخلف سمينة وراضية. صرخ العمّان عندما شاهدا هذا. فذهبا إلى ابن أخيهما وطلبا منه أن يختار مراعٍ أخرى. ولكنه لم يرغب في فعل ذلك.

سألهما «لمَ تُعانِ ماشية أبي؟ كيف تعاني ماشيتي؟».

قال العمان «إن ابن أخينا لا يصدقنا». وذهبا عندها لشنق نفسيهما. قال ألامالدجين «لن أسمح بهذا» ومنعهما. «سأذهب للبحث عن مراعٍ جديدة. وسأجدها».

كان لدى ألامالدجين جواد بني اللون بطول تسعين قامة وله أذنان بارتفاع تسعة أذرع. كان هذا الجواد في ألتاي ديدا. خلف الجبال. في مرعى مع ثلاثة عشر أيّلاً برياً. كان يستطيع أن ينادي على الجواد بصافرته. ولكنه لم يرغب في فعل هذا. ولذلك أرسل عميه لإحضار الجواد.

ذهب العمان إلى جبال ألتاي. ووجدا الجواد. ولكنهما خافا بشكل مروّع عند رؤيته. وعادا من دونه. قالا «فلنذهب إلى الديار ونشنق نفسينا». «إن ابن أخينا يضحك منا. ولا يبالي بالمشورة التي أسديناه إياها».

نفخ ألامالدجين في صفارته. فسمع الجواد والثلاثة عشر أيّلاً البرية النداء. وكانت قد رعت معاً طوال ثلاث عشرة سنة. فقالت الأيائل الثلاثة عشر: «ربما نضيع إذا ما ذهبنا. ولكننا نرغب في الذهاب معك».

كان ألتاي ديدا. وهو المكان الذي عاشوا فيه برفقة بعضهم البعض. جميلاً جداً. والمياه عذبة. والعشب بطول ذراع. ولم ترغب الأيائل في تركه. فقالت للجواد «لا تذهب. ابقَ معنا. نحن نخاف أن نتيه من دونك». لم ترغب في فقدان الجواد. ولم ترغب في مغادرة الجبل.

قال الجواد «لا تخافوا. إذا مت فسوف يجف الماء، وسيذبل العشب. وإذا كنت بحال جيدة سيكون كل شيء كما هو الآن. لا تخافوا، فلن أموت».

استلقى الجواد وتدحرج، فسقط بعض شعره، وكان كثيفاً بحجم كومة قش. قال الجواد «إذا ما جاء أعداء، فادخلوا تحت هذا الشعر واختبئوا هناك، وستكونون بمأمن منه. إذا ما كنت بحال جيدة فسيبقى الشعر عدة سنوات. وإذا ضعت فسيختفي الشعر. ولكن لن أختفي. وسيبقى هذا الشعر هنا. إذا حزنتم من أجلي، فشموا الشعر، وستشعرون بالسعادة».

وافقوا على البقاء في جبال ألتاي.

ركض الجواد باتجاه سيده بكل سرعته، مستجيباً لدعوة الصافرة. وانطلق باتجاه عمود ربط الخيل، ووقف وصهل هناك.

خرج ألامالدجين مسرعاً في قميص واحد. كان يحمل لجاماً في إحدى يديه، وفي الأخرى حبلاً من وبر. وضع قطعة في فم جواده وربطه بعمود ربط الخيل. وقف الجواد هناك ثلاثة أيام. لم يُعطه ألامالدجين شيئاً ليأكله، وأعطاه ماءً من الينبوع ليشرب فقط. من ثم اقتاده إلى مكان رملي، وربطه بعمود آخر، وتركه هناك ثلاثة أيام على الرمل. ثم ربطه بعمود في مكان ثلجي، وتركه يقف على الثلج ثلاثة أيام، وكان هذا هو التحضير الأخير.

وضع ألامالدجين على جواده قماشَ سرج حريرياً وسرجاً فضياً. ومن ثم أعدّ نفسه. ارتدى سروالاً مصنوعا من جلود خمسين أيّلاً، وحذاءً من جلد السمك، وشوبا (عباءة) حريرية لها خمس وسبعون عروة، وحزاماً فضياً، وقلنسوة من فرو السمّور. أخذ معه قوساً وجعبة فيها خمسة وتسعون سهماً. شرب ديداناً، لأنه لن يحتاج بعدها للأكل طوال خمسة وعشرين يوماً. من ثم امتطى جواده ومضى مبتعداً بسرعة. ففرح عماه.

مضى بعيداً، إلى بلاد أخرى، وشاهد عند حافة الأرض بناءً حديدياً ضخماً يرتفع في السماء. فجعل جواده صغيراً ورثاً، وجعل نفسه عجوزاً تكسوه التجاعيد، أي شارماناً. وصل إلى البناء الحديدي الكبير، وربط جواده بعمود ربط الخيل. من ثم حاول أن يجد باب البناء، ولكنه لم يجده، فاخترق الزاوية الجنوبية الغربية للخيمة. كان في الداخل مانغاثي له مائة وخمسون رأساً. قفز المانغاثي، وصرخ، «من أنت؟. من الذي تجرأ على اقتحام منزلي بهذه الطريقة؟».

أخذ المانغاثي فأسه، وكان بعرض خمسين قامة، وشحذها، ولكن عندما سمع أن الرجل العجوز الغريب كان شاماناً، رمى الفأس جانباً، ثم اتضح أن العين اليمنى للمانغاثي قد أصيبت بسهم و جُرحت.

قال المانفاشي «من الجيد أنه يوجد شامان هنا. إن عيني متقرحة».

قال ألامالدجين «ليس من الصعب علاج العين. دعني أنظر فيها. لقد اصاب أحدهم عيني بسهم قبل ثلاث سنوات: إن نظرك ضعيف. هناك الكثير من الديدان في عينك في هذه اللحظة».

قال المانفاشي «صحيح».

قال ألامالدجين «سأعالجك بسرعة. أنا قلق كونك كبير الحجم. وتحتاج إلى دواء قوي. هل ستتحمله؟»

«سأفعل».

أحضر المانفاشي حبلاً من الوبر بطول تسعين قامة وقال: «سأستلقي هنا. قم أنت بربطي بزوايا الحجرة الأربع. وثبتني بحيث لا أتحرك».

قام ألامالدجين بربطه بإحكام. وأخذ قدراً كبيرةً. ووضعها على مرجل تحته نار حاميه. ثم ملأ القدر بالرصاص. عندما انصهر الرصاص. قال ألامالدجين «انظر إلى السماء بعينك السليمة. وعُد النجوم. وانظر إلى أحد الجوانب بعينك المريضة».

فعل المانفاشي ما طُلب منه. وقام ألامالدجين بسكب كل ما في قدر الرصاص المنصهر في العين السليمة. شعر المانفاشي بألم فظيع. فارتعش وهاج وماج. وجد ألامالدجين ثلاثة أبواب حديدية مغلقة. فكسرها وانطلق خارجاً. شاهد عنزة صفراء على الطريق. ولها قرون بطول ثلاثة أذرع. حول الخان نفسه إلى برغوث وجلس على أذن العنزة بسعادة.

قبض المانفاشي على الحبل بقوة. وسحبه ثلاث مرات. ومزقه قطعاً. وانطلق خارجاً لإيجاد الشامان. ولكنه لم يره. ركضت العنزة إلى المانفاشي ونطحته. كان المانفاشي ما زال يرى القليل بعينه المصابة. نطحته العنزة كرة أخرى. فسقط. وتأذّى جبينه. وأصيب بغضب عارم.

قال المانفاشي لنفسه «لم تقترب مني هذه العنزة من قبل. الآن عندما فقدت عيني تقوم بنطحي».

صنع المانفاشي بواسطة سحره جداراً حديدياً عالياً جداً. بحيث لا يستطيع الشامان أن ينقذ نفسه. ثم أخذ العنزة ورماها فوق الحاجز. بقي البرغوث في أذن العنزة حتى صارت في الخارج. ثم تحول إلى ألامالدجين مرة أخرى. امتطى ألامالدجين جواده ونادى على المانفاشي «إذاً. هل تحسنت عينك؟».

«إنها أفضل. شكراً لك. سأعطيك هذه الفأس كمكافأة» ورمى الفأس فوق الجدار باتجاه ألامالدجين، بقصد قتله. لكن الفأس لم تُصِب ألامالدجين. فالتقطها، وضربها في جدار خيمة أخرى وقال: «ابق هنا حتى أعود، واحرص على ألا يغادر المانفاشي البيت والحاجز. سيكون هذا المكان لي لاحقاً، وستكون مراعيّ هنا».

كانت قوى المانفاشي كلها وسحره في تلك الفأس.

عاد ألامالدجين الآن إلى دياره. علم العمان ما حدث مع ابن أخيهما. فذبحا عشرة خراف، وصنعا الكثير من أباريق التاراسان، وخرجا لملاقاته. توقفا عند الجبل الأحمر، وبنيا سقيفة هناك، وانتظرا.

عندما ظهر ابن الأخ، ذهبا لملاقاته، وقالا له «نحن هنا للترحيب بك. لقد أحضرنا لك وليمة معنا».

كان ألامالدجين غاضباً «لماذا أتيتم؟ لماذا أحضرتم وليمة؟ لماذا لا أستطيع أن أذهب إلى دياري وحدي؟»

«فعلنا هذا من باب الاحترام، لأنك قهرت مانفاشاي عظيماً».

ربط جواده بشجرة ودخل إلى السقيفة مع عمّيه. أعطياه أولاً عشر قدور من التاراسان فأفرغها جميعها وأصبح في حالة بهجة وسرور. ثم أكل الخراف وسألهما «هل يوجد المزيد من التاراسان؟». فأعطياه برميلاً صغيراً من التاراسان الممزوج بالسم. فشربه، وسقط على الأرض. خرج من فتحات أنفه لهب أزرق وأحمر.

قال الجواد «بالرغم من أنكم قتلتم سيدي لن أخضع لكم! وفر هارباً وانطلق باتجاه الديار. وصل إلى الخيمة، وركض إلى عمود تثبيت الخيل، وصهل بصوت عالٍ.

خرجت أخت ألامالدجين، واحتضنت أقدام الجواد، وبدأت بالبكاء، «كيف حال سيدك؟ أين هو؟».

«لقد مات سيدي عند الحدود، لقد قتله عمّاك». امتطت هانهاي الجواد ومضت إلى الحدود بسرعة. كان جسد أخيها ممدداً في السقيفة، ولم تجد معه أحداً هناك. ربطت قطعَتَيْ قماش حريري حول الجسد، ولفتهما بعناية. لم يكن الجبل الأحمر بعيداً جداً، دفنت أخاها عند أسفل الجبل وعادت إلى الديار. كان كتاب أخيها في خيمته. قرأت الكتاب وعلمت منه كيف تحترس من الموت، وكيف تعيد الميت إلى الحياة، فهذا ما قاله الكتاب:

«بعيداً، على الطرف المقابل للأرض، هناك مستنقع يستحيل اجتيازه، وفي منتصف ذلك المستنقع، توجد شجرة حور ذهبية رجراجة لها أوراق فضية، وعند أسفل شجرة الحور الذهبية الرجراجة تلك يوجد ماء الحياة، وعلى قمة الشجرة يجلس طير وقواق. إذا ذهب أي شخص إلى هناك سيساعده طير الوقواق، وسيشفيه ماء الحياة ويعيد الحياة إلى الميت مرة أخرى».

ارتدت الأخت ثياب أخيها، وأخذت أسلحته، وامتطت جواده، ومضت مبتعدة بسرعة. في اليوم السادس اقتربت من المستنقع الذي يستحيل اجتيازه، حولت جوادها إلى شظية صوان، ووضعته في جيبها، ثم حولت نفسها إلى غراب أسود.

كانت المسافة إلى ماء الحياة أربعين فرسخاً عن حافة المستنقع، أخذت معها برميلاً صغيراً وطارت إلى المكان، تدفق الماء خارجاً من الأرض عذباً وصافياً، لم يكن طائر الوقواق هناك. شرب الغراب من الماء، ثم ملأ البرميل، بعد ذلك تحولت إلى قصبة وراقبت المكان، منتظرة طائر الوقواق.

عند منتصف النهار، طار طائر الوقواق عائداً إلى بيته وشرب الماء، أمسكت القصبة بالطير من عنقه، بإحكام.

«اتركيني!» صاح طير الوقواق، «وإذا كنتِ ترغبين في قتلي، فاقتليني بسرعة، هل أنت هانهاي؟».

قالت الأخت «أنا هي، لقد جئتك كي تنقذ أخي».

قال طير الوقواق «سأذهب معكِ». من ثم طار كلاهما عائداً إلى حيث دفن ألامالدجين، وهناك، اتخذت الأخت شكلها الطبيعي وصلّت وتضرّعت إلى البوركانات المقدسة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث فتّحت الأرض وأخرجت الجسد، كان في حالٍ جيدة، باستثناء صفيحة الكتف اليمنى، كان ثعلب قد حفر القبر وحمل صفيحة الكتف تلك، طلبت هانهاي من طائر الوقواق أن يراقب الجسد بينما تتبع آثار الثعلب.

ذهبت هانهاي إلى شارا دالاي (البحر الأصفر) ووجدت الثعلب هناك وكان يمسك بصفيحة الكتف في فمه عندما التقت به هانهاي.

سألت الأخت «ماذا تفعل بصفيحة الكتف تلك؟».

«لقد أخذتها إلى شامان كي يتنبأ، هذا هو اليوم الثالث الذي أعاني فيه من الصداع، علم الشامان أن صفيحة الكتف لأخيك، أنا ذاهب الآن إلى حيث دُفن أخوك».

«بأي حق تأخذ صفيحة كتف من رجل ميت؟ من أعطاك الإذن؟»

«لقد فتشت العالم كله، ولكني لم أجد صفيحة كتف إنسان أو حيوان. وعندما مررت بقبر أخيكِ علمت من الرائحة أنه توجد جثة فيه، ثم تجرأت وأخذت صفيحة الكتف. سأعيدها لكِ. لا تضربيني».

أخذت هانهاي صفيحة الكتف وسامحت الثعلب ثم عادت ووجدت طائر الوقواق يحرس أخاها. وضعت صفيحة الكتف في مكانها الصحيح وسكبت ماء الحياة على جسم أخيها، الذي اتخذ شكله الطبيعي فوراً. بدأ طائر الوقواق بالغناء، عند أقدامه وغنّى حتى وصل إلى قمة رأسه. عندها وقف ألامالدجين بحال جيدة وسأل، «كم من الوقت نمت هنا؟».

عاد ألامالدجين وهانهاي إلى ديارهما وأخذا طائر الوقواق معهما، واستضافاه يوماً واحداً.

قال ألامالدجين عندما كان طائر الوقواق على وشك الانصراف «سنصبح أصدقاء من الآن، وإلى الأبد، كن طيباً وساعدنا».

قال طائر الوقواق «سأفعل، متى ما كانت هنالك حاجة لذلك».

قال ألامالدجين لأخته في اليوم التالي «أنا ذاهب للصيد».

قالت هانهاي «الصيد طيب، ولكن يجب أن تستريح عشرة أيام على الأقل».

«لماذا الراحة؟ سأصطاد على أرضي» ومضى مبتعداً بسرعة.

قابل في الغابة امرأة طويلة كشجرة صنوبر وكانت زوجة المانفائي الذي ثقب عينه، والذي قد مات الآن. كانت تفتش عن ألامالدجين. كانت هذه المرأة تمسك في يدها مكشطة بطول عشر قامات- كانت تستخدم هذه المكشطة لارتداء الجلد غير المدبوغ.

قالت المرأة «انظر، انظر كم رجلاً أتى خلفك!».

نظر خلفه، فضربته خلف العنق، فسقط ورأسه على الجانب الأيمن من الجواد، وجسده على الجانب الأيسر، فركض الجواد باتجاه البيت. تبعت امرأة المانفائي الجواد، ولكنها لم تستطع أن تمسك به.

صاحت بينما انطلق الجواد مبتعداً عنها «أي نفع لجواد بلا سيد؟ وأي نفع لزوجة بلا

زوج؟». مرة أخرى، صهل الجواد عالياً عند عمود ربط الخيل. ركضت هانهاي خارجة، واحتضنت أقدامه وبكت: «أين أخي؟».

«لقد قامت زوجة المانغاثي بقتل أخيكِ في غابته».

ارتدت هانهاي ثياب أخيها، وركبت جواده، وانطلقت لملاقاة امرأة المانغاثي. مضت مباشرة إليها، كانت تعلم بواسطة قوة سحرها أين كانت المرأة الطويلة. حولت هانهاي نفسها إلى رجل: ولم تتعرف عليها زوجة المانغاثي. وبينما كانت هانهاي تمر بالقرب من المرأة الطويلة، نادت عليها قائلة: «من أين أتيت أيتها المرأة؟ من أنت؟».

«أنا زوجة مانغاثاي».

«ماذا تفعلين في هذه الغابة؟».

«لقد فقدت قطيعاً من الخراف، وقطيعاً من الخيل، والكثير من الماشية. لقد طلبت من الجميع أن يبحثوا عنها، ولكن لم يجدوها. لكن انظر حولك!» صاحت المرأة فجأة. «انظر كم من الرجال جاؤوا من خلفك!».

قالت هانهاي «دعيهم يبقون خلفي، إنهم شعبي. انظري خلفكِ! هنالك عشرون مانغاثاي آتين ناحيتك!».

نسيت المرأة الطويلة نفسها، ونظرت، فسددت هانهاي لها ضربة بسوطها القوي الحاد بحيث قطعت رأس المرأة. هرب جواد المانغاثي وتبعته هانهاي على جوادها السريع، وأمسكت به، وأعادته، وقتلته. وجمعت حطباً وأحرقت الجواد وامرأة المانغاثي.

ثم عادت هانهاي لتجد أخاها، فوجدت رأسه أولاً ومن ثم جسده، فوضعتهما معاً، ولفتهما في قطعتي قماش حريريتين، وربطت الحزام بالسرج، وذهبت إلى الجبل الأحمر، حيث دُفن أخوها في المرة الأولى. صلت ليوم واحد وليلة واحدة للبوركانات المقدسين، ثم دفنته عميقاً، بعيداً عن الثعالب والحيوانات الأخرى. من ثم عادت إلى ديارها، وبحثت عن الكتاب، وقرأت فيه: «يعيش في الغرب الخان غازار بين، له ابنة، نالهان تايجي باساغان: إنها الشخص الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يُحيي ألامالدجين مرة ثانية، ولكن يجب أن تصبح زوجته كي تستطيع أن تُحييه: يجب أن تتزوجه».

عندما انتهت هانهاي من القراءة، بكت. «أنا عذراء، كيف لي أن أذهب إلى تلك البلاد؟».

قرأت في الكتاب طوال ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ثم جهزت نفسها للذهاب. ارتدت ملابس أخيها، وأخذت أسلحته، وامتطت جواده، ومضت إلى الحدود.

فكرت هانهاي «لقد تركت كل شيء خلفي. ماذا سيحل بالناس والقطيع. من سيحميهم؟». ولكن كان لديها قوة سحرية هائلة. وبواسطة تلك القوة بنت جداراً حديدياً كبيراً حول البلاد كلها: ومن ثَمّ صنعت قبة مسطحة من الفضة فوقها. فوق القبة الفضية وضعت أرضاً. وجعلت العشب والأشجار تنمو منها، بحيث كانت كل بلاد أخيها، بأناسها وأسرابها وقطعان خيلها وماشيتها وكل ما كان فيها، مخفية وغير مرئية للعالم الخارجي كله. وفي الشرق، تركت فتحات سرية صغيرة لتدخل منها أشعة الشمس. من ثم مضت باتجاه الغرب بسرعة بحثاً عن نالهان تايجي باساغان.

ذهبت هانهاي بعيداً. مضت ثلاثة أسابيع، حتى شاهدت أخيراً خيمة حجرية بيضاء كبيرة. فمضت باتجاه الخيمة، ووجدت جماجم تسعين جواداً على تسعين عصاً، وكان على العصي التسعين الأخرى تسعون رداءً لرجال وخيول. أوقفت جوادها وذرفت الكثير من الدموع.

عند النساء، يكون الشعر طويلاً، ولكن التفكير قصير. وقفت هنالك بينما كانت تفكر، تستجمع شجاعتها، ثم قالت لنفسها، «طالما بدأت هذا العمل فيجب أن أنهيه».

حولت جوادها إلى شظية صوان، ووضعت الشظية في جيبها، وحولت نفسها إلى ظربان، ونبشت تحت الخيمة وفي داخلها. نبشت إلى الأمام، وأخيراً اندفعت إلى الأعلى عبر الأرض، وشاهدت مانغاثاي نائماً. كان له سبعمائة رأس على جسده، وسبعون قرناً على رؤوسه.

فكرت مع نفسها «لم أسمع أبداً بمانغاثاي له هذا العدد الكبير من الرؤوس. لا بد أن هذا هو أعظمها، والد ورئيس المانغاثيات جميعاً».

كان بالقرب من المانغاثي فأس بعرض ثمانين قامة. تحولت هانهاي إلى ألامالدجين، وأخذت الفأس، وأيقظت المانغاثي وقالت له: «لقد جئتك محارباً!».

استيقظ، وجاهد لينهض: فقطعت رأسه المركزي بالفأس، والذي كان مليئاً بالسحر. «لقد ظهر دهاء البشر: هذه نهايتي!» كانت هذه آخر كلمات المانغاثي ذي السبعمائة رأس.

أوجدت هانهاي غابة باستخدام السحر، وكتبت على واحدة من أكبر الأشجار: «ستكون هذه غابة مقدسة من الآن فصاعداً» ثم امتطت الجواد ومضت.

بعد ذلك، التقت بمانغاثاي له سبعة وعشرون رأساً على ظهر جواد.

سألها «لماذا تمضين خلال أرض والدي؟ لا يمر إنسان ماشياً أو على ظهر الخيل ويبقى على قيد الحياة بعد ذلك. سأنطلق إلى البيت. وأقرأ في كتابي. وأعلم من قتل أخي بالسحر. سوف أفتش وأذبح من قتله.» عندما استدار ليعود إلى بيته. أطلقت هانهاي سهماً خلفه. وقالت للسهم «إذا قتلت المانغاثي وحصانه. فارجع إلي». عاد السهم وقال لها: «لقد مات المانغاثي وحصانه».

مضت هانهاي. ولكنها التقت بعد قليل لمانغاثاي آخر. كان له سبعة وسبعون رأساً. ونادى: «أي نوع من الرجال أنت. من أي بلاد أتيت؟»

فقالت له «يناديني الناس ألاماLدجين بوغدو».

أجاب المانغاثي «لقد سمعت أن هذا الشخص قد وُلد. هل أنت هو؟»

«أنا هو».

قال المانغاثي «لقد تمنيت أنا وأبي أن نخرج غداً لقتلك. والآن. حضرت هنا بنفسك. هذا جيد! لقد قتلت الكثيرين حتى الآن. ولكني فعلت ماهو أفضل منك. أي عمل سيكون معك؟ انزل عن جوادك!»

انزلقت هانهاي هابطة بسرعة. قفز كل منهما على الآخر وبدأ القتال. قاتلا قتالاً مريعاً. بالأسنان والأيدي. تقاتلا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. ولم يبق لحم على المانغاثي. كان من الممكن رؤية كل أضلاعه وعظامه. وسقط في اليوم الرابع. وزأر بشكل رهيب. ذهبت هانهاي إلى شجرة أرزية وفتحتها. وقطعت بعضاً من رؤوس المانغاثي ودستها بداخلها. من ثم قامت بواسطة قوة السحر بتطويق الشجرة بخمسة وتسعين طوقاً. كلها من الحديد: وقتلت المانغاثي. وقتلت جواده. وذهبت مبتعدة.

بعد وقت قصير. التقت بمانغاثي له خمسمائة رأس. وخمسون قرناً على رؤوسه وجلد ماعز على كتفيه.

صاح المانغاثي. قافزاً من على جواده «لقد قتلت أبي وأخوي. إلى أين الآن؟ سوف أمزقك إلى قطع!».

أجابت هانهاي هابطة من على جوادها «حسناً إذاً». انطلقا باتجاه بعضهما البعض. وتقاتلا تسعة أيام وتسع ليالٍ دون توقف. طارت الغربان والعقاعق قادمة من الشمال والجنوب ونادت عليهما: «استمرا في القتال. أنتما محاربان جيدان! استمرا في القتال! أعطونا اللحم. أعطونا الكثير منه».

قال المانغاثي «لا نقدر على فعل شيء بالمصارعة. فلنستخدم السهام. سأذهب أنا إلى الجبل الجنوب الغربي. واذهب أنت إلى الجبل في الشمال الشرقي وارمِ من هناك».

وافقت هانهاي. واستراحا مدة يوم واحد.

كان لدى المانغاثي سهام بحجم شجرة أرزية. استراحت هانهاي بالقرب من غابة. ظهر على المرأى أيّلان. فقتلتهما ثم أشعلت النار. واتخذت من شجرة صنوبر وشجرة أرزية أسياخاً وقامت بشي الأيّلين. ونهضت عند شروق الشمس وأكلتهما.

أشار المانغاثي للبدء. وقال «يجب أن أرمي أنا أولاً».

قالت هانهاي «لا. أتيت باحثاً عنك. سوف أرمي أنا أولاً».

صرخ المانغاثي «لن أوافق على ذلك أبداً! لقد قتلت أبي وأخوايَ الاثنين. والآن تود أن تقتلني!».

قالت هانهاي«ارمِ !» واستلقت على الأرض. هسهس سهم المانغاثي وزأر بينما كان يطير باتجاهها. ولكنها تحولت على الفور إلى حجر صلب جداً فانكسر السهم على ذلك الحجر. ومن ثم عادت إلى شكلها الطبيعي. وأقحمت السهم المكسور في سرجها. وأشارت إلى المانغاثي «لم تتمكن من إصابتي. ولكنك أصبت سرجي».

قال المانغاثي «لقد أخطأت. ولكن لا تطلق سهامك عليّ اليوم. أطلقه غداً».

«هل سأنتظر أياماً لأرضيك؟ سأرميك بسهم الآن!» صاحت هانهاي. وأطلقت سهماً سحرياً. قام السهم بتحطيم المانغاثي إلى أجزاء. ومزّقه قطعاً صغيرة. ثم ذهبت هانهاي إلى جسد المانغاثي الممزق. لم يكن جواده قد هرب بعيداً. ولكنه وقف يبكي هناك بالقرب من سيده. قتلت هانهاي الجواد. وجمعت الحطب. وأحرقت السيد والحصان وحولتهمل إلى رماد.

بعد ذلك. مضت مبتعدة. مضت مسرعة. حتى وصلت أخيراً إلى بحرين. حيث كانت اليابسة بينهما بعرض ذراع واحدة وترتفع بمقدار ذراع واحدة فوق الماء. كان البحر على اليمين من سم. وكان البحر على اليسار من ماء عذب. توقفت هانهاي. وقالت لجوادها «لا تستطيع أنت أن تعبر البحر». حولته إلى صوان وحولت نفسها إلى طائر سنونو. من ثم طارت. وطارت طوال ثلاث ساعات. ووصلت إلى الجهة الأخرى. ثم أعادت نفسها وحصانها إلى شكليهما الطبيعيين.

كان هناك جبل شاهق إلى الأمام في الطريق أمامهما. عند أسفل ذلك الجبل. كان هناك

أناس مشوهون وعُرجّ ومنحنون وفاقدون للبصر. أناس فيهم كل علة ممكنة. وأجساد أناس ميتين وخيول ميتة. كانت هنالك تلال وأكوام وهضاب من هذه الأجساد. عندما شاهدت هانهاي هذه الأكوام من عظام البشر والخيول التي سقطت بينما كانت تحاول تسلق الجبل الكبير. سألت جوادها: «هل تستطيع تسلق هذا الجبل أو لا؟».

أجابها الجواد «لا أستطيع كما تعلمين».

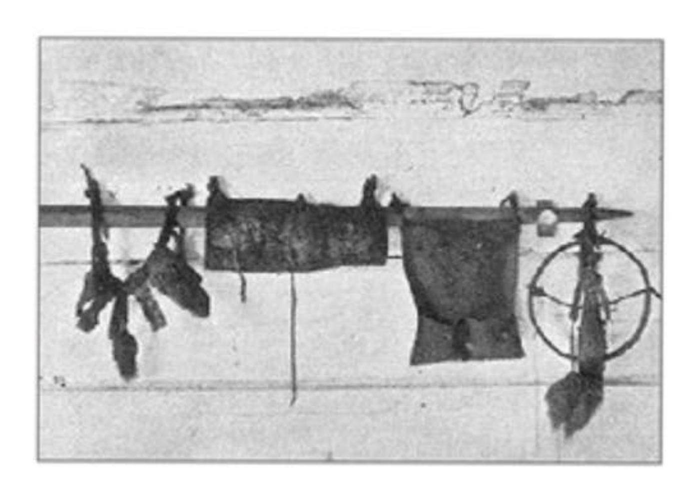
حولت الجواد إلى شظية صوان، ووضعت الشظية في جيبها، وحولت نفسها إلى سنجاب وركضت صاعدة الجبل. استمرت في الركض حتى كادت مخالبها تختفي. وصلت حتى ثلث الجبل، وكانت على وشك أن تسقط: فتشبثت بشجرة وتحولت إلى ظربان. تسلقت الثلث الثاني من الجبل بصعوبة كبيرة كظربان : ومن ثم تحولت إلى طائر سنونو. وطارت الثلث الأخير من الطريق. طارت طوال ثلاثة أيام وثلث يوم آخر حتى سقطت على القمة. واستلقت هناك دون حراك يوماً كاملاً ونصف يوم. من ثم استعادت حيويتها ونظرت حولها. وهناك، أمامها مباشرة كان يوجد ينبوع ماء الحياة والشباب والصحة. تدلت كأس ذهبية من فرع الشجرة بواسطة سلسلة من الفضة الخالصة. شربت هانهي، وأعطت جوادها ليشرب، ثم أشعلت ناراً.

شعرت في اليوم التالي أنها أقوى وأفضل. شربت مرة أخرى من ماء الينبوع. وبحثت بعدها وشاهدت في البعيد خيمة الخان غازار بين الكبيرة: وشاهدت أيضاً ماشيته وخيوله التي لا تُحصى. كانت الخيمة ضخمة، بطول فرسخ، فقد كانت بيتاً كبيراً من الفضة، تتلألأ بأبهة، مباشرة في الاتجاه الجنوبي الغربي منها.

امتطت الجواد فوراً وانطلقت إلى بيت الخان غازار بين. كانت ثلاثة خيول مربوطة بعمود ربط الخيل بالقرب منه. ربطت جوادها أيضاً ودخلت. دخل أمامها ثلاثة شباب رائعون.



زوج وزوجة من البورات في حقل تبن، جزيرة أولخون وأدواتهما الخاصة بتقليب العشب وتمشيطه



تماثيل لآلهة البورات تحتفظ كل أسرة من البورات بهذه الآلهة المقدسة

قالت هانهاي "تحية مني لك أيها الحمو!".

سأل الخان غازار بين "من أين أتيت. ابن أي خان أنت؟"

"أنا ألامالدجين بوغدو. لقد سمعت أن لك ابنة جميلة. واسمها نالهان تايجي: لقد جئت أطلب يدها. ورد في كتابي أنها ستكون عروسي".

"لقد جاء طالبو الزواج هؤلاء أبكر منك. ولم يتحدثوا بعد. لماذا أنت متسرع هكذا؟".

"لم يخطر ببالي أن أنتظرهم أو أنتظرغيرهم. أنا أبوح برغبتي حالاً".

قال الشباب الثلاثة "لقد جئنا لطلب ابنتك".

قال الأب "ستختار من يعجبها: ولن أرغمها أنا".

"هل ننتظر هنا أو نذهب إليها؟"

"امضوا الليلة هنا! سأطلب الناس في الغد جميعاً. وأجعل ابنتي تخرج وتختار من يُرضيها".

أقيمت في اليوم التالي وليمة. خرجت نالهان تايجي. التي كانت خلف ثلاثة وأربعين باباً في الحجرة الثالثة والأربعين. أعطاها والدها كأساً من النبيذ وعظماً نخاعياً لتعطيهما للرجل الذي يُرضيها أكثر.

قال لها "هؤلاء أربعة عرسان. أَعطي هذه للرجل الذي يُعجبك أكثر".

نظرت عدة مرات إلى الأربعة. وأخيراً أعطت العظمة والنبيذ لهانهاي. وعندما تم الاختيار، غادر الناس وطالبو الزواج.

قال الحمو "اذهب إلى عروسك واسترخ. سيتم الاعتناء بحصانك وإطعامه".

كانت نالهان تايجي تنتظر في حجرتها. كان الشراب والطعام وكل شيء جاهزاً. جلسا هناك وأكلا حتى اقترب الليل، من ثم قفزت هانهاي. وقالت "يجب أن أذهب الآن. لا أستطيع أن أبقى معكِ أكثر. بما أن جوادي مسحور، فمن المستحيل أن أبقى".

"لا يصح هذا! لقد سافرت على ذلك الجواد. كيف يمكن لبقائك هنا أن يؤثر عليه؟ أي نوع من العرسان أنت لتتركني هكذا؟"

"اتركيني فقط لأعود إلى دياري على صهوة هذا الجواد. ومن ثم سأتركه. سأرسله إلى ألتاي ديدا، حيث سيرعى في الجبال مع ثلاثة أيائل برية. في كل هذا العالم، هو أكثر الخيول حظاً وأفضلها للطرق. لا يمكن لعلة أن تصيبه. ولكن يمكن أن يظهر سوء الحظ في لحظة حيث أكسر سحره، وهو أنه لا يمكن لإنسان متزوج بالكامل أن يمتطيه. لن أموت أنا فقط، ولكن ستموت زوجتي أيضاً.

صدقت نالهان تايجي عريسها الآن، فتركته يغادر تلك الحجرة الثالثة والأربعين. في الصباح التالي، طلبه حموه: "سأعطيك ابنتي، ولكن يجب عليك أن تفعل لي شيئاً: أحضر لي ريشة من جناح الخان هيرديك، لكي أكتب بها. وإذا لم تحضر الريشة فلن أعطيك ابنتي".

سألت هانهاي "كيف يكون هذا؟ وأنا لم أكد أصل إليكم، والآن يجب أن أذهب إلى بلاد أخرى؟"

"أفعل ما يحلو لك. أحضر لي الريشة أو لن تحصل على ابنتي".

"سأذهب، ولكن دعني أرى نالهان تايجي".

ذهبت هانهاي إلى عروسها. قالت لها "أنا ذاهب في رحلة طويلة. يجب أن تُساعديني بطريقة ما".

لن أواجه أي عوائق في الرحلة، ولكن الخان هيرديك سيؤخرني قبل أن يعطيني الريشة. هذه هي السنة الثانية منذ بدء قتاله مع الخان موغوي. لذا، لن أحصل على الريشة حتى تنتهي الحرب. "ولا أستطيع أن أنتظر حتى تنتهي الحرب. يجب أن أذهب حالاً ويجب أن تساعديني".

قالت نالهان تايجي "لن تشعر بالجوع أو تحتاج إلى النوم. لا أستطيع أن أقدم لك مساعدة أخرى".

مضت هانهاي مبتعدة بسرعة. وصلت في اليوم الخامس إلى جبل شاهق جداً. وانتصبت على ذلك الجبل شجرة صنوبر كبيرة. بحيث لا يقدر عشرة رجال على الإحاطة بها. كان يعيش على تلك الشجرة الخان هيرديك وابنتاه الاثنتان.

سألت البنات هانهاي "من أين جئت أيها الشاب الطيب؟".

"أنا ألامالدجين بوغدو. لقد جئت من أجل شأن مع والدكن".

سألت بنت الخان هيرديك الكبرى "هل أنت خان؟ هل كان أبوك خاناً أيضاً؟ إن أبانا في الحرب مع الخان موغوي. إنه بالقرب من المحيط الثلجي. ولكن لا تستطيع أن تذهب إليه".

انطلقت هانهاي باتجاه المحيط الثلجي. وعندما وصلت إليه. كان الخان هيرديك قد وصل قبلها بثلاثة أيام. وجدت الخان على شجرة صنوبر كبيرة بالقرب من شاطئ المحيط. انحنت هانهاي للخان هيرديك. وقالت له "تحية مني لك!". ومن ثم أخبرته بسبب مجيئها.

قال الخان "لا أستطيع أن أعطيك ريشة الآن. يجب أن أقاتل الخان موغوي خلال أربعة أيام. إذا ما ساعدتني. فسوف أعطيك ريشتي".

وافقت هانهاي. وحولت جوادها إلى صوان. ووضعته في جيبها. وأصبحت هي نفسها نسراً. وجلست هناك على شجرة الصنوبر مع هيرديك.

قال الخان هيرديك "سيأتي موغوي خان من الوادي. له رأسان. وبينهما بقعة بيضاء لامعة. إذا ما أصيبت البقعة فسوف يموت. وعندها سأطير معك بعيداً وأعطيك ريشة".

في اليوم الرابع. خرج موغوي خان من المحيط الثلجي وجاء عبر الوادي باتجاههما مباشرة. واذا انتصر موغوي خان. فسيحصل على بنات الخان هيرديك. واذا انتصر الخان هيرديك. فسيحصل على بنات الخان موغوي.

عندما أصبح الخان موغوي قريباً بما فيه الكفاية. شاهدت هانهاي البقعة. وأطلقت سهمها إليها. فقتلت موغوي. ومن ثم اتخذت شكلها الطبيعي. وضعها هيرديك خان على ظهره وانطلق إلى بناته عند شجرة الصنوبر. وأقاموا وليمة هناك ثلاثة أيام كاملة.

قال هيرديك "شكراً على مساعدتك. خذ الريشة. وقل لحميك بأنه سيكون صعباً عليه أن

يحمل تلك الريشة للكتابة. ولكن سنصبح أنا وأنت أصدقاء في المستقبل".

عادت هانهاي إلى حميها، ووصلت إلى خيمته في اليوم السادس، وربطت جوادها بعمود ربط الخيل وتركت الريشة مستندة إلى زاوية الخيمة. فمال البناء الكبير حتى كاد يسقط.

صاح الخان غازار بين "لقد جلبت هذه الريشة سوء الطالع! سوف تهدم خيمتي! خذها بعيداً! أعدها إلى الخان هيرديك!"

"أقم حفل الزفاف وسآخذها". واستدارت هانهاي إلى نالهان تايجي. "لقد أحضرت الريشة، والآن لم يعد والدك يريدها، ويطلب مني أن أعيدها".

"لا حاجة لأن تعيدها بنفسك: اجعلها صغيرة، واربطها بسهمك، وأخبر السهم ما الذي يتوجب فعله".

فعلت هانهاي مثلما شارت عليها عروسها. قالت للسهم "لا تلحق الأذى بالخان هيرديك، فقط أعد الريشة إليه".

فعل السهم كما أُمر وعاد مرة أخرى. في اليوم التالي، تجمع الناس جميعاً من أجل حفل الزفاف عندما صاحت شامان أنثى: "أي شقاوة هذه! لقد جُن خاننا ليُعطي ابنته لامرأة!".

ارتعب الخان وأرسل في طلب غازاري غانيك، البطل، ليختبر العريس في مسابقة. انطلقت هانهاي إلى جوادها. "ماذا أفعل الآن؟ كيف أخفي صدري؟".

"اربطي منديلين حريريين حول ثدييكِ واعقديهما بإحكام بالعرض. سيكون كل شيء جيداً عندها".

"ماذا سأجيب إذا ما سألني الناس لماذا أفعل هذا؟".

"قولي أن جوادك قد جرحكِ، وأنه يجب أن تُبقيه مربوطاً بهذه الطريقة".

لم يبد غازاري، البطل، ثقيلاً أو طويلاً جداً، ولكنه كان قوياً وشديد البأس. نزلت هانهاي عن جوادها، ونزعت رداءها الخارجي ووقفت في سروال مصارع. همس لها جوادها، "سوف أشخر وأُثير غيمة من التراب، عندها تقومين أنتِ بالإمساك به، وتقذفينه عالياً فوق كتفيكِ، ومن ثم تدفعينه عميقاً بداخل الأرض أمامكِ".

عندما خرجت للمصارعة، تساءل الناس: "لماذا تربط صدرك؟".

"لقد جرحني جوادي في الطريق وتوجب علي أن أربط صدري".

قال الناس "من الممكن أن يكون هذا صحيحاً".

تشابك الاثنان، وكانت قواهما متساوية تقريباً. صهل الجواد، وأثار تراباً كثيفاً. فأمسكت هانهاي بغازاري، ورفعته عالياً فوق كتفيها وقذفته إلى الأرض. سقط ورأسه إلى الأسفل، ودخل في الأرض حتى كتفيه. وأمسكت برجليه، وسحبته خارجاً ورمته على أحد جانبيه.

وسألت "أي نوع من الأبطال هذا؟".

كان البطل ثقيلاً جداً، فقامت تسعة خيول بسحبه بعيداً. "أنا أقول إن هذا العريس إمرأة!" صاحت شورغو، الشامان، "فليذهب معها أربعة رجال إلى البحر وليسبحوا معها، وسوف يعلمون آنذاك ماهيتها".

انطلق أربعة رجال إلى نارين دالاي (البحر الضيق). امتطت هانهاي الجواد وانطلقت إلى الشاطئ. كان الرجال في البحر مسبقاً وعندما صارت على مرأى منهم شخر الجواد، فارتفعت الأمواج عالياً فوق الشاطئ وقُذف الرذاذ في كل مكان. قامت هانهاي بنزع ملابسها بينما كانت الأمواج تهدر بجنون: لم يستطع أحد أن يحدد إذا ما كانت رجلاً أم امرأة. سبحت بعيداً جداً عن الشاطئ، وسبحت بسرعة حول الرجال، ومرت بهم ولم يستطع أحد أن يقترب منها أو أن يمسك بها، لقد سبحت بسرعة كبيرة. وأخيراً سبحت مباشرة باتجاه الشاطئ. فصهل الجواد وارتفعت الأمواج عاليةً مرة أخرى. وأحاطت بها الأمواج والرذاذ الكثيف، وقبل أن يخرج الرجال إلى الشاطئ، كانت هي قد خرجت وارتدت ملابسها وامتطت جوادها.

سأل الرجال بعضهم بعضاً "ماذا يجب أن نقول؟ هل يجب أن نقول إنه رجل أم إنها امرأة عندما يسألنا الخان؟"

أجاب أحد الرجال الأربعة "بالطبع قولوا رجل" ووافقوا جميعاً على ذلك.

سأل الخان الرجال الأربعة، "هل العريس رجل أو امرأة؟"

قال الرجال الأربعة "إنه رجل".

ومرة أخرى صاحت شورغو: "هذه امرأة، وليست رجلاً! هذه امرأة، وليست رجلاً!"

قامت هانهاي بواسطة السحر بخلق ذئب رمادي. وفي مكان غير بعيد عن خيمة الخان قطيع من خمسمائة جواد ترعى هناك. وثب الذئب الرمادي على الخيول. وعندما رأت هذا

المخلوق الكبير. ارتعبت وركضت متخبطة إلى الخيمة. أصيب الناس برعب شديد. وكان عليهم أن يلحقوا بالذئب الرمادي ويقتلوه. تُركت شورغو. الشامان. وحيدة. فانسلت هانهاي إلى داخل المكان. وكان برميل كبير من الحليب الرائب في مكان قريب. فأمسكت بالساحرة ووضعت رأسها أولاً في البرميل.

عندما عاد الخان بعد قتل الذئب. أخذ العريس المرأة الشامان من قدميها وحركت بها الحليب كأنها عصا.

سألت هانهاي "كيف هذا؟ بدلاً من الخشب. تمزج الحليب باستخدام امرأة عجوز. تحرك الحليب بأجسام الناس".

قال الخان "إنه لشيء رائع! لقد تركت هذه المرأة حية وبحال جيدة. كيف سقطت بداخل برميل الحليب؟"

"فقال العريس "أعتقد أنها زحفت إلى داخل الحليب خوفاً عندما كان الذئب يجري خلف الخيول".

سأل الخان "ولكن ماذا سأفعل بها الآن؟ كانت هذه المرأة شاماناً: من الممكن أن يظن الناس أني قتلتها. يمكن أن يقولوا هذا".

قالت هانهاي "سيقولون هذا بالتأكيد. لكن أعطني الجواد. وسأمتطيه. وأحمل المرأة العجوز إلى خيمتها في الحال".

أحضر الجواد. فقامت هانهاي. التي دقت مسماراً في كعب كل حذاء من حذاءيها. امتطت الجواد وأخذت المرأة العجوز. تأرجحت شورغو. الشامان. مثل شخص ثمل بينما انطلق الجواد إلى الأمام. عندما وصلت هانهاي إلى خيمة المرأة العجوز. نادت على بنات الشامان الثلاث. "اخرجن وخذن أمكن. إنها ثملة!" ثم وخزت مسماراً في أحد جوانب الجواد بكعبها. ركضت البنات إلى الخارج. قام الجواد. الذي جمح بسبب وخز المسمار. بالقفز جانباً بسرعة. ورمى كلاً من المرأة العجوز والعريس. سقط العريس تحتها. وفقد الإحساس. وبدا كأنه ميت: ركض الجواد عائداً إلى بيته بجنون.

استلقت هانهاي بلا حراك. وانتظرت أن تسمع ما ستقوله الأخوات. بدأن ثلاثتهن بالبكاء. "لو أن أمنا وحدها ماتت لما كان الأمر بهذا السوء. ولكن زوج ابنة الخان قد قُتل الآن. ماذا سيحدث؟ ماذا سيحل بنا؟".

بعد برهة، استعاد العريس وعيه، وقال لبنات المرأة العجوز "يبدو أني فقدت الوعي فقط، ولكن يمكن أن تكون أمكم قد قُتلت".

قالت البنات "لقد كنا نبكي عليك أنت فقط. نستطيع أن نتحمل خسارة أمنا".

عادت هانهاي ماشية على أقدامها إلى خيمة الخان. سُر الخان لتخلصه من شكوك قتل المرأة الشامان. وقالت هانهاي "الآن، أيها الحمو، يجب أن نقيم حفل الزفاف فوراً".

بدأ حفل الزفاف مرة أخرى في الصباح، واستمر تسعة أيام وتسع ليالٍ. "أي هدية ستعطيني؟" سألت البنت أباها، عندما أصبحت جاهزة للعودة إلى الديار مع عريسها.

أعطاها الأب جواداً طوله تسعون قامة له أذنان بارتفاع ثمانية أذرع، وأعطتها الأم كأساً فضية، وأعطاها الأخ منديلاً حريريًا سحرياً، كانت له قوة إعادة الحياة إلى إنسان ميت وجعل الفقير غنياً.

انطلق الشابان إلى ديارهما، وتبعهما الناس. ربطت هانهاي شجرة صنوبر بذيل جوادها، ومضت متقدمة لتتبين أماكن الراحة والانتعاش والتدخين والمخيمات الليلية.

في اليوم السابع كانت هانهاي تقريباً على مرأى من مملكتها المخفية. قبل أن تصل إلى هذه البلاد المغطاة، قالت للزوجة الشابة، «يجب أن أسرع إلى الديار قبلكِ: أنا متأكد من وجود سوء إدارة. يجب أن أرتب الأمور، وأجهّز لاستقبالك. اتبعيني على الأثر». وانطلقت مسرعة إلى الحدود، وأزالت الجدران الحديدية، واختفت القبة الفضية والعشب والغابة.

بعد ذلك، وبدلاً من الذهاب إلى الديار مباشرة، انطلقت هانهاي إلى قبر أخيها عند الجبل الأحمر، ورفعت الجسم، وأخذته معها إلى البيت. لم يكن قد تبقى شيء باستثناء الهيكل العظمي: فوضعته في الخيمة التي سيدخلها كل من العروس، والضيوف الذين تبعوها، فوضعت العظام على الأرض بالقرب من الباب، وحولت نفسها إلى ذبابة، وجلست في الغرفة، وانتظرت.

جاء الضيوف بسرعة. كان والد هانهاي وأمها هرمين جداً فلم يخرجا من الخيمة. دخلت العروس والضيوف، وكان الهيكل العظمي على الأرض أمام العروس.

قالت العروس «كيف نمت بهذه السرعة! وعندما رفعت الغطاء شاهدت الهيكل العظمي، فارتعبت بشدة. كانت هانهاي، التي نزعت ثيابها قبل أن تتحول إلى ذبابة، قد رمت الثياب بالقرب من الهيكل العظمي. كان لدى العروس قوة سحرية عظيمة. «بما أن الأمور هكذا، فيجب أن

أعالجك» فكرت العروس. وداست فوق الهيكل العظمي ثلاث مرات. من ثم أخذت أوراق شجرة عرعر. ووضعتها في الكأس الفضية وأحرقتها. ومشت ثلاث مرات حول العظام بينما كانت الأوراق تحترق. من ثم رمت الأوراق والفحم في النار. وغطت رأس الهيكل العظمي بالكأس مقلوباً رأساً على عقب. من ثم لوحت بمنديلها ثلاث مرات. قائلة في كل مرة قبل أن تلوح بالمنديل: «كم من الوقت قد نمت!». وفي المرة الثالثة التي لوحت فيها نالهان تايجي بالمنديل قفز ألامالدجين قائماً.

وقال «لقد نمت وقتاً طويلاً بطريقة ما». وفوراً أمر الناس أن يحضروا. وأقيمت الولائم للجميع. واستمرت الولائم لتسعة أيام وتسع ليالٍ بفرحة عظيمة.

انسلت الذبابة خارجة من الخيمة. وكانت ثمة غابة غير بعيدة. فطارت هناك. حولت الذبابة نفسها إلى أرنبة برية في تلك الغابة. بعد ثلاثة أيام. خرج ألامالدجين. وبينما كان يبحث عن حيوانات برية. شاهد العديد من آثار أرنبة برية. وقال لنفسه «ثمة أرانب برية في هذا المكان. يجب أن ننصب لها الفخاخ». وذهب لإعداد الفخاخ. في اليوم التالي. نظر إلى فخاخه فوجد أرنبة برية واحدة واقعة في الفخ. ولكنها ما تزال حية.

قال ألامالدجين «انظر أي أرنبة برية لطيفة أمسكت. سوف أروضها وأبقيها كحيوان منزلي» وأخذ الأرنبة البرية إلى الخيمة. بدت الأرنبة البرية مغرمة بنالهان تايجي. وكانت تركض خلفها في كل مكان ذهبت إليه خارج الخيمة.

قال ألامالدجين في أحد الأيام «سأذهب لأرى ما يحدث في المراعي».

بينما كان غائباً. بدأت زوجته في صنع شوبا (عباءة) حريرية. دخلت عليها الأرنبة البرية. وجلست على رجليها الخلفيتين. ونظرت إلى خياطتها. أزعجت هذه المراقبة المرأة الشابة. وقامت أخيراً برمي كماشة على الأرنبة البرية. فجرحت أنفها وخدشته. عندما عاد الزوج كانت الأرنبة البرية تجلس بالقرب من الباب. تساءل ألامالدجين «من الذي ضرب هذه الأرنبة البرية المسكينة؟».

قالت الزوجة «كنت أعمل في الخياطة. فظلت تقترب مني كل حين وتزعجني: فرميتها بكماشة».

«من الأفضل قتل الحيوان المسكين بدلاً من تعذيبه. لماذا تعذبينها؟ لن أسمع بهذا» وبدأ بضرب زوجته. ضرباً مبرحاً.

صرخت نالهان تايجي «لا تضربني! لن أضرب الأرنبة البرية مرة ثانية».

هربت الأرنبة البرية بعدها، هربت إلى الخارج. واستمر ألامالدجين في ضرب زوجته أكثر. وبدأت هي بالبكاء بمرارة. تحولت الأرنبة البرية إلى امرأة وعادت إلى الخيمة.

وصاحت «ماذا تفعل يا أخي؟ هل تضرب الزوجة التي أحضرتها لك؟ لكم عانيت من حماقتك حتى الآن؟ وكم قضيت خلالها؟» من ثم قصت عليه القصة كاملة. حكت له كيف مات أخوها مرتين. وحكت له العجائب. من ثم جيء بالتاراسان والطعام. وكان هناك الكثير من الأحاديث والمتعة.

قالت هانهاي لأخيها في الصباح التالي «لن أبتعد عنك. ابنِ لي خيمة حجرية بيضاء بسقف من الفضة». قام بذلك، وعاشت من بعد ذلك في تلك الخيمة الحجرية البيضاء التي بناها لها ألامالدجين بوغدو.

الأولاد التوائم، ألتين شاغوي ومونغون شاغوي

قبل وقت طويل جداً، عاش الخان هودوي شون مير غين. كانت له زوجة اسمها أغوي نوغون. وكانت له أخت أيضاً، والتي لم نعلم ما هو اسمها.

قال الخان هودوي في أحد الأيام، «سأبني خيمة فسيحة مربعة بيضاء كبيرة».

وبنى لنفسه بيتاً ضخماً، بنى في جزئه العلوي الكثير من النوافذ، وبنى في الجزء السفلي الكثير من الأبواب. كان المبنى الرئيس ذهبياً من الخارج وفضياً من الداخل. وكانت الأجنحة والمباني الخلفية من الفضة.

أقام الخان هودوي ثلاثة وثلاثين سوقاً، وكان يتم فيها تبادل الذهب والفضة بالفراء من جميع الأنواع ثلاث مرات يومياً: كانت تُباع فيها حيوانات السمّور والقندس والقاقوم. وقدقام بالبيع لاثني عشر خاناً آخرين، ولأناس أخرين من ثلاث وسبعين لغة.

كان إلى الجنوب من هذه الخيمة الذهبية عشرة آلاف من الماشية التي ترعى هناك؛ وكان الآلاف والآلاف من الناس تحت سلطته، ويُطيعونه.

كان هودوي يُحب أخته جداً، لذلك بنى لها خيمة رائعة، لها الكثير من النوافذ في الجزء العلوي والكثير من الأبواب في الجزء السفلي. لم تكن تعيش وحيدة في تلك الخيمة الجديدة

الرائعة عندما أتتها زوجة مانغاثاي. كانت هذه المرأة كاذبة ومخادعة. عجوز ذات أنف أفطس. وبدأت بإقناع أخت الخان كي تتزوج من ابنها. مانغاثاي له مائة وثمانية رؤوس.

قالت الأخت «إن أخي صارم جداً. إنه رئيس لثلاثة عشر خاناً؛ ولا أود أن أعصيه. لن يسمح لي بالزواج: يريدني أن أحيا في هذا البيت حيث أنا. وأن أظل بالقرب منه».

ذهبت الأم مبتعدة بعد سماع هذه الكلمات. قالت في سرها «سوف أضع نهاية للخان هودوي». خرجت إلى السهل الواسع. والريف المفتوح. وأحضرت نبتة تجعل من كل إنسان يأكل منها يتورم. ولا تؤذيه خلافاً لذلك.

قالت لأخت الخان «كُلي هذا». فأكلته بحماقة. من ثم بدأت تتورم. وارتعبت بشدة.

قالت المرأة المانغاثي «لا شيء يمكن أن يُشفيكِ أو ينقذكِ. إلا كبد شارا ناغوي (الكلب الأصفر). قولي لأخيك أن يذهب لإحضاره».

ذهبت إلى أخيها. وقالت له «أنا مريضة. مريضة جداً».

سألها الخان هودوي «ماذا رأيت في أحلامكِ؟».

«لقد رأيت في حلم ما أنه يوجد كلب أصفر يعيش خلف تسعة جبال. وأنه إذا ما أكلت من كبده فسأشفى. وإذا لم آكل منه. فسوف استمر في التورم وسأموت بالتأكيد».

قال الأخ «لقد قلت لكِ دائماً. إن شارا ناغوي صديق عظيم لي. كيف يمكن أن تأكلي كبد صديقي؟».

أجابت الأخت «لقد أخبرتك بحلمي».

عادت الأخت إلى بيتها. وامتطى الخان هودوي جواداً أحمر اللون. بطول تسعين قامة وله أذنان بارتفاع ثمانية أذرع: امتطى الخان جواده. وأخذ قوسه وجعبته. ومضى مبتعداً بكل سرعته. استمر في المضي. ولكنه كان ما يزال بعيداً عن مملكة الكلب الأصفر. من ثم حوّل جواده إلى شظية صوان. ووضعها في جيبه. وحول نفسه إلى ذئب. واستمر في الجري. لكن الذئب لم يقدر على الوصول إلى مملكة الكلب الأصفر. سافر حتى وجد أمامه مستنقعاً كبيراً. من ثم حوّل نفسه إلى نسر. واستمر في الطيران. وطار فوق المستنقع الكبير وفوق مرج مبتل. بعد ذلك. حوّل نفسه إلى ثعلب. واستمر في الركض. وركض إلى أبعد من ذلك. ومع ذلك لم يقدر الثعلب على الوصول إلى مملكة الكلب الأصفر.

حينها، اتخذ هودوي شكله الطبيعي مرة أخرى وذهب باتجاه جبل أولان هودا. وهو جبل يبدو وكأنه يلامس السماء. لم يستطع أن يتسلق الجبل، لذلك حاول أن يدور حوله. ولكنه وجد على أحد جوانبه سيلاً من الدم يتدفق أمامه مباشرة. كان هذا الدم من أناس سقطوا وقتلوا أنفسهم في محاولة تسلق ذلك الجبل.

سأل هودوي جواده «كيف سنمر من هذا الجبل؟»

قال الجواد «يجب أن نعود إلى الوراء ثمانين فرسخاً. من ثم سأنطلق إلى الأمام بكل قوتي. ولكن تمسك بي جيداً».

عادا إلى الوراء، وانطلق الجواد إلى الأمام، وقفز، ووصل إلى القمة، وعبر الجبل، ونزل على الجانب الآخر، ومضى مبتعداً. ولكنه لم يستطع أن يصل إلى أرض الكلب الأصفر إلاّ بعد وقت طويل. وصلا أخيراً إلى الحدود، وعبراها. سمعهما الكلب الأصفر يقتربان، وبدأ بمناداتهما، كي يجذبهما، ويسحبهما إليه بسحره.

عندما نادى الكلب الأصفر، ثبت جواد هودوي أقدامه في الأرض وقاوم، وتوقف بكل قوته. عملت الرياح التي سببها الكلب الأصفر على رفع تنانير هودوي فوق رأسه وكادت تقتلعهما. كانت تلك القوة التي تسحبه تمزق الثياب عن جسده. فارتفع عندها على جواده إلى السماء ليُحضر مسامير من هناك. أعطاه حدّادو السماء السبعة مساميرَ، فثبت بها تنانيره على السرج من الخلف والأمام.

بدأ عندها الكلب الأصفر بالنباح، وسُحبت كل المسامير وسقطت خارجة من السرج. وسقطت كل الأشجار في الغابة من حولهم على الأرض من النباح. لم يقدر الجواد على المقاومة أكثر من ذلك. فانطلق إلى الأمام مسرعاً حتى شاهد هودوي فم الكلب الأصفر مفتوحاً أمامه: وكان الفك العلوي يلامس السماء، والفك السفلي على الأرض: فلم يتحرك. سحب هودوي جواده إلى داخل الفم. أمسك بسن علوي بيد ودفع سناً سفلياً بقدمه.

تساءل الكلب الأصفر «لماذا جئت لمقاتلتي؟ لقد كنا أصدقاء، أنت وأنا؛ لهذا السبب سأدعك تعيش».

وضع هودوي في حفرة عميقة، وسكب عليه ماء الحياة، كي يعيش ولا يموت هناك. قال الكلب الأصفر «ابقَ هنا، حتى يأتي ابن لك وينقذك». من ثم وضع حجراً كبيراً وثقيلاً فوق الحفرة وترك هودوي مغطى هناك بأمان.

ثم استدار ناحية الجواد، ووضع كل أشياء هودوي على ظهره، وقال له: «إذا ما كان لسيدك أبناء، أو بنات، خذ هذه الأشياء إليهم».

عاد الجواد إلى دياره، ولكنه لم يجد أحداً هناك باستثناء زوجة هودوي. كانت الأخت قد اختفت: واختفت المنازل أيضاً. كان كل شيء قد اختفى. كان المانغاثي الشاب قد أخذ الأخت والبيوت والماشية والناس، ولم يترك شيئاً خلفه سوى خيمة فقيرة صغيرة، وزوجة هودوي التي كانت تعيش فيها. بعد ذلك بوقت قصير، وُلد لها توأمان، كان ظهراهما من الذهب وكان قلباهما من الفضة. كبرا بسرعة بحيث إنه بعد ثلاثة أيام كان جلد خروف بعمر ثلاث سنوات ضيقاً جداً ليلتف حولهما.

علم المانغاثي بواسطة سحره أن زوجة هودوي قد أنجبت توأمين، وقال: «يجب أن نقتل هذين الطفلين».

طار عقعق إلى داخل الخيمة، وأخبر الأم المسكينة بأن المانغاثي الشرير قادم لقتل طفليها.

أخذت الولدين، ووضعتهما على الجواد الأحمر، مع بعض المؤونة، ومضت مبتعدة إلى الجبل. تركت الولدين على الجبل وعادت إلى بيتها مسرعة. بعد قليل، أتى المانغاثي الشرير إلى خيمتها الصغيرة الرثة.

قال لها «لديك ولدان صغيران، أين هما؟ أين وضَعْتِهما؟».

كانت لدى المرأة نعجة مع حملين توأمين، كانت هذه النعجة آخر ما تبقى من قطيعها، وقد أخذت الحملين التوأمين وأحرقتهما.

صرخ المانغاثي «أخبريني، أين الولدان! » قالت الأم « لقد رميتهما في النار لأنهما كانا مشوهين، لقد وُلدا قبل أوانهما».

«إذا ما كنتِ قد رميتهما في النار، فلا بد أن تكون هنالك عظام باقية، أين هذه العظام؟».

قالت الأم «ها هي»، وأرته عظام الحملين التوأمين الصغيرين.

نظر إليها المانغاثي، وقال لها «هذه عظام حيوان، وليست عظام أطفال» وطرحها أرضاً ليضربها بهراوته بقسوة شديدة.

لم تُخبره بشيء عن ولديها. سوى أن هذه العظام المتفحمة هي عظامهما. عاد المانغاثي إلى بيته. ثم أرسل سبعمائة رجل بسرعة ليبحثوا عنهما في كل مكان. وليفتشوا عن الولدين ويجدوهما بأي ثمن.

بحث الرجال طوال ثلاثة أيام عن الطفلين. وفي اليوم الرابع كانت المجموعة كلها عند أسفل الجبل والطفلان على القمة.

عند منتصف الليل. قال أحد الولدين للآخر «فلننزل إلى الأسفل. فلنأخذ مئونة من هؤلاء الرجال الذين يبحثون عنا».

عندما وصل الولدان أسفل الجبل. كان الرجال السبعمائة نائمين. أخذ الأخوان جوادين مسرجين وسلتين من البومشوي (قشطة ممزوجة مع دقيق الجاودار) وعادا إلى قمة الجبل. أرسلا الجواد الأحمر إلى البيت. وأكلا البومشوي. وانطلقا. ومضيا مبتعدين باتجاه الجنوب: هربا على جوادين صغيرين. لم يستطع الرجال السبعمائة أن يجدوهما. وعادوا بخفي حنين.

استمر الأخوان في المضي حتى وصلا إلى مرج واسع. كان على أحد جوانب المرج كوخ صغير يخرج منه دخان كثيف. ربطا جواديهما بعمود ربط الخيل ودخلا الكوخ. وجدا هناك رجلاً عجوزاً رمادي الشعر وامرأة عجوزاً صغيرة الحجم يجلسان بالقرب من النار. ولكن لم يكن هنالك أطفال.

فقال الرجل والمرأة «نحن بلا أبناء. كونا أنتما ابنينا. ابْنَاء مَنْ أنتما؟ أين وُلدتما؟»

«لقد وُلدنا على أولان هادا. لا نعلم من هو أبونا أو أمنا. ونود أن نكون ابنَيْكُمَا».

أطلق الولدان جواديهما وجلسا ليأكلا. في الصباح التالي. خرجا مع الرجل العجوز لرعاية الخراف. بينما كانا يتبعان الخراف. شاهدا معزة برية تجري عبر الغابة. سأل الأخوان«أي الحيوانات هذه؟»

قال الرجل العجوز «لو كان رجلاً ماهراً في الرماية وأطلق عليها وقتلها. لكانت لحماً جيداً للأكل». «وإذا لم يكن معلما. فسينظر إليها ولا يفعل شيئاً».

في اليوم التالي. صنع العجوز أقواساً وسهاماً. وأعطاها للأخوين التوأمين وقال لهما «ارميا». فرميا. وقتلا الكثير من الماعز. قام الرجل العجوز والمرأة العجوز بتحضير اللحم وطهيه بسعادة.

الفصل الثاني عشر

كان في مكان بعيد في الغابة بيت. سأل الولدان الرجل العجوز والمرأة العجوز «ما هذا؟».

قال العجوزان«يجب ألا ينظر الأولاد الصغار مثلكما بداخل ذلك البيت».

سأل الولدان «لمَ لا؟ يستطيع أي إنسان أن ينظر أو يدخل».

في اليوم التالي، عندما خرجا لرعي الماشية، تركا الخراف، وذهبا إلى داخل البيت. وجدا بالداخل مائتي رجل، نصفهم يبكي، والنصف الآخر يضحك.

سأل الأخوان «لماذا أنتم محبوسون هنا؟ لماذا يضحك بعضكم، ويبكي الآخرون؟»

«الذين يبكون سيأكلهم المانغاثي اليوم، والذين يضحكون سيأكلهم المانغاثي غداً. يأتي المانغاثي كل يوم ليأكل الناس. اذهبا من هنا بسرعة».

قال الولدان «نحن لا نخاف المانغاثي . ماذا تعطوننا إذا ما قتلناه؟»

«سنعطيكم نصف ذهبنا ونصف ماشيتنا».

«سنكون هنا عندما يأتي المانغاثي. أغلقوا الباب، وضعوا عليه عارضة محكمة. لا تدعوه يدخل».

تحول الولدان إلى نحلتين، واحدة فوق الباب، والأخرى عند جانبه. عندما جاء المانغاثي وطرق الباب، أجابه الناس، «لن ندعك تدخل!»

«من علمكم كيف تُبقوني خارجا؟»

«لا أحد».

قال المانغاثي بغضب«إذا لم تسمحوا لي بالدخول من الباب، سأنزل إلى الداخل من خلال المدخنة!»، وبدأ يتسلق صاعداً إلى المدخنة، عندها قامت إحدى النحلتين بالدخول في إحدى أذني المانغاثي، ودخلت الأخرى في الأذن الثانية، ولسعتا دماغه حتى مات بعد عذاب عظيم.

قام المائتا رجل بجمع الحطب، وأحرقوا المانغاثي، ونثروا رماده؛ ثم أحضروا اللحم مع التاراسان، وأقاموا وليمة للولدين. في اليوم التالي، أعطوا الولدين نصف ذهبهم ونصف ماشيتهم، واللذان قاما بإرسال كل هذه الثروة إلى خيمة أمهم. من ثم عادا إلى الرجل العجوز والمرأة العجوز، وقالا لهما:

«نحن ابنَا الخان هودوي، يجب أن نعود إلى والدينا. لا نستطيع أن نعيش معكما بعد».

بكى العجوزان، وتوسّلا. ولكن الأخوين عادا إلى ديارهما على الرغم من دموعهما. فوجدا الذهب في خيمة أمهما، وكانت الماشية ترعى في مرعى قريب.

وسألا أمهما «أين والدنا؟»

قالت الأم: «لقد قُتل والدكما منذ زمن طويل بينما كان بعيداً عن الديار يُقاتل»

«أين قُتل؟»

«لن أخبركما، ما زلتما صغيرين على سماع هذا» قامت بعد ذلك وغلت الحليب لهما، وعندما كان يغلي أمسكا بها، ودفعا يديها داخل الحليب، وقالا لها: «أخبرينا أي هو والدنا» فأخبرتهما بكل ما أخبرها به الجواد الأحمر. قالت أغوي نوغون «إنه في مملكة الكلب الأصفر، حيث يحتجزه حجر كبير»

امتطى الأخوان جواديهما فوراً ومضيا إلى مملكة الكلب الأصفر. عندما أصبحا بالقرب من تلك المملكة العظيمة، سمعهما الكلب الأصفر قادمين وسحبهما إليه بواسطة سحره، وعندما أصبحا قريبين بما فيه الكفاية، سألهما:

«ابْنَا من أنتما؟» فأخبراه. قال الكلب الأصفر «لقد كنت دائماً صديقاً لوالدكما، ولكن أخته أرغمته على المجيء هنا لقتلي، لذلك وضعته في حفرة، ووضعت حجراً ثقيلاً فوقه. أخرَجاهُ من الحفرة، وخُذاهُ إلى ديارِكُما إلى مكانه الخاص»

كان الحجر ثقيلاً جداً. رفعه الكبير من بين التوأمين قليلاً، ورفعه الصغير أكثر، وبمجهود كبير، ومن ثم قاما بدحرجته تماماً على أحد جوانبه. كان منظر والدهما عجيباً. كان شعره قد نما خارج قلنسوته، وخرجت أظافر أصابع قدميه من الحذاء، وخرجت أظافر أصابع يديه من القفازين. كان في الرّمق الأخير من الحياة عندما حرراه.

كان هنالك غراب أسود يطير من الشمال، كان يطير باتجاههم بسرعة كبيرة. عندما صار بقربهم، نادوه: «أحضر ماء الحياة، أحضره بسرعة!»

طار الغراب مبتعداً، وحيثما وجد ماء الحياة، أحضر منه ملء منقاره، وسكبه فوق هودوي. فاستعاد حيويته فوراً، وأصبح شاباً، وهز نفسه ووقف، وسأل «لقد نمت وقتاً طويلاً!»

توسل هودوي إلى الكلب الأصفر أن يذهب معه ومع أبنائه كي يعاقبوا المانغاثي ويقتلوه.

وافق الكلب الأصفر وانطلقوا معاً . عندما صار هودوي بالقرب من دياره، أرسل ابنيه إلى

أمهما. وذهب مع صديقه لملاقاة المانفاشي. وفي مكان غير بعيد عن بيت المانفاشي شاهدا ماشيته. ومن بينها ثور كان قد فقد أحد قرونه وإحدى عينيه في القتال. وقابلا راعيين وسألاهما:

«هل رأيتما أي ماشية غريبة؟ لقد فرت ماشيتنا بعيداً عنا».

لم يجب الراعيان بشيء. فقام هودوي والكلب الأصفر بكسر رقاب هؤلاء الرعاة. وذهب الصديقان إلى أبعد من ذلك. فشاهدا خيول هودوي. ومرة أخرى التقيا براعيين. وسألاهُما هودوي: «هل رأيتما خيولنا؟» ولم يجيبا بشيء. ولقيا مصير الاثنين الآخرين نفسه.

بعد ذلك. التقيا بنساء يسقن سبعين عجلاً صغيراً. ولم تُجب هذه النسوة على أسئلتهما. فَقَتَلاهُنَّ أيضاً.

وعندما أصبح الصديقان بالقرب من المانفاشي. تحوّلا إلى كلبين ضخمين لهما قوة كبيرة. وأصبحا بالممر نفسه. كان كل شيء لامعاً وذا وميض في خيمة المانفاشي. لم يسمع الحراس بدخول الكلبين الغريبين المروعين: فقطع الكلبان رؤوس هؤلاء الحراس. ومن ثم دخلا الخيمة بجرأة.

كان المانفاشي يجلس عند الجانب الأيسر من الغرفة. وكانت زوجته تجلس عند الجانب المقابل. وكانت تعجن جلداً غير مدبوغ. بدأ الكلبان بشمّ المكان.

قال المانفاشي «إنهما كلبان ضخمان. لا بد أنهما ملك لرجل غني. إعطِهما شيئاً ليأكلاه. من الممكن أن يفيدانا إن أطعمناهما».

عندما أُعطي الطعام للكلبين. تقاتلا عليه بوحشية. حاول المانفاشي أن يقوم بتهدئتهما. فطرحاه أرضاً. وانطلق هو خارجاً من البيت. وركض لينقذ نفسه. تبعه الكلبان وهاجماه في الخارج. فمزقه الكلب الأصفر إلى قطع. وأكله حيث قتله. والتهم كل قطعة من جسده.

عندما قضى الكلب الأصفر على المانفاشي. اتخذ الصديقان شكلهما الطبيعي فوراً. وسألا زوجة المانفاشي «الآن. أيهما ستختارين كهدية. أذيال سبعين جواداً. أم سبعين خازوقاً مدبباً؟» لم تجب ولو بكلمة واحدة. فأخذاها من شعرها. وجراها إلى مكان تلتقي فيه ثلاثة طرق. وثبتاها بالمسامير وهي حية على شجرة أرزية كبيرة جداً. وسكبا عليها ماء الحياة. حتى لا تموت من أي عذاب. وتعيش سنوات لا تُحصى. غير قادرة على الموت. من ثم وضعا أمام الشجرة برميلين. وكان على أحدهما سكين أثلم وعلى الآخر مقص بالٍ. وكتبا على الشجرة هذا النقش: «عندما يمر رجل من هنا يجب أن يقطع بالسكين قطعة من جسد هذه المرأة: وعندما تمر امرأة يجب أن تستخدم

في القطع المقص البالي.»

في كل مرة كان يُقطع اللحم من تلك المرأة. كانت تنمو قطعة جديدة بسرعة. آخذة مكان القديمة التي قُطعت بالسكين أو بالمقص.

ساق هودوي كل قطيعه إلى بيته. وعاد معه الكلب الأصفر. وأقاما وليمة كبيرة: بحر من الشراب وجبل من اللحم لكل الحاضرين. من ثم أعطى نصف ماشيته وثرواته للكلب الأصفر. ووجهه إلى دياره مشرّفاً. وقال هودوي «يجب أن نظل أصدقاء. من هذا اليوم فصاعداً. وإلى الأبد».

في اليوم التالي. قام هودوي بجمع كل الناس وقال لهم: «لقد انتصرت على المانغاثي. وهذان هما ولداي». وكان بين الضيوف رجل عجوز له لحية بيضاء تصل إلى ركبتيه. قال الرجل العجوز «سأعطي ولدَيْك اسْمَيْن إذا رغبت في ذلك». أعطاه هودوي الإذن.

«سيكون اسم الأكبر ألتين شاغوي. (غطاء الركبة الذهبي). واسم الأصغر مونغون شاغوي. (غطاء الركبة الفضي)». .وهكذا قضي الأمر.

ملاحظات

ان مجموعتي من أساطير البورات وفلكلورهم صغيرة وعددها قليل . وكان ينبغي لهذا العمل أن ينجز قبل سنوات كثيرة. وقد عثرت على العديد من القصص غير المنتهية وأجزاء من الأساطير. وأنا متأكد من أن مجموعة كبيرة من المواد الفلكلورية المنغولية قد فقدت إلى الأبد في العقود الخمسة المنصرمة. ولا ينبغي أن يهمل جمع فلكلور شعوب العالم المختلفة لأهميته العظيمة. وهو ما يشكل مجموعة الحكمة التي قام بصياغتها البشر غير المتعلمين في كل عصر وأوان. ومثلها مثل اللغة. فإنها ليست نتاج عقل واحد أو مجموعة عقول. بل كل تلك المجاميع التي تشكل الإنسانية. ولأنه ليست هناك أمة أو قبيلة أو مجموعة من البشر دون لغة. فكذلك الفلكلور وهو بالمعنى الواسع ثمرة النشاط العقلي للبشر قبل أن يغيرهم ويعدلهم ما يسمى بالتربية. وهي تمثل ديانتهم وفلسفتهم وآدابهم. إذا جاز لنا استخدام هذا المصطلح للإشارة إلى شعب لم يألف الكتابة.

لقد ظهر مصطلح (فلكلور) أول مرة في عام 1846. وقد قال السيد توماس في رسالة كتبها إلى مجلة (لندن اثياناوم) المؤرخة في الثاني عشر من أغسطس (آب) من تلك السنة

وموقعة باسم أمبروز مارتن اقترح المصطلح قائلاً (تذكر إنني أطالب بشرف إدخال مصطلح الفلكلور كما فعل د. دزرائيلي عندما أدخل مصطلح "موطن الآباء" إلى أدب هذا البلد). ولا أعتقد أن للمصطلح معادلاً دقيقاً في أي لغة: والمفردات الموجودة في تلك اللغات تشير إلى القصص والحكايات فقط. كالمفردة الألمانية märchen والفرنسية contes والروسية skazŕi والبوهيمية pobadki والمجرية mések. لا أعتقد أن أي لغة غير الإنجليزية تمتلك مفردة تصنف مجمل نتاج النشاط العقلي للأشخاص غير المتعلمين. وللروس مصطلح يشبه المصطلح الإنجليزي وهو navodnot tvorchestvo والذي يقصد به إبداع الناس وذلك التعبير يصف نشاطاً في حين أن مصطلحنا يشير إلى نتاج ذلك النشاط.

إن فلكلور الأمم الماضية العظيمة كالإغريق والرومان قد شاع عندنا بشكله الشعبي. والذي يمكننا الوصول إليه عن طريق الاستنتاج فيما هو محفوظ في الأدب والدين والفن. أما الفلكلور الكلتي والتيوتوني والسلافي فقد وصلنا محفوظاً في صدور الناس غير المتعلمين. وقد دخل الفلكلور الكلتي من المصادر الايرلندية والويلزية شعر أوروبا الغربية وآدابها. وقد أثّر الفلكلور الألماني على الآداب الوطنية والموسيقية. ومن محاسن الصدف أن إيسلندا حفظت الفرع الاسكندنافي من الفلكلور التيوتوني. وحفظ في الحقيقة في أكثر أشكاله تطوراً. وهو يقترب في نضجه من الأساطير الاغريقية أكثر من أي فلكلور آخر في أوروبا.

أما الفلكلور الآري للهند فقد حفظ في الفيديز والقصائد العظيمة (الماهابهاراتا والراميانا) ويتوافر في المعارف والمعتقدات التقليدية الفنية. ولم يجمع إلاّ جزء يسير منه. أما ما هو موجود في بلاد فارس بالشكل الحديث فهو غير معروف. ويعد كتاب (الشاهنامة) أو (كتاب الملوك) المصدر الأساس.

أما السلافيون وهم أكثر الشعوب الآرية عدداً في أوروبا فيمثلون أكثر الحقول إمتاعاً لفقهاء اللغة. ولا يوجد أي عرق على الأرض يمتلك مخزوناً أكثر جمالاً من فلكلورهم.

وعلى الرغم من أن دراسة الفلكلور مهمة من عدة نواح إلاّ أنها عندما تدرس مع اللغة تقدم لنا وثيقة تاريخية للعقل البشري. ولما يمثل أهم نتاجاته دون شك وهو الأديان. ونقصد بالأديان هنا نظريات الكون وموضع الإنسان فيه.

إن الأساطير الخمس الأولى في هذا الكتاب لا يعدها المفول أساطير بل وصفاً صحيحاً للخلق. وتدميراً للمخلوقات الشريرة وتحضيراً للعالم وتهيئته للسكان الحاليين. وتمثل هذه

الأساطير عند البورات الوثنيين ما يمثله الإنجيل للشعوب المسيحية. والخالق هو إيسيج مالان: ولكي يدمر المخلوقات الضارة التي تعيش في الأرض يترك حفيده جسير بوغدو السماء [وينزل إلى الأرض] ويولد من امرأة . ويُخلق البطل الحديدي لكي يساعد جسير بوغدو. وعندما تطهر الأرض ويسكنها البشر يظهر عندئذ منديو.

منديو قوبان نويان

إن قصة ولادة منديو قوبان نويان الذي كان أبوه أحد التانجيرين الخمسة والخمسين ممتعة ولها ما يوازيها في الأساطير.فروح الإله تدخل في حبة بَرَد تسقط على الأرض وتتبعها ميلوك شين. وفي إحدى روايات هذه الأسطورة، تسقط حبة البرد على رأس ميلوك شين. وفي الوقت المحدد يولد ابن. وهذا الابن من أصل تانجيري سماوي يؤسس الديانة المنغولية. ويعلم الناس ويثقفهم فيما يخص العبادات، ولمن يصلّون. وما هي القرابين التي تتقبلها الآلهة. ويقوم بتقديس أول شامان، وتنصيبه، كما يعلمهم كيفية تقديم القرابين.

في الأساطير الإغريقية، هيلينا بطلة طروادة هي ابنة ليدا وزيوس إله السماء بكل ألقها. وبعد وفاة ليدا رفعت إلى مصاف الآلهة. ولم يمنح هذا الشرف إلى ميلوك شين، ولكن ابنها الإله، أو على الأقل، يرفع الدعاء له، ومن المفترض أن يلبيه.

وبين الهنود الفونكن [الهنود الحمر في أمريكا] هناك أسطورة عن الفتاة الأرض التي تصبح أما عندما تنظر إليها الشمس، وترزق بفتاة تسمى واكس إيكوي، أي المرأة الثعلبة. وبعد فترة من الزمن تلد واكس إيكوي بطلاً عظيماً، وهو المحسن أو فاعل الخير إلى الأشخاص الأصليين في أمريكا، أو واهب الطعام. ولم يتغير اسم هذا المحسن أو نُسي معناه فهو يعرف بكونه ذلك الهواء الحار الذي نراه يرجرج ويتأرجح يرقص فوق الحقول و الأرض في الجو الجميل. وهو الهواء الحار الراقص نفسه الذي أعطته الأم الأرض إلى ايسيج مالان.

حرق الموتى

من المؤكد أنه في وقت ما كانت هناك في الأساطير المنغولية أسطورة طويلة عن طائر الوقواق والتي بالإمكان من خلالها أن نتعرف لماذا ارتبط هذا الطائر بحرق الموتى . ومن الوقت الذي يتوقف فيه هذا الطائر عن التغريد في أغسطس/آب حتى سماع أول أغنية له في الربيع. لا تحرق أية جثة. ولا يعرف المنغوليون سبباً لهذا. وعندما طرحت أسئلة بهذا الخصوص على رجال

كبار في السن في أرض البورات كانت الإجابة دائماً هي نفسها "لقد علمتنا منديو قوبان متى وكيف نحرق موتانا".

يظهر طائر الوقواق في عدد كبير من الأساطير في هذا الكتاب. وعلى الأغلب الأعم يرتبط ببعث الموتى إلى الحياة. وعندما يُقتل البطل الحديدي ويرمي في البحر الأسود الضبابي. يظهر طائر الوقواق وأمام قوته يختفي البحر. وعندما يؤخذ الهيكل العظمي من الكفن. يغني الطائر وهو يتحرك حوله. وعندما يصل الرأس في المرة الثانية ينتصب البطل الحديدي واقفاً على قدميه. وعندما تحاول هاناي أن تبعث الحياة في أوصال أخيها. تقرأ في كتابها أنه يجب عليها أن تستعين بطائر وقواق معين لمساعدتها.

لا يطلق البورات النار على طائر الوقواق أو يقتلونه قط.

نجمة الصباح

كانت هناك أسطورة منغولية عن سولوبينـج يوبون. أو نجمة الصباح. ولكن بقدر ما حاولت جاهداً أن أعثر على القصة كاملة. لم أجد الا أجزاء منها.

وفي النظام الديني للبورات. تعد نجمة الصباح شخصاً ذا أهمية كبيرة. فهو ابن الخالق إيسيج مالان. وسولو بينـج يوبون خيّر وطيب. واذا تقرب الناس اليه بشكل مقبول فانه سيزيد من غلالهم وماشيتهم. ولكن القرابين يجب أن تقدم اليه فجراً. والرقص الذي يقدم له يجب أن يستمر من غروب الشمس حتى شروقها.

وسولو بينـج يوبون أو ما يعادله عند اللاتين بالزهرة يتمتع بسمات في الأساطير المنغولية لها ما يعادلها في الأساطير الهندية (الأمريكية) وخصوصاً عند قبائل المودوك والديلاورين. وللمو دوك قصة طويلة تحتوي على مواد مهمة. ففي هذه القصة تظهر نجمة الصباح كروح مرافقة للشمس. [مقدمة "أساطير وفلكلور الروس والسلاف الغربيين والمجريين"].

وفي أساطير الديلاوريين تساعد نجمة الصباح الناس بجلب ضوء النهار بسرعة. وفي أساطير أليانا فإنّ نجمة الصباح [هلاي آنا] ونجمة المساء [باياوا] بنتا وكارا. أي القمر الجديد ["أساطير الخلق عند الأمريكيين البدائيين"].

قصة شامان

يعتقد البورات بأن بوسع الروح أن تغادر الجسد وترجع اليه، حتى بعد أن تكون بعيدة عنه بضعة أيام. وعدد كبير من قبائلنا الهندية لهم الاعتقاد نفسه. وعندما كنتُ في منطقة للهنود الحمر، أخبرني رجل عجوز من قبيلة السوك عن عدد كبير من الأقطار التي زارها "مع روحه"، مضيفاً بأن روحه لم تكن سعيدة عندما غادرت جسده، لأنها خشيت أن يحدث شيء للجسد، وأنها لن تتمكن من العودة إليه. وفي الهند ينتشر هذا الاعتقاد بين الشعوب المختلفة، ويأتي "رجل حكيم" ويقول "إنني ذاهب إلى القرية الفلانية أو المدينة العلانية". ويكتشف أين سيكون جسده آمناً، ويضطجع ويبدو في الظاهر أنه نائم، ثم تغادر الروحُ الجسدَ، وتقوم بالرحلة ثم ترجع. وعندما يستيقظ الرجل يصف الأماكن التي لم يعرف عنها شيئاً قبل زيارة روحه إليها في رحلته. ولا يحبذ الملاويون إيقاظ النائم حتى لا يؤذونه بإزعاج جسده عندما تكون الروح بعيدة.

دفن الموتى عند البورات

بعد ثلاثة أيام من الوفاة تبقى الروح قريبة من الجسد، وتحس بالوحدة والحزن، وتشعر بالأسى لمغادرة عالم الأحياء. ويعتقد البورات بأنه عند وفاة أم ما، فإنّ روحها تحوم حول الجبال وترجع إلى بيتها بين الحين والآخر. وقد لاحظ البروفيسور موني من مكتب الأعراق البشرية اعتقاداً شبيهاً بهذا لدى هنود الجيروكي (مجلة الفلكلور الأمريكي، المجلد الثالث عشر) "عندما يموت أحد أفراد العائلة، يُعتقد بأن روحه تكره مغادرة مشاهد الحياة ومناظرها وتحبذ الذهاب في رحلة طويلة إلى الأرض المظلمة في الغرب".

جسير بوغدو

إن فكرة وجود حياة الأنسان في موضع ووجود جسده في موضع آخر شائعة في عدد كبير من الأساطير. وفي الحكايات المنغولية، لا يموت الإنسان حتى لو قتل أو قُطع حتى يتم العثور على حياته وتدميرها. وهذه الفكرة تتغلغل في الأساطير البوراتية كلها، باستثناء قلة قليلة من الأساطير.

ويمكن العثور على المفهوم نفسه في الأساطير الكلتية والسلافية. وهناك أسطورة روسية معروفة باسم "كشتشي بدون الموت". لم يكن كشتشي غير قابل للموت، بل كان موته في العالم "في مكان بعيد عنه". وهناك توضيح جيد لهذه الفكرة في "فقير تشاند" في "فلكلور البنغال". من تأليف القسيس لال بيهاري دي، وكذلك في "رعي قطمان كورشان" في "حكايات الأبطال

وفلكلور من أرجشاير " من تأليف د. ماكينز. وفي الحكاية النرويجية " البطل الذي لم يكن له قلب في جسده ".

وترد الفكرة غالباً في أساطير الهنود الحمر الأمريكيين. ويمكن تفسيرها بأن هذه الحكايات تتعامل مع مغامرات أبطال من غير البشر. ومهما كانت أسماء هؤلاء الأبطال في الوقت الحاضر. فإنّ الأبطال الأصليين لم يكونوا بشراً.

وتلقي الأساطير الهندية الضوء على هذه الفكرة. فهناك أساطير لا تزال تحفظ الأسماء البدائية للأشخاص. وفي أسطورة قصّها عليّ أحد الهنود الحمر من قبيلة ورم سبرينغ من ولاية أوريغون. كان الصراع بين ريح الشمال وريح الجنوب. وفي أسطورة لقبائل الونتو. فإنّ البطلين هما المطر والثلج.

وهناك أسطورة جميلة شائعة بين هنود المودوك الذين يعيشون بالقرب من بحيرة كالاماث. والشخصية الرئيسة هي الشتاء أو "صانع الثلج" الذي يحتفظ بقلبه مُخَبَّأ على بُعْد. ويعثر عدو الشتاء على القلب. وهذا العدو هو الحرارة. ويقوم هذا العدو بحرق صانع الثلج ويموت.

وعندما يكون الأبطال الحقيقيون معروفين فإنّ الأسطورة تكون صحيحة ودقيقة. وعندما ينظر إلى الأبطال باعتبارهم رجالاً ونساءً. فانهم يؤدون أعمالاً خارقة ومستحيلة. وهي أفعال لا يقدر على تنفيذها غير قوة من قوى الطبيعة. إذا تمتعت تلك القوة بارادة البشر ورغباتهم.

البطل الحديدي

إن الصراعات المريرة التي يخوضها أبطال الأساطير البوراتية تشبه إلى حد بعيد أساطير الكلتيين. وغالباً ما يقاتل ا بطال الأساطير البوراتية تسعة أيام بلياليها. ويمزقون اللحم كله من ظهور بعضهم البعض بأيدهم. ويمزقون اللحم من صدورهم بأسنانهم. وحيثما تحط أقدامهم يثيرون الغبار في الأرض بما يساوي حجم عجل. ويخلقون تلالاً وودياناً. "حيث كان هناك تلّ أصبح وادياً. وحيث ما كان هناك واد. أصبح تلاً".

يقاتل الأبطال الفيليون حتى تصبح الأرض الصلبة رخوة. والأرض الرخوة صلبة ويجعلون عاليها سافلها. وسافلها عاليها. ويفجرون البنابيع الباردة في الأرض المغطاة بالحجر. وتنطلق كتل من الطين بحجم الثور تحت أقدامهم وتستمر المعركة عادةً يوماً واحداً وسنة. وكل يوم عبارة عن صراع مرير.

وفي الأساطير الهندية، لا تقرر المعارك الصراع على السلطة، كما هو الحال في الأساطير الآرية والمنغولية، بل باختبار المهارات والقوة والبراعة، حيث يراهن المتنافسون دائماً على رؤوسهم، وعند الخسارة يقطع رأس الطرف الخاسر.

هونكوفاي

تعد حكمة الفرس إحدى السمات البارزة للأساطير البوراتية وهي في حالات عديدة استجابة للدعاء والصلوات التي ترسل من السماء. وهذه الفحول الرائعة للأساطير البوراتية تختلف في بعض النواحي عند الجياد المطهمة في الأساطير الآرية، فهي تتمتع بالشكل نفسه دائماً، في حين أنها تكون في الأساطير الآرية، إما مجرد مهر أجرب وبائس أو فرس أشعث ذي قوائم معوجة عندما يؤخذ من الإصطبل أو المرعى، ولا تتجلى قوته الهائلة وجماله الأخاذ إلا في ساحة الوغى.

والفحل الذي تهبه آلهة البورات عظيم الحجم وينطلق بسرعة فائقة بحيث يستطيع أن يقطع في يوم واحد مسافة بعيدة بحيث إن طفلاً في الخامسة من عمره سيكون في الستين في نهاية الرحلة، أما الشخص البالغ فسيموت أثناء الرحلة دون أن يكملها.

وفي بعض الأحيان، يتنبأ الجواد بموت صاحبه، فيحذره من ذلك.

والفرس التي يمتطيها البطل الحديدي توصف دوماً بأنها «فرس سماوية زرقاء». وفي معظم الأحيان يذكر لون الفحل، وغالباً ما يكون أزرق أو أحمر.

وكانت هذه على الأرجح غيوماً في الأصل . وفي الأساطير المجرية فإنّ طعام الفحل هو عبارة عن حجر محترق. وهناك تأكيد لا ريب فيه بأن الفرس هو البرق. وهو هذا النمط من الجياد الذي حمل ابن الملك كونور إلى قصر سترايكر، وهو موضع يتعذر على أي سفينة الوصول إليه («حكايات الأبطال الإيرلنديين»).

البعث إلى الحياة

بعث البشر إلى الحياة فعل عادي في الأساطير المنغولية وغيرها، وحيثما تكون هناك مئات الهياكل العظمية وأكوام من العظام الجافة، فإنّ البطل المنغولي ينثر ماء الحياة ويرشه عليها، ويؤخذ من نبع قريب من شجرة حور رجراجة ذات أغصان فضية، وحالاً تتخذ العظام

هيئتها الأصلية وتكسى باللحم. وينهض الرجال لكي يباركوا الشخص الذي أحسن إليهم. وعندما يُقتل البطل نفسه. فإنّ إعادة الحياة إليه تكون أكثر صعوبة: حيث يتوجب على الزوجة أو الأخت أو الصديق أن يصلي إلى البوركانات السماوية. وغالباً ما يكون ماء الحياة بعيداً. وللحصول عليه. ينبغي أن يسير المرء في رحلة طويلة وخطرة.و عادة ما يمد يد المساعدة في هذا الموقف طائر الوقواق. فهو يغني حول الجسد بادئاً من القدمين. وعندما يصل الرأس يبدأ اللحم باكساء الهيكل العظمي. وفي المرة الثانية يدخل النَفَسُ الجسد. وعندما يصل الرأس للمرة الثالثة. ينتفض البطل على قدميه قائماً.

وفي الأساطير الفيلية. إن كان البطل قد مات منذ زمن بعيد. فإنّ العظام تجمع. وإن أصبحت العظام رميماً. فإنها تجمع. ويقوم شخص بلمس العظام أو الرمم بعصا سحرية. وعندها ينهض البطل على الفور قوياً وصنديداً كمهده.

وفي الأساطير الهندية لقبائل أوركو. تكون عظام المئات أو الآلاف من البشر في كومة واحدة. ويقوم البطل بدفع شجرة جوز قريبة وكأنه سيلقيها عليهم. وهو يصرخ قائلاً: «إنهضوا! إنهضوا! وإلا ستقع الشجرة عليكم». وعندئذ. تتخذ العظام أشكالها السابقة وتكسى باللحم وتنهض حالاً. وتشكر فاعل الخير على فعلته ويعود كل شخص إلى دياره.

أما عند هنود اليانا في ولاية كاليفورنيا. فهناك طرق عديدة لإعادة الحياة. ويتم هذا أحياناً عن طريق ركل الجثة أو قلبها بالقدم. أو أحياناً أخرى بسلق شعرة واحدة أو سلق القلب. وغالباً ما ينجز العمل بضربة من غصن من أغصان شجرة الورد الحمراء.

وفي أساطير المودوك عندما تكون قد انقضت ساعة أو ربما أيام عل وفاة البطل. فإنّ نجمة الصباح تناديه قائلاً: «إنهض! إنهض! لماذا تنام طويلاً؟».

العالم قبل هذا العالم

في الأساطير المنغولية نجد مفهوم "العالم قبل هذا العالم". وهذا مفهوم شائع في أساطير الخلق عند هنود ساحل المحيط الهادئ. حيث ترد الفكرة بشكل تفصيلي وجميل. ولكن" أوائل الناس" هو الشائع عند قبائل الونتو واليانا والقبائل الهندية الأخرى والمكسيكية. أما الناس الذين عاشوا في ذلك "العالم قبل العالم" لا يشبهون " الناس الأوائل" عند البوراتيين. فعند الهنود عاش الناس الأوائل دهوراً لا تعد ولا تحصى في تناغم وانسجام تامين. ثم طرأ تغيير بشكل تدريجي. وانتشر الشقاق وبمرور الوقت تحوّل إلى صراع. وأصبح سامأ حتى تحول معظم الناس

الأوائل إلى مخلوقات حية كالبهائم والوحوش والطيور والحشرات والأشجار والنباتات ...إلخ والتي تسكن الأرض الآن أو سبق لها أن كانت على وجه البسيطة. باستثناء أعداد قليلة جداً.

يلتقي الخصمان ويبدآن بالصراع. وعندما ينتصر طرف. يقول للطرف المغلوب " من الآن فصاعداً لن تكون إلا... " ويذكر ما سيكون عليه هذا الخصم. وحالاً يحدث التغيير.

أما عند المغول. فإنّ الناس الأوائل كانوا أشراراً بحيث إن الخالق إيسيج مالان وحفيده جسير بوغدو قررا تدميرهم. وفي مثلٍ واحد أو مثلين يتم التدمير بالطريقة نفسها التي توصف عند الأساطير الهندية. وكمثال على ذلك. فإنّ جسير بوغدو ينزع كل القوى التي يتمتع بها الغراب ويحوله من شخصية عظيمة الشأن إلى مخلوق حقير ووضيع وهو ما عليه في أيامنا هذه. قائلاً له: "من الآن فصاعداً ستكون مخلوقاً تافهاً وهزيلاً ولن تتمكن من إلحاق الأذى بالناس." ولم يكن الناس الأوائل من المغول بل كانوا من "المورات" و"المانغاثي" وهي أرواح شريرة.

ألتين شاغوي

تتفق الأساطير المنغولية والآرية والهندية في أسلوب تعامل الأب مع الشخص الذي يروم الزواج من ابنته. أما في الأساطير الفيلية. فإن طالب يد الفتاة يكلف أعمالاً ومهماتٍ مثل تسقيف زريبة الحيوانات بريش الطير بحيث تكون ساق كل ريشة متجهةً نحو الداخل في حين أن طرف الريشة يتجه إلى الخارج. أو يكلف العريس بالقبض على فرسٍ لم ترَ الأرض أو الريح ... (حكايات الأبطال والفلكلور من أرجالشير). وفي الأساطير المنغولية يرسل طالب يد الفتاة في رحلاتٍ خطيرة لينجز ما يبدو أنه أمورٌ مستحيلةٌ.

وفي الأساطير الهندية يكلف الحمو زوج البنت الجديد بهذه المهام.



نبذة عن المترجم:

حصل على شهادة البكالوريوس (امتياز) في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة الموصل عام 1975.

حصل على شهادتي الماجستير في الآداب وتدريس اللغة الإنجليزية (1981-1982) (M.A. & M.A.T.) والدكتوراه في النقد الأدبي (1983) من جامعة إنديانا في الولايات المتحدة الأمريكية.

درّس في أمريكا وبعض الدول العربية وعمل عميداً لكلية الآداب بجامعة الاتحاد ورئيساً لقسم اللغة الإنجليزية والترجمة في جامعات عربية عدّة.

من مؤلفاته:

النقد التطبيقي التحليلي (بغداد، دار الشؤون الثقافية، 1986)، لونجين والجرجاني: دراسة تاريخية مقارنة (العين، مركز زايد للتراث والتاريخ، 2000).

Catharsis in Literature (Bloomington, (Indiana, Indiana Univ. Press, 1989).

A Comparative Study of Longinus and Al-Jurjani: The Interrelationships Between Medieval Arabic Criticism and Graeco-Roman Poetics (New York, Edwin Mellen Press, 2004).

من ترجماته:

ليليان فيرست، الرومانتيكية (الموصل، 1978).

جيكوب برونسكي، العلم والقيم الإنسانية (بغداد، 1990).

ت. س إليوت، الأرض الخراب (القاهرة، 2006).

Ibn al Arif, Attractions of Mystical Sessions Bucks: Avebury, 1980 with Dr. William Elliott.



رحلة إلى جنوب سيبيريا

في مطلع القرن العشرين سافر جيرمايا كيرتن إلى وسط سيبيريا بهدف دراسة عقيدة شعب «البورات» وثقافتهم الشعبية. كان قد أنهى كتاباً تأريخياً عن المغول وأراد أن يرى عن كثب آخر المتبقين من ذلك الشعب الذي اجتاح في الماضي رقعة كبيرة من آسيا وأوروبا والهند وسيطر عليها. والنتيجة رحلة مشوّقة يستعرض فيها المؤلف في البداية المناطق السيبيرية الواقعة تحت السيطرة القيصرية الروسية ويصف أحوالها وطبيعتها وسكانها، ثم ينتقل إلى شعب «البورات» مسجلاً جزءاً كبيراً من أساطيرهم وحكاياتهم التي باتت اليوم طي النسيان.



ISBN 978-9948-01-318-1

كلمة

KALIMA